انبعاث في أغوار الجبال

رواية

يحيى سلو

انبعاث في أغوار الجبال

المؤلف: يحيى سلو

الطبعة الأولي : أغسطس 2017

رقم الإيداع : 2017/17511

الترقيم الدولي : 978-977-769-194-9

جميع حقوق الطبع محفوظه

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com

القاهرة – 2 شارع شريف

– الدور الخامس – مكتب 57

م : 01010490247

ت : 23963002(02)

تنويه وشكر

بدأت بكتابة هذه الرواية في خريف عام 1998 في جبل قنديل (وادي كوكى)، وانتهيت منها في نهاية عام 1999، إلا أنها بقيت طوال السنين اللاحقة مخطوطة، لم تتسنَّ لها الظروف المساعدة للنشر، وها قد مضى عليها ما يزيد على عقدٍ ونيِّف، لتتلمَّس طريقها إلى أيدي القُرَّاء.

كل الشكر للأصدقاء الذين بذلوا جهودهم، سواء في المراجعة أو التدقيق اللغوي أو الإخراج الفني.

- 1 -

«هركول» الجبل العجوز لا يزال شاهقاً في شموخه كغيره من جبال بوطان، هذا الجبل الهرم يمتد على شكل هلال مسافة ليلتين سيراً على الأقدام، جبل كسائر جبال كردستان، بركاني.. صخري.. تتخلله وديان عميقة، قممه جرداء، عدا بعض الأشجار الشوكية الأوراق المتناثرة.. واخضرار بعض الأعشاب والشوكيات.. تسمى هذه المرتفعات التي تعانق السماء باللهجة المحلية الـ«زوزان»[1]، تقصدها عشائر الكرد البدو مع قطعانهم في موسم ذوبان الثلوج.

«هركَول» مصيف الأمراء، كل شيء فيه جميل وموحش في آنٍ واحدٍ، كان يقصد سهوبَ قممه أُمراءُ بوطان، على رأسهم البـدرخانيون، حكّام جزيرة بوطان في القرن التاسع عشر، حيث كان أحد معاقل ثوار انتفاضاتهم.. ومن ثم دخل هذا الجبل في نفق مزيجٍ محير، ما بين

---

(1) زوزان - Zozan: اسم يطلق على القمم والمرتفعات التي تقدر ارتفاعها عن سطح البحر على الأقل بثلاثة آلاف متر.. تلك القمم المغطاة في أغلب أشهر السنة بالثلوج، في أواخر الربيع عندما تذوب الثلوج، تلك المرتفعات تكون مراتع مثالية لقطعان الماشية.. حيث الماء الوفير والأعشاب والخضار والهواء النظيف.. تصعد عشائر البدو التي تعرف بالـ«گُوجر كردياً»، بقطعانها إليها، مبتعدين عن القيظِ في الوديان والسهول صيفاً.

روحية العصيان وتداخلها مع طابع مجموعات وعصابات من المحكومين وقطاعي الطرق ومجرمي الدم والثأر، مزيجٌ من الرجولة الجبلية والثأر البدائي، وتداخلها مع صورٍ إنسانية كالبؤس والشقاء، كالحق والباطل.

ثنايا القمم وسفوحها مكتظة بالفوهات البركانية التي تحجرت مع الزمن، فوهات لا تعد ولا تحصى، تخرج من فوهة لتنزل إلى الأخرى، نتيجة ذوبان الثلوج تتشكل في فوهات قممه برك عملاقة، بركٌ هادئة تعكس مشهد السماء بلوحات بديعة، تلك الجروف العملاقة المفتوحة مع صديقاتها من خلال شقوق الصخور وأنفاقٍ جهنمية، بعضها توحي كأنها شوارع وأزقة مهيبة، هو مظهر الصراحة والعظمة في هذا الجبل، في قممه تظل تُرى الجبال، متألقة الذرى تحت أشعة الشمس هاربة عند الأفق.

أحياناً، ساعاتٌ من المسير لا تطأ قدماك التراب، تخطو فوق الصخور وكأنها مرصوصة كالبلاط، مختلفة الأحجام، كل صخرة منها صارعت جحيم تقلبات الطقس، ترك الزمن آثاره عليها، كل واحدة منها مأثرة أو ملحمة بحد ذاتها، تصارع السنين كوجوه عجائز.

ها هو هركَول والذكريات ظاهرة عليه، إلى درجة أن تتخيل أشكال صخور قممه أنقاض مدينة ضربها زلزالٌ مدمر، بقايا الأطلال هذه ما هي إلا شهادة على عظمة الملاحم التي عايشها.

من صدر قمته نزولا إلى قاعدته، باتجاه الغابة التي تعانق أشجارها القمم المتدرجة بوعورة نزولاً باتجاه الجنوب الغربي، وبنظرة جيولوجية

يتضح بأن فوران فوهاته البركانية، والسيلان وما قذفت به من حمم تمت باتجاه مدينة آروه، أما جهة الشمال والشمال الشرقي، فهي انحدارية بشكلٍ حاد كجدران قلعة عملاقة تعرضت للتآكل، وعند أسفل الجدار إلى الشمال يبدأ سهل برواري، أما الشمال الشرقي فهو آخر معقل لانتفاضة الـبدرخانيين، حيث جبل كَور قنديل على حافة نهر برواري إلى الجهة الشرقية يطل آخر معقل الــبدرخانيين، قرية (أوراخ) وقلعتها المشهورة، أما في الجهة الغربية منه، فهنالك الطريق الإسفلتي القادم من مدينة سيرت، بعد المرور ببلدة شيروان، ليتابع من فوق جسر يعبر نهر بوطان إلى سهل برواري، قبل الوصول إلى المدينة عند طريق ترابي، ليتفرع إلى القرى المتناثرة حول هركَول من جهاته الثلاث، أحيانا يخترق بعضاً من المرتفعات والوديان في صعودٍ وهبوطٍ، بانحناءاتٍ والتواءاتٍ، تظهر من بعض قممه كأنها التواءات أفعى عملاقة.

سيرت أو سعرد المدينة التاريخية، المطلة على نهر بوطان من الجهة الغربية، هي المركز العام لبلدات وقرى المنطقة، تغيرت المدينة وضاقت بالناس، واتسعت الشوارع، وظلت العمارات والأبنية ترتفع وتتسع بصورة عشوائية في كل الاتجاهات، حتى بدأ يختفي المدى في بحر حلكتها.

كتداخل الطبيعة الجبلية وشبه السهلية التي تخترقها الأنهار والجداول،

---

(1) حماة القرى: مع انطلاقة الكفاح المسلح في شمال كردستان (تركيا)، قامت السلطات العسكرية التركية بتشكيل ميليشيات عسكرية مرتزقة من السكان الكرد المحليين، سميت بالتركية (Köy Korucu)، لحماية قراهم من دخول الثوار إليها، ولتساندهم في حملات التمشيط، وأثناء المواجهات العسكرية.

تتداخل من حولها القرى التي فيها تشكيلات «حماة القرى»[1]، أما الذين رفضوا الانصياع لحمل السلاح، فيوصفون بـ (الإرهابيين) الثوار.

كما كان هركَول القلعة الطبيعية، يأخذ مكانه في كافة الانتفاضات التي تفجرت في المنطقة، مكانه الطبيعي كجزء من الوطن يفرض عليه ذلك، ها هو مجدداً معقل من معاقل الثوار، البارحة خدم البدرخانيون ومن قبله بير زيدين، خلف الشوفي، الشيخ عبدالرحمن الخرخوري[1] وغيرهم.. الذين تحولت بطولاتهم إلى ملاحم وأغان لا يزال أبناء المنطقة والوطن يرددونها كالأناشيد الوطنية، يستمدون منها الروح الوطنية والقومية.

انتفاضة تلو الأخرى، وكأن هركَول قد أقسم ألا يهدأ، إلى أن تتزين قممه براية الحرية.

بدأ الربيع بكل عنفوانه.. مَنْ لم يعش فصل الربيع في كردستان، ولم يشاهده بأم عينيه، يكاد يستحيل عليه أن يعرف رونق وجمال الربيع على حقيقته، صحيح أن الربيع جميل وبهيج في كل مكان، لكن ربيع كردستان شيءٌ آخر، من تخيلَ، مجرد تخيل، أو سمع أو حدث وحلم في أحد الأيام أنه عاش في الجنة، فليذهب إلى كردستان في هذا الفصل، وليعش الجنة في الواقع، وفي هذه الدنيا دون الآخرة.

فور بزوغ الشمس تلبس الطبيعة حلتها، تبدأ بالتجرد من لباسها الرث، الثلوج تبدأ بالذوبان، والمياه تبدأ بالانسياب، كل وادٍ لا بد أن تتدفق

---

(1) قادة انتفاضات محلية... شخصيات معروفة في المنطقة لا يزال أهل المنطقة يتحدثون عن بطولاتهم.. من خلال الأغاني الشعبية.. أو سرد قصصهم التي كثيراً ما تأخذ شكلاً أسطورياً..

فيه مياه عذبة، الينابيع تتفجر في كل مكان، النباتات التي تتجاوز قامة الإنسان، الأعشاب والورود ذات الألوان الزاهية التي لا تعد ولا تحصى.

الربيع يحوّل هركَول إلى لوحة من الألوان الزاهية، وسط سندس أخضر، رقع ومساحات بمئات الألوان، أما سلاسل الجبال، فمزرقة ضبابية، قمم تعانق صفاء السماء، جبالٌ بكرٌ لم تطلها بعد قذارة الآلة. رغم ذلك، البرد له حضور متلازم، خاصة مع حلول الليل، ليس فقط في القمم، بل في كل مكان من مرتفعاته لا يخلو هواؤها من لسعات البرد، في نقطة التمركز لوحدة قوات هركَول الفدائية، ليلاً، كانت النيران موقدة في عدة أماكن، بعدد مجموعات الوحدة، بينما مهمة ضابط الحرس، إلى جانب مهمته في تبديل الحراسات، كانت أيضاً تلقيم النيران بالحطب بين الحين والآخر، بينما المقاتلون متمددون من حولها شبه متلاصقين، أقدامهم عند نقطة توهج ألسنة النار، كأنهم أسهم تستمد طاقتها من دائرة النار، متلاصقون كأشبالٍ لا يزالون في العرين، يستمدون الدفء من بعضهم البعض كجسدٍ واحد.

بعد منتصف الليل، وبإيقاظ ضابط الحرس عناصرَ الوحدة، يتبدد السكون الذي كان يخيم على نقطة التمركز، حان موعد التحرك.

لحظات ليتجمع عناصر الوحدة، بكامل عتادهم المعهود، في حلقة دائرية حول إحدى النيران، يتوسطهم القائد، أما الضابط المناوب فسرعان ما ينادي الحراس ليطمروا ما تبقى من جمر النيران الأخرى، وبعملية تمويه تُزال آثار تعسكر الوحدة في المكان، بينما كان قائد الوحدة مشغولاً

ومندمجاً في شرح نوعية المهمة، والتي هي نصب كمينٍ على الطريق القادم من مدينة سيرت، مروراً من أسفل هركَول إلى القرى.

التفت القائد الفدائي نصف التفاتة، نحو ضابط الحرس، وقال:

– هل انتهيتم رفيق؟

كان الجواب عسكرياً مباشراً:

– نعم رفيق انتهينا.

– اقرأ قائمة فرز العناصر الذين سيشاركون في العملية.. مكان ومهمة كل مجموعة.. هل القائمة معك؟

– نعم رفيق.. ها هي.

لم يستغرق الانتظار طويلاً حتى بدأت المجموعات بالتحرك، خاصة مجموعات التنفيذ، بينما الآخرون بقوا في نقطة التعسكر مع قائدهم.

غابة «بشا – **Beşa**» بطابعها الوحشي وفتنتها الخلابة، غارقة في ظلمة الليل المطبق، عدا أصوات بعض الطيور والحيوانات الليلية، تعكر صفوها، مجموعات المهمة تتسلل وسط تلك الظلمة والسكون، ولم تأخذ بعد أماكنها، حتى ارتفع صوت الأذان من مآذن مساجد «آسكي أروه» وقرية «خرخور»، ينشر موجات عريضة، على القمم والوديان النائمة، مؤذناً بقرب طلوع الفجر.

عند نهاية لسان الغابة باتجاه الجنوب الغربي لـ(هركَول) حيث طريق السيارات الترابي الوحيد، الذي يربط المدينة بالثكنات العسكرية والقرى على حدٍ سواء، قبل اختراق الغابة يمر أسفل قرية مدرسة التي تحولت إلى

خراب.. القرية التي سميت باسم مدرسة، باعتبارها كانت تضم مدرسة يتوافد إليها طلبة العلوم الدينية على يد الملا عبدالرحمن الشوذي، وكانت تتلقى تمويلها من آغوات وبكَوات المنطقة، ومن السكان المحليين.

الغابة كالجبل عجوز، ذات أشجارٍ عملاقة، إلى حد تكاد تنافس القمم، جذوعها المتشققة تماماً تبدو كالشقوق والتجاعيد التي حفرتها الثلوج على وجه صخور الجبل العتيدة.

أثناء اختراق المقاتلين الغابة، كانت تعليمات قائد العملية، بأن تكون المسافة في الرتل بين المقاتل والآخر أقرب ما يمكن، لأنهم معرضون لحدوث انقطاع في الرتل، وأحياناً يصل الانقطاع لحد ضياع بعض المقاتلين من صفوف الرتل، لكثافة الأحراش وظلمة الليل والصخور التي لا ترحم، وكثيراً ما كانوا يصدرون أصوات مشابهة لأصوات طيور ليلية، أو حيوانات برية كإشارات.

تابعت وحدة التنفيذ الگريلا[1] اختراق الغابة، وبدأت المجموعات تأخذ أماكنها فوق المرتفعات المطلة على الطريق مباشرة، ومع انبلاج الفجر كان الجميع على أهبة الاستعداد، مستقرين في ثباتٍ كجزءٍ من الطبيعة، في الشقوق الحجرية، خلف الصخور وداخل الأحراش، ومَنْ كانت أماكنهم جرداء، جمعوا بعضاً من الأغصان، بعد أن تم تقطيعها بالحراب، وقاموا بتمويه موقعهم، مُحتَجبين عن الرؤية.

مع خيوط الضوء الأولى وتبدد ستار الظلمة، ظهرت غابة «بشا»،

(1) الگريلا: كلمة لاتينية تعني الفدائي أو الأنصاري.. مقاتلي حرب العصابات.

تداخل القمم الصخرية، الوديان، الممرات الوعرة الملتوية.. ذلك هو جسد هركَول، ذي القمم الجرداء إلا هذا الجزء، فهو غابة مهيبة من أشجار البلوط، ديندار ومازي، خاصة من نوع البلوط المعروف لدى أبناء المنطقة بـ(بلوط الدببة)، ثمارها من النوع كبير الحجم، المكور، الشبيه إلى حدٍ ما بحبات الجوز، بعكس ثمار البلوط، التي تعتبر صالحة للأكل البشري، حيث تكون رفيعة الشكل وصغيرة الحجم وطويلة إلى حدٍ ما وحلوة المذاق.

الذرى المغطاة بالثلوج، تسطع تحت أكداسٍ من السحب، يغزوها الظل شيئاً فشيئاً، الهواء شفاف كالسماء، الطراوة أخذت تصعد من الغابة الكثيفة الموحشة، قرص الشمس يرتفع بشكله التدريجي المعهود دون أن تشعر، أبطأ من الثواني، وما يشعرك بذلك هو التغيير الذي يطرأ على ظلال موجودات الطبيعة، كظلال الأشجار، الوقت يمر على هذا المنوال بطيئاً، شارف النهار على منتصفه، بينما قائد الوحدة كالآخرين، بل أشدهم بحسب مسئوليته، ومن موقعه القريب الذي اتخذه مع من بقي معه، ينتظر على جمر، ينظر تارةً إلى الأفق بحثاً عن جديد، ويرتد ببصره إلى رفاقه تارة أخرى، يبادلهم بعض الكلمات.

على القمة المطلة على غابة بشا، من خلفهم كان سربٌ من النسور يحلق ويحط على الصخور العارية، من بعيد كانت تبدو تلك النقاط السوداء كأنها آدميون، كان مساعد قائد الفصيل الأول (فرمان) قد التفت، يراقب تلك القمم بالمنظار، وفور تأكده من خلو القمم من الجنود أو أي حركة

غير عادية.

– ها ماذا وجدت؟ سأل قائد الوحدة

– لا شيء.. لا شيء. قال فرمان مبتسماً

– خير، هيا قل لنا لماذا تضحك.. ماذا هناك؟

– لا.. لا شيء.. فقط تذكرت حادثة جرت هناك مع بعض أبناء قريتنا خرخور.

– ماذا حدث؟

– كان في قريتنا عائلتان، هما عائلة حاجو شاهين وعائلة قاسو، وفي أحد الأيام كان أبناء قاسو وحاجو يرعون قطعان الماشية معاً، في المساء كانوا يخيمون في المغارة، هنالك أسفل القمة الثانية، عند نهاية الغابة تماماً، يُقال يومها تعاركت كلابهم، ابن حاجو ضرب كلب ابن قاسو، على أثرها، في المساء راح ابن قاسوا يشحذ البلطة التي عادة ما تكون مع الرعاة، سأله ابن حاجو: لماذا تبرد البلطة لهذا الحد؟ فأجاب: من أجل الحطب وقطع رءوس الأغنام غداً، وما إن استغرقوا في النوم، حتى مد ابن قاسو يده إلى البلطة وقتل ابن حاجو وهو نائم.

في اليوم التالي عادت قطعان الماشية، ولكن ابن حاجو لم يعد معها، عند المساء رأى أهل القرية الغربان والنسور تحوم في المنطقة بكثرة مما يثير علامات الاستفهام، هناك تماماً «وأشار إلى القمة المطلة»، وإذ ذهب بعضهم، فوجدوا ما وجدوه.

– و الآخر ماذا حدث له؟ أين هرب؟

- كان قد أخبر إخوته، أخذوه وسلموه للأمن في مدينة سيرت، ومن ثم وسّط حاجو بعض الوجهاء والآغوات لدى قاسو، مطالباً إياه فقط ألا يسعى إلى الإفراج عن ابنه، وأن يتركه في السجن يلقى مصيره على فعلته باعتبارهم أقارب.

أبناء قاسو كانوا شباباً، وأكثر عدداً من أبناء حاجو، فلم يخافوا، أو يحسبوا له حساباً رغم جريمة أخيهم، فيرد قاسو عليه قائلاً: إنه سيوكل له محامياً ويفعل ما يستطيع، ويرشي مَن يستطيع لإطلاق سراح ابنه.

ترك حاجو القرية، متوجهاً إلى ديار بكر، بعد فترة عاد وقد حصل على السلاح، وسرعان ما أصبح من الأشقياء انتقاماً وهو يجوب منطقة كَارسا، بينما قاسو وأبناؤه كان يرافقهم جنود لحمايتهم أينما ذهبوا، وفي مواسم الحصاد يختبئ حاجو في حقلٍ من حقول قاسو، فيقتل ابنه الكبير ويفر هارباً، بينما يلاحقه الجندي المكلف بحمايتهم، فينبهه حاجو ليعود ويتركه بحال سبيله، ولكن الجندي لم يتراجع، فيطلق حاجو عليه النار أيضاً، فيسقط الجندي جريحاً.

في قرية (بشا)، هذه إلى الوادي الذي يقابلنا، وفي أحد الأيام حاصروا حاجو في أحد بيوته، واعتقلوه، وحكم عليه بالمؤبد على جرائمه؛ قطع الطريق، القتل، والاعتداء على الجندي بالسلاح، وبينما كان حاجو في السجن اتفق مع أحد الحراس وكان من قرية (إرس –Êrs) المطلة على مدينة (آروه) من الجهة الشمالية الشرقية، فيفتح له باب الزنزانة، فيقومان معاً باعتقال الحراس الآخرين، يربطانهم ويكبلانهم جيداً، ويهرب حاجو

برفقة سجينين آخرين هما حاكم وعادل.

- و من هما عادل وحاكم؟

- هما أخوان شقيان، كانا مشهورين في المنطقة.. سأقص لك قصتهما ذات يوم.

- المهم وبعدها.. ماذا جرى مع حاجو؟

- فتح حاجو ومن معه أبواب الزنازين، وهرّبوا جميع المساجين، والقصة المضحكة، يُقال: أثناء خروجهم من الزنزانات ذات الأبواب الحديدية الضيقة، كان هناك سجين اسمه علي مصطفى ولطول شاربه، حين خرج من باب زنزانته، أصبح شاربه كقرني التيس تضرب طرفي الباب.

ساد الضحك وكل مقاتل يعلق على طريقته: «يخرب بيتوا.. شو كان وحش..» وآخر: «أمر لا يصدق..معقول؟!» وآخر: »..هه هههههه..».

فرمان تابع سرد قصتهم التي استمد منها الفنان يلماز گونى أفلامه الكوبوية الكردية الطراز:

- يقطعون نهر بوطان إلى الشرق، أسفل مدينة سيرت، على قارب صغير كان مخصصاً من أجل ذلك، متوجهين إلى أسفل قرية (ميركَى_Mêrgê)، إلى طاحونة قرية (إرس- Êrs).. كما يقولون: بقي حاجو متخفياً بعيداً عن القرية، وبعد التدقيق والاستفسار ليلاً، يرسل ابن حاجو صاحب الطاحونة، فيؤشر هذا بتقديح القداحة أن المكان آمن، وهكذا يلتقي حاجو أبناءه سراً، ويستعد للرحيل إلى الجنوب الكردستاني ومعه عادل، وبعد فترة التحقت به عائلته، يزوج ابنته من عادل، وينضمون معاً إلى

صفوف البيشمركَة، دام على هذه الحال ستة عشر عاماً، والنهاية المأساوية في الأمر، هي أن حاجو، قبل أن يرى عادل وابنته في رسميات الزواج، اتهم كذباً بأنه متآمر وعميل، فقام آمر قطاع (هيز) زاخو للبيشمركَة القائد عيسى سوار[1] بإعدامه.

– أمر أبناء هذه المنطقة غريب.. كم كانوا غارقين في الجهل والدم! بينما الاستعمار التركي يبقى متفرجاً، بل مهمتهم كانت ولا تزال، هي سكب الزيت على نار تؤجج ثالوث الجهل والثأر والفقر.

ساد الصمت المكان، ثم التفت القائد وأدار وجهه ثانية نحو الوادي، جهة صعود الطريق، وهو يتساءل مع كل لحظة تمرُّ: ماذا جرى لهؤلاء الأشقياء الجدد يا رفيق فرمان؟ لِمَ لم يأتوا حتى الآن؟ أمن المعقول أنهم عادوا من طريق آخر؟!

– لا طريق آخر للسيارات غير هذا الطريق، إلا إذا عادوا من الطرق الجبلية الضيقة، لكن حسب المعلومات التي وصلتنا، إنهم توجهوا إلى مدينة سيرت لاستلام رواتبهم، وسيعودون في اليوم ذاته، ذلك يعني أنهم لن يعودوا فارغي الأيدي، قد استلموا الرواتب، سيعودون بالسيارات

(1) عيسى سوار: آمر قطاع (هيز) زاخو أثناء ثورة جنوب كردستان، وكان قد التحق بالجنرال البارزاني الكبير في عام 1943 وهو في العشرين من عمره، شارك عام 1945 في مساندة الحركة الثورية في مهاباد بقيادة الشهيد قاضي محمد، كذلك كان بين مسيرة الجنرال البارزاني إلى الاتحاد السوفيتي.

انشق عن البارزاني مع مجموعة من المقاتلين، والتجأ إلى الشمال الكردستاني، في مرتفعات جبل "كاتوا" بالقرب من جتاخ، في قمة "سرهسينه - Ser Hesına" حدث اشتباك بين مجموعته ووحدة مقاتلين من بيشمركَة البارزاني، فاستشهد هناك مع أغلبية رجاله.

ليس من الطرق الجبلية.

المعلومات دقيقة ومؤكدة ولا شك فيها، منذ الصباح الباكر حتى اللحظة لا شيء، سوى سيارة مغلقة، اتجهت نحو «سيرت» بلا عودة، ها هم القرويون الذين خرجوا لأعمالهم بدأوا يعودون، والرعاة كذلك، بدأوا النزول بقطعانهم إلى حيث يمضون قيلولتهم.

كاد المقاتلون أن يفقدوا الأمل في عودة من ينتظرونهم، يترقبون الطريق وهم في حالة نفسية غير محببة، وهي حالة الانتظار، المقاتل «سيبان» من خلف صخرة، كان يرسل بصره في أعماق الغابة المعتمة الرطبة، متفحصاً منتبهاً أشد الانتباه، وكان يصيخ بسمعه إلى أقل ضجة، ويسدد بندقيته نحوها، أخيراً بدا وكأنه فقد شيئاً من صبره، بدأ يتهامس مع زميله:

- ليته لم يكن هناك شيء اسمه الانتظار! يا أخي الانتظار يحرق أعصابي.

أجابه زميله:

- الثواني تمر متباطئة ثقيلة.. أليس كذلك؟ وكل لحظة تقول سنبدأ الآن..

أكملت المقاتلة التي كانت تمسك بيدها المنظار.. تراقب الأطراف:

- اللحظات تتكرر وتتمدد، وتناشدك أعصابك أن تغفو بعض الشيء.. كحل لتقطع الزمن.

- نغفو؟! وهل نستطيع؟ عندما تمر طائرة من بعيد، أو يأتينا صوت هدير محرك، كل شيء فينا يستيقظ؟

- والأعصاب تتوتر، أكمل الأول.

تابعت المقاتلة بمزاح:

- ها قد جاءوا.

تابع الثاني:

- ماذا سيحدث؟ كيف سيمر الأمر؟ مائة سؤال واستفهام، وهل هناك أصعب من الانتظار؟

قال المقاتل الأول:

- خاصة لحظات انتظار بدء المعركة، في لحظات الانتظار هذه، يتحول كل شيء، وتنقلب الدنيا رأساً على عقب.

من خلفهم وراء جذع السنديانة، كان المقاتل نعمان المعروف بروح المداعبة لديه، يتكئ على حقيبة قذائف (آر. بي. جيه)، يبدو أنه استيقظ من غفوته على أثر الهمسات، استقام في جلسته، وهو يفرك عينيه، وقد انتشرت في وجهه تعابير ضجرٍ شديد، راح يغير من وضعيته، يسند رأسه تارة على هذه اليد، وتارة على اليد الأخرى، وهو يقول:

- تكفي همساتكم وضحكاتكم، لسنا بحاجة إلى هدير محركات طائراتكم، أردت أن أدفئ عينيَّ، لكنكم لم تتوقفوا عن الثرثرة، رفع ناظريه نحو تفرعات الحرش المتشابكة من حوله، ونظر إلى قرص الشمس، التي كانت قد أضحت في قبة السماء، وبشبه تأوه تابع: أوووه.. انتصف النهار، هذا يعني أنه من الصعب أن يأتوا بعد هذا التوقيت، التنقلات والتحركات العسكرية في المنطقة عادة تتوقف، وشبه ممنوعة بالنسبة لهم.

علّقت:

- ما زال أمامنا متسع من الوقت.. رفيق نعمان رائحة الثوم البري تفوح منك.. ماذا جرى؟

- ثوم.. هههههه ههه.. ثوم بري أم ثوم عادي؟ ردد المقاتل چيلو.

أجاب نعمان ما بين الجد والمزاح:

- ادعوا لله وللثوم.. لولا الثوم البري لما كنت الآن معكم.

- الثوم البري سبب وجودك معنا.. كيف؟ يسأل المقاتل سيبان.

قالت الرفيقة:

- ألا تعرف قصة الرفيق نعمان؟

- كلا.. ولكن ما علاقة الثوم بانضمامه إلى الگريلا؟

- عندما أصدر الرفاق قانون التجنيد الإجباري نهاية الثمانينيات في بوطان.. نفذ بعض رفاقنا ذلك القانون بصورة أساءت للنضال.. أمثال هوكَر.

- لم يكن هوكَر الوحيد.. كان هناك كثيرون من أمثال هوكَر المنحط. قال نعمان.

- نعم سمعت عن بعض وسائلهم تلك، ولكن الحزب اتخذ الإجراءات اللازمة بحق كل من أساء إلى السكان المحليين، ولكن ما علاقة الثوم بالرفيق نعمان؟ قال چيلو.

- ليقص لك الرفيق نعمان قصة تجنيده.

- يعني رفيق نعمان أنت أيضاً كنت من ضمن مَنْ تم انضمامه وفق ذلك

القانون؟

– يومها كان الربيع، كنت مع والدتي وأخي في الجبل، نقوم بجمع الثوم البري من أجل إعداد الجبن الذي كان قد حلّ موسمه، جاءت مجموعة من المقاتلين وتحدثوا إلى أخي وأخبروه عن التجنيد الإجباري وأخذوني معهم.

– لم يأخذوك هكذا.. رفيق نعمان.. قل كيف خبأوك في أكياس الثوم؟

– أنا لم أختبئ.. أخي عندما شاهد قدوم الرفاق عرف بالأمر فخبأني بين الثوم.. ولكنهم وجدوني.

– هل أنت الوحيد من قريتكم رفيق نعمان؟

– بالتجنيد الإجباري كنا اثنين، أما الآخرون فالتحقوا طوعاً..

– قل للرفيق چيلو.. كيف تم تجنيد الرفيق الشهيد دلبرين.

– أكيد هو كان مختبئًا بين البصل؟ قال المقاتل چيلو.

ابتسم نعمان وهو لا يزال شبه مغشي عليه:

– ليته كان كذلك.. عندما أصدر الحزب قانون التجنيد الإجباري، كان الكثيرون يقومون بتزويج أبنائهم على وجه السرعة، حتى إن الكثيرين زُوجوا ولم يكونوا في سن الزواج بعد.. المرحوم الشهيد دلبرين كذلك، قاموا بتزويجه من امرأة كانت بضعف عمره.

ليلةً دخلت وحدة الكَريلا قريتنا وبدأت بجمع الشباب.. وجدوا دلبرين وأمسكوا به يخرجونه من البيت.

أكملت المقاتلة:

- كان الرفاق يمسكونه من يد ويشدونه، والمرأة تمسك باليد الأخرى.. أحد المقاتلين تدخل وقال لها: يا أماه أتركي ولدكِ.. فكان الجواب الذي لم يتوقعوه، وإذ بالمرأة تقول: أنا لست أمه.. أنا زوجته..

- بالله عليكم هل ذلك صحيح.. كيف؟ قال چيلو.

أكملت الرفيقة:

- استغرب المقاتلون حتى بدأوا يتساءلون فيما بينهم غير مصدقين، ولما سألوا القرويين، إذا الأمر صحيح، كانت زوجته حقاً، ولكن قائد الوحدة الرفيق أنور يومها، قال: بما أن الأمر كذلك، سنأخذك فقط لإنقاذك من هكذا زواج، أليس حراماً عليكم أن تزوجوا شاباً لمْ يكمل الثامنة عشرة من امرأة في الثلاثينيات من عمرها.. سأتركه مرافقا لي بعيداً عن المعارك.

قالت المقاتلة الأخرى والفرحة تغمرها من جديد، كأنها تذكَّرت شيئاً ما، لأنها لم تكن قد أنهت حديثها، حتى ارتفع ضجيج محرك آلةٍ ما، لحظات وبدا على الطريق الترابي في مكانٍ مكشوف وسط الأشجار والصخور، جرارٌ قادم، يسحب وراءه عربته المكتظة بالأكياس المنتفخة الناصعة البياض يعلوها رجالٌ ونساء.

- أعطني المنظار. قال قائد الوحدة، وهو في موقعه بتلهف وبعجلة غير اعتياديتين، ومن خلف الصخرة أسند ظهره إلى جذع الشجرة، رافعاً المنظار أمام عينيه، ليتأكد من القادمين، هل هم المطلوبون، حماة القرى، أو مجرد قرويين؟ المجموعات تنتظر في أماكنها، انتظار الصقر للانقضاض على فريسته، بينما الجرار يتقدم بصعوبة، كأنه يفلح أرضاً بكراً، فكان

يضيع أحياناً وسط الغبار، الذي تقذف به عجلاته الكبيرة، وكلما تقدم كان الأمر يتوضح أكثر، تتداخل أصوات رجالية ونسائية لأولئك المتكئين على كومة الأكياس المتراصة في العربة وبجانب السائق.

ما إن أضحى وسط الكمين تماماً، حتى وثبت مجموعة الهجوم منطلقة كالسهام، خرجت إلى العراء من بين الأحراش ومن خلف الصخور المترامية على أطراف الطريق، أفزعت الوثبة المفاجئة، كل من كان معتلياً الجرار والعربة التي يجرها، التمعت الأسلحة في يد البعض منهم.

صرخ قائد مجموعة الهجوم، وهو يومئ إلى بعضهم:

- انتبهوا يا رفاق إنهم (جتى - Çete) «حماة القرى»[1] .. إنهم مسلحون.

على الفور تدبر المقاتلون الأمر، وبلمح البصر قفز بعض الرجال من فوق الجرار، بجانب السائق، وأطلقوا العنان لأرجلهم، وهربوا كالبرق نحو الوادي، بسبب خطأ بسيط تمكن اثنان من المسلحين من الفرار، لم يصل المقاتل والمقاتلة المكلفان بالالتفاف إلى الجهة الأخرى بالسرعة المطلوبة، إضافة إلى أنهما لم يأخذا مكانهما المحدد، على الفور أرسل قائد المجموعة مقاتلاً آخر إلى تلك النقطة، وبذلك فرض إحكاماً مطبقاً، ولم يعطِ المجال للمزيد، فاستسلموا منصاعين لأوامر الفدائيين، دون إطلاق طلقة واحدة، عدا الرشقات التي أطلقها الفارون، لينفذوا بجلودهم.

( ) الـ«جتى - Çete»: يطلقها السكان المحليون الكرد على (حماة القرى)، وتعني بالكردية عصابات السلب والنهب أو قطاعي الطرق.

بعد أن أوقفوا محرك الجرار، بأمر من قائد المجموعة، بدأوا الترجل وسلّم المسلحون منهم بنادقهم وعتادهم، واتجهوا إلى المكان الذي تم تحديده لهم وسط صخور تحيطها الأحراش، بينما بدأ عويل النساء وصراخ أطفال كانوا بينهم، الرجال لم يكونوا أقل منهم رعباً، كانت سيقانهم قد تحولت إلى نوابض ترتجف، ولم تعد لهم القدرة على التحدث، تحجرت ألسنتهم، وبدأوا يتلعثمون في الكلام، أما أعينهم فكانت تكاد أن تخرج من محاجرها، احمرت شحمة الآذان، أما الأيدي فلا داعي للوصف، كيف كانت ترتعد.. بدا لهم، أنهم ينقادون وسط الأحراش إلى مكان تنفيذ الإعدام.

ترجل الجميع، وكان بينهم رجل نحيل الجسم، حسن الهندام، يلقي نظرات رقيقة متعبة على المقاتلين، وآخر طويل القامة يرتدي صدرية مرصعة بمخازن بندقية، قصيرة جديدة، يمد بندقيته بيديه الاثنتين، ذات أصابع قوية، تتصف ببعض الضخامة، يحاول التكلم محركاً يديه حركاتٍ عريضة، ولكنه يبدو كمن لا يعثر على الكلمات التي يريدها، الكلمات التي توافيه، لا يستطيع فيما يبدو أن يعبر عما يعتمل في نفسه، ويكرر «أنا لا أُبرئ نفسي.. ولكن أردت..أنا.. أنا»..

رجل تجاوز منتصف العمر، ذو لحية عريضة غزاها الشيب، ومنكبين عريضين، منفرج القميص عن صدرٍ كثيف الشعر لا يخلو من الشيب، وأطرافه القوية تبلغ من التناسب، بحيث لا يبدو طويلاً في الغاية، يرتدي قميصاً محزوماً بزنار من جلد، وعليه سترة ممزقة، ويحتذي نعلين من

المطاط الأسود.

بينما أحدهم في حوالي الثلاثين من العمر، لا يترجل ولا يتحرك من مكانه، بقي متسمراً فوق الأكياس، عندها لم يتمالك قائد المجموعة نفسه فصرخ:

- لماذا تبقى هكذا كالمسطول؟ هيا انزل.

- لا داعي يا رفيق لا داعي أرجوك. قال أحد المترجلين.

- كيف لا داعي.. هل هو كسيح؟ استفسر قائد المجموعة.

- نرجوكم اتركوه ليس بكسيح ولكن.. أجابت امرأة في حوالي الخمسين من عمرها.

استغرب قائد مجموعة الكَريلا الأمر: ولكن.. ولكن ماذا؟ لماذا لا يبارح مكانه؟ يتكور على نفسه كدبٍ كسيح.

سرعان ما أخذ الأمر على أنه من المعقول أن يكون في الأمر مكيدة، من يدري؟ كل شيء ممكن، فهم مرتزقة، ويخدمون العدو.. ما أجبر قائد المجموعة لإنزاله عنوة، عندها تقدمت امرأة من قائد المجموعة، ومن الواضح أنها تريد أن تبوح له بشيء، دون أن يسمع الآخرون، ولا تريد أن يصعد المقاتل الذي استعد للصعود إليه، وإنزاله بأي شكلٍ كان، قربت فمها من أُذن قائد المجموعة وهي تقول:

- رفيق.. اتركه.. إنه خائف.. لقد فعلها تحته.. نرجوك أن تتركه.. لا تنزله أمام النساء بتلك الحالة..استره.

- ماذا تقولين؟.. أأستره؟ وهل هؤلاء تركوا شيئاً مستوراً حتى يطلبوا

ذلك؟ باعوا الشرف ببعض الليرات التركية.. وتريدون أن نسترهم؟

لم يرَ ذاك الرجل بُداً من أن يترجّل وقد بدت عليه علامات الرعب، الخوف.. الخجل، من فضيحة ما حصل، عندها فقط صدق الفدائيون، سبب عدم تحركه من مكانه، توجه على الفور إلى مكان تجمع الآخرين، وهو يحاول قدر الإمكان الاحتجاب عن الأنظار، مختبئاً وراء الرجال، شاحب الوجه ذليل السمات، زائغ النظرات، خاصة أمام أنظار الفدائيات، متهدل الجسم، وظل على هذا النحو لا يتحرك.

تم تفتيشهم واحداً واحداً.. بعد الانتهاء من تفتيش الجرار والعربة، وتجريدهم من كل أنواع الأسلحة ومعداتها، والتأكد من هوياتهم والاستفسار عن أوضاعهم، كل شيء كان واضحاً وضوح الشمس، لم يعد بوسعهم الإنكار، فتم اعتقالهم متلبّسين بالجرم، أما الرفيق دورم المتحدث إليهم، فلم يتوقف عن التساؤل، ينتقل من أمرٍ إلى آخر، مطالباً بإيضاحات عن أسئلته، ويبدو من الواضح من خلال نبرات أصواتهم وكلامهم، أنهم يلتقون لأول مرة بالكَريلا، وجهاً لوجه، يتضح أنهم رضخوا وبقناعة تامة، للأكاذيب التي سمعوها ويسمعونها من الجنود الأتراك، وعبر وسائل الدعاية العائدة إليهم، التي تبثّ الدعايات المغرضة بحق الثوار، حديث الرفيق الذي استمر معهم، بعض الشيء هدأ من روعهم، وأزال تقريبا علامات الرعب من وجوههم، تدريجياً بدوا أكثر ارتياحاً، لأنهم بدأوا يتجاوبون ويتفهمون الحديث الموجه إليهم بوضوح، يستمعون إلى ما يقوله الرفيق، عكس البداية التي كانوا فيها، حيث كانوا

يكتفون بهز رءوسهم للإجابة على الأسئلة التي تطرح عليهم، دون أن يفهموا ما يقال، وها هم تشجعوا على التساؤل.

سأل أحدهم:

- رفيق هل فعلا أنتم أرمن؟ هل صحيح لستم مسلمين.. كفار لا تؤمنون بالله؟

تحدث المقاتل الفدائي إليهم، وأجاب عن تساؤلاتهم، مبيناً كيف قام ويقوم الأتراك بخداعهم عن طريق الدين، في المدارس وعبر الوسائل الإعلامية. بدا عليهم ارتياح شبه تام، ووعدوا بعدم العودة لحمل السلاح ثانية، ومشاركة الجنود الترك في مقاتلة الگريلا.

رجل تجاوز الأربعين من عمره، اعتمر كوفية كردية رغم أنها تعتبر من الممنوعات، حسب القانون التركي، منذ أيام أتاتورك، باعتباره زياً كردياً، وتحت اسم يمثل (التخلف)، كذلك الحزام الذي يلف الخصر، والذي استمد الفدائيون أحزمتهم منه، ينتعل حذاءً رياضياً، تظهر خصلات الشيب من أطراف الكوفية، كذلك غزا الشيب شاربه الغليظ، الذي ينسدل على شفتيه، رأسه الضخم متلائمٌ مع حجم جسده، عيناه الرماديتان، تشيان برعب داخلي، الجفون ترتجف، تدل على أنه غير مرتاح، رغم هدوء الآخرين. حالته وشخصيته تلفت الأنظار، في معصمه الأيسر ساعة ذات غطاءٍ من القماش العسكري، من النوع الذي يستخدمه الجنود، كي يمنع لمعانها حين تكون معرّضة للأضواء، خاصة في العمليات والتحركات العسكرية الليلية، لم يكن مسلحاً، يبدو في

هيئة الدراويش، المتناقضة مع بنيته التي لا تدل على ذلك، على العكس، تدل على احتفاظه بعنفوان الرجولة الجبلية بكل معنى الكلمة، يستمع وبلهفة إلى الرفيق المتحدث، وينظر إلى المقاتلين بفضول شره، يراقبهم ويتفحصهم، من أخمص أقدامهم إلى قمة رءوسهم، تعجب كالآخرين.. خاصة من الفدائيات، اللواتي لفتنَ أنظاره أكثر من الشباب، وهن يرتدين الأحزمة والجعب العسكرية التي تزنر خصورهن، الملابس الرجالية الخاكية اللون، سراويل مشدودة عند أسفل الركب تتسع بدءاً من الركب إلى الخصر، القمصان من اللون والقماش نفسهما، يزنرها حزامٌ من قماش شفاف خفيف، يميل البعض منها إلى الصفرة، وبعضها فضيُّ اللون، ملفوفةٌ لفاتٍ كثيرة فوق بعضها، ويحمل الحزام العسكري مع جعب مخازن البندقية، وفوقها صدرية بدون أزرار، مفتوحة من الأمام، اللون والقماش نفسهما، تغطي الكتفين والظهر، البنادق الحربية التي تلمع بأيديهن، خفة تظهر رشاقتهن كالنمور، ووجوههن تشع شباباً وعافية.

بدون مقدمات، سأل المقاتل المكلف بالحديث إليهم، ذاك الرجل:

- ما اسمك؟

- مَنْ؟ أنا؟ أجاب أحدهم بارتباك.

- كلا.. ذاك الذي يعتمر الكوفية.. أنت صحيح.. ما اسمك؟.. أجب لِمَ لا تتكلم؟

ازدادت ملامح الرعب عليه، وهو يجيب:

- حمو.. خادمكم حمو..

- يا عم أنت أكبر منا عمرًا.. لماذا تقول غلامكم؟ نحن لا نقبل الخدم والعبيد.. فلسنا آغوات.. وأكمل:

«هذا ما زرعه العدو في رءوسنا.. بكل سهولة، نقول لأيٍّ كان (أنا خادمكم).. ثورتنا هذه هي من أجل القضاء على العبودية في وطننا، نعم أجبرونا على حمل السلاح، لأنهم يريدوننا عبيدًا، لكننا قلنا نحن أحرار.. لم يبق أمامنا إلا حمل السلاح والصعود إلى الجبال، هناك من يقول: إننا هكذا تعلمنا، منذ أن ولدنا، لكن يجب أن نتعلم من المثل القائل: لا يلام العبد إن ولد عبداً، ولكن العبد هو مَنْ يأبى التمرد من أجل نيل حريته.. ذلك العبد لا يستحق الحرية، هناك كثيرون في وطننا لا يعرفون كيف يرفعون رءوسهم، الأتراك والعرب ومثلهم الفرس وغيرهم، جعلوا مجتمعنا مجتمع العبيد، لتعلموا أننا سنستمر إلى أن نحقق النصر ونصنع مجتمعاً من الأحرار، صعدنا الجبال لنكون أحراراً في وطننا.. ربما يصعب على بعضكم فَهْمَ هذا الكلام، ولكن تعلمون أن هذه أرضنا، وطننا.. ومن حقنا أن نكون أحراراً فوقها، أسوة بالآخرين.. من أجلكم ولأمثالك يا حمو (موجهاً الحديث إليه، وسأله مرة أخرى): هل أنت من الـ«جتى» يا حمو؟ قل الحقيقة بدون خوف، لا تنسوا لدينا قائمة بأسماء حماة قريتكم.. ألست أيضاً من قرية تريان؟

- نعم.. صحيح. أجاب حمو بيأس بعد أن رأى القائمة بيد المقاتل (مع أنها كانت قائمة وهمية).

- أسألك: هل أنت أيضاً من الـ«جتى»؟

- نعم، صحيح.. أنا أيضاً ومن قرية تريان.

تقدم المقاتل الفدائي منه عدة خطوات، ممسكاً وسط بندقيته (G3) ذات الأخمص الطي، الذي حصل عليه كغنيمة من الجنود الأتراك في إحدى المعارك، وبتحدٍ سأل حمو:

- أين سلاحك يا حمو؟

مال حمو من نصفه الأعلى للوراء، مبعداً وجهه، كمن خاف تلقي صفعة وهو يُجيب:

- ليس معي.. ليس معي.. تركته في البيت نعم.. نعم في القرية.

- منذ متى وأنت جتى يا حمو؟ هيا أجب..

- منذ أكثر من أربعة أعوام.

- أكثر من أربعة أعوام! كم مقاتلاً وقروياً مسكيناً استشهد على يديك؟ كم؟ كل هذه السنوات ولم تفهم بعد ما تقوم به.. وما يقوم به العدو، سنوات وأنت تخون نفسك وأهلك، تخون حقيقة وطنك..الخائن ما جزاؤه يا حمو؟

- أرجوكم يا رفاق.. أنا خادمكم.. نعم ما تقولونه صحيح.. أنا فداء القائد آبو.. من أجله أرجوكم.. أن تعفوا عنا هذه المرة، لدي أطفال.. نرجوكم أن تعفوا عنا.. لن أعود إلى ذلك مجدداً. أجاب متذللاً.

- هكذا أنتم يا حمو، عندما تقعون بين أيدينا، تعرفون القائد وكردستان والشهداء، تترجون لنعفو عنكم، عندها فقط تتذكرون أن لكم أطفالاً وزوجاتٍ، ولكن أثناء تقدمكم أرتال جنود الترك في حملات التمشيط

وملاحقة رفاقنا الثوار، عندها تنسون الأولاد والزوجات والأهل، دون أن تسألوا أنفسكم: ماذا تفعلون؟ ألا تسألون أنفسكم، لماذا يزودكم العدو بالعتاد والرواتب؟ أمن أجل سواد أعينكم أم محبة لأطفالكم يا حمو؟! إنهم يشترون ذممكم وشرفكم، الراتب ما هو إلا ثمن دمائنا ودمائكم أنتم.. إذن ما هو المقابل ؟ ما هو الحساب؟

يجيب حمو بهلع يجتاح أغواره:

- إنه خطؤنا، المسامح كريم، أنتم كبارنا وتاج رءوسنا، نحن أميون، نحن حمقى لا نفقه ما نقوم به، لا نعرف شيئاً من أمور الدنيا، أنتم أعيننا، أنتم عقولنا، أقسم لكم، فقط أعطونا فرصة لنثبت لكم ذلك، أقسم ما إن أصل إلى القرية سأعيد لهم بندقيتهم. أجاب وقد احمرت عيناه.

امرأة مسنة طويلة القامة، قوية البنية، والأخرى في الثلاثينيات، ممتلئة القامة، وجهها لا يزال يحافظ على بقايا نضارة الشباب، تغطي رأسها كعادة نساء المنطقة، بمنديل أبيض شبه شفاف، تلف رأسها من الأعلى بخمار وردي على شكل قبعة، تعقدها من الأمام أعلى الجبين، ترتدي فوق ثيابها عباءة مطرزة بلونٍ ذهبي، تمسك بطرف ثوبها طفلةُ بين الحين والآخر، وبحركاتها الطفولية تبعد خصلات شعرها من على جبينها، ترفع رأسها، وبعينين نصف مغمضتين تنظر بحَيْرة وخوف إلى مَنْ حولها، يبدو أنها تعاني صعوبة في فهم ما يجري حولها، أو بالأحرى عدم فهم شيء، مع ذلك فهي الوحيدة التي كانت تبتسم أحياناً، وَضْعها يعطي انطباعاً غريباً.

الخوف والهلع لدى الأطفال في مثل هذه الحالة، استمداده غريزي من الحالة المكتسبة من تصرفات وملامح الكبار، تصرفات الكبار من أهلهم والمقاتلين، سرعان ما تنعكس ردة فعلها على ملامح وجوههم، المقاتلة «نركَز» التي لفت كوفيتها الأنصارية الصوفية حول عنقها، وربطت شعرها بإحكام وعناية من خلف رأسها كأغلب المقاتلات، متأكدة من عدم انسلال أي خصلة على وجهها، كي لا تحجب عنها الرؤية.. الطريقة الخاصة في ارتداء الملابس للمقاتلين كشد الحزام الذي يزنره الحزام العسكري، وتنسيق وترتيب حزام جعب البندقية والقنابل المتدلية من الأمام على طرفي الحزام، هي طريقة لا يعرفها الكثير من الناس، ولكنها تخطف أبصارهم، تقدمت من الأطفال بحذرٍ وتودد، جلست القرفصاء تتحدث مع الصغيرة، بينما أمواج علامات الخوف والحذر تتخللها ابتسامة طفولية ترتسم على شفتيها، ويعود بعض الطمأنينة إلى نفسها، الكبار يشاهدون لأول مرة بأم أعينهم، فتياتٍ بهذه الهيبة والحيوية، فما بال الأطفال أمام هكذا حالة، أخرجت المقاتلة (نركَز) من جيب سترتها ميداليات صغيرة، من نوع «روزيت»، منقوشة عليها خريطة كردستان ذهبية اللون، نُقِشَ عليها العلم الكردستاني بألوانه الأحمر والأبيض والأخضر، تتوسط اللونَ الأبيضَ شمسٌ بشعاعاتها الواحد والعشرين، رمزاً للعيد الوطني الكردستاني » نَوْروز«، وعلقتها على صدورهم.

تشجعت المرأة المسنة أكثر.. فقالت:

- عذرًا.. نحن غير متعلمات، يقولون لنا: إنكم تذبحون الآدميين

وتأكلون لحومهم، كذلك يقولون: إنكم تشربون دماءهم، قبل عام جاء إلى قريتنا ملا، هو أيضاً كان يؤكد ذلك، في أحد الأيام كان في طريقه إلى قرية إركند ـ Êrkend.. ولكنه اختفى، لا أحد يعلم ماذا جرى له.

استغرب الجميع خاصة الرجال، فهم لم يجدوا في أنفسهم تلك الشجاعة للتحدث بهذه الطريقة، والعادة هي طالما أن الرجال موجودون فالنساء يجب أن يخرسن.. لكن الوضع هنا اختلف، فقد أضحى حديثها الجريء والصريح، مصدر جرأة للرجال، وقتها، نعم وقتها، تلاشى الرعب، ساد نوع من الهدوء والارتياح، خاصة عندما أجابها الرفيق بكل لطفٍ واحترام، على العكس مما كانوا يتوقعونه، كَرَد مسبق، حسب ما سمعوه من الضباط الأتراك:

– الملا.. (توقف الرفيق دورم المكلف للتحدث إليهم في المهمة لبرهة، وهو يهز برأسه) ثم أكمل: الملا كان مجرد منافق، بالأساس لم يكن رجل دين، كان ضابطاً من تشكيلات الاستخبارات العسكرية، كان يجيد العربية، فيجوب المنطقة منتحلاً صفة رجل دين، وتم القبض عليه من قبل رفاقنا الثوار، وتم حل أمره، أما الأمور الأخرى ها نحن كما تروننا.

– نعم.. نعم.. صحيح..

بعد انتهاء التحقق من هوياتهم، والتعرف على أوضاعهم، قام قائد العملية برفع تقريرٍ لاسلكي إلى قائد الوحدة، كل شيء كان يمر كما خطط له، رغم قرب ثكنة خرخور، التي لا تبتعد أكثر من مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام، يبدو أن الفارين لم يصلوا بعد، أو خاف قائد الثكنة

من إرسال القوات، يتكرر هذا في الكثير من الحالات المشابهة، القطعات العسكرية لا تجرؤ على التحرك، إلا بعد أن تتأكد من انسحاب الگريلا.

مر أحد القرويين، كان يحمّل بغله الحطب، حمولته كبيرة لا يقل عن حمولة جرار، والبلطة على كتفه، يتابع محاولاً التغاضي، حاول التظاهر كأنه لا يرى شيئاً، فجأة ودون أن يوعز إليه أحد بشيء، يبدو أنه غير رأيه، أوقف دابته ممسكاً رسنها عند الرقبة تماماً، لكي لا تفلت منه، توقف هناك على الطريق دون أن يقترب، راقب ما يجري من بعيد، انتظر إلى أن انتهى كل شيء، فهم المقاتلون سبب وقفته، دون أن يقولوا له شيئاً، ببساطة لو أنه تابع طريقه، ثكنة خرخور على الطريق تماماً، بكل تأكيد سيوقفه الجنود للاستفسار عما يجري، وعن المكان تحديداً، وإذا حدث مكروه للرفاق سيتحمل المسئولية، وهم لا يريدون إلا سلامة ثوارهم، هكذا تعود الوطنيون في المنطقة على التصرف في مثل هذه الحالات.

اختصرت تعليمات قائد الوحدة، على ألا يتم إلحاق أي أذى أو ضرر بأحد، وأكد:

– تحققوا من أوضاعهم جيداً، من له يد في هدر دماء المقاتلين أو القرويين، اقبضوا عليه واجلبوه للتحقيق، أما الآخرون فليعدوكم وليقسموا اليمين بألا يعودوا ثانيةً إلى أعمالهم القذرة، اعفوا عنهم بالصورة المطلوبة.

نُفذت التعليمات، وبعد التأكد من أوضاعهم لآخر مرة، وجه المقاتل المكلف بالتحدث إليهم تنبيهاً أخيراً:

– انظروا إلى أحوالكم، بعتم الشرف وأصبحتم في صف الأعداء، ماذا

يسمّى الذين يبيعون شرفهم وما هو جزاؤهم؟

ردوا معاً وكأنهم كورال مزعج:

– صحيح ما تقولونه.. صحيح.. نعم، نحن جهلة، من أجل خاطر كردستان والشهداء، من أجل هؤلاء الأطفال.

بدأوا القسم واحداً تلو الآخر، ووعدوا بعدم العودة لحمل سلاح العدو ضد الگريلا، أخيراً جاء دور الرجل الذي ترك سلاحه في القرية، مرة أخرى بدت ملامح الخوف عليه، وجه قائد المجموعة هذه المرة الحديث إليه تحديداً، بينما هو يقف كصنمٍ خشبي، فرأى ما لاح في قسماتِ وجه حمو من تعبيرٍ عن الدهشة والإذعان.

– قلت إن اسمك حمو أليس كذلك؟

– نعم.. نعم.. غلامكم.

– هه حمو.. ماذا قلت؟ هل أنت جاهزٌ لتقسم بإعادة السلاح لأصحابه فور أن تصل إلى بيتك، ولتصبح رجلاً ذا كرامة وشرف كالآخرين؟

لم يدع حمو قائد المجموعة، يكمل حديثه فقاطعه قائلاً:

– نعم رفيق أقسم.. أقسم لكم، بماذا تريدون أن أقسم؟ بشرفي.. بـ«كردستان»..

– حمو ! بهذه الصورة لا يحق لك القسم.. لا بالشرف ولا بكردستان.. بسرعة نسيت إلى جانب منْ تقاتل وضد منْ؟

– نعم.. نعم، بماذا تريدون؟ بالمصحف بالله، سأقسم.. كيف تريدون أن أقسم؟

- وهل تعتبر نفسك مؤمناً حتى تقسم بالله والقرآن؟ من يحارب قومه ووطنه فهو عدو الله، هذا ما يقوله المصحف، ولكن مع ذلك لا عليك.. عليك أن تقسم بالطلاق، على أنك ما إن تصل إلى البيت حتى تذهب فتعيد بندقيتك إلى الثكنة.

حمو مستمر في ارتباكه، بينما لا يصدق أن الفدائيين (حسب ما كان يسمع عنهم) سيتركونه حياً ومع ذلك كان القسم أمراً صعباً.

القسم بالطلاق ليس من الأمور العادية، القسم ثقيلٌ على كاهل الرجل الكردي، فإذا ما أقسم بالثلاثة، يجب أن يكون عند قسمه، ولو كلفه ذلك رأسه، ماذا يفعل؟ لا سبيل آخر سوى أن يُنَفذ رغم الارتباك، تقدم نحو الأمام محمَراً.. مصفراً، أصبح كزاهدٍ في محراب، خاشعاً كل الخشوع بين يدي الله، وضعت المقاتلة ثلاث حصيات في كف يده اليمنى، شاربه بدأ يرتجف، نظراته سرعان ما تغيرت فقدت خشونتها الرجولية، أصبحت كنظرات طفلٍ بريء بين يدي أمه، التي يكن لها كل الصدق، رفع يده بثقل، ثم انتصب كالجندي الذي يقابل قائده، رافعاً رأسه، منتصباً بتلك الهامة الجبلية، الشبيهة بهامة (هركَول).. حقاً هامته بدت بهيبتها قمة من قمم هركَول، لامست خديه بعض الدموع، الرجل الكردي لا تدمع عيناه إلا نادراً، إلا عندما يلامس أمرٌ صميم فؤاده، فالبكاء ليس من شيم رجال صقلت هذه الجبال رجولتهم.

ها هو حمو بعد سنوات من حياة الخيانة، ينتصب واقفاً وسط المقاتلين، الذين طالما لاحقهم، واجههم في الكثير من الاشتباكات والمعارك إلى

جانب جنود العدو، حتى صباح هذا اليوم، فكم كان يحمل في داخله من حقدٍ دفين تجاههم، وهو يستلم راتبه الشهري مقابل حمله السلاح الموجه إلى صدر أبناء جلدته، هذا الشارب الذي يهتز الآن خشوعاً كان ينتصب كأنه شارب ذئب يكشر عن أنيابه، كان يزداد وعيداً وارتباطاً ببندقيته، وهو يضع الراتب في جيب سترته الداخلي، ماشياً في شوارع وأزقة سيرت.. يدير بنظره ويتجول في السوق من حانة إلى أخرى، محتاراً ماذا يشتري لأطفاله من ألعاب، ماذا يهدي زوجته الليلة، يكاد لا يصدق متى يصل إلى البيت، وهو يتذكر ابتسامة بهار السحرية.

أمام تمثال أتاتورك، في الساحة الرئيسية وسط المدينة، ودون أن ينظر إلى وقفته الباردة، ورغم كل شيء هنالك ما يحير حمو، كلما يمر من هناك يشعر بالحاجة إلى السير بخفة والابتعاد بأسرع ما يمكن عن تلك الساحة، شعورٌ غريزي، لا شعورياً لديه نوع من الاشمئزاز تجاه صاحب التمثال، ودون أن يفكر، مجرد التفكير، أو حتى بإحساسٍ فطري أن يسأل نفسه عن السبب، أو على الأقل علاقته بالراتب الذي يدفنه في جيبه، ذلك الراتب الذي يحرص عليه كطفلٍ يخشى أن تكون جيوبه مثقوبة، فيضيع منه.

كان يتذكر أماكن من ثنايا جبل (هركَول)، كـ(دشتا سور – **Deşte Sorê**.. باني هرجى – **Banê Hirçê**) وهو يعرفها مثلما يعرف كفه، لقد أصبحت معاقل (الإرهابيين) كما يسميهم الأتراك.. مردداً: «إذا عدنا، سأعرف حينها ماذا أفعل بهم، إذا خرجنا إلى التمشيط في المرة القادمة،

صحيح أنني لم أقتل أحداً منهم بعد، ولكن لو حصل شيء من هذا القبيل وبإذن الله، وخاصة أمام (آروول) نعم أمام الضابط آروول، سأقوم بقطع رءوسهم، نزع جماجمهم، كما تنتزع رءوس الماشية».

«آه لو يحدث وألتقي ببعضهم، وأتمكن من اصطيادهم، لنزعت رءوسهم من أجسادهم دون تردد، وأخذتها إلى الثكنة أ.. إلى هنا.. إلى سيرت.. لملأت جيوبي بالنقود، لاستلمت ثمن كل رأس(..)..آه كل رأس بكم يا حمو.. كم؟ الواحد بمليون.. كلا أكثر.. يا الله.. اثنان.. ثلاثة.. كذا.. لا.. أخطأت.. يجب أن أُخرج الدفتر والقلم لأحسب..».

وكاد أن يقف وسط الشارع، ليخرج فعلاً الدفتر والقلم، ليحسب ثمن الرءوس، وماذا سيفعل بالنقود؟

«آه يا حمو.. واحد.. رأس واحد..اثنان لا يكفيان.. ثلاثة.. أربعة.. أستطيع أن أتزوج زوجة ثانية.. أن أفتح بيتاً ثانياً.. لأتيت بفتاة عمرها أقل من العشرين.. مهما كان لما تزوجت بفتاة أكبر من ذلك العمر، افرح بحياتك يا حمو.. الدنيا لا تساوي شيئاً.. ليس هذا فقط..ألم يقل الملا الذي اختفى في العام الماضي: (من يقتل أحداً من هؤلاء الإرهابيين، يفتح الله له باب الجنة)، هكذا سأكسب الدنيا والآخرة.. عندما نعود، سأعرف ماذا أفعل، فور أن نخرج إلى أول حملة تمشيط عسكرية في هركَول، سأكون في المقدمة.. سألاحق أولئك الكفار.. ماذا يريدون؟ أين سيذهبون؟ «حمو قادم.. حمو قادم..!! صرخ.. ثم تلفت حوله، بعد أن عاد إلى وعيه مع الصرخة، وسط الشارع تلفت من حوله، ليتأكد أن أحداً سمعه، أم لا.

حمو كان في سكرة كابوس تخيلات وأحلام هذا الصباح، بل قبل ساعات يُخيّل إليه أنه يتجول في أسواق مدينة سيرت.

كمن مسته صعقة كهربائية، عندما صرخ القائد الفدائي المنتصب أمامه:

- حمو.. حمو.. ما بك؟ أين أنت؟ هيا.. هيا.. لماذا لا تُقسم؟

تمالك حمو أعصابه، كمن كان في غيبوبة، أو كمن فقد ذاكرته.. بدأ يكرر مراراً وهو يغمض عينيه، محاولاً طرد تلك الصور المزعجة.. انبجست في الخيال، أنواع المذلة، والضعف والأخطار الماضية، هل هو في حلمٍ أم..؟

ها هم أصحاب الرءوس أمامه.. «سينتزعون رأسي كما يُنتزعٍ رأس شاة.. لماذا؟ يا إلهي.. لماذا»؟

يبدون غير ذلك، ليسوا كما يقال عنهم في الثكنة، وقنوات التلفزة التركية، مرت فترة وهاهم يحدثوننا دون أي صفعة، أو كلمة بذيئة، ليس في تصرفاتهم شيء مما حدثونا عنه، رغم كل ما فعلناه، ها هم لم يتفوهوا ولو بكلمة مسيئة، لم يقولوا إلا حقيقتنا، وهو أمام الأمر الواقع.. يجب أن يقسم.

كمن يستيقظ من كابوسٍ، كان قد خدر أغواره، تشجع، كما يفعل المرء أمام الكاهن، حين يريد أن يعترف، يفرك الحصيات الثلاث في قبضة يده، كأنها قبضةٌ من فولاذ، تحاول طحنها، أو تحافظ على شيءٍ ثمين، لا تريد التخلي عنه.

ارتجف فكه، بدأت شفتاه بالارتعاش، انتكس شعر شاربه، ازداد احمرار

عينيه الرماديتين، وبصعوبة بدأت النبرات تخرج من حلقه:

أقسم بالثلاثة.. توقف لبرهة.. ثم أكمل: عندما أعود إلى القرية، فور الوصول سأعيد بندقيتي للثكنة، وإذا لم أردها، فزوجتي طالق.. أقسم.. أقسم.. أقسم..

ومع آخر كلمة من قسمه، رمى الحصيات الثلاث بنوع من العصبية وبنزق، كأنها خرجت من فوهة بندقية صيدٍ.

ما إن انتهى حمو من القسم، حتى اكتست ملامحه بابتسامة عريضة كانت غريبة المعنى والتعبير، شبه جنونية، كما بدا على وجهه خليط من التعابير ربما يدل على الأسى والتعب، ناظراً بلهفة إلى وجوه الرفاق والرفيقات بابتسامة نابعة من الأعماق، بينما كانت الطفلتان تلوحان بأيديهما، تنظران فقط إلى الرفيقة التي أهدتهما تلك الهدايا الجميلة، ليتابعوا الطريق.

كنا قد وصلنا إلى أماكن تمركز مجموعات الحماية والمساندة، عندما صدر دوي عدة انفجارات في المرتفعات المجاورة، يبدو أن الخبر وصل إلى الثكنة، فبدأت بقصف المرتفعات بمدافع الهاون بدل التدخل المباشر.

رغم إصرار راكبي الجرار على أن نأخذ ما نحتاجه من الأشياء، التي ابتاعوها من المدينة من مواد تموينية وغيرها، إلا أننا رفضنا ذلك كي لا يُفهم ذلك بشكلٍ خاطئ، خاصةً أنهم لأول مرة يلتقون بالگريلا، لكي لا يقولوا: إنهم أوقفونا وسلبونا أشياءنا كقطاعي الطرق، ذلك ما يريده العدو.

- 2 -

إلى الجهة الجنوبية الغربية من نهاية جبل هركَول، في قعر وادٍ سحيق تقبع قرية (تريان)، تطل عليها سلسلة من القمم، هي حلقة وصل ما بين مرتفعات جبل (بيرو)، المطلة على منطقة «بستا»، ونهاية قمم هركَول، المطلة على وديان (بهرا هنجى – Behra Hinçê).

يؤدي إلى القرية طريقٌ ترابي يتفرع من مسافة حوالي ثلاثة كيلومترات، يتابع بمحاذاة مجرى الوادي، في الاتجاه الغربي بالنسبة للقرية، يبدأ من أسفل جبل (جاجى ـ Çaçê).. ليتفرع من الطريق المؤدي إلى قرية «هوت ـ Hût».

بعد أن يخترق هذا الطريق غابة (بشا)، يمر من الجهة الغربية، أسفل قرية (خرخور) ملاصقاً لخنادق الثكنة، وإلى الجهة الشرقية من قرية (أبو بكرا – Ebu Bekra)، ثم يتابع ما بين قرية (كوّزن – Kewzen) في مساحة شبه سهلية، وسط هذه الجبال إلى الجهة الغربية من الطريق، أما في الجانب الآخر الشرقي على هضبة مطلة، تقع قرية (كَوج نيس ـ Kuçnîs)، خلف الهضبة ترقد قرية (إركند – Êrkend).. ومن ثم على أطرافها الوديان، تتفرع إلى فرعين، الأول: يؤدي إلى قرية (هوت)

والثاني: إلى قرية (تريان).

في تقاطع مثلثي على الضفة اليمنى التي يغطيها القصب، ترسب مياه النهير رملاً أشهب بغير انقطاع، على حين أنها تأكل الضفة اليسرى التي هي شديدة الانحدار، وعرة.. مزدحمة بجذور أشجار السنديان المسنة، وأشجار الدلب الغضة، وأشجار أخرى صغيرة، تحولت إلى أحراش من الصعب شقها راجلاً.

منذ عدة سنوات، تم شق هذا الطريق للمهمات العسكرية، كغيرها لأغلب الطرق في المنطقة، كلما يقترب الطريق من القرية على مسار حافة الوادي من الجهة اليسرى، تشعر وكأنك تسير في شارعٍ على جانبيه ناطحات سحاب، ذلك الوادي الذي تتدفق فيه مياه الينابيع النابعة من ذوبان ثلوج قمم (هركَول) أسفل الطريق، على جانبي المجرى فُتحت قنوات لري البساتين، وإلى جانب ذلك تستعمل هذه القنوات كطاقة لإدارة الطواحين، والتي لا تزال تحافظ على طرازها القديم، طواحين مائية، ربما كبار القرية فقط يعرفون متى بنيت، لكنها حتى الوقت الحاضر لا تزال تعمل بالآلية نفسها.

الشيء الأكثر إلفاتاً للنظر أنه عند الوصول إلى أسفل القرية تتراءى سلاسل أشجار الحور العملاقة، كجدرانٍ تفصل البساتين عن بعضها، تتداخل وتغطي الوادي من بدايته إلى داخل الأزقة، وعلى امتداد مجرى النهر الصغير بتموجاتها المهيبة تجاوباً مع نسمات الهواء، وأنت إذ تسير بينها تشعر بنوعٍ من وحشة الظلمة، بحيث تحجب عنك زرقة السماء

لكثافة فروعها وتداخلها، بينما البيوت الحجرية والمسقوفة بالطين متلاصقة ببعضها.. هي نموذج القرى الكردية الجبلية.

إلى الجهة الشرقية من مجرى الماء، وما إن تصل إلى القرية، حتى ينفتح أمامك فراغٌ على شكل قعرٍ عملاق حيث موقع القرية، كأنها وسط ساحة ملعبٍ كبير، تحيطها القمم من الجهات الأربعة، بشكل شبه دائري، فقط الوادي الذي يصل منه الطريق هو الممر الوحيد في مستوى هذه المساحة، التي تنتصب عليها القرية، يظهر الوادي كممرٍ يخترق جدران قلعة.

قرية تبدو من أول نظرة أنها لا تتجاوز المائة بيت، متداخلة مع بعضها بعضاً، بيوتها تتدرج منحدرة، تتألف البيوت على الأغلب من طابقين، يستخدم الطابق الأرضي كزريبة ومستودعٍ للمؤن، وتحيطها أكوام القش على شكل أسيجة، أما تداخل صرخاتَ الأطفال وعويل النساء.. النباح.. الخوار.. فيدل رغم كل شيء على استمرارية الحياة في أعماق ذلك الوادي المخفي.

في الجهة الشمالية الشرقية من القرية، بعيداً بعض الشيء عن البيوت، تقع المدرسة التي أنشأها الاستعمار التركي بعد انطلاقة شرارة الكفاح المسلح بسنوات قليلة تحديداً، كان الهدف منها عموماً هو التعليم، ولكن سرعان ما تحول إلى شيء آخر، ها هي الآن باتت ثكنة عسكرية، توسعت الأبنية من حولها على الرابية، أصبحت على شكل قريتين؛ قرية كردية قديمة بجانبها قرية حديثة، يسكنها ناس آخرون غريبون مسكناً

وملبساً، مقارنة مع تلك الطبيعة الفطرية، هم جنود جاءوا من زوايا متروبولات تركيا، غرباء عن واقع الأرض بكل تفاصيل حياتهم، حتى اللسان، كأن تأتي بمسخ من إسطنبول بآخر الصرعات، وتضعه بجانب فتاة كردية من فتيات هذه القرى الجبلية، اللواتي لم يعرفنَ من العالم شيئاً سوى القرية والجبل ومكوناته.

عندما قطع الجرار الجسر الصغير، أسفل القرية مع بداية الصعود، داس السائق على دوّاسة الوقود بكل ما له من قوة، بينما العجلات أحياناً كانت تعجز عن تحقيق أي تقدم، كانت تدور كمروحة في مكانها، مما تسببت بتطاير الأتربة، سرعان ما ارتفعت سحابةٌ من الغبار بدأت تتناثر في الأطراف، والحصى يتطاير كالشظايا، علا الغبار مغطياً العجلات وصولاً إلى الراكبين، فتراكض الأطفال الذين ينمون في هذه القرى النائية كالنبات البري بلا رعاية أو تهذيب، ملاحقين الجرار، منهم من يجرون لاستقبال ذويهم القادمين، ومنهم من يركض خلف فضوله الطفولي، خرجت بعض النسوة أمام الأبواب، ومدت البعض منهن رءوسهن من النوافذ بنفس فضول الأطفال، إلى أن توقف الجرار وتوقف زعيق المحرك.

بعد كل تلك الضجة ساد الصمت أجواء القرية ثانيةً، ولم يبق إلا أصوات الذين تجمعوا حول الجرار، ناسٌ بسطاء يستطيع الإنسان أن يحادثهم وأن يمازحهم دون أن يهتم بمراكزهم الاجتماعية.. امرأة تمسك بيد طفلها، وتحمل الآخر محتضنةً، أطفال أنصاف عراة، ذوو سيقانٍ

رفيعة وبطونٍ منتفخة، رجلٌ مسن يتوكأ على عكازته، شابٌ يسير متقدماً بخطى واسعة، تجمعوا حول الجرار.. ترجل القادمون من مدينة «سيرت».

كانت بين الذين وصلوا لمساعدة القادمين امرأة سمراء البشرة، جميلة الملامح، كانت مزيجاً من جمال مكنونات الطبيعة الجبلية، تعقد منديل الرأس تحت الذقن، الأناقة والنظافة وحسن الذوق أمور متأصلة في نساء الكرد، تتجلى في لباسهن، وكذلك في ترتيب بيوتهن.

كل من يراها لا يتمالك نفسه إلا ويقف مبهوراً، أمام ذلك السحر الأنثوي الذي يسلب القلوب، لا تزال بنضارة الصبا، في حوالي الثلاثين من العمر، ولكنها تبدو أصغر بكثير، يتقدمها طفلٌ لم يبلغ ربيعه العاشر، سرعان ما تقدمت من حمو والابتسامة لا تفارق محياها، عندما أطلت من النافذة الصغيرة أمام الدار، أسرعت بهار بالحضور، ومعها الابن البكر الذي ما إن وقع نظره على والده حتى أسرع إليه متقدماً أمه مسرعاً نحو أبيه وهو ينادي:

– بابا.. أبي.. جئت.. جاء بابا.. أهلاً.. بابا..

– (كَرناس) كيف حالك؟ تعال.. تعال، ساعد والدك.

قال ذلك حمو ولكن بفتور، لم يكن مثل كل المرات، لم يحتضنه أو يقبله، بينما الطفل لم يكن مهتماً بكل ذلك.

– أبي.. ماذا جلبت لنا من «سيرت»؟

– تعال.. تعال.. احمل هذا الكيس.. أين والدتك؟

- إنها قادمة يا أبي.. ها هي.. والتفت إلى أمه وتابع:

- تعالي يا أمي، ها قد عاد أبي..

من عادة الرجل الكردي، كبت عواطفه ومشاعره تجاه زوجته أمام العامة، ليس من اللائق أن يكلم امرأته أمام الآخرين بلهفة فيها الرقة والعاطفة، أو أن يثرثر معها بحضور صحبه، بينما على العكس يطلق العنان لعاطفته الأبوية تجاه أطفاله وباعتزازٍ، وكذلك المرأة لا تجرؤ على ذلك، إذ يُعتبر إظهار لهفتها على زوجها أمام الآخرين من الأمور التي تخل بالأدب والحشمة.

تحدث حمو إليها وكأنهما لم يفترقا إلا لدقائق، كان قد أنزل عدة أكياس مليئة بشتى الأشياء، من احتياجات العائلة.

بينما هم متوجهون نحو المنزل، كان الخبر قد سبقهم منتشراً وسط القرية؛ (القادمون وقعوا في كمين الآبوجية[1]..جردوهم من أسلحتهم).

الخبر كان قد وصل إلى الثكنة لاسلكياً، من ثكنة «خرخور».

لم ينتظر حمو مجيء رئيس حماة القرية، فما إن أودع ما جلبه من المدينة في المنزل، حتى توجه مباشرة نحو الثكنة، وأنهى تقديم تقريره عن ما جرى دون أية إجراءات فورية أخرى.

جلس حمو في إحدى الزوايا متكئاً على وسادة مهموماً مطرقا، ليس

(1) الآبوجية: نسبة إلى زعيم حزب العمال الكردستاني PKK عبدالله أوجلان، في تركيا مختصراً يطلق على اسم عبدالله (آبو).. وكانوا يطلقون على أتباعه «الآبوجية»..

كعادته بعد استلام راتبه، حيث كان يفرغ الأكياس والحقائب، وما جلبه لأولاده، يعطي كل واحد ما له بنفسه كإثبات لواجب الأبوة على الطريقة الجبلية، كانت الهدايا من الأنواع التي لم يكن أطفال هذه القرى قد رأوها من قبل، لُعَبٌ ميكانيكية، عرائس ترقص وتتواثب، سيارات تعمل على البطاريات، بينما بهار كانت تنتظر دورها ولتكون آخرهم، ويكون الأولاد ملتهين بألعابهم، وأكثر الأحيان يكونون قد خرجوا ليلعبوا في أرض الدار، بينما كان حمو ينتهز الفرصة، فيخرج هديتها الخاصة، لتتناولها بهار من يده بطريقة مثيرة، الطريقة التي تدل على إخلاص وأصالة الأنثى الحقيقية.

الأطفال متلهفون من حوله بينما بهار تنتظر، لم يحرك حمو ساكناً، الأشياء بجانبه، لم يمد يده إليها، الكل ينتظر هدية الراتب، حتى يئسوا، فالأطفال لا يعرفون الانتظار، شعر الجميع أن والدهم مهموم وعلى غير طبيعته.

قطعت كَولى الصمت واليأس:

– أبي ماذا جرى؟ ماذا جلبت لي.. يا أبي؟

لكنه بقي متسمراً ينظر إليهم دون أن ينطق ببنت شفة، عرفت بهار أن الأمر متعلق بما حدث معهم في الطريق، فما إن رأت وجهه حتى أدركت أن أمراً جللاً قد وقع، ولكن الأهم أنه وصل بسلام، كان حمو فزعاً يتصبب العرق من جبينه، قالت بهار في قرارة نفسها «ماذا جرى؟»، ثم فضلت أن تسأل:

- هل تشعر بوعكة يا حمو؟ أو من سوء.. لا سمح الله؟

عاد يرفع نظره مباشرة إلى عيني بهار السوداوين اللتين تقدحان الدفء، بينما نظرات حمو على العكس، لم تعد تعبر إلا عن الحيرة والهمّ، فوجهت كلاماً إلى الأطفال، علّه لا يريد البوح أمامهم، وقالت:

- والدكم مرهق.. اتركوه ليرتاح، بعدها سيوزع عليكم هداياكم.

انتظرت إلى أن خرج الأطفال.. تابعت:

- ها هو الغداء جاهز، لقد حضرته اليوم باكراً، سأقدمه لك.

حمو لا ينتظر الغداء، كان فاقد الشهية، كيف سيبتلع اللقمة بعدما حصل؟

في صدر غرفة الجلوس، كان السلاح من نوع (G3)، يتدلى مشنوقاً، تقدم حمو نحوه وهو يرمقه ببرود، وكأنها المرة الأولى التي يتفحصه، رغم أنه معه منذ أكثر من أربعة أعوام، هي المرة الأولى التي ينظر فيها إليه بعُمْق، مد يده إليه وأمسكه من مقبضه، يقلبه بين راحتيه، كأنه الشيطان، حقاً هو الشيطان، كيف دخل هذا العفريت بيتي؟ سائلاً في نفسه.

حمو الذي تعلم القراءة والكتابة أثناء خدمته الإلزامية في الجيش التركي، بالكاد يستطيع قراءة الحرفين المحفورين على المقبض (TC)، بجانب الحرفين حُفِرَ هلال تتوسطه نجمة (العلم التركي)، فور وقوع نظره على هذا العلم تذكر اليوم الذي تعرف فيه على ذلك النقش، أثناء خدمته العسكرية، حيث كانت اللغة الكردية ممنوعة، مما اضطره إلى

تعلم اللغة التركية التي أتقنها بشكل جيد، فمن كان يتحدث بالكردية كان يعاقب.

في الشتاء وأثناء الجلسات الليلية، كان حمو يتحدث عن ذكرياته أثناء الخدمة، خاصة تلك الحادثة التي وقعت مع أحد زملائه، كان من (آگري)، حيث انقض عليه الجنود الأتراك وركلوه حتى فقد الوعي، فرشوه بالماء كي يعيدوه إلى وعيه لينهالوا عليه بالضرب ثانية، كل ذلك فقط لأنه تحدث بالكردية، بينما هو كان صامداً كالجبل الذي ينتمي إليه، ظل يصرخ: «لو تقطعون رأسي لن أتحدث بالتركية.. حتى ولو كلمة».. بعد أيام لم يعرف أحد ماذا جرى له، كأن الأرض انشقت وابتلعته.

عاد حمو إلى الداخل والبندقية لا تزال بين يديه.. اقترب من النافذة التي كانت تهب منها نسمات ربيعية منعشة.. شعر حمو بانتعاش، وكأنه لأول مرة في حياته يتنفس مثل هذه النسمات، تنفس عميقاً، ولكن ما يدور في دماغه كبل أحاسيسه وسرعان ما أعاده إلى الواقع، بجانب النافذة كانت صدرية المخازن معلقة مع قميصه المقلم بخطوط بيضاء وسوداء عريضة، عندما حمل صدرية المخازن العسكرية، استقرت نظراته على قميصه المقلم.. راح يحدّث نفسه: «آه يا حمو.. هكذا هي الحياة (أبيض وأسود)، ولكن حياتي ليست كخطوط هذا القميص، فالخطوط البيضاء والسوداء مفترقة عن بعضها بشدة يا حمو.. صحيح إنه قميصي.. عندما ألبسه أظهر من الخارج بمظهر وكأنني وضعت

الحد ما بين اللونين.. كلا يا حمو.. داخلي.. المهم هو داخل الإنسان.. كيف هو؟ أنا الأبيض والأسود.. داخلك يا حمو..كما يقوم طفل.. بأن يعبث باللونين ويمزجهما مع بعضهما.. الحقيقة غير معروفة.. داخلي ليس واضحاً حتى مثل هذا القميص، أنا الأبيض وأنا الأسود يا حمو».

أغمض حمو عينيه، عصف غموض الآهات بداخله، وهو يلتفت ولا يدري لماذا لم تكن لديه الرغبة، حتى لينظر إلى نفسه في المرآة متوسطة الحجم، التي كانت بجانبه، كما كان يفعلها سابقا لأكثر من مرة عندما يعدل من هيئته قبل الخروج، تنقل بنظره ليستقر مباشرة على الصورة التي تعتبر من أكبر الصور المعلقة في صدر غرفة الجلوس، إلى جانب صورة والده وصور له أيام كان في خدمة الجيش التركي، صورة لا تقل عن ستين سنتيمتراً ارتفاعاً ذات إطارٍ ذهبي دقيق، ينظر إلى نظرات صاحب الصورة الذي كان حمو يخاف ويستعجل في سيره وهو يمر من أمام تمثاله وسط مدينة سيرت.. بدا له أنفه كمنقار هدهد.. عيناه زرقاوان باردتان.. عمّ تعبران؟

«آه يا حمو.. في يوم من الأيام، قبل إجبارك على الخدمة العسكرية، كنت تكره علناً حتى ذكر اسم هذا الرجل.. ماذا جرى لك؟ كم مرة قمت بإحراق صوره؟ وكم مرة فقأت عينيه بأعقاب السجائر وغيرها كلما كانت صوره تقع بين يديك.. دون أن تفهم الدافع الحقيقي؟! ها هي صورته معلقة في صدر بيتك».

لأول مرة تخطى حمو ما هو معهود، عندما تساءل: لماذا أشعر

بالاشمئزاز والكره عندما تقع عيني على صور هذا الرجل وتماثيله المنتصبة في الساحات؟

قطعت صمته، فقالت وهي تضع الغداء:

– ها هو الغداء يا حمو.. الغداء جاهز.. (عندما قالت ذلك،انتبهت إلى البندقية وصدرية المخازن بين يديه).. لتتابع:

– ماذا هناك يا حمو؟ لم تصل بعد.. هل ستخرج؟ هل طلبوك؟ صحيح يقال: الذين في الجبل أوقفوكم في الطريق، وأخذوا أسلحة الجميع.. هل هذا صحيح يا حمو؟ هل ستخرجون إلى الجبل؟

و لكن هو اختصر وقال:

– صحيح يا بهار.. لكن لن أخرج.. بعد اليوم لن يكون لي صعود للجبل معهم.

بينما حمو يتابع هامة بهار.. القامة الهيفاء.. الشعر الكثيف الذي يتدلى من أسفل المنديل الذي يغطي الرأس، الزمن الذي لم يستطع أن يغير منها شيئاً، تدفقت عاطفته.. حبه لها، راحت عيناه تنظران إلى الأُفق البعيد عبر النافذة، وهو يتذكر ولعه بها منذ كانت فتاة في بداية العمر.. آه كيف سيتخلى عن ذلك الوجه الجميل؟ بدأ يتصور تلك التخيلات الموحشة.. بدأ الدم يغلي في عروقه.. إذن سيصبح موضع سخرية الجميع.. الآن.. الآن يا حمو.. يجب أن تذهب.. ستعيد هذا العفريت إلى أصحابه الخنازير.. الآن.. دقيقة قبل أخرى.. يكفي.. يجب ألا يبقى يوماً آخر، يجب ألا أنتظر نهاية هذا النهار.. ولن تمكث هذه البندقية في

بيتي، على وجه السرعة قال وهو يخطو نحو الباب.. ثم أضاف يقول على غير توقع وهو يهبط الدَّرَج:

– سأعود بعد قليل.

– تناول غداءك ثم اذهب.. إلى أين بهذه السرعة.. ماذا وراءك؟؟

دون أن يجيب، خرج مسرعاً، لسرعة نزوله داس على ذيل الكلب عند نهاية الدرج، حيث كان ملتفاً حول نفسه، حاشراً أنفه أسفل ذيله.. مما جعله يرتعد منتصباً.. ليس بنباح، بل بأنين.. كأنه صرخ وهو رافع رأسه نحو صاحبه، بطريقة توحي أنه يعاتبه.. وحده الله يعلم ماذا كان قد فعل، لو لم يكن صاحبه، فهو الكلب الوحيد من بين كل كلاب القرية، الذي يطوق رقبته بطوقٍ، مثبت عليه رءوس حادة، تشبه رءوس الرماح، وأكثرها شراسة، لحق الكلب صاحبه إلى خارج أرض الدار، لكن حمو لم ينظر إليه، فعاد إلى مكانه بهدوء، يبدو أنه فهم أنه ليس بحاجة إليه.

سار حمو بين أزقة القرية متجنباً مجاري المياه الآسنة الملوثة، التي تخرج من الحمامات والمغاسل، لكي لا يتسخ حذاؤه الرياضي، حاملاً السلاح على كتفه محزوماً بصدريته، سار في تلك الأزقة متباطئاً، لم يجد هذه المرة مبرراً ليلبس الصدرية أو ليعلق البندقية على كتفه، فحملها بيده اليمنى، ماسكاً مقبضها كأنه راع يمسك عصاه، يحمل شيئاً غير مهم، مطأطئ الرأس، ثقيل الخطوات، اتجه نحو الثكنة، وباقترابه منها شعر بغصة في حلقه، ازدادت كلما اقترب أكثر، شعر بنوع من التوتر أو بالأصح

شجاعته بدت كأنها تخونه، كان يخطو خطوات رغماً عن نفسه، بصورة لا شعورية أو لا إرادية، وبينما كان يمشي تعثر بحجر فاختل توازنه وكاد يقع ولكنه اعتدل دون أن يلتفت، فهو لا يهتم بما حوله، تابع سيره بصورة لم يعد يرى فيها كيف يخطو أو أين يضع قدمه، كأنه في شبه غيبوبة، يفكر بنقطة واحدة فقط.. متجاهلاً غيرها.

«كيف سيواجه الضابط (آroول)؟ وهو يعرف طبيعته.. ماذا سيقول له؟ كيف سيوضح له الأمر؟ بدأ بإعداد الكلمات والجمل التي يجب أن يقولها، كيف عليه الدخول في الموضوع.. ولكن هل سيصدق؟ هل سيقبل بهذه السهولة.. أن يعيد السلاح؟!

«ماذا تفعل يا حمو؟ يا أحمق! هل تعلم ما معنى ذلك.. هل نسيت؟» قال ذلك لنفسه.

عندما وصل إلى ظل شجرة الجوز المعروفة باسم شجرة خَلّكه، الشجرة الأضخم في القرية، الشجرة العملاقة، يفوق حجمها حجم البيت الذي بجانبها عدة مرات، الشجرة التي يبدو ظلها، كظل مظلة بحجم جبل، هنا قطعان الماشية تجتمع في ساعات القيلولة، وتسرح بالمرج الفسيح الأخضر الذي يحيط بها.

على بعد خطوات إلى الأعلى، هناك شجرة جوز أخرى، أقل منها حجماً، تتدفق مياه النبع من بين جذورها، ماء قراح، شديد البرودة.. قام القرويون ببناء بركة صغيرة أسفل النبع، برصف أرضيتها، وبناء جدار على ارتفاع الركب بالحجارة والإسمنت، جدران عريضة بمثابة

بلاطات متوسطة الحجم للجلوس، مع مرور الأيام أصبحت مرمرية الملمس، وضعت في البركة صفيحة صغيرة، ثقب أحد طرفيها وربط بسلك في نهايته عدة حلقات من سلسلة رفيعة، أما الطرف الآخر فهو مثبت بمسمار في جذع الشجرة لكي لا تضيع أو يأخذها أحد، لتكون دائمة الوجود وفي خدمة المارة.

مجرد النظر لتلك المياه البلورية.. الثلجية.. شديدة البرودة، سرعان ما تغريك وتدفعك لغرف صفيحة منها وتفريغها داخل جوفك.. خاصة أيام الحر.

حمو كذلك حينما وصل البركة حيث النبع، رغم أن تفكيره ما يزال منصباً في بوتقة ذلك الموقف، أراد أن يشرب.. بَكَرة دماغه لا تتوقف، ولكن بينما السؤال، بل الموقف المحير يرن في دماغه، يهوي على دماغه كضربات المطارق.. يكرر ويكرر، يحدث نفسه:

«ما معنى ذلك يا حمو؟ أن تذهب لتقول: إني أريد أن أسلمكم بندقيتكم.. بعد أكثر من أربع سنوات.. ما معنى ذلك؟ سأكون في نظر «آروول» ابن (..) قد أصبح إرهابيا.. أليس كذلك؟ ولكن لماذا؟

أريد أن أسلم السلاح، يكفي خدمتهم كل هذه السنوات، وأما الآن، أريد أن أعمل في مهنة، أي شيء آخر غير حمل السلاح.. ما علاقتكم بي؟ أنا حر، سأكون حراً، أُريد أن أكون كذلك، لست جندياً إلزامياً ولا متطوعاً في جيشهم، لقد أديت تلك الخدمة كذلك.. ما علاقتكم بي؟ لم أحمل السلاح بإرادتي.. أنتم أجبرتمونا مكرهين جميعنا، لن أنسى،

وكيف لي أن أنسى؟

أجبرونا باستثناء (..) لقد كانوا هم سبب كل هذه المصائب.. «رأس الأفعى» (من تحت راسك).. موجهاً نظره باتجاه بيت المختار.. نعم أنت السبب يا (كَرو).

كانت كنته الوحيدة «زينب» تكنس أرض الدار، عقدت منديلها وراء عنقها، ومن بعيد تظهر جدائل شعرها المرسل.. دقيقة القوام، مياسة القد، طويلة ضفائر الشعر، واسعة العينين.. لكنها متوحشة جلفة.. وفي الوقت نفسه ذكية قادرة على الفهم.

«آه أيتها (..)، أنتِ أيضاً مثل عمك كَرو وزوجك، بدون شرف.. هو أفعى ابن أفعى، صحيح ما يقولون: (لا تخلو صغار الأفاعي من السم).. زوجكِ يا زينب كوالده فعلاً: (الكلب خلف جرو، طلع أكثر نجاسة من والده)».

تذكر الليلة التي استنفروا فيها، وخرجوا جميعاً إلى عملية التمشيط في الجبل، في منتصف الليل خارج الثكنة، تلك الليلة كانت مناوبة حمو واثنين من الحماة مع فصيل مهمة الدورية حول الثكنة والقرية، في إحدى جولاتهم وسط البساتين سمعوا همسات ونوعاً من قهقهات أنثوية مثيرة، صادرة من وسط الظلمة، أخذوا أماكنهم، هو الوحيد الذي تطوع للاقتراب والدخول إلى البستان، اقترب بحذر، إذن ماذا رأى؟ استعاذ بالله، على ما وقعت عيناه عليه تحت ضوء القمر، كانت نصف عارية، سرعان ما تعرف عليهما، هي وشريكها الضابط المناوب دوران،

أما هي.. بدون حياء أو خجل، لم تتحرك من مكانها.. ظنته أحد الجنود أو صف الضابط المناوب مع عشيقته، الضابط تعرف على حمو مباشرة، وفهم عواقب فعلته القذرة تلك، لحق بـ«حمو» وبدأ يتوسل إليه، حاول إرضاءه، عرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، مقابل ألا يفجر رأسه، وأن يكتم ما رآه، ليلتها «حسنٌ ما فعلت يا حمو » كلما يتذكر الموقف، يشعر بنوعٍ من الرضا عن نفسه، كيف رمى النقود بوجهه لم يكتفِ بذلك، لقد كانت المرة الأُولى التي يهدد فيها ضابطاً تركياً، مسدداً فوهة بندقيته إلى صدره تماماً، ليلتها، لو حاول ذلك الوغد أي محاولة غير حميدة لكان حمو فعلها وفجر رأسيهما، واعتبر الأمر اشتباه لتسلل الإرهابيين، فقد كانوا في مهمة رسمية.

وضع حمو نفسه في موقف خطر من أجلها، وهو يتوعد الضابط دوران: «معك أسبوع واحد.. إذا لم تنتقل من هذه الثكنة اعتبر نفسك ميتاً».

نعم كانت المرة الأولى التي يركع فيها ضابط تركي عند قدميه يرجوه ذليلاً.. بينما فوهة البندقية مصوبة إليه، حاول الضابط إيجاد حيلة أو مبرر، لكن حمو تركه بشرط ألا يرى وجهه مرة أُخرى.

فعلاً، وفي ظرف أيام كان الضابط «دوران» قد وجد لنفسه حجة وانتقل.

(آروول) أوسخ منه.. لولا المختار » كَرو _Guro» لما كنا في هذه الحال.

في المرة الأولى عندما حاولوا توزيع البنادق الحربية في القرية، يومها جمعوا الرجال.. «لن أنسى ما حييت، ما فعلوه بنا؟ عندما رفضنا حمل السلاح أخذونا عنوة، بل جرجرونا إلى الثكنة.. ومن ثم إلى «سيرت».. كم من الأيام والليالي قضيناها تحت التعذيب! آه.. فقط ذلك، وقتها ركلني أحد الجنود الخنازير وأغمي عليّ، وجدت نفسي في المشفى، كان أحد أضلاعي اليمنى قد تحطم، على أثرها قضيت ثلاثة أشهر في المشفى.

كان «حمو» يتحدث إلى نفسه وكأن الألم عاد إلى ضلعه ثانية.. آه.. ليتني استمعت إليكِ يومها يا بهار، ليتنا تركنا القرية ورحلنا كما فعل أخي خليل، هو أيضاً تعرض للتعذيب مثلنا، لكنه فور عودته رفض شرط حمل السلاح والانضمام إلى تشكيلات «حماة القرى – الجتى» واتخذ الخيار الثاني؛ الرحيل وترك القرية، حمل عائلته وها هو منذ سنوات يعيش في أضنة»، ماذا جرى له؟ هل مات؟ كلا.. حالته أفضل من حالتي، نعم وضعه المادي تعيس، لكنه حر ويعيش بشرف، أما أنت يا حمو أصبحت أحمق، حملت السلاح لتبقى في القرية، كان يصعب عليك ترك القرية.. البستان.. قطيع الماشية الذي كان يتجاوز الألف رأس.. أين كل ذلك؟

تذكر ملامح الضابط «آروول» عندما يضحك.. يصرخ، لا يعرف حمو كيف ولماذا يشعر بنفورٍ.. غضب.. وغثيان في داخله، عندما ينظر إلى وجهه الذي يشبه وجه أتاتورك.. إنه مخيف.. ماذا أفعل؟

شجاعته تخونه.. هل أعود؟ ذلك أفضل.

بينما صدرية المخازن وكيس من الطلقات والبندقية بين يديه.. كمن يحمل زوائد، يريد التخلص منها.. ولكن في أي زاوية يرمي بها؟ بدأ يبحث عن مكان.. كأنه وسط مدينة مزدحمة، يبحث عن سلة للمهملات.. ولكنه لا يعرف أين تكمن؟

فجأةً قرر العودة.. نعم العودة، يكفي أنهم حطموا أحد أضلعي مرة، هذه المرة لن أتحمل «نعم يا حمو لن تتحمل المزيد.. الأفضل أن تعود»، وكاد أن يعود من حيث أتى، ولكن كيف له أن يعود؟ العودة! ماذا يعني ذلك يا حمو.. أعود؟!

تذكر عيني بهار السوداوين.. ضحكتها.. ابتسامتها الملائكية.. شفتيها الرماديتين.. ذلك الشعر المنسدل.. آه.. ينظر إلى السلاح بينما صورة بهار في خياله، أطفاله، تذكر خطوط قميصه.. إما أبيض أو أسود.. إما السلاح أو بهار والأطفال.. لا طريق ثالث يا حمو..

«لقد أقسمت، وذلك كان قراري، ولأنه كان قراري ومهما كانت النتائج لابد أن أنفذه.. لا طريق آخر، كلا يا بهار من أجل تلك العينين سأفعل كل شيء.. أنتِ زوجتي وأم أطفالي.. أنتِ حياتي.. ما هذا، هل جننت يا حمو؟؟ بهذه السرعة نسيت، بماذا كنت تحلم هذا الصباح؟ ألم يكن حلمك زوجة أخرى، نعم زوجة وبشرط أن تكون أقل من العشرين؟

اللعنة على المال وهذا الراتب.. نعم أخي خليل والجميع كانوا يقولون

إنه مال حرام..

الحياة مع أطفالي ومعكِ يا بهار.. أما مع هذه.. » نظر إلى البندقية، «ليس هناك سوى الموت.. من أجلك ومن أجل الأطفال والرضيع، يجب أن أتخلص من هذا البلاء، فليحدث ما يحدث.. فليحطموا كل أضلاعي.. لا ضلعاً واحدة».

- 3 -

كانت السماء قد غزتها جبال من الغيوم الربيعية التي باتت انعكاساً لهذه الجبال، السماء مرآة تعكس صورة الأرض، العرق يتصبب على جبين حمو، انسلت قطرات إلى عينيه، شعر بحرقة ففركهما، لم يستطع أن يستغرق في التمعن كعادته بالأشكال الخرافية لتلك الغيوم، كل ما هنالك أنه تذكر تأديته القسم أمام الگريلا، قبل أن يرمي الحصيات الثلاث.. عندها، وحين رفع رأسه، كانت السماء صافية.

توقف للحظة وفي صدره ضيقٌ يتفاقم، أحس بقدميه تقودانه لمصيرٍ مجهول، توجه إلى زقاقٍ آخر تؤدي نهايته لآخر بيتٍ في القرية، حيث الثكنة التي تموضعت فوق سفح تلةٍ مطلة على القرية، على شكل رابية، في الجهة الشمالية الشرقية، كانت القرية بكاملها تتعرى أمامها.. تم تسوية سطح تلك الرابية بالآليات، وكانت تلك المرة الأولى التي دخل فيها الوحش الآلي «الجرافات» هذه القرية.

عندما شقوا الطريق أسفل التلة قبل سنوات دون تجاوز أسفل القرية، كان هذا الوحش يومها يعتبر حيواناً خرافياً لا يُصدّق من قبل أغلب أهل القرية، وبما أنها المرة الأولى التي يشاهدون فيها آليات،

توافدوا جماعاتٍ ووحداناً ليروا كيف تندفع تلك الجرافات الخرافية العملاقة، وتجرف الصخور والأشجار، وتشق الجبل الذي كان يراوغ الأسنان المعدنية للآليات.

بدا لـ«حمو» أنه يصعد إلى قلعة من قلاع القرون الوسطى لا إلى ثكنة، كانت قد أنشئت كمدرسة ليقصدها الأطفال.. الصعود إليها يتطلب الكثير من المشقة، تلك الثكنة الواقفة هناك، أُحيطت بجدارٍ ترابي من حولها على شكلٍ دائري أشبه بالسدود، ضمن ذلك الجدار الترابي، تم توزيع وبناء خنادق إسمنتية مسقوفة، تطل منها فوهات البنادق والرشاشات والأسلحة الثقيلة نحو الخارج، وحول الساتر الترابي إلى الخارج، سيجت بعدة خطوط من الأسلاك الشائكة، بعضها موصولة بالتيار الكهربائي، لمنع الاقتراب أو اللمس، إضافة إلى حقل الألغام الذي يتجاوز عرضه الخمسين متراً، ما بين خطوط الأسلاك والجدار الترابي، أما الأبنية، فقد أضحت في القعر لا تظهر منها إلا سقوفها المعدنية «الصفيح».

من الجهة الشرقية للثكنة باتجاه الأعلى، هناك تفرعات عديدة من الوديان التي تنحدر من قمة الجبل، كما توجد مسافة، حوالي ثلاثمائة متر، مزروعة بالألغام لتمنع القرويين وكذلك قطعان الماشية من التجول أو الاقتراب، منطقة تم تنظيفها من الأشجار، وسويت تضاريسها، ويتم بين الحين والآخر حرق الأعشاب التي تنمو فيها، كل ذلك لحماية الثكنة وتحصينها أمام هجمات الگريلا.

في خريف العام الماضي حدثت حادثة، في منتصف الليل فتح الحراس نيران رشاشاتهم، على أن هنالك محاولة تسلل من قبل الكَريلا (الإرهابيين)، فاستنفرت الثكنة وحماة القرية، بكل ما يمتلكون من رجال وعتاد، تلك الليلة لم يذق أحد طعم النوم، ولم تتوقف الرشاشات عن الزعيق، ودوي الانفجارات على أطراف القرية والثكنة استمر إلى ساعات الفجر، كان يتم إطلاق النار على كل شيء يتقدم أو يتحرك من حول الثكنة، ولم يستطيعوا فهم ما جرى إلى أن أشرقت الشمس، لم يكن المتسللون سوى عجلٍ لأحد القرويين، كان قد خرج من الإسطبل واتجه نحو الثكنة، وجدوه مضَّمخاً بدمائه.

في الفترة الأخيرة اتُخذَتْ هذه التدابير والتحصينات بشكل عام، في كافة المراكز والثكنات العسكرية للجيش التركي في المنطقة، هذا بعد عدة هجمات نوعية نفذتها وحدات الگريلا، حيث تم فيها اقتلاع عدة ثكنات من جذورها، كعملية (ماوان) في شمدينان و(تشقورجة)، فقاموا بتطوير نظام الدفاع للثكنات بصورة تلائم الحجم العسكري، الذي وصلت إليها قوة الگريلا الضاربة والهجومية.

حين التفت حمو لآخر مرة، كان المنعطف قد حجب معظم القرية عن نظره، إذ شعر بأنه ينطلق بخفة وسرعة، وفور وصوله إلى الشق الذي بقي كفراغ في الجدار الترابي، الطريق المؤدي إلى الثكنة، على يمين الساتر الترابي باتجاه الخارج، وعلى مساحته رسم الجنود فسيفساء من الحجارة صبغوها بالكلس الأبيض، لتكون النجمة التي تتوسط

الهلال، وأسفل الفسيفساء رسموا حرفا [1] TC بخط عملاق، وعلى طول الساتر مقابل القرية شعارات قرأها حمو مستهزئاً كما كان يقرأها يوسف ابن أخيه خليل، عندما جاء لزيارتهم من (أضنة).. مثل:

(Nemutlum turkmdigem) وتعني (أفتخر لأنني تركي).

هي موجودة على يمين الشق، الذي هو المنفذ المؤدي إلى ساحة الثكنة، كما كتب على الطرف الآخر، أيضاً بالتركية «كوماندو الجبال»، أما على امتداد الطرف الآخر هناك، فقد كتب بحجمٍ أطول: «تركي واحد يعادل العالم».

حمو هذه المرة، لم ينظر إلى أي جهة وهو يصعد، كان العلم الأحمر ذو الهلال والنجمة الأبيضين فوق المنشآت، شبه مهترئ، كطيرٍ يترنح بعجز تحت ضربات عواصف جبل هركَول، وهو في طيرانه يعيش سكرات أنفاسه الأخيرة.

على بعد عدة خطوات من فوق الحراس، كان أحد الجنود يجلس خارجاً أمام باب المحرس، أما الحارس الآخر، فقد كان داخله، وفوهة رشاش الـ(MG3) نصف مصوّبة نحو الخارج، سلسلة الطلقات متدلية، وتختفي إلى داخل كوة المحرس.

– خير حمو؟ خوش كلدن. (قال ذلك الجندي الجالس أمام المحرس).

(1) TC: حرفان يرمزان إلى اسم (الجمهورية التركية).

خلال هذه السنوات تعرف حمو على معظم جنود الثكنة، بات يعرف الكثيرين منهم وبأسمائهم، على الفور رد التحية مع ذكر اسمه:

- مرحبا «قورتاي».. كيف حالكم؟

مد الحارس الآخر برأسه من فتحةٍ جانبية في المحرس، هز رأسه ملقياً التحية، فرد حمو بالمثل، رغم وضعه غير المناسب ليبادله الابتسامة، لكنه فعلها احتراماً، فهو العسكري (مصطفى)، كردي من (ماردين)، يعرف حمو عنه الكثير، له أقارب كثر بين صفوف الگريلا، مصطفى حدثه في أحد المرات، عندما حان موعد التحاقهم بالخدمة العسكرية، كيف هرب معظم شباب قريتهم، والتحقوا بصفوف الكَريلا في الجبال، أما (مصطفى)، فقد عَمِلَ بنصيحة خاله في المدينة، وهو عضو في حزب الشعب الجمهوري التركي وموظف حكومي كبير، (التحق كجندي في الجيش التركي)، لم يقل علناً، ولكن حمو يفهم تماماً أنه نادم.

- أريد أن أقابل الـ(بين باشي). قال حمو.

- سيادة البين باشي (الرائد) غير موجود، ولكن يوزباشي (آروول) عاد البارحة من الإجازة.. أضاف متسائلاً:

- صحيح حمو.. الذين صادر (الإرهابيون) بنادقهم، قبل قليل سبقوك الوصول، وهم الآن في اجتماع عند سيادته.

سأله مصطفى كذلك:

- ها حمو.. سمعت أنك كنت معهم.. هل ذلك صحيح؟

- صحيح.. أنا أيضاً كنت معهم. أجاب حمو.

- و لكن.. لماذا لم يأخذوا سلاحك أيضا؟

- لم يكن معي. ثم سأل: هل سيادة اليوزباشي طلبهم؟

- نعم، إنه يحقق في الأمر، هكذا جاءت التعليمات من القيادة، كيف يسلمون أسلحتهم إلى (الإرهابيين)؟ ولكن هل طلبك أنت أيضاً؟ سأل قورتاي.

- كلا، جئت من أجل أمرٍ آخر. أجاب حمو.

دخل قورتاي وحمل سماعة الهاتف واتصل بالمركز عبر الخط المباشر، وسرعان ما خرج ثانيةً.. قائلاً:

- سيادة اليوزباشي (آروول) في انتظارك، إنه في مكتب القيادة.

ما زال حمو يمسك البندقية بيده اليسرى بلا مبالاة، وبيده الأخرى صدرية المخازن وكيس الطلقات، وهو يقطع الباحة الإسفلتية، ليقطع الساحة بصورة أسرع، لم يجد الحاجة ليلتف من حول ملعب الكرة الطائرة وسط الساحة، اضطر أن ينحني ليمر من أسفل الشباك، الذي بدا أنه نصب قبل لحظات، أما الشباك القديم، فقد كان مكوما عند أحد الأعمدة التي نصب عليها الشباك الجديد، مهترئة كأنها كومة من أحشاءٍ آدمية، كومة من الأفاعي الرمادية ملتفة حول بعضها بعضاً.

لم يكن اليوزباشي (آروول) في مكتب القيادة، كما أخبره الحارس قورتاي، كان يقف أمام مقر القيادة بجانب أشجار الزعرور، التي تفتحت باكراً وأزهرت أزهارا ناصعة البياض قبل أن تتفتح

الأوراق أو تظهر أي اخضرار، فتبدو كنتف قطنية تناثرت واستقرت على الأشجار، تلك الأشجار التي نجت من مغارف الجرافات (البلدوزرات)، والمناشير الكهربائية، التي ارتكبت مجزرة تجريد المنطقة، لتكون المنطقة مرئية، لمسافة خارج المدى المجدي للبنادق، إنه الرعب من هجمات الگريلا، وتسللهم من بين الأشجار، خوفاً من أن تكون ساتراً لهم، حتى الصخور لم تسلم من المجزرة، فسويت بالأرض، ها هي المنطقة أصبحت جرداء، عارية من كل شيء.

عندما اقترب حمو كان اليوزباشي (آروول) فاغراً فمه، يردد كلمات على طريقتهم العسكرية، الضباط الأتراك مشهورون بلسانهم القذر، بينما «الحماة» الذين جردهم الگريلا من أسلحتهم، منتصبون وقوفاً، وبدون أدنى حركة، كالعواميد التي تحمل الشباك، مطأطئي الرءوس، وقد تملكهم الرعب من ذلك الوجه المرعب، كانت عينا اليوزباشي تقدحان شرراً، وتلمعان لمعاناً غريباً، تقطران سماً زعافاً.

آروول ذو الوجه الصارم كعادته لا يعرف الابتسامة، يضع على كتفيه شارات، وكانت جزمتاه ملمعتين، تابع سيره بخطى بطيئة ذهاباً وإياباً، وهو يدفع البعوض بكمه، وتحت شعره الحليق يرى المرء ندبات جراح قديمة، وعلى عنقه الضخم ذي العضلات يرى تجاعيد وثنايا، ويداه الضخمتان ممتلئتان خدوشاً وحفراً، راح يجيل الطرف في الحاضرين وهو يصرخ.

شعر حمو بارتعاش في أطرافه ولكنه لم يقف، وعرف أنه الآن أمام

الأمر الواقع، محتاراً أشد الحيرة من نظام الأمور هذا الذي يراه، مذعناً الآن لما كتب له القدر، لا تراجُع.. تقدم بخطواتٍ ثابتة، وفي داخله لا يزال هناك نوع من التردد الناتج عن حالة الخوف، عندما وصل ودون أن يلقي التحية، ليس لأنه لم يرغب، بل لأن الوضع لم يكن مناسباً للتحيات، أفضل كلمة كان ينبح بها (آرooل): «الشرف مثل الكرة يتدحرج بين الأقدام»، بدت حالة حمو وسط المهزلة، كالجندي الذي تخلف عن موعد الاجتماع، وقد وصل متأخراً، وانضم إلى البقية، وسرعان ما أخذ مكانه المعتاد.

الوجه المرعب لا يتوقف عن تكشير أنيابه، بدا كذئبٍ يتمعن في اختيار فريسته.

تابع دون أن يوجه أي كلمة مباشرة لـ«حمو».. الضباط الأتراك كتجربة وممارسة يحفظون عن ظهر قلب، نقاط ضعف الرجل الكردي، على طريقة أجدادهم العثمانيين، والدرس ساري المفعول، وعلى قاعدة لعبة واحدة، هي أن يسمع حمو بعضاً من كلمات المديح التي من شأنها أن تشتري الكردي، وأن تجعله العبد المطيع.. عندها يكون مستعداً أن يخدم باب عتبتك إلى أن يموت.

و هو يقول:

– حمير أولاد الحمير.. إذا كنتم غير واثقين من أنفسكم، لماذا لم تفعلوا مثل حمو؟ التفت إلى حمو وبدأ يخطو نحوه، ما إن وصل إلى جانبه حتى توقف، مد يده يربت على كتفه، وتابع:

- انظروا.. رغم ثقتي الكبيرة بشجاعته، لكنه لم يأخذ سلاحه معه، إنه ليس مثلكم جباناً كالأرانب، لا بل كالأغنام تستسلمون بكل سهولة، كيف تسلمون أسلحتكم بهذه السهولة؟ لماذا لم تقاوموا، على الأقل أن تهربوا كالآخرين، السلاح شرفكم.. شرف الوطن.. شرف تركيا العظيمة، كان يجب أن تموتوا قبل وصولهم إلى أسلحتكم.. انظروا أيها المنحطون؛ إن حمو جاهز دائماً.. لا يخاف مثلكم.. انظروا، فور وصوله أتى حاملاً بندقيته، مستعدًا أن يخدم بلده حتى الموت.. إنه الابن البار لأتاتورك، حقاً وحقيقة.. أليس كذلك يا حمو؟

ثم توقف للحظة، يهز كرشه المنتفخ نحو الأمام، وظهره المنحني، مد برأسه نحو الأمام ونظر إلى حمو وهو يبتعد، فوجد حمو الفرصة، عندها رفع رأسه ملقياً نظرة سريعة على وجوه الآخرين.. ماذا يرى؟ بالكاد تعرف عليهم حيث الجروح تنزف واحمرت الوجوه، اصفرت محاجر أعينهم نتيجة الكدمات، انتفاخات ظاهرة عليها، بينما اليوزباشي (آروول) يحمل بيده عصاً، بضخامة عصا الرعاة.

ضاقت عيناه وتمتم:

- صحيح قوميتانم (قائدي) نحن في خدمة هذا الوطن.

- أنت جاهز.. أليس كذلك؟ أنت خدعتهم.. أليس كذلك يا حمو؟ ولكن كيف سلم هؤلاء الحمقى أسلحتهم؟ هه.. أنا أقول: إن لهؤلاء الحمقى علاقة مع (الإرهابيين).. إنهم يخونون دولتهم، وصل انحطاطهم إلى تسليمهم أسلحتهم، ماذا تقول؟ إن الوطنيين

الحقيقيين أمثالك يا حمو.. أنتم مثال فداء علم الدولة التركية (رافعاً رأسه نحو الأعلى وهو ينظر إلى العلم الذي كان يرفرف فوقهم)، ماذا تقول.. حمو؟

- لا أدري.. قوميتانم. ثم بقي صامتاً.

- لا تدري لماذا لم يأخذوا سلاحك؟ لأنك مخلص، لا تستسلم بسهولة إلى المخربين والانفصاليين.. أليس كذلك؟ لقد تآمروا عليكم بالاتفاق معهم.. أرادوا أن يقتلوكم على أيديهم.. لماذا استطاع كلٌّ من (شيخو) و(مندو) أن يفلتا منهم.. ويصلا بسلام إلى الجيش؟ لأنهما لم يكونا شركاء في هذه المؤامرة.. لماذا؟ لأنكم مخلصون لدولتكم، يا حمو.. رغم إصرارنا لتتخلوا عن العداوات القديمة فيما بينكم، أنت تخليت.. أما هؤلاء، فلا يزالون مصرين على العداوات القروية القديمة.

مد العصا، يضرب ضربات خفيفة على كتف أحد الحماة وهو يقول:

- انظر يا حمو.. أليس والدك هو من أطلق النار على عم هذا الحمار؟ موجهاً الكلام إليه، ألم تقل ذلك يا (حسو)؟ ألم تقل لي ذلك بعظمة لسانك، يوم أن صعدت معنا إلى المرصد لوضع مخطط الخنادق؟

دار نحو حمو وتابع كلامه:

- إنه ينتقم منكم يا حمو.. ماذا تقول؟

فهم حمو مغزى ما يقوله الخنزير، الذي يقف أمامه.

(حسو) لم يكن في حالة مَنْ يستطيع أن يفكر تفكيراً عقلياً بارداً،

ازداد توتراً وخوفاً وهو يستمع إلى ما ذهب إليه (آروول). ماذا يريد هذا القذر؟ لماذا يثير العداوات القروية القديمة؟ الوقح يضع حربته في الجرح الذي التأم، ومر عليه الزمن، نظرات حسو نحو حمو كانت توسلية، مليئة بالرجاء، ألا ينخدع بما يقوله.

حمو بعد سماعه لهذه الكلمات تشجع أكثر، أضاف:

– قوميتانم.. ما تقوله صحيح.. ولكن جئت لأمرٍ آخر.

جاءت آخر كلمة بصعوبة، ولكن بنبرات تعبر عن جرأة وقرار مسبق قطعي.

– من أجل ماذا؟ بدأ يهز برأسه المغروز في رقبته الغليظة، يتابع: أعرف يا حمو من أجل أن تفضح حقيقة هؤلاء.. أليس كذلك؟ لقد تآمروا عليكم، لكن لا عليك يا حمو.. لا عليك! سأريهم كيف يخونون دولتهم TC العظيمة.

– كلا قوميتانم، ليس من أجل ذلك. قالها بثقة أكبر.

– هل هناك أمر آخر يا حمو؟ أم أنك لا تريد أن تتكلم أمامهم؟

– كلا قوميتانم، ليس في الأمر ما لا يقال علنًا.

– إذاً هيا قل.. الدولة دولتكم يا حمو ما دمتم حماة TC العظيمة.

– قوميتانم، جئت لأتجنب ما حدث مع (حسو) والآخرين.

– ماذا تقصد يا حمو؟ سأله الضابط بتجهم.

فجر حمو مكنونه كالقنبلة دفعة واحدة، وقال:

– جئت أسلمكم بندقيتكم.

و كأن صاعقة أصابت الجميع، غير مصدقين ما سمعوه، كلام واضح وجريء، أخذ فاه يزبد ولعابه يسيل، برقت عيناه وأطلت منهما نظرات حادة، فقال:

– «نه ديورسن.. كبه ك أوغلو كبه ك».. (كلب ابن الكلب.. ماذا قلت)؟

– نعم.. الأمر كذلك قوميتانم.. لقد أقسمت بالطلاق.. يجب أن أسلم سلاحي.

الضابط جن جنونه، لا يصدق، كيف يتجرأ أحدهم على التحدث معه بهذه الطريقة.. إضافة إلى ما حدث، يأتي إليه ويتجرأ على التحدث هكذا..«جئت أسلمكم سلاحكم»، راح يصلب حمو بنظراته، كمن يريد أن يفترسه.. يلتهمه كما التمساح يلتهم فريسته دفعة واحدة، يريد أن يقضي عليه ذبحاً وليس فقط بالنظرات، تحشرجت أنفاسه كالمجنون، تمالك نفسه بعض الشيء، وبدأ يخطو نحو حمو ثانية، كأنه ملاكم محترف على الحلبة وبحذر يتقدم نحو خصمه.

– هه.. هه.. ماذا؟ حمو.. يعني «الإرهابيين» لعبوا بعقلك أيضاً؟ بهذه السرعة؟ يعني أنت أيضاً شريك هؤلاء الخونة؟ نعم سلموها للإرهابيين وأنت تأتي لتعيدها.. أليس كذلك؟ أنت أيضاً أصبحت أرمنيًّا.. كافرًا.. مثل أولئك الخونة الذين في الجبل.

– كلا.. قوميتانم، لم أقصد ذلك.. كل ما هنالك.. أنني أقسمت.. يجب أن أنفذ قسمي.. ليس لأنني كافر أو أرمني، بل لأنني مسلم

ومرتبط بإسلامي.. إنما أقسمت فحسب..

– اخرس أيها الحمار.. وإلا سأغلق فمك إلى الأبد.. هكذا (..) بك وبإسلامك وبنبيّك..وبقرآنك..

– قوميتانم.. القسم هو الطلاق.. أرجوك.

جرأة حمو أعطت (حسو) وزملاءه شحنة من الشجاعة.. علامات الفزع تبددت نوعا ما من على ملامح وجوههم.. يراقبون الجدال إلى أين وصل، منذ اليوم الذي أجبروهم فيه على حمل السلاح، هذه هي المرة الأولى التي يتجرأ فيها أحدهم لينطق ويتحدث بهذه الجرأة وبوجه اليوزباشي.. نعم..أول مرة.. مَن؟ إنه حمو.

– ماذا تقول؟! أقسمتَ.. أيها السافل.. البارحة أقسمتم لدولتكم واليوم تقسمون للإرهابيين.. قَسَم ماذا؟ أن تعيدوا الأسلحة.. الإرهابيون أخافوكم يا حمو؟

– فقط إخافة.. فقط إخافة.. قوميتان.. الحمد لله أنهم تركونا ولم يقتلونا.

– هل كانوا كُثرًا؟

– فوق ما تتصور.. قوميتان.. كثيرون!! ليس كما يقال واحد واثنان وسنقضي عليهم، كلا، ذلك غير صحيح..

– كم؟ عشرة.. خمسون..

– كثيرون.. لا نعرف من أين خرجوا.. قوميتان.. إنهم مثل الجن، لم نعرف.. وكأن الأرض انشقت وخرجوا منها.. على طول أطراف

الطريق.. في القمم والمرتفعات.. خلف الصخور.. بين الأحراش.

هنا بدأ آروول يسعل ويلهث كأنه حيوان مذبوح، وهو ينظر إليهم بحقد، بدأ الخوف يتقطر من قسمات وجهه، غزته عاصفة من القلق كمن فقد آماله، وأيامه أصبحت معدودة، بدا جسمه متوتراً مرتعشاً.. بينما النهار في منتصفه، والشمس عالية في الجنوب كعادتها في فصل الربيع، أما داخل الضابط، فقد كان فصلاً آخر.. فصل الخريف، وكأن حظه في الحياة صار أوهى من بيت العنكبوت، بدأ يصول ذهاباً وإياباً كمن فقد عقله فعلاً، تملكه خوف لم يشعر بمثله طوال حياته، كانت جرأة حمو شحنة شجاعة لـ«حسو» وزملائه، بينما كانت عكسية المفعول على الضابط، وهو يستمع وعلامات الذعر بدت أكثر وضوحاً على ملامح وجهه، جرأة حمو أزالت القناع الذي كان يختبئ آروول خلفه.. تظاهره بالقوة.. والشجاعة.. ها هو على حقيقته ليس إلا بطلًا من الشمع.. يسأل بكلماتٍ شبه متقطعة مخنوقة، نبراته تغيرت وبوضوح:

- هل قالوا شيئاً؟ ماذا قالوا عنا؟

- كل ما هنالك جئت أسلم سلاحي قوميتانم.. لقد أقسمت بالطلاق.. لا حل.. أرجو أن تستلمه مني. (يلح حمو)

- ماذا جرى لك.. تسلم سلاحك؟

- نعم.. جئت أسلمكم بندقيتي.

- وأنا ماذا سأفعل هنا يا حمو آكلُ (..)، تقول إنهم مثل الذئاب..

إذا جاءوا وهاجمونا، ماذا سأفعل؟ هه.. (آشك أوغلو آشك)..كيف أستلم سلاحك؟

- قوميتان.. أرجوك.. لقد أقسمت بالطلاق، لي أطفال.. أرجو أن تستلمه. يمد نحوه السلاح وصدرية المخازن معاً.

- يجب أن تفهم يا حمو ذلك هو المستحيل، وغير ممكن أيها الكلب.. ليذهبوا إلى الجحيم؛ زوجتك وأطفالك.. لماذا استلمت السلاح؟ سنوات ونحن نعيلكم.. سنوات تأكلون من خيرنا، واليوم وبكل وقاحة.. تأتي لتقول سأرد السلاح.. أين قسمك لدولتك العظيمة TC؟ تقسم للإرهابيين، إنهم كفار.. وهل لهم دين حتى تقطع لهم قسما. ثم أدار وجهته إلى الداخل وصرخ منادياً كأنه ينبح:

- شاويش كمال.. أين (أون باشي) كمال؟ كمال.. كمال بسرعة.

خرج الشاويش كثورٍ مذعور، طويل الذراعين، داكن اللون، طويل الوجه، غائر العينين، بارز الشفتين كالغوريلا، متجهم الوجه وتقدح عيناه شراً، كذئبٍ أغبر دموي، لعابه يسيل.. تماماً كبني جلدته، كما يدَّعون في إعادة أصلهم.. وصلتهم وعبادتهم للذئاب، وما إن أشار إليه النقيب آروول، حتى أحضر معه بعضاً من الجنود، مزودين بالهراوات والعصي والكابلات، ما إن وصلوا إلى حمو، حتى بدأوا بالشتم ولعن ساعة ولادته.. وأخذوا يتقاذفونه فيما بينهم وهو ينزف.. لقد أرادوا أن يظهروا له وللآخرين ما يستطيعون فعله.

مضت دقائق وحمو صامد يتلقى الضربات، ويزداد النزف من شفتيه،

من أنفه بغزارة، لاحظ حسو والآخرون هذا كله، لكنهم لم يلاحظوا احتفاظ حمو بهدوء أعصابه، ونظراته النارية.

بينما يتوعده كمال:

- سوف أسلخ جلدك وأنت على قيد الحياة.

جروه إلى الداخل، اللكمات والهراوات كانت تنهال عليه.. على رأسه، بل على كل جسده.. الصفعات لم تتوقف، كانت تكوي وجهه.

- 4 -

الشمس ترسل حزماً من نورها إلى داخل الغرفة، بينما حمو على الأرض انبطاحاً، خاضعاً خضوع الخاشعين للمسات يدي بهار، مسجاتها السحرية كانت تحدث رجفاناً رقيقاً مغناطيسي التأثير، يجري في عروقه كنهر له بداية بلا نهاية، حمو مستسلم في خضوعه، بجسده نصف العاري، يتمدد فوق سجادة كردية نسجتها يدا حماته (عواش)، غير مصدق نفسه، هل هو فعلاً على قيد الحياة؟ ماذا جرى له؟! كيف رموه خارج الثكنة مع البندقية والعتاد؟! هل عاد على أقدامه.. أم أن هناك من حمله وأعاده؟ المهم الآن أنه بين يدي بهار الملائكيتين.. يا الله! هذه إنسانة وأولئك أناس! أين هذه الأيادي من تلك؟ أياديهم مخالب وحوشٍ كاسرة.. لا والله ليست كذلك، عندما تعرضت لاعتداء الدب وأنا أطارده لإنقاذ الشاة من بين مخالبه، بينما كان هو كعتال أصيل، حاملاً شاته بإتقان كأنه كان في نزهة.

ليخفف حمو من آلام اللحظة، بدأ يسترد من ذاكرته تلك الحادثة وكيف حدثت..

ذلك الدب، كيف خدعني وخدع القطيع، وهو يحمل عصا على أكتافه، متقدماً مثل الرعاة؟! لم يكن هناك إلا ثغاء استغاثة من الشاة.. آه يا حمو..

هذه المرة أخذت أنت دور الشاة، أنا والشاة شخص واحد، لكن بعد تلك الحادثة لم أنخدع قط من الدببة.. هؤلاء أيضا دببة.. يا الله! كلا ليسوا مثل الدببة، فالدببة لها بعض الفوائد للناس، هناك كما يقولون: من يأكلون لحومها.. كم كنا نصطادها ونصنع الصابون من شحومها.. أفضل أنواع الصابون، أما هؤلاء.. من هم؟ من أين جاءوا؟ لماذا يعيشون؟ العشرات قُتلوا على أيديهم.. لماذا يقتلون؟ وكيف يعيشون؟

لا أستطيع وصف أيديهم.. لا أستطيع.. أما أولئك الذين في الجبل، فلم يرفع أحدهم يده في وجوهنا.

صور الرفاق والرفيقات الكَريلا عادت تدور في تلافيف دماغه، صور تكاد تكون حية، مقاتلون ومقاتلات، كما يتخيلهم «إنهم مثلنا»، حاربتهم.. طاردتهم.. ولكنهم لم يوجهوا إلي ولو كلمة بذيئة، سنتان في الخدمة العسكرية.. أكثر من أربع سنوات ضمن مجموعة حماة القرى.. ضاع عمري هكذا.. ضاع شبابي في خدمتهم، وها هو جزاء الخدمة يا حمو..

بدا كل شيء من حوله معتماً.. صامتاً.. حزيناً، كانت نفسه تزخر بذكريات عاطفية، بحسرات ودموع.. وفعلاً أوشك أن يبكي.

صوت بهار قطع سيل الخواطر التي كانت تجول في رأسه:

– كَرناس.. الماء على الموقد.. انظر يا ولدي هل سخن جيداً؟ كَرناس أسرع يا ولدي.

– الماء يغلي يا أماه..

- اجلبه إلى هنا.. انتبه يا ولدي..

دخل كَرناس يمشي بخطوات حذرة، وقد أمسك إناء الماء بين يديه بحذر، محاولاً الحفاظ على توازنه.

- ها هو يا أماه..

- دعه يبرد قليلاً..

وضع كَرناس الإناء على الأرض، وهو يختلس النظر إلى جسد أبيه نصف العاري، مستعرضاً جبهته العريضة وقد اكتست بألوان طيف الشمس.. ذهل، لا يعرف ما حدث لأبيه، سأل ببلاهته:

- أبي ماذا حدث؟ ماذا جرى لك؟

- لا شيء.. اسكت قليلاً.. ليس وقتك. أجابت بهار وقد استدركت الموقف.

صمت كَرناس ولكن بقي يجول في رأسه ألف سؤالٍ وسؤال، لم يكن لأحد أن يجيبه عنها.

- هيا يا ولدي.. اذهب إلى الأسفل، وأحضر قليلاً من الصوف من غرفة المئونة، إنه محشو في كيسٍ معلق خلف الباب.

ثم غمست إبهام يدها اليمنى في الماء، لترى حرارته، كأن جسد حمو العاري ورقة في دائرة رسمية، تهيّأت مجبرة لتبصم عليه، نظر حمو إليها وهي تغمس إبهامها في الماء، سرح بعيداً بأفكاره.. هل هي البصمة الأخيرة؟ البصمة التي تُمهَر بها نهايات الوثائق، البصمة التي تعني القرار والنهاية، الخاتمة مع الموافقة والتصديق على ما جاء في الأعلى؟!!

ما إن لامست تلك الأنامل جسده، حتى شعر كأن بلسماً لامس جسده المخضب، بهار تكرر غمس يديها في هذا الماء وتمسح الحبر الدموي.

تمتم: نعم يا حمو.. الدواء في يديها.

أضافت بهار حفنة من الملح إلى الماء الساخن وحركته جيداً، غمست قطعة الصوف التي جلبها كَرناس في الماء، وبدأت تغسل وتنظف الجروح.. وتمرر قطعة الصوف على كدماته المزرقة، وتفركها بليونة أولاً ثم بدأت تضغط قليلاً.. أكثر.. فأكثر.

كان جسده مليئاً بالجروح، قروح، خدوش، آثار الحرق بأعقاب السجائر.. الدماء تسيل من أماكن عديدة.

ما إن انتهت بهار من الجروح، حتى أحضرت رأس بصل، ووضعته ضمن قطعة من القماش الأبيض، بعد أن أضافت القليل من الملح، وبدأت بهرسه بقبضة يدها اليمنى، حتى حولته إلى ما يشبه العجين، ثم بدأت تدهن به جروحه.

كَولى كأخيها كَرناس، كانت لا تتوقف عن الدوران من حولهم، تكرر سؤال أخيها مستفسرة بفضول الأطفال. ما الذي حدث ويحدث؟ ما إن تترك أمها شيئاً حتى تحمله وبسرعة، تسأل أمها: «ما هذا؟ لماذا هذا؟

بينما حمو بطرف عينه اليسرى المزرقة يراقبها، لا يراها بشكل تام، نظراته مشوشة والألم في عينيه يزداد أكثر فأكثر.. لكنه حمد الله على أنه مازال يرى بهاتين العينين.. عرف أن عينيه سليمتان.

– كَولى.. كفي عن ذلك، ابتعدي قليلاً.. دعيني أقوم بعملي يا بنيتي.

كانت تكرر بهار بانزعاج.

– ماما.. هل وقع بابا من على الفرس.. مثل يوسف ابن العم خليل؟

– صحيح يا بنتي صحيح. هيا ابتعدي.

– ماما.. هل سيشفى بابا؟ أنا أحب بابا.. متى سيشفى؟

– نعم يا ابنتي نعم.. ابتعدي قليلاً.. يكفي..

أما حمو، فقد كان تفكيره مشوشاً، يغرق في عالمه الخاص، كيف يستطيع أن يفسر لها.. لا يستطيع.. إذن فليصمت.. يسمع دون أن ينطق بكلمة واحدة.

– حمو هذا يكفي.. البس ثيابك.. الحمد لله ليس هنالك كسور.

جلس بصعوبة بعد أن استند على يديه اللتين بدتا أكثر ضعفاً.. لملم ذاته المبعثرة ليقف ويبتعد عنها وعن كلماتها، شبك أزرار قميصه المقلم، بينما خرجت بهار تتابعها نظرات كَولى الحائرة، وكفرصة التفتت ثانية لتسأل:

– بابا.. الفرس أوقعك؟

لم يجب حمو بينما أكملت ببراءتها:

– بابا.. هل رفسك الفرس على عينك؟ إنها مسودة يا بابا.. ثم تقدمت من والدها، مدت يدها لتلامس الأماكن المسودة، ولكن حمو منعها، فتابعت: هذا الفرس شرس جداً يا بابا.. يوم زارنا يوسف رفسه أيضاً.. نعم يا بابا، أنت تعرف.. فجَّ رأسه.. أليس كذلك؟

عادت بهار وبيدها صحن صغير من الزبدة المملحة، وجلست مقابل حمو وبدأت تدهن ما حول عينيه المتورمتين تماماً.. ثم قطّرت فيهما قطرات

كمرهم، أحس بعدها حمو ببعض الارتياح.

في اليوم التالي كان حمو قد استعاد بعض نشاطه، لف حزامه الأزرق المورّد الذي يزيد عن عشر أمتار طولاً حول خصره، ثم لف رأسه بكوفيته البنية التي تشتهر مدينة سيرت بصناعتها من الصوف المحلي.

خرج يطوف بين أزقة القرية، متجهاً نحو بيت الملا علي، حرارة الشمس تلفح كدماته وجروحه، من بعيد لمحه الملا علي متجهاً نحو بيته، أخذته الدهشة والغرابة، لأول مرة فرد من حماة القرية يتجرأ لوحده على الذهاب إلى بيت الملا، وخاصة حمو!

لم يكن هناك تمشيط أو تفتيش في القرية، حتى وإن كان، فالجنود والحماة يكتفون حينها بالوقوف خارج البيت.

أما أن يأتي حمو إلى بيتي..!

أمعقول أنه يريد زيارتي؟ لا.. لا أعتقد، لربما أضاع فرسه، وهو يبحث عنه هنا لا أكثر، همَّ الملا بدخول داره، وإغلاق الباب في وجهه، لكنه سرعان ما تراجع (لا.. هذا عيب، فالسلام لله، ليس من الصحيح أن أدخل، وها هو قد وصل).

وقف الملا علي وإبريق الوضوء النحاسي في يده.. انتظر حتى وصل حمو.

- السلام عليكم حضرة الملا.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. خيراً يا حمو.. هل أضعت شيئا؟

- لا.. لا.. فقط أردت أن أسلم على الملا وأزوره اليوم.

- أهلا بك يا حمو.. خير إن شاء الله.

- خير.. خير يا مولانا.. إن شاء الله..

- مالي أراك هكذا مهموماً.. ماذا جرى لك؟ ليس من عادتك أن تزورني، ثم ما هذه الكدمات التي على وجهك؟ ماذا حدث؟

- معك حق مولانا..حقك علينا.. لا تؤاخذنا.

- كذلك عيناك مسودتان ومتورمتان، هل تشاجرت مع أحد لا سمح الله؟ آه صحيح.. ضربوكم.. أليس كذلك؟ ولكن لماذا؟ ليس من عادتهم ضرب أحد هكذا بدون سبب، ربما صدرت منك حماقة.. هل صدرت منك تصرفات غير لائقة يوم أوقفكم أولئك الذين في الجبل؟

- الحق معك حضرة الملا.. صدر منا الكثير، ولكن ليس هم من فعلوا هذا.. حاشاهم، بل وألف مرة حاشاهم أن يفعلوا هكذا.

- هيا يا حمو.. تفضل لنتحدث في الداخل.

دخل الاثنان، بينما الملا نادى: أم نوح حضري لنا الشاي.. لدينا ضيف.

جلس حمو في مضافة الملا.. وهو يشعل سيجارة تلو الأخرى، ودخان سيجارته يعلو كدخان قطارٍ بخاري.. مما دفع الملا لفتح النوافذ.

جلس الاثنان يرتشفان الشاي، ودون أي مقدمات قال حمو مباشرة:

- أنا في مصيبة يا مولانا.. مصيبة كبيرة.

نظر الملا علي إليه متسائلاً، فبدت نظراته ثاقبة وقد غزا الشيب لحيته الطويلة، وبين الحين والآخر تتخللها أصابع الملا الخبيرة لتمسدها، وهو يصغي إلى ما يقوله حمو، رفع عينيه الواهنتين الهادئتين الرماديتين، فلم تصمد عينا حمو التعبة أمامها، فشاح بنظره عنهما.. أحكم الملا صدريته

السوداء الملتصقة بقميصه ناصع البياض على كتفه، وقال بصوت رقيق وبسيط:

- أعوذ بالله.. خير إن شاء الله يا حمو!

أجاب حمو:

- ألم تسمع يا ملا؟ لقد جعلوني أقسم بالطلاق.. الطلاق يا ملا.. إما الطلاق أو أن أسلم سلاحي.. ماذا أفعل يا ملا؟ سأجن.. لا أدري ماذا أفعل.. حياتي.. بهار.. أطفالي، كيف يا ملا؟ لم يستلموا السلاح مني.. ضربوني يا ملا.

سالت الدموع من عينه، وانحبس الكلام في حلقه، لم يستطع أن يكمل.. وانفجر بالبكاء، ربما هي المرة الأولى التي يبكي فيها بهذه الصورة منذ أن أصبح يعي ما حوله، لم يبك هكذا يوم أن كسروا أحد أضلاعه.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! يكفي يا حمو لقد فهمت.. اهدأ قليلاً ولنفكر ماذا نستطيع أن نفعل.. حقاً إنها مصيبة.. أنا أُقدر ما أنت فيه، لا عليك.. اهدأ قليلا وأكمل شرب الشاي، ولكن فقط أخبرني أولاً هل تنوي أن تبر بقسمك أم لا؟

- لا أدري يا مولانا لا أدري ماذا أفعل؟ لا أستطيع.. كيف لي أن أترك أطفالي بلا أم، لكن اليمين يقتلني أيضاً.

الملا علي تجاوز الستين، تتلمذ على يد رجل الدين الملا عبدالله الهوتي، (نسبة إلى قريته «هوت» القريبة)، كان رجلاً معروفاً بدوره كعالم دين، كان يحظى بثقة أبناء المنطقة، وكان قد انتشر صيته كرجل دين وطني، بيته

كان بمثابة مدرسة يقصده طالبو العلوم الدينية، وبمثابة مضافة ومكان لحل الكثير من المشاكل الاجتماعية، كان أول من استقبل القائد العسكري الشهيد معصوم قورقماز (عكَيد) في المنطقة، فقد كان يتردد إلى بيته.

بعد تنفيذهم عملية «آروه» انطلاقة شرارة الكفاح المسلح، بعدها نفي الملا عبدالله من قبل السلطات العسكرية التركية إلى المتروبولات، حيث يعيش في «مرسين»، مسن في التسعينيات من عمره.

الملا علي يحظى باحترام أهل قريته، وكذلك القرى المجاورة، ولكن في الحقيقة مداركه الثقافية الدينية محدودة، فالتجربة أكسبته خبرة التعامل والحكم على فصل الأمور، أكثر من أن تكون مستندة على المعرفة الفقهية.

كان حمو معروفاً برجولته وشجاعته، وهذا ما كان يدفع الملا علي إلى أن يشفق عليه، لأنه يعرف تماماً كيف تحولت تلك الرجولة إلى التهور وخدمة العدو.. نعم الملا علي اكتسب روحه الكردستانية والكردايتي من معلمه، وبقي محافظاً عليها.

عندما استمع إلى القصة، أخذه الإشفاق على الرجل، ولكنه تمتم بينه وبين نفسه: ربما يكون هذا فرصة ليعود حمو إلى رشده، ويترك هذا المسلك القذر، فقال ناصحاً إياه:

- سلم السلاح.

رفع حمو عينيه الغارقتين بالدموع، وقال:

- ذهبت.. وكان الرد كما ترى.

- والآن ماذا تنوي أن تفعل؟ هل سترحل؟

- أين أرحل، لم يبق لدي شيء لأعيش منه أو لأجله، لقد جئت أستشيرك، ماذا أفعل يا ملا؟ خيم عليهما الصمت برهةً، بينما ينتظر حمو رد الملا.

أخيراً كسر الملا الصمت، وقال:

- يقال: اتقوا الله في زوجاتكم، ولا تحلفوا بطلاقهن؛ لأن أمر الطلاق عظيم، فهو فك رباط. الصبر.. الصبر لا أكثر، فهل تستطيع أن تتحمل فترة من الزمن؟ حل واحد لا أكثر.. إن استطعت التحمل لفترة فإن هناك حلا.. فكر يا حمو.

تلك الكلمات التي كان الملا قد حفظها عن ظهر قلب، قولاً وتفسيراً.. فكيف لحمو الذي لا يفقه كلمة بالعربية أن يفهمها.

- ماذا تقصد يا ملا؟ أنا لا أفهمك، ثم ماذا تعني بالصبر لفترة.

(تساءل حمو وهو ينظر في عيني الملا، اللتين توحيان بشيءٍ غامض، يريد البوح به، لكن هناك شيء ما يمنعه).

- إذن أقسمت يا حمو بالطلاق وتريد أن تبر بقسمك.. وذلك إما أن تسلم السلاح أو.. أو.. يجب أن تفي بيمينك ولو لفترة.

- أو ماذا يا مولانا؟

- ما دمت فشلت بتسليم السلاح.. إذن عليك أن تفي بوعدك.. أن تتحمل النتيجة فقط لمدة.

- ماذا تعني بذلك يا مولانا؟

- يوجد حل، ولكن الآن لنفرض أنك عرفت حقيقة الذين سلموك

السلاح، إنهم حاقدون.. لنفترض ذلك.. ذلك هو شأنك.. بينك وبين ربك، لا أحد يدفن في قبر غيره، كل شخص مسئول عن أعماله أمام ربه سبحانه وتعالى.

شعر حمو وكأن صخرة عملاقة على صدره، لم يفهم شيئاً من كلام الملا المتقطع، فألح في السؤال:

- ما هو الحل يا مولانا.. ماذا تقصد؟ لم أفهم!

هز الملا رأسه عدة مرات، ثم عدل وقوفه ماسكاً طرف صدريته وبصوت حازم:

- حسناً.. ما دمت تريد الحل، هناك حل وحيد، وبما أنك فشلت في تسليم السلاح عليك بالطلاق.

- بهار يا مولانا.. لا.. إنها أم أطفالي.. أطلقها بعد هذه السنوات.. كيف؟

- كما تقول.. أنت أقسمت، وإذا قال المرء: عليّ الطلاق إذا لم أفعل كذا، أو ما شابه ذلك.. هذا يسمى يمين الطلاق، لأن فيه حثًّا ومنعًا، والأكثرون من أهل العلم يجمعون على أن الطلاق يقع إذا اختل الشرط، لو أن المقصود من اليمين بالطلاق ألا يعمل في المكان الفلاني أو أن يقاطع الشخص الفلاني، ثم نكث عن يمينه، لا يقع الطلاق لأن القصد منه لم يكن فراق أهله، فيكون عليه في هذه الحال كفارة يمين، وهي إطعام عشرة مساكين أو صيام ثلاثة أيام، أما المقصود من يمينك يا حمو، فهو فراق الأهل، وهذا ما يسمّى يميناً بالطلاق، أما إن لم يكن فيه حث ولا منع، بل شرك محض،

فهذا تعليق محض يقع به الطلاق كما تقدم، كأن يقول أحدهم: إذا دخل رمضان فأنت طالق، هذا شرط محض، فإذا وقع الشرط أي دخل رمضان، وقع الطلاق، لأن المعلق على الشروط يقع بوقوع الشروط.. هذا هو الأصل، ويعني هذا أن بهار الآن مطلقة، لأنك لم تقم بالشرط، ألم تقل فور ما إن أصل القرية، سأسلمهم سلاحي.. وإذا لم أفعل فزوجتي طالق؟ هل سلمت سلاحك؟

أطرق حمو مفكراً، وراح يعتصر ذهنه ليفهم دلالة الحديث الذي سمعه ثم قال:

- أطلقها.. مطلقة.. لمدة.. كيف.. ماذا؟ لم أعد أفهم شيئاً مولانا.

- حسب قسمك، زوجتك الآن مطلقة.. يتابع بالقول: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن)، شرعاً يجب أن تنتظر لمدة ثم نطلقها بشكل رسمي، ثم يجب أن يتزوجها رجل آخر لفترة، وبعدها يطلقها، ويحق لك إعادتها، أي تتزوجها مرة أخرى، شرط انتهاء مدة العدة كذلك، بزواج شرعي، كما تزوجتها لأول مرة.. وعندما يتزوجها أحدهم نستطيع أن نشترط عليه أن يطلقها بعد أربعة وعشرين ساعة.

ظل حمو خارج القرية وهو يفكر بما قاله الملا، تشغله خواطر غريبة عجيبة، والذكريات التي مضت، شعر بأنه فجأةً قد أصبح غريباً عن منزله.

ظل يجوب أطراف القرية، حتى غاب الوجه الذي ينير العالم وحل

الظلام، لم تكن لديه الرغبة في العودة إلى المنزل، لولا الوحشة ولسعات البرد التي يحملها هواء قمم هركول المثلجة في تلك الليلة الربيعية.

عاد إلى البيت متأخراً، بهار كانت قد تعودت على عودته متأخراً، من نوبات الحراسة والدوريات والخروج مع الحملات العسكرية في الجبل، كانت قد حشرت نفسها تحت اللحاف، مستغرقة في نومٍ عميق، دخل حمو وضغط بجانب الباب على مفتاح الإنارة، بعد أن أغلقَ الباب وراءه بهدوء، «اللعنة على الكهرباء.. مقطوعة أيضاً، لم نكد نصدق أن تجد قريتنا الكهرباء، وها هي كل يوم مقطوعة»، توجه إلى المصباح الزيتي المعلق على الحائط بجانب النافذة، أوقده وجلس، شعر بالبرودة، لقم المدفأة بقطع من الحطب وأشعلها أيضا، قطع الحطب كانت جافة، شبت النار فيها بسرعة، بينما رقاص الساعة المعلقة في صدر الغرفة، كانت دقاته متناغمة دون توقف (تك.. تك..)، بهار في فراشها وشعرها الناعم ينسدل كليل على بياض الوسادة الناصع.

جلس أمام المدفأة يحاول تنسيق أفكاره، ولكن دون جدوى، أخفض فتيل اللمبة ليغمر البيت ثانية ظلامٌ كاد أن يكون كاملا، لولا الشعاع الضئيل الذي كان يجود به المصباح، فظهرت له بهار وقد مدت يديها كأنهما جناحا حمامة، وبداخله رغبة عارمة أن يدفن رأسه بين يديها الدافئتين، كما كان يفعل دائماً، عندما كان يعود من نوبات الحراسة أو من مهماته الليلية الأخرى، كم تمنى أن تضمه بدفئها وحنانها، لكن ذلك قد.. على الأقل كما قال الملا علي: «لبعض الوقت».

الآن يفصلني عنها جدار الشرع، بل جبال الشرع، تقدم وراقب وجهها الملائكي وكاد أن يحشر نفسه في الفراش، لولا تذكره كلمات الملا، التي جاءت كضربات مطرقة على رأسه.. تراجع قليلاً.. قائلاً: «أعوذ بالله.. إنها لم تعد زوجتي، ذلك ذنب.. حرام.. حتى التفكير بذلك حرام».

أدار وجهه إلى حقيبة مطرزة بيدي بهار، من القماش الأبيض معلقة في الزاوية، حقيبة تضم كتاب القرآن.. نعم القرآن «آه.. أيها الكتاب الفاصل، ليست الجدران ولا الجبال.. أنت الفاصل.. نعم أنت.. ليتني كنت أعرف قراءة لغتك.. لقرأتك.. لا مرة ولا مرتين، بل مائة مرة، وما كان هناك داع للذهاب إلى الملا لأبحث عن حلٍ، ألا من حل آخر داخلك؟ لا أنا ولا الملا يعرف قراءة لغتك قراءة صحيحة.. صحيح أنه درس علمك على يد العالم الملا عبدالله.. ولا بد أنه ختم قراءتك أكثر من مرة، الملا علي رجل حق، ولو كان بداخلك حلول أخرى، كان أرشدني إليها، فهو لا يكذب والعياذ بالله.. أستغفر الله من الشيطان الرجيم، ماذا جرى لك يا حمو؟ بدأت تكفر.. ربي اغفر لي.. إنه الشيطان يوسوس لي.. أنا الجاهل».

عاد ورمى نفسه فوق قطعة السجاد، اتكأ على الوسادة.. شعر أن يداً تربت على كتفه وصوتاً يناديه:

- حمو.. حمو..
- مَنْ؟! ماذا؟
- أنا يا حمو.. ماذا جرى لك؟ لماذا تنام هنا؟
- كنت نائماً.. ماذا تريدين.. كم الساعة؟

- تنام؟ نائم؟!! لقد انتصف الليل.. لماذا تنام هنا؟
- وأين سأنام؟
- عجيب أمرك.. لماذا لم تأت إلى الفراش؟

فتح عينيه وهو لا يدري متى كان قد غفا، دون أن يتدثر بشيء.. بينما بهار أيقظها صراخ الرضيع وهو في المهد، بجانب الفراش وسط الغرفة، حلت بهار أزرار قميصها لترضعه.

يبدو حديث الملا علي أثر عليه تماماً، حاول حمو أن يحجب نظره إليها وإلى الصدر المكشوف.. بدلت بهار ثديها وأدارت الطفل إلى الركبة الأخرى، فتعلق الرضيع بالحلمة مرة أخرى، يمصها ويشدها، وحمو بين هذا وذاك، ضاع ما بين الاستعاذة والاستغفار.

- بماذا تتمتم يا حمو؟ ماذا جرى لك؟ هل ما زالت عيناك تؤلمانك؟

الجروح والكدمات التي في داخله أنسته جروح بدنه وما يعانيه من آلامها، فقال بصوت منكسرٍ:

- لا.. لا.. أشعر بتحسن.
- هكذا تنام على الأرض.. آلامك لن تتوقف.. تعال إلى الفراش. عاتبته بهار وهي تفسح له مكاناً بجانبها.
- لا.. لا.. لا تقولي ذلك.
- لماذا؟ ماذا تقصد؟
- لا أقصد شيئاً.. أعوذ بالله.. أستغفر الله!
- ماذا تقصد يا حمو؟ ماذا حدث؟ لماذا تستغفر ربك هكذا؟ اقتربت منه

بهار بغنج أنثوي متسائلة.

– أعوذ بالله.. لا يا بهار دعيني أنام.. ونامي.

أعادت بهار الطفل إلى المهد، وبدأت تهزه برءوس أصابع قدمها، وهي متكئة على فراشها، محتارة في أمر زوجها وتغير طبيعته، فالأمر أكبر من مسألة البارحة، فهو لا يريد النظر إليها، ماذا جرى لهذا الرجل؟ لقد مسحت جسده تماماً، وقد قال إنه بدأ يشعر بتحسن.. أيمكن أن يكون هناك أمور لا أعرفها؟ بماذا يفكر؟ إنهم رجال، وقد استلم الراتب منذ فترة قصيرة جدا.. من يدري؟!

– حمو ما الأمر؟ قل الحقيقة. ألحت بهار على غير عادتها.

– حقيقة ماذا أيتها المجنونة؟

– لماذا تبتعد عني.. أنا زوجتك يا حمو.. هل تخفي شيئا؟

– كلا.. لا شيء.. نامي.

ازداد قلقها وألّحت:

– كيف أنام؟ حمو.. قل الحقيقة.. أنا لست غبية.. يجب أن أعرف ماذا يدور في رأسك؟

– أعوذ بالله، ماذا تقولين؟

– أقول لك: إذا فعلت أمراً.. أو تفكر بفعله، يجب أن تعرف بأني سأترك لك البيت، ولن أبقى هنا ساعة واحدة.. آه.. أموالك كثيرة، بعت القطيع والبستان، الراتب في جيبك وأغلب الرجال في سنك يفعلونها.

– كبري عقلكِ يا بهار.. ما تقولينه ليس صحيحاً.

- ما أقوله ليس صحيحاً! هه.. ألست زوجتك وأم أطفالك؟ لماذا تخفي عني؟ هدأت قليلا، وأخذت تغير في لهجتها محاولة معرفة السر:

- حمو.. قل لي، صارحني.. إذا كنت تنوي الزواج.. لماذا؟ هل قصرت في شيء بحقك، بحق أطفالك؟ قل.. قل لي الحقيقة.. هل ستفعلها؟

- أعوذ بالله يا بهار.. أجننتِ.. ماذا تقولين؟ أنا أفعل ذلك؟!

صمتت بهار لبرهة وابتلعت حسرة.. بينما الرضيع غط في نومٍ عميق.. وبردة فعل قالت:

- أجل تفعلها.. أقسم بالله أني سأعرف حقيقة الأمر.. يجب أن تقول لي ابنة مَنْ هي، من التي تنوي الزواج منها؟

- بهار أنتِ لا تفهمين.. الأمر أكبر من ذلك.

- أكبر من ذلك.. ماذا تعني؟ أنت تتكلم بألفاظ لا أفهم منها شيئاً.

لم يعد حمو يحتمل إلحاح بهار على معرفة الحقيقة، فخرج إلى غرفة الضيوف، متعباً ثقيل الخطى، بينما غزت الأفكار رأس بهار.. أفكار.. وأفكار.. وأفكار.. ماذا يقصد بقوله: «الأمر أكبر من ذلك»؟

كما يقولون (السكوت من ذهب)، ولا يجدر بالمرأة أن تجادل زوجها أكثر من اللازم، تدثرت ثانية لتنام، ولكن هيهات! ساد الصمت وسكن الليل.. بينما رقاص الساعة يدق (تك.. تك..).

- 5 -

ما إن تبدأ الثلوج بالذوبان على الهضاب المرتفعة العالية، الـ«زوزان».. حتى تكتسي الأرض حلتها الجديدة، يبدأ السباق الأزلي بين أعشابها اللامتناهية الأنواع والأصناف، حيث تبدأ بالإسراع في إخراج رءوسها، بعد أن قامت الطبيعة بلعب دورها في الإبداع، وحولت البذور التي كانت كالحصى الناعمة إلى نباتات حية، تبدي اشتياقاً لرؤية ومعرفة ما حدث على سطح الأرض طوال أشهر الشتاء.

عشائر البدو (الگوجر) وعودة مضاربهم في هذه المرتفعات، آثار أقدام مألوفة ومنها غريبة، لا لا، لا غرابة، بل ألفة، ألفة.. ولكن آثار أقدام مَنْ هذه؟ لطالما انتظرت هذه الأعشاب لتعرف من هم الذين كانوا يخوضون المصاعب في غير أوقاتها، حيث كان الجليد، في ذلك الشتاء القارس، وهي مخبأة في غور تربتها، بينما كانت ترتعش من البرد.. أقدام مَن كانت تلك؟ كيف تجرأوا على خوض هذه المصاعب، وسط جحيم ثلوج هذه القمم، التي تنذر بالموت لكل من يتحداها؟ كيف قهروا الجليد والموت.. مَنْ أولئك؟ تسابقت لتعرف مَن هم.. فكان تسارعها في الخروج، كتسابق الفتيات لتقديم باقات الزهور لأبطالٍ عائدين من ساحات معارك تكللت

بالنصر.

منحدرات «هركَول» أسفل قمة «كَزنكَه – **Gezêngê**» النقطة المعروفة بـ«نهاية الغابة»، المكان الفاصل ما بين نهاية الغابة إلى الأعلى، حيث تبدأ المرتفعات الصخرية الجرداء، كانت سرية للكَريلا، قد عسكرت هناك في جرف له عدة فوهاتٍ بركانية متداخلة، شكلت قعراً على شكل فناجين عملاقة الحجم، ملتحمة بجدران من تشقق الصخور، تجسدت بتشققات مخيفة في الأرض، قعرها الجاف هو أماكن تجمع لبرك المياه.. يتسع الشق الأساسي فيه، بعشرات الأمتار طولاً وعرضاً، منخفضة عما حولها على شكل خنادق عملاقة، تلك القمة تشكل المكان المثالي لتعسكر الكَريلا، كمكان إستراتيجي مطل على الأطراف، وبنفس الوقت حصين كقلعة طبيعية، عند حدوث أي طارئ، يمكن للوحدة التخندق والاشتباك حتى المساء.

المجموعات متباعدة عن بعضها بعض الشيء، فمنها ما كانت بجانب صخورٍ عملاقة، ومنها أسفل المنحدرات التي تشكلت كأنها شرفة، بينما في القعر ارتفعت ألسنة النار، وهي تتلاعب كرءوس الأفاعي، وعلى أطراف قطعة صخرية وقف الرفيق «هوكَر» مسئول التموين مخاطباً الخبازين:

– رفيق جودت.. لماذا تستخدمون البلاطة الصخرية؟ هناك صاجة الخبز.

– نعم رفيق.. كما تعرف إعداد الخبز هكذا أطيب. أجاب جودت وهو منشرح النفس رائق المزاج.

– و لكن البلاطة الصخرية تحتاج إلى فترة أطول كي تحمى.

- لا عليك رفيق.. ألا ترى الحطب الذي جلبناه؟ يشتعل سريعا، وسترى النتيجة بعينيك بعد لحظات.. أحضر الرفاق الكثير من الحطب.. انظر إليه بنفسك، شجيرات شوكية كاملة يابسة، ما إن تلامس النار حتى تشتعل كالقش.

- إذن استعجلوا.. على ما أعتقد اليوم هناك مهمة.

- مهمة.. أي مهمة.. رفيق؟

أخبره قائد الوحدة عن المهمة، ولكن من ضرورات الحياة العسكرية يجب عدم الإفشاء والتأكيد على الأمور أمام المقاتلين للضرورات، يمكن أن يُقال: على ما أعتقد.. يبدو.. قد.. لكن هذه المرة كان هنالك قرار مشترك بين قادة الفصائل والمجموعات.. أجاب:

- لا أعرف بالضبط، سمعت ذلك من الضابط المناوب، قال إن الإدارة قد ناقشت البارحة مخططاً لمهمة، بعد قليل سيكون هناك اجتماع عام.. كم من الطحين لدينا الآن ؟

- كيسٌ كاملا.. رفيق!.

بدأ الرفيق هوكَر بعملية حسابية » كيس كامل.. إذا قلنا إن خبز اليوم ما زال موجوداً.. ونضيف إليه عدد الأرغفة الناتجة عن كيس من الطحين.. ما بين ثلاثمائة وعشرين إلى ثلاثمائة وخمسين رغيفاً.. يعني لدينا حوالي (..)..

قاطعه أحد المقاتلين من المجموعة المكلفة اليوم في إعداد الطبخ، وعلق:

- أراك تحسب أرغفة الخبز رفيق هوكَر.. ألا يكفي؟ الماء حقاً قليل، وقد ذوّبنا ما تبقى من الثلج.. ماذا نفعل؟ أأخبر الضابط المناوب، كي يرسل

رفيقين لجلب كمية من الثلج؟

- لا داعي.. المطلوب أن يكون لدينا خبز زائد ليوم واحد.. تلك هي التعليمات.. دائماً احتياط ليوم واحد.

- عين الصواب، من يدري ما سيحدث بعد ساعة؟ إنها ثورة.. ظروف الحرب لها أحكامها ومفاجآتها.. يمكن أن تحدث أمور غير متوقعة وفي أي لحظة.

كان ضابط الحرس قد نزل من قمة تمركز المرصدين، من ذروة أعلى قمة لكشف الأطراف، لتكون المنطقة تحت المراقبة الدائمة، بعد أن تم الاستطلاع الصباحي والتأكد من أن الأمور طبيعية، عندما تجاوزت الساعة التاسعة صباحا بقليل، عندها فقط استطاع المقاتلون النوم وأخذ قسط من الراحة بنفسية شبه مطمئنة.

ناموا ورءوسهم في الظل، بينما أجسادهم معرضة للشمس، وهذا هو الحل الوحيد لكي يعدلوا بين حرارة قرص الشمس، وبرودة هواء هذه الهضاب العالية.

بعد منتصف النهار، بدأ عريف الحرس بإيقاظ مَنْ بقي نائما من الرفاق.. بعد توجهه إلى مكان تجمع الإدارة، كان الرفيق «فرمان» يتحدث عن قصة الأخوين الشقيين (حاكم وعادل) وأخبر قائد السرية عن الجاهزية:

- رفيق «خبات».. الرفاق في مكان الاجتماع.

- رفيق دوغان لتكن المحاضرة عن التطورات والحث على رفع المعنويات، سنكمل التحضيرات. قال القائد خبات.

- أنا جاهز رفيق، ولكن ليس قبل أن أشارككم الاستماع لقصة الأخوين الأشقياء.

- كما تريد.. ربما تستفيد منها في كتابة روايتك.

أصبح معروفاً لدى الجميع أن المقاتل فرمان لديه طريقة جذابة في سرد قصصه، بحيث يجعل أتفه حادثة تبدو وكأنها قصة مثيرة:

- نايف بك؛ كلوكى - هركولي كان لديه زوجتان، وحاكم وعادل كانا ابنيه من الزوجة الأولى، لكن زوجته الثانية كانت تحرض زوجها نايف آغا وأبناءه على أبنائه من الزوجة الأولى، فوصل الأمر بين أبناء الزوجتين إلى حد العداوة.

في أحد الأيام كان عادل وحاكم في الطريق إلى مدينة سيرت، فاعترض طريقهما أبناء الزوجة الثانية ومعهم أخوالهم، احتد الأمر بينهم فقتل حاكم وعادل أحد أخوة زوجة أبيهما، أي خال أخوتهما من الزوجة الثانية.

أولاد الزوجة الثانية قاموا بدفن خالهم سراً، وكأن شيئاً لم يكن، حتى دون أن يخبروا والدهم نايف آغا بما حدث.

تحريض الزوجة الثانية استمر إلى أن انكشف أمر مقتل أحد أخوتها على يد ابني زوجها حاكم وعادل، فهرب هذان، ولاذا بالجبال مطارَدَين، ثم اعتُقِلا واقتيدا إلى سيرت.. بعد سنوات تم إطلاق سراحهما.

وفي أحد الأيام وبينما هما وسط البستان، حدث شجار بينهما وبين القرويين من أجل سقاية البساتين، نتج عن ذاك الشجار مقتل رجل بالرفش والمعاول على يد حاكم وعادل، بعد الحادثة تدخل وجهاء المنطقة

وأهل القرية لدى نايف آغا، وباعتبارهم أبناء قرية واحدة، ولا يريدون أن تسوء الأمور أكثر، وطلبوا من نايف بك فقط أن يسلمهما إلى السلطات التركية، وبشرط ألا يتدخل أحد بأمرهما ولا يسعى لإطلاق سراحهما، ومنع أي شخص من زيارتهما في السجن.

هذا كان شرط أهل القتيل، فوافق نايف بك على شرطهم ووعدهم بذلك، وفعلاً وفى بوعده، وسلمهما وتركهما في السجن ولم يزرهما أحد.

توقف الرفيق فرمان، وبدأ يغني أغنية نسجها أبناء المنطقة عن الأخوين.

سجن سيرت حديثاً شيدوه

Hebsa Sêrtê nu çêkirî

فيه النوافذ والباب فتحوه

Kulek û Pencere tê vekirî

Tu kes piştî Nayifê Yûsifê Elo nebejî

ما مِن أحدٍ بعد نايف يوسف علو يردد

أبعدت عن جسدي الكبد

Min kezeba xwe dûr kirî

أخذ نفساً عميقاً وأردف:

- بعد أن ساعدهما «حاجو» على الهرب من السجن، كما ذكرنا من قبل، عادل ذهب إلى الجنوب الكردستاني، ولكن حاكم بقي في هذه الجبال، وأصبح ثانية من الأشقياء، ولكنه لم يستطع البقاء في منطقة آروه، نتيجة ملاحقة السلطات التركية له، فذهب إلى شرناخ لدى عثمان آغا أحمد، ومن

هناك لأكثر من مدة عام تقريباً رافقهم إلى زوزان جمى كَارى – **çemê karê** في هركَول حتى الخريف، ومن هناك ذهب إلى دير كَولى، إلى الجنوب الغربي من شرناخ، قرية جاويشا، تركوا حاكم وزوجتيه هناك، وكان له من كل واحدة طفل، ذهب أوسمان آغا إلى ثكنة آلاي شرناخ، واتفق مع الضابط التركي، على أن يذهب هو ويقوم بقتل حاكم بنفسه، والخطة أن يقوم الجنود بمحاصرة القرية، وفور قتل أوسمان آغا لـ«حاكم» يتدخل الجنود ويطلقون النار، كي يبدو الأمر وكأنه قتل على أيدي الجنود، ودون أن يشك أحد بمقتله على يد أوسمان آغا.. وفعلاً تم الأمر كما خطط له،ويقال إن أوسمان آغا فعل ذلك، للحصول على زوجته الثانية لجمالها، وإن أحد رجال أوسمان آغا نبه حاكم وقال له: اهرب، الجنود جاءوا لاعتقالك، وعلى الفور حمل حاكم سلاحه، وأثناء محاولته الخروج من القرية من إحدى النوافذ أطلق أوسمان آغا عليه النار، وأرداه قتيلاً، وحضر الجنود مباشرة.

في الصباح انتشر الخبر وتجمع القرويون مستفسرين، فكان الخبر مقتل حاكم على يد الجنود الأتراك.

لكن القرويين لم يصدقوا ذلك، وهنا نسجوا عن هذا الغدر أغنية، رددوها يوم تشييع حاكم..

أسند فرمان ظهره إلى الصخرة العملاقة من خلفه، وقال:

– للأسف أحفظ فقط البعض منها. وأكمل ينشدها غناءً:

على ديار خجه خله حللت مقيم

Ez li diyarê Xeç xelê ketim

أشجار وحجارة الديار القديم

Dar û diyarê Keverê Berî

ليلعنك الرب عثمان أحمد قاسم الأثيم

Xwedê mala Osmanê

Ehmedê Qasim xerakrî

كيف وجهت ضربة غدر لئيم

çawa derbekê bêbextî

لـنايف يوسف علو الحكيم

Li Hakimê Nayifê Yûsifê Elo kirî

أمطروا بالرصاص والطلقات

Bejn û bala Hakimê nayif

قامة نايف الحكيم

Gule û fişeka baran kirî

أسفي لا من أجل مقتل البطل

Ez nakevim ber kuştina Egît û

القويم

mêrxasa

ياللأسف.. أسفي

Hayfa min û mixabin

على المرأتين الشابتين من هذا اللطيم

çawa herdu jinê ciwan

تحملان طفلين ذوي عامين نعتوا باليتم

Zarokê du Salî li milan

اللعنة وثلاثمائة وباء سقيم

qeda sêsed bikeve kede

على ضربة التظليم

Derbe bê bextî

يالها من ضربةِ غدرٍ جسيم!

çawa derbeke bê bextî

على قامة نايف الحكيم

Lê dana bejn û bala Hakimê Nayif

*****

ياللأسف.. أسفي

Hayfa min û mixabin

على المرأتين الشابتين الجميلتين

Herdu jinên tor û ciwan

والطفلين ذوي العامين

Zarokê du Salî

في الغربة وفي ديار الغريبين

Welatê xerîb û xurbetê

دون أهل ولا أقارب ولا معين

Bê xwedî û xudan mane

جالسوا جنازة نايف الطعين

Ser Cinazê Hakimê Nayifrûniştin

يبكون ويناجون حالهم للمتين

Ji halê xwe re wa digrîn û dilorin

يتدخلون ويريدون الانتقام:

على ديار خجه خله حللت مقيم

Ez li diyarê Xeç Xelê ketim

أشجار وحجارة الديار القديم

Dar û Berê Kevrê Berî

Xwedê mala Osmanê Ahmed xerakirî

ليلعنك الرب عثمان أحمد قاسم الأثيم

كيف وجهت ضربة غدر لئيم

çawa lê dana derbeke bê bextiyî

سرقوا نهارنا وبقينا في ليلِنا

Ronahî li me tarî kirî

مر الربيع والصيف والخريف علينا

Ser me de hat Bihar û Havîn û Payîzê

أيتها الدنيا

Lê dinyayê

أبداً لا تقلقي وتحزني على

qet kul û xemê nexwin

صاحب القبضة الكمالي

xwedê dest darê kemalîyê

بذرة عثمان أحمد

Ezê Tovê Osmanê Ehmed paqij kim

من الدنيا سأمحى

Ji dara dinyayê

ما إن انتهى فرمان من سرد القصة، قالت الرفيقة مزكَين:

– الغريب في بساطة مجتمعنا الكردي.. الآية التي انعكست في موروثنا الثقافي.. كيف نجعل من مجرد لصوص وقطاعي طرق أبطالاً وننسج أغاني عنهم، وكأنهم أبطال أسطوريون.. لص وقاطع طريق و.. و.. إلخ، نأتي به ونجعل منه بطلاً.. غريبٌ أمرنا حقاً غريب..!

علق الرفيق دوغان:

– إن أي مجتمع يحتاج إلى شخصيات من كل المستويات، إلى أبطال ورموز يستمد منهم استمراريته، وأشخاصٍ يستمد منهم القيم والقيادة والحالة الروحية والمعنوية، مجتمعنا الكردي الّذي تم تصفية هكذا نوع من أبطاله، ومن برز فيه تخلى عن حقيقته القومية وانتمائه الاجتماعي، وباعتقادي هذا ما أحدث فراغاً مخيفاً، وشكل عقدةً في نفسية الإنسان الكردي، وهذه العقدة

وتركه فريسة للجهل والتخلف عن قصد، أدت بالإنسان الكردي إلى الإحساس بالفراغ مما جعله يعمل لإثبات الذات.

سأل فرمان:

- فعلاً.. عندما تستمع إلى قصصهم لا تسمع غير القتل والسلب والثأر، مع ذلك ترى الناس يتحدثون عنهم كأبطال.. حقاً أمر غريب..!

- الآن فهمت من أين استمد عملاق السينما الكردية المخرج العالمي يلماز كَونى موضوع أفلامه ذي كوبوي كردي..

أكمل الرفيق دورم:

- استمد أغلب موضوعات أفلامه من قصص أشقياء آروه، مثل فيلم مامد وعكَيد..و غيرها.. حتى فيلمه القطيع تم تصويره هنا في هركَول وبرواري..

- قبل سنوات من ظهور الگريلا في هذه الجبال كانت العشائر تتقاتل على المراعي، وتقوم بغزو بعضها البعض، وتسلب بعضها الجياد والأغنام بقوة السلاح.. قبل سنوات مثلاً قامت عشيرة جيركَا أسفل جبل مامند في بيت الشباب، بغزو عشائر حاجي بيرا الشرناخية، ودام الاشتباك بين رجال العشيرتين لأيام، وشمل الاشتباك الأسلحة الرشاشة الثقيلة، ونجحوا في النهب والسلب أمام أعين الجنود الأتراك، الآغوات والبكوات هم من كانوا يحكمون المناطق الكردية، دون أن يتجرّأ أحد على الاقتراب من مراعيهم وممتلكاتهم.

تركهم الرفيق دوغان وفي أذنه ترن حالة هذه الجبال والجهل الذي غرق

فيه، توجه إلى مكان تجمع مقاتلي الوحدة، حيث توزع المقاتلون والمقاتلات فوق الصخور جالسين ومتأهبين، بعضهم جلسوا على الأرض مسندين ظهورهم إلى الصخور، مشكلين حلقة مفتوحة، وما إن وصل دوغان الموجه السياسي للسرية، وقف الجميع وقفة عسكرية.

- تفضلوا بالجلوس.. تفضلوا.

توقف لبرهة بحزم، دون أن يتكلم، كأنه يعيد ترتيب أفكاره، أو يلملمها من وسط قصة الأخوين، ليعرف من أين يبدأ.. بينما أعين الجميع منصبة عليه.. متوسط القامة، ممشوق الجسد، عضلاته بارزة، ذراعاه مستقيمتان بجانب فخذيه، رأسه مستدير، وذو جبين خفت كثافة شعره تحت تأثير الشمس وتضاريس وحشية الجبال.. وقف أمامهم كجزءٍ من تلك الصخور الشماء.. استمد صلابته من هذه الجبال، جمع شتات أفكاره وشق جدار الصمت وبدأ:

- نعيش الآن في مرحلة متقدمة من مراحل الثورة، ولكل مرحلة ظروفها وخصوصياتها التي تجلبها معها، هناك نقاط تتطلب منا أن نكون في الصورة.. لنفهمها ونناقشها معا، ليس من الوجه العام فقط ومنطق الاقتراب السطحي للمعطيات، بهذا المنطق لا يمكن للمناضل الثوري أن يخطو المراحل بخطوات سليمة، الاستمرارية تكمن في المعنويات والإيمان بعدالة القضية.. وذلك يتطلب فهماً صحيحاً للواقع السياسي والعسكري وتصحيح حياتنا اليومية.

من المعروف ضعف بروز دور القادة السياسيين في تاريخ أمتنا، وضعفهم

في تلبية متطلبات القضية.. ولتجاوز ذلك الواقع يجب علينا تحليل كل خطوة بالتفصيل.. مع التطورات اليومية والمرحلية.. لفهم الواقع الذي نحن فيه والواجبات التي تقع على عاتقنا، يجب أن نتابع التطورات على كافة الأصعدة الدولية والإقليمية، نزولاً إلى مستوى حياتنا اليومية.

بانهيار الاتحاد السوفييتي، وبقاء الولايات المتحدة في دفة التحكم بالعالم، وممارستها للسياسة التي تسميها «النظام العالمي الجديد».. هي فعلاً مرحلة جديدة، لانهيار معادلاتٍ وبروز معادلاتٍ مغايرة.. الكل يسعى لتتوافق هذه المعادلات الجديدة مع مصالحه، وعلى رأسها أمريكا.. المغزى الحقيقي لمعادلة التغيير في المنطقة، تتوضح أكثر مع الأيام خاصة بعد حرب الخليج، نموذج للاتحاد الدولي وبمشاركة أنظمة المنطقة ضد النظام العراقي، يبدو أنه جاء نتيجة الخطر الذي بات يشكله النظام العراقي على مخططاتهم، الذي كان بمثابة عصيان الابن لإرادة أبيه، وبالنتيجة يقوم الأب بمعاقبة ولده العاق، لإعادته إلى الصواب.. بما يتوافق ومشيئته.

توقف لحظة.. تحرك فيها بضع خطوات يميناً ويساراً، أمام الوحدة التي تلتقط كلماته دون أن تفوتهم حتى بحات صوته، التي تتداخل ما بين الجمل في الحديث.. مد يده، نتف رءوس براعم بعض من الأعشاب البرية التي كانت منتصبة حوله، مما كان يعطي حديثه هيبة وجمالاً مرهفا.. وتابع:

- في تاريخ كردستان فاتنا الكثير من الفرص، التي كان يجب أن نستفيد منها، ولكن مع الأسف ونتيجة العقليات المتزلفة في القيادات الكردية، العشائرية والدينية وذوي البنية القومية البدائية، التي لم تكن لديها القدرة

على معرفة كيفية التحليل، والاستفادة من تلك الفرص.. حدث ذلك في مؤتمر السلام بعد الحرب العالمية الأُولى، باعتبار كردستان كياناً يستحق التعامل معه مثل باقي الأقاليم والشعوب في المنطقة، ولكن عندما أصبحت القضية تأخذ أبعادها، جاء مؤتمر لوزان على مرحلتين:

المرحلة الأولى بدأت في 20/ 11/ 1922، والثانية في 23 نيسان سنة 1923، وفي كلتا المرحلتين لم تحتل القضية الكردية موقعاً، على أنها قضيـــــة مستقلة محددة بين جدول أعـمال المؤتمر، إذ إن الحلفاء ومنذ عام 1921 تركـــوا الكرد يلاقون مصيرهم، وتخلوا نهائياً عن حقنا في تقرير مصيرنا القومي، وذهبت جهود ومطالب شريف باشا.. بصدد القضية الكردية، كسابقاتها من الانتفاضات والمحاولات، أدراج الرياح، ولاحقاً كانت انتكاسة ثورة البارزاني عام 1975، على أثر اتفاقية الجزائر المشئومة.. دائماً كانت تفوتنا الفرص التاريخية.. ولم تتكلل تلك التضحيات الكبيرة بالنجاح.. أو أن تكون قوة الحل للعقدة الكردية.. فالتكالب الوحشي لأعداء الكرد، وانتهازية مصالح القوى الدولية من جهة.. ومن جهة أخرى جهل الساسة الكرد، وتخلفهم، وبقاؤهم في إطار لم يستطيعوا فيه تجاوز الأطر العشائرية؛ المشيخة، أو العائلة.. أو الاقتراب من القضية من المنطلق الوطني والقومي، هكذا ببساطة ضمن إطار ضيق، لم نصل إلى حل لقضيتنا.

قطع حديثه عندما لفت انتباه المقاتلين حجلٌ فوق الصخور في الجهة الغربية ينشد ومن حوله فراخه التي تطير بخفة، بدت خفتها كفئران

تلاحق أمها.. تغيّرت ملامحه الجدية الصارمة.. ورَسَمت ابتسامة مشرقة، ونظر إليهم متابعاً حديثه محاولا تجاهل الموقف:

نحن الآن نمر بمرحلة مشابهة لتلك المراحل.. الآن الشعب الكردي نوعاً ما اكتسب قيادة.. قيادة لها قوة القرار والإصرار لتحقيق النصر، وفق أطر علمية واعية حسب شمولية المرحلة، لذلك يجب أن نعرف كيفية إيجاد الحلول لواقع المشاكل التي تعترض مسيرة نضالنا المشروع، كيف نقترب منها، فمحاولات القومية البدائية والقيادات القديمة فشلت حتى الآن، بل زادت الطين بلة نتيجة الانتكاسات، فكانت المآسي والخيبات التي أثرت في نفسية الشعب الكردي.

الشعب الكردي في جنوب كردستان في هذه الأيام يعيش انتفاضة، وصل إلى نقطة انتفض فيها.. ولكن هذه الانتفاضة حتى اللحظة بقيت دون قيادة مكتملة، فبعد مجزرة «حلبجه» الوحشية وعمليات الأنفال، أغلب قادتهم خرجوا من الوطن، وإذا استمرت تلك القيادات بالتناحر مثل المراحل السابقة، وإن لم يتجاوزوا المصالح الحزبوية والفردية، يعني ذلك أنهم قادة لم يستطيعوا بعد الاستفادة من الماضي، وستكون النتيجة تراجيدية، كسابقاتها من الانتفاضات.

بدا التغير واضحاً في نبرات صوته وملامحه، فأصبحت أكثر وقاراً ورصانة، حتى بدا كأنه ابتلع غصة، وبأسلوب سياسي مثقف وعسكري مجرب، وضع يده اليمنى من فوق حزامه الذي يضمه القشاط العسكري كالخاتم، والذي يحمل الجعبة والمسدس على يمينه.. وتابع:

- قيادة الحزب تدخلت وأعطت تعليمات إلى مقراتنا في الجنوب، لتتدخل في الأمر، وهناك انتقادات من القائد لقادة المقرات، لعدم لعب دورهم المطلوب.

بالمقابل ونتيجة حدوث مجازر وهجرات جماعية هناك.. القيادات الأمريكية والتركية يستغلون وضعهم الإنساني المذري بسياسة منحطة تحت اسم تقديم المساعدات الغذائية وغيرها، بدأوا التلاعب بعواطف الشعب، لدرجة بات أولئك البسطاء ينادون الرئيس الأمريكي بوش بـ(حج بوش)، بطبيعة الحال هناك سياسات وراء كل هذه الأمور، والمطلوب أن نقوم بملء الفراغ السياسي على الجانب الكردستاني، السياسة لها قوانين كما هي الفعاليات العسكرية، إذا لم تهاجم، فالعدو سيهاجمك، إذا لم تملأ الفراغ القيادي والإداري الذي حدث على أثر الانتفاضة، فالعدو سيملؤه، إذا لم توَجه الشعب وفق مصالحه الخاصة، فهناك من سيقوم بذلك الدور، وسيوجه الشعب وفق أهوائه ومصالحه.

إذا استطعنا التحكم، سنستفيد من نتيجة حرب الخليج، التي أدت إلى إحداث خلل في توازنات قوى المنطقة.. سيؤدي الأمر إلى بروز دور الكرد في خارطة سياسات المنطقة، ودفع القضية الكردية إلى جدول الحلول، إلى أن تتضح هذه التطورات، ستأخذ القضية الكردية الأولوية، بالنسبة للقضايا الأخرى، كالقضية الفلسطينية وغيرها في المنطقة، ولكي نتفادى تكرار التاريخ التراجيدي.. يجب أن نحذر الألاعيب الدولية، تاريخ شعبنا مليء بالألاعيب والمؤامرات، إضافة إلى الخيانات الداخلية.. والنتيجة أن

الشعب هو الضحية دائماً.. كافة الانتفاضات بدأت هكذا وانتهت بتلك الصورة.. وكي لا نذهب بعيداً، فمثلاً أبناء هذه المنطقة من الرفاق لا بد وأن حدثهم آباؤهم وأجدادهم عن انتفاضة البدرخانيين.. وكمثال تلك التي قادها (آقيب آغا) والسيطرة على مدينة «آروه» و«برواري».. القيادات كانت متخلفة، بالرغم من احتوائها على جوانب الشجاعة والبطولة، الانتفاضة استمرت بعد سيطرة رجالها على «آروه».. يومها بدأوا الزحف نحو مدينة (سيرت)، في تلك الأيام لم تكن هنالك جسور على نهر بوطان.. كما يقولون، عندما وصلوا إلى نهر بوطان، كانت هنالك سفينة يتم العبور بها، تجمع الثوار هناك عند قرية (خيرتى – Xêrtê)، فأطلقت عليهم القوات العثمانية عدة قذائف مدفعية من الجانب الآخر، فقال رجال الانتفاضة فيما بينهم: «والله حسبنا حسابنا لكل شيء لكن هذه القذائف لم تكن في حسباننا».

هكذا عادوا، واستسلموا بعد أن قذفهم العدو، أما آخر معقل للبدرخانيين، فكان في قرية (آوراخ – Ewrex) وقلعتها.. وجبل كور قنديل المطل كآخر نقطة مقاومة..

هذا التطرق إلى الأحداث المحلية أثار ابتسامة على وجوه مقاتلي الوحدة.. كم كانوا ساذجين، رغم بطولاتهم التي لا يزال يرددها الكبار والصغار..

تابع القائد الفدائي:

– بطبيعة الحال ذلك ناتج عن الجهل وعدم الوعي، فالأمر يختلف في المرحلة التي نمر بها، وكي نتعمق في فهم هذه المرحلة أكثر، هنالك تعليمات

القائد وتحليلاته الأخيرة، سنقرأها معاً وسنناقشها، أما ما نحن فيه وحول التطورات في المنطقة، فمنذ بداية حملة الربيع هذه، وها نحن على أبواب المرحلة الثانية من حملتنا، والحملة ستكون كحرارة الصيف.. لا سيما كوننا في منطقة الشرارة الأولى والطلقة الأولى التي أطلقها قائد (ARGK) الشهيد الرفيق معصوم قورقماز «عكَيد».

مرر أصابعه على ذقنه قاتم السواد الذي أكسبه ملامح أكثر رجولية، ودون أن يقطع حديثه، عدَّل من وقفته منتصباً، مندفعا إلى الأمام:

- منذ بداية الحملة قمنا بتنفيذ عمليات مختلفة في منطقتنا، العمليات والتكتيك العسكري تمت بأساليب مختلفة.. عمليات هجومية.. ألغام.. نصب الكمائن.. إلخ.

كما نعلم، الهدف من العمليات العسكرية ليس دافع القتل، قتل عددٍ من الجنود أو من حماة القرى.. لا لا.. ذلك ليس منطق الكَريلا، فالكَريلا ينفذون العمليات، لتكون تلك العمليات بمثابة المثقب، الذي يفتح الثقوب في جدار السد.. الجدار الذي يضعه العدو بيننا وبين الشعب.

العمليات تفتح أبواباً ونوافذ، من خلالها نستطيع التواصل مع الشعب، الذي هو الهدف الأول والأخير، ولو كانت هنالك أساليب وطرق أخرى، لما كان هناك داع للعمليات العسكرية، فالعمليات من منطق إجباري، يفرض على الثوار حمل السلاح، أي هنا نحمل السلاح ليس طوعاً أو محبة، بل نحن مجبرون على حمله، فلولا هذه الأسلحة لتمت تصفيتنا جميعاً في ظرف ربما أقل من أربع وعشرين ساعة.

العمليات التي تم تنفيذها هنا، فتحت أمامنا منافذ نستطيع الدخول من خلالها لتوطيد علاقتنا مع الشعب، تحركات العدو أصبحت محدودة، إذن المطلوب أن نعرف كيف نستفيد من نتيجتها، ودون أن نترك فراغاً يجب أن نتبع أسلوباً يكمل ما نبغي الوصول إليه، أمامنا هذه القرى، سننزل إليها وسنقوم بنشاط مكثف وسط القرويين، عن طريق عقد اجتماعات لهم، وبغيرها من أنواع العمليات.

توقف لبرهة يفكر، ويبحث عن الجمل والكلمات كأنه أضاع رأس الخيط، ولكن لم يكن الأمر كذلك، قال:

– قمنا بعقد اجتماع بعد عملية الكمين على الطريق، وقد تم تشخيص الأخطاء والنواقص التي حصلت ضمن الكمين، وتوقفنا عندها بجدية، خاصة أخطاء الرفاق الذين لم يأخذوا أماكنهم بصورة صحيحة، وطلبنا منهم تقارير يوضحون فيها فيها أسباب هذه الأخطاء والدروس التي استنتجوها منها، وذلك حسب نتيجة اقتراحات الرفاق وبالإجماع.

والجدير بالذكر أنه ما زال بعض هذه الأخطاء يتكرر، خاصة في مجال الحياة اليومية، تلك الأخطاء التي كان لها تأثير مباشر على عدم نجاح الكمين، كما كان مخططا له تماماً، هي ليست إلا انعكاسا لأخطائنا في حياتنا اليومية، إذا لم تسر حياتنا اليومية وفق نظام وانضباط فولاذيين، فان استمرارية هذه الأخطاء البسيطة ستبرز كأخطاء في العمليات بالصورة نفسها.

تصرف المقاتل ضمن العمليات العسكرية هو انعكاس لحياته اليومية

خارج العمليات، فالمقاتل هو جزء من الكل.

ثم رفع نظره إلى الأعلى، كانت بعض الطيور من الجوارح تحلق في السماء، خفض نظره مباشرة إلى الأعشاب الموردة، بينما كان الحجل مع فراخه قد اختفوا وراء الصخور.. أكمل:

– وهنا يحضرني مثال أود أن أقوله لكم: أثناء أحد المسيرات تحرك جيش جنكيز خان، يقال إنه وقع مسمار من نعل حصان أحد المقاتلين، وعندما عرف جنكيز خان بالأمر، أمر بتنفيذ حكم الإعدام بفارس ذاك الحصان فوراً، قيل له إن الأمر لا يستحق هذا العقاب، إنه مجرد نعل، فأجابهم جنكيز خان: إن وقوع مسمار من نعل حصان سيؤدي إلى إعاقة سير هذا الفارس مع مجموعته، وبالتالي سيؤدي الأمر إلى حدوث خلل في تنظيم المجموعة، وبطءٍ في حركتها، وفي حركة الوحدة التي تقع فيها هذه المجموعة بتلك الصورة وبالتدريج سيؤدي الأمر إلى خلل في حركة الجيش بأكمله.

وكذلك هو الخطأ الذي ظهر في الكمين، لو لم يأخذ الرفاق أماكنهم بصورة صحيحة وبمبادرة منهم، ماذا كانت النتيجة؟

وأضاف:

– نتيجة التقارير اليومية، البارحة مثلاً: تطرق الرفاق إلى بعض النقاط التي تتضح من خلالها استمرارية بعض الرفاق في الإخلال بالانضباط.

فمثلا: قوة الگريلا تكمن في التحرك السري، ذلك ما يجب أن نضعه كحلقة في آذاننا، الگريلا موجود وغير موجود.. أين هم؟ في أي مكان؟ لا أحد يعرف.. أين ذهبوا؟ ومن أين سيأتون؟ لا أحد يعرف، الگريلا

إذا أباحوا هذه النقطة وقاموا بإخلالها، لن يكون هناك كَريلا.. عندها لن تكون هناك ثورة ولا نصر.. لن يكون هنالك غير الإبادة، الثورة والحرب تعنيان النصر أو الموت.. صعدنا الجبال لتحقيق النصر وليس الموت.. نستشهد كأفراد من أجل انتصار القضية.

ثم وجه نظره إلى المقاتلين والمقاتلات وسأل:

- هل هناك أحد من الرفاق يريد أن يقول شيئاً، أو يسأل حول هذه الأمور؟

بعض الرفاق والرفيقات رفعوا أيديهم، وأخذوا حق التحدث، ولكن دون أن يكون هناك اختلاف في الرأي، أو نقد ما هو جدي.. لم تكن إلا تأييداً لما تم التطرق إليه.. على أساس أن الجميع مسئولون عن الحياة، وكل الرفاق أو الرفيقات يجب عليهم الالتزام بمبدأ المسئولية.

استمر الرفيق دوغان قائلاً:

- لا نريد أن نطيل الحديث أكثر، الليلة أمامنا مهمة، اليوم سنذهب لعقد اجتماع في قرية (إركند)، الإدارة ناقشت الوضع وقامت بالتحضيرات، وتم الاتصال مع ميليشياتنا[1] في القرية، وكما تعلمون كانوا ضمن مجموعات (حماة القرى) في العام الماضي، أما الآن، ورغم تسليم أسلحتهم، فما يزال وضع القرية غير مستقر، يجب أن نقف عند بعض الأمور التي تسبب بعض المشاكل هناك، لذلك على كافة الرفاق والرفيقات أن يكونوا على استعداد،

(1) الميليشيا أو المليس: رجال ونساء وطنيون من أبناء القرى المنضمين سراً مع الثوار، يؤدون الخدمات للثوار من تأمين المواد التموينية وحاجات أخرى، كذلك هم مصدر لجمع المعلومات والقيام بمهام تنظيمية بين الشعب وأحياناً المشاركة في العمليات العسكرية مع وحدات للگريلا.

سنتحرك باكراً ونقترب من القرية، وندخلها مع غروب الشمس، سيكون التحرك نحو القرية من الوادي الذي ينزل من «باني هرجا» إلى داخل القرية، يجب أن نكون على حذر شديد ومستعدين لكل طارئ، الحركة من الوادي حتى القرية غير مكشوفة.

ثم توقف وسأل مرة أخرى:

- هل هناك أحد من الرفاق أو الرفيقات يريد أن يسأل، أو وضعه لا يساعده.. مريض أو ما شابه ذلك، أو أي اقتراحات أو آراء؟

كان قرص الشمس بدأ بالميلان، حلّ النصف الثاني من النهار، كانت الوحدة قد جهزت عتادها استعداداً للتحرك، بينما توقف قائد فصيل المجموعة الأولى الرفيق فرهاد وقفة عسكرية أمام ثلاث أرتال، كل رتل منها لا يقل عن خمسة وعشرين مقاتلاً ومقاتلة، فصيلان من المقاتلين وفصيل من المقاتلات.. وبصوتٍ جهوري أعطى الإيعاز:

- انتبا ا ا..ه.. ه..استا.. اا.عد.. استا.اا.. رح..

بينما بدأت الأقدام اليسرى لكل مقاتل ومقاتلة بالتباعد عن القدم اليمنى معاً، ومع تباعدها تنحني فوهة البنادق الحربية إلى الأمام، وتتراجع مع تراجع أو تلاصق القدمين.. ثم ردد الشعار المسائي، ورددت وراءه حناجر مقاتلي الحرية، والقمم والصخور رددت صداها.

- بالروح.

- بالروح (الوحدة)

- بالدم

- بالدم. (الوحدة)
- نحن معك.
- نحن معك. (الوحدة)
- أيها القائد.
- أيها القائد.

كان ترديد الوحدة للشعار في جبالٍ عطشى.. يأتي على المسامع ككورال يرددون مع المغني.. فالمغني هو قائد للگريلا، والكورال هم المقاتلون من أجل الحرية.

تم البدء بمراقبة أوضاع الفصائل.. يسأل قادة المجموعات، ويستفسر عن أوضاع كل مجموعة وجاهزيتها مثل: هل الأشياء محزمة بشكل جيد؟ لفت انتباهه مطرة فارغة بيد مقاتل إحدى المجموعات في الفصيل الثاني.. مباشرة وجه الكلام إلى قائد تلك المجموعة:

- ما هذا.. المطرة التي بيد الرفيق؟! لماذا ليست محزومة فوق حقيبته؟

وبدأ يعلق على الأمر موجهاً الحديث إلى المقاتل بالذات:

- ألا تعلم إلى أين ستذهب؟ وهل رأيت أو سمعت أن هناك مقاتلاً أثناء المسير يحمل بيده شيئاً غير البندقية؟ مسيرنا ليس لدقيقة ولا لساعة، أثناء المسير يجب أن تكون يدا المقاتل حرة، فقط لاستخدام بندقيته، أما الحاجات الأخرى، فيجب أن تكون محزومة على حقيبة ظهره، ماذا لو حدث أمر طارئ في الطريق؟ وقعنا في كمين مثلاً، كيف ستستخدم بندقيتك إذا لم تكن بيدك؟ ماذا ستفعل حينها؟ سترمي المطرة لكي تستطيع استخدامها،

أليس كذلك؟ رمي الأشياء أو تركها في مثل تلك المواقف، ليس من شيم المقاتل مهما كانت هذه الأشياء بسيطة، بالنسبة لقيمتها المادية، العسكري يحلل مثل هذه الأمور على الشكل التالي:

«رمي الأشياء أو تركها، يدل على عدم وجود الانضباط في تلك الوحدة أو ذلك الجيش، وعدم الانضباط يعني أنه لا توجد روح عسكرية، ومثل هذه الأشياء البسيطة تعطي العدو الجرأة، سيقولون: إنهم رموا بأشيائهم وخلفوها من الرعب، وفروا هاربين، أليس كذلك؟ ».

أعطى إيعاز الاستراحة ومهلة قصيرة، لإعادة ترتيب الجاهزية حسب المهمة.

لحظات أخذ المقاتلون أماكنهم في الرتل، وبدأت الوحدة التحرك، بينما كانت مجموعة من ثلاثة مقاتلين، لهم خبرة ومعرفة بالتضاريس الجغرافية للمنطقة، قد سبقوهم في مهمة الاستطلاع والاستكشاف، كانوا بانتظارهم في الطريق.

أضحت قاعدة المعسكر خاوية ثانية وسادها الصمت، لا تشغلها إلا زقزقة العصافير وحفيف سنابل الأعشاب.

- 6 -

كتل من الغيوم تلاحق بعضها بعضاً، تلاصقت وتداخلت فيما بينها لتشكل غيمة عملاقة، بدت لـ«حمو» على هيئة طائرٍ أسطوري عملاق، يقف على ذروة هركَول، فاتحاً منقاره، ماداً رأسه نحو الأسفل، مراقباً الأرض من سهول ووديان.

جلس ممدداً رجليه على الدرج الصاعد إلى بيته، مستقبلاً الشمس بعينين كئيبتين في ساعات الصباح الباكر، ولطالما كانت شمس الصباح تلامس وجهه كل يوم، ولكنه منذ فترة طويلة، لم يعد كذلك، في الليالي التي لم تكن فيها له مناوبة، كان ينهض في الساعة الرابعة ليقيم الصلاة المعهودة كما تعود، بينما اليوم يجلس حائراً، وقد انقلبت حياته، جلس ومن حوله أرض الدار المحاطة بأغصان جُدلت بعناية، مكونة سياجاً يستعاض به في القرى الكردية عن الجدران الحجرية.. استغرق في عالمه، بينما فرسه تلتهم التبن والشعير في باحة الدار، والدجاج تنقر الأرض من حوله، صاح الديك بلا مقدمات صيحة قوية، فهرعت الدجاجات إليه، وما كان ذلك إلا لتدلها على بعض حبات الشعير، المتناثرة على الأرض بين التراب.

«ليتك مثل هذا الديك يا حمو.. هذا الديك أقوى منك، يصيح فتلجأ

إليه الدجاجات. أما أنت! فقد ذهبت منك دجاجتك الوحيدة، ليتني أستطيع أن أفعل مثلك أيها الديك، ولكن ليس باليد حيلة».

انفجر في قلبه غضبٌ فظيع، فاض على جنبات روحه، لم يعرف لماذا! بدأ يمشي في أرض الدار، ذهاباً وإياباً، يفكر ويبحث عن حل، دخل غرفة الغلال، أدوات الحصاد البدائية من بقايا ذكريات والده، ومنها من صنع يديه، كانت هناك وقد اكتست بطبقة من الغبار، وغزتها شِباك العناكب، مد يده إلى المنجل «آه يا حمو.. أين تلك الأيام؟ إنها الآن لا تتعرف على صانعها وصاحبها»، بدأ ينظر إلى راحتيْ يديه، وكيف كان يقبض بهما هذا المنجل، بقبضة فولاذية، كان المنجل ثابتاً في قبضةٍ وفي قبضته الأخرى سنابل تزهو، بعد أن حصدت، «آه.. سنابل كالذهب.. أين أنت يا أبي؟ ليرحمك الله! كنت دائماً تقول: إن الأرض هي الأم الحقيقية، هي شرف وكرامة المرء يا أولادي.. الانقطاع عن الأرض ليس كانقطاع الرضيع عن حليب أمه فحسب، بل الجنين عن رحم أمه، وعندما كنت أقول: سأذهب للعمل في المدينة.. كان جوابك دائماً: افعلوا ما تريدون، ولكن لا تبيعوا الأرض، ولا تتركوها، فهي عماد الحياة.. بل هي الحياة ذاتها ».

منذ أن حملت هذه البندقية، تغير كل شيء.. آه.. كم كنت أحمق! تخليت عن كل شيء.. لا أرض.. لا زراعة.. لا حقل.. لا بستان، كل شيء ضاع، لم تكن بهار أول شيء أخسره في حياتي، ضاعت حياتي بأكملها.. قبل هذه اللحظة بكثير انقطعت عن الحياة، وصارت حياتي مللاً، لا زراعة ولا أرض، حوالي ألف رأس من الغنم، قطيع كامل.. عشرات

رءوس الجواميس والأبقار.. أين ذهبت؟ ليس لي الآن سوى هذه البقرة والفرس، أين ذهب كل ذلك؟ من أجل ماذا؟ وكيف حدث هذا يا حمو؟ لقد جُردت من كل شيء، جردوك من كل شيء دون أن تدري.. فقالوا: «الأرض لا داعي لزراعتها، لأن الإرهابيين يقومون بحرق المحاصيل»، وصدقت أنت ببلاهتك، ثم ادّعوا أن الإرهابيين يأخذون قطعان الماشية.. خاصة العائدة لحماة القرى، ولم تعد تستطيع الصعود بها إلى مراعي الزوزان.. صدقت أيضاً وبعت قطيعك.. ووعدوك بأعمال وخير وفير.. صدقت.. وصدقت..

من هنا وهناك يا حمو، أصبحت حياتك مقتصرة على العيش من راتب هذا السلاح، جردوك من كل شيء إلا هذا السلاح الذي يحميهم هم، ولا يستطيع أن يحميك أنت، إنه لا يوفر كسرة خبز شريفة لك ولعيالك، اللعنة.. قبل أن تأكلها، ألم يكن من المفروض أن تتساءل: لماذا يعطونك كسرة الخبز تلك؟ كنت في نعيم.. القمح والشعير، أشجار التفاح والكرمة العتيقة، اللبن.. الجبن.. أين أنت الآن؟ رحمة الله على ذاك الزمان! حقلك، بستانك وقطيعك.. الآن هو هذا السلاح، حتى زوجتك لم تسلم، لم تستطع الحفاظ عليها.. جردوك منها أيضاً، ماذا بقي لك يا حمو؟ لا شيء.. يجب أن أجد حلاً عاجلاً للأمر، ماذا أفعل؟ هل أزوج زوجتي؟

الجملة الأخيرة نزلت عليه كالصاعقة، فتوقف فجأةً، كان خائفاً من مجرد التفكير بها «أزوج زوجتي»؟ يا إلهي.. يبدو أنني فعلاً جننت.. أزوج

زوجتي؟ كيف وصلت إلى هذا الحال؟ ماذا سيقول الناس عني؟ سأصبح أضحوكة للأطفال، يا إلهي لم أعد أحتمل، رأسي سينفجر، سيقولون: حمو زَوَّج زوجته، ولكن عجباً لماذا لم يقولوا حمو باع حقله.. ترك بستانه.. باع قطيعه.. كيف سيكون ذلك؟ ماذا أفعل؟ يجب أن أجد حلاً.

صمت لبرهة واستجمع شتات أفكاره، وكأنما اتخذ القرار، خرج إلى أرض الدار وهو ينفض الغبار الذي غطى سرواله، وغسل يديه من الصفيحة المليئة بالماء، الموضوعة وسط أرض الدار، توقف وانتبه لنفسه، وتكلم بصوتٍ مسموع متسائلاً: كيف سأبوح لـ«بهار» بذلك؟ تلك المصيبة الكبرى.. آه يا بهار ليت الأرض تنشق وتبتلعني.. ولا أن أبوح لك بتلك الكلمات! ماذا سأقول لكِ؟ سأطلقك؟ ليس هذا فحسب.. أطلقكِ وسيتزوجك رجل آخر، لفترة ثم سيطلقكِ وأتزوجكِ ثانيةً، هل هذا معقول؟ كيف سيكون ذلك؟ يا إلهي الموت أهون، ماذا علي أن أفعل؟ لن أستطيع.. لن أستطيع.

شعر وكأن قلبه توقف عن ضخ الدم، أصبحت هامته كصنم من أصنام (نمرود) وسط باحة البيت الفارغة، سرعان ما خرج إلى أزقة القرية، متسللاً بين البيوت خلسة، باتجاه بيت عمه والد بهار، سَوَّر أطراف بيته العتيق بشجيرات العليق والعوسج ذات الأشواك القصيرة، القوية والحادة، كان وسط ساحة البيت شيخٌ ملتح، جالس في فناء أرض الدار صامتاً عاقداً يديه، بدت عليه مظاهر البلاهة غيرِ المهتم.. أشيب الرأس واللحية، نافذ العينين، والسنين قد أحنت ظهره، فاحدودب، ابتدر العم

شمدين قائلاً:

- تعال يا حمو.. تعال.. اجلس.

دون أن يتفوه ولو بكلمة ترحيب، ما إن أخذ حمو مكانه بالقرب منه.. حتى جلبت حماته قطعة من السجاد مكومة عدة مرات على بعضها، جلس حمو عليها مطأطئ الرأس.

لبث واجماً لحظة، ونظر إلى حمو نظرة إشفاق، ولم يتأخر، بل أردف يسأل:

- البارحة حدثني الملا.. ماذا فعلت يا حمو؟

أشار حمو بيده إشارة تنم عن الكرب واليأس قائلاً:

- ذلك ما حدث يا عمي.

- المكتوب على الجبين ستراه العين، الأمر لله.. إنه قدر ابنتي.. نعم قدرها، يا رب ماذا فعلنا حتى تجزينا بهذا الشكل؟

- لا أعرف.. الأمر لله ولكم يا عم.

- الأمر لله، ذلك صحيح، ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا نعمة العقل كي نرى ونعرف ما اقترفناه من ذنبٍ، تلك هي الحقيقة يا حمو، قلنا لك مئات المرات، ارحل يا حمو، ما دمت بعت القطيع والحقل، لكنك لم تستمع إلى أحد، كم مرة قال لك أخوك خليل أن تذهب للسكن عنده في المدينة؟ لم تستمع لكلامه، لقد حشروا رءوسكم من أجل راتبٍ حرام، المعاش أضاع عقلكم.

- بالله عليك يكفي ذلك.. لقد حدث ما حدث يا عمي، يكفيني الذي

أنا فيه، قل لي ماذا سنفعل الآن؟

استأنف العم شمدين يقول بعد لحظة:

- في آخر عمري جعلتني أتذلّل لـ(كَرو)، البارحة ذهبت إليه بنفسي.

- من أجل ماذا؟

تدخلت حماته وقالت:

- عمك ذهب ليطلب منه التدخل في الأمر، ليتحدث مع قائد الثكنة من أجل أن يستلم بندقيتك، ولو لفترة قصيرة لكي يحل قسمك.

- ماذا قال؟

تابعت حماته:

- الأفعى عندما تكبر يأخذها الله إلى السماوات من أجل يوم القيامة، ليأخذ الله تلك الأفعى.. فقد كبرت.

قاطعها العم شمدين ليقول:

- بعد صلاة الفجر وأنا عائد، بعد أن أخذت الأبقار إلى القطيع، كان كَرو يعود من الثكنة وأخبرني أن آروول رفض، وكان جوابه «لو تموت زوجته وأولاده لن يعيدها، هناك قوانين، لسنا عشيرة.. أو أشقياء خارج القوانين، وإذا احترقت القرية كلها لن يستطيع التصرف.

تنفّس حمو عميقاً، ثم نفخ ما تجمع من الهواء في رئتيه وقال:

- برأيك ماذا نفعل يا عمي؟

- الحل يا ولدي.. لو كان الملا عبدالله هنا لكنا ذهبنا إليه، ولربما كان قد وجد لنا حلاً آخر، أما الملا علي، كما قال: هو أن نهتدي ونتقبل قدرنا،

نحن مؤمنون، المؤمن لا يخون عهد الله سبحانه، لقد أقسمت وليس هناك حل، سوى أن نرضى بما شرعه الله.

- أنت تكرر نفس كلام الملا.

- يا حمو، المكتوب ليس منه مهروب.

- كيف سأخبر بهار بالأمر؟ لا أستطيع ذلك.. ليست لي قدرة وجرأة لأخبرها بذلك، أنا السبب فيما يحدث لها.. يكفي.. لا أعرف كيف سأواجهها بالأمر.

- هذا ما قدر لنا يا بني، فلتذهب حماتك وتحدثها بالأمر.

نزل حمو لأسفل القرية، في منحدرٍ يكاد يكون عمودياً، حرارة الشمس كانت تمتص رطوبة الأرض، وتجفف العشب من الندى، تفتحت الأكمام عن أزهارها، واصطبغت الحقول بالألوان، كل ذلك الرونق كان يبدو في نظر حمو باهتاً، لا جمال له أمام جمال عيون بهار، وهو يتابع سيره، لم يصدق ما رأته عيناه وصوت عال ينادي:

- عمي.. عمي.

- يوسف.. يوسف.. أنت هنا.. ماذا جاء بك يا يوسف؟

تقدم يوسف وبيده حقيبة سفرية، يلبس سروالاً من الجينز الأزرق وسترة بيضاء، شاب ذو بشرة حنطية، ينشرح له صدر كل من يعرفه، ويكن المودة والتعاطف نحو جميع الأقارب.

- مرحباً عمي.

فاحتضنه حمو وقبله من رأسه، وهو يتمتم بشوق:

- من أين جئت، آه يوسف.. كيف حالك.. حال والدك والدتك والجميع.. هل الجميع بخير وبصحة جيدة؟ لقد اشتقنا إليكم.

طريقة الترحيب أثارت فضول يوسف، ماذا جرى لعمي؟ ما هذا الحنان؟ هذا ليس من عادته، المعروف عنه أنه رجل خشن.. تلعثم قليلاً كمن يخفي سراً يخاف كشف أمره.. محاولاً أن يخبئ مكنونات آمال عنفوان شبابه.

- بخير يا عمي.. بخير، الكل يبلغكم السلام والتحية.

- هل أنت لوحدك؟ لماذا لم يأتوا معك؟ اشتقنا إليهم.. ثم إنك تحمل حقيبة، إن شاء الله ستطيل الإقامة عندنا؟

فأجاب وقد ازدادت ابتسامته رقة:

- الحقيقة يا عمي.. جئت لأسلم عليكم.

- متى وصلت؟

- منذ يومين.

- منذ يومين؟! أين كنت؟

- كنت في (إركند) عند عمتي (نازى).

- قرية إركند! ماذا كنت تفعل هناك؟ أنا عمك ولا تأتي إلينا؟

- الحقيقة يا عمي.. إنني يجب أن أعود إلى إركند ثانية.

- ستعود.. بهذه السرعة؟!

- معذرةً يا عمي فمن الممكن أن أسافر غداً، لذلك يجب أن أكون هناك.

- لكن إلى أين بهذه السرعة؟

- يجب أن أكون الليلة في إركند.

عاد حمو مع ابن أخيه باتجاه البيت من الطريق الصاعد الملتوي، مؤدين التحية على من يلتقونه في طريقهم دون توقف.

بقي يوسف مع عائلة عمه وسط شوق ولهفة الجميع، والأسئلة تنهال عليه من الكبار والصغار عن أحواله وأحوال أهله.

لم يطل يوسف المكوث رغم إصرار حمو وبهار والأطفال، الذين كانوا أكثر فرحاً، بينما يوسف لا يهدأ، شعر حمو أن ابن أخيه هذه المرة ليس على طبيعته، فقد كان يخرج إلى أرض الدار وينظر باتجاه بيت «حسو» من فوق السياج، داهمه شك متسائلاً: أيعقل أن يكون ابن أخي يحب ابنته؟ ولم لا، ممكن.. ابنته في عمره، وهي تصغر ابنه البكر سرتاج بعامين أو أكثر، ولكن ها هو سرتاج في باحة الدار، بينما أخته غير موجودة، ماذا جرى له؟

عندما بدأت الشمس منحدرة نحو المغيب، حمل يوسف حقيبته مع أنه قيل له: إن الخروج من القرى محظورٌ متى ما أقبل الليل.. بل الخطر قائم حتى في المساء.. على وجه السرعة وهو مرتبك، والهيجان يزيد من فورة دمه وهو يقول:

- عن إذنكم عمي.. عمتي سلموا على أبي وأمي.. أستأذنك يا عمي.

و قبّل الأولاد بينما «كَلى» تعلقت بلباسه، تشده للخلف، وتأبى أن تتركه، وهي تقفز برشاقة كأنها مهرة، ترفس الهواء وتنادي بفرح.

- يوسف ابق هنا.. لن أسمح لك بالذهاب.. لن أتركك.

وانضم إليها «كَرناس» ملحاً عليه أن يبقى، بينما بهار تحتضن الصغير

وتراقب يوسف بتلك النظرات الملائكية، التي تتميز بها الأم، عندما يفارقها أحد أبنائها ذاهباً إلى مكانٍ مجهول، فتلك الكلمات كانت كلغز بالنسبة لهم، ماذا يعني بكلامه «سلموا على أمي وأبي»؟ ألن يذهب إليهم؟ إلى أين سيذهب إذن؟ لم يحن موعد خدمته العسكرية بعد، هل يعمل في مكان آخر؟ لكنه لم يكمل دراسته بعد؟

- إلى أين سيذهب يوسف يا حمو؟

- إلى إركند كما قال، سوف يذهب غداً من هناك إلى أضنة.

- ألم تسمع ما قال؟ عوضاً من أن يحمل تحياتنا إلى أمه وأبيه، قال: سلموا على أمي وأبي.. ماذا يعني؟

- أنا أيضاً لم أفهم ماذا قصد.

- لماذا لم يذهب من هنا إذن؟ سيحل الليل وهو في الطريق، أهكذا تتركه يذهب لوحده؟ من يدري؟ إنه الليل، ماذا سيحدث لو واجهه حيوان في الطريق؟ مازال شاباً يا حمو.. لينتظر الليلة وغداً في الصباح أرسله، فالسيارة تنطلق كل يوم من هنا وتمر من إركند.

على وَقْع هذه الكلمات والخوف عليه والكلمات التي قالتها بهار قفز حمو وخرج من أرض الدار كأنه يطير، دون أن يستمع إلى آخر كلمة قالتها بهار، بدا حمو كأنه في عمر يوسف، خرج مسرعاَ ليعيده إلى المنزل، ولا يتركه يذهب بمفرده في هذا الليل، ومن يدري؟ كل شيء ممكن.. بهار معها حق.

هرول خلفه، وحُلَّ حزامه، فشده دون أن يتوقف، لولا تقدمه في العمر

لركض ركضاً ليلحق به، مهما يكن فحيوية الشباب وخفتهم تكون أسرع كرشاقة الغزلان.

كان يوسف قد خرج من القرية، وحمو ما يزال في أثرِه، أحياناً يضطر أن يخرج عن الطريق بسبب قطيع حيوانات القرية، الذي كان يزحف إلى جوفها، الأبقار، الخيول والبغال متداخلة، بينما ديكو أمام بيته بعد أن ترك القطيع لينتشر بين بيوت القرية، كما يترك القائد جنوده في حملة التمشيط وسط الأحراش.

حمو يلهث وهو يتابع للحاق بيوسف، توقف فجأةً بجانب شجرة البطم، على الجانب الأيسر من الطريق وهو ينحني خشية، أن تتعلق كوفيته بتماسها لأغصانها، متسائلاً عندما وقع نظره على ابن أخيه: ماذا.. يوسف ليس لوحده؟ من يكون الذي معه؟آ.. قسماً إنه سرتاج بن حسو، ماذا يفعل معه؟ وبيده كيس منتفخ.

بدا له أمر ابن أخيه، كشاب يقوم بخطف فتاة، فتحمل الفتاة حاجاتها في صرة بهذه الصورة؛ سألحق بهم.

بعد أن خطا عدة خطوات غير قراره، توقف وعاد إلى مكانه خلف جذع الشجرة.

لقد خرجوا من الطريق إلى أين يذهبون؟ إلى أين؟ إلى بيت ديكو، ديكو راعي الأبقار، ماذا سيفعلون هناك؟ وما علاقتهم بشخص مثل ديكو؟ فهو وحيد، لا زوجة له ولا أولاد، إنه وحيد منذ وفاة أمه وأبيه، ولا يزوره أحد ولو في العام مرة، وهو أيضاً هكذا لا يزور أحداً، ثم إن ديكو ليس

بعمرهم.. لماذا يذهبون إليه؟ ها هو يستقبلهم ويرحب بهم بحرارة.. يتحدث إليهم، والله إنه لأمرٌ عجيب، ما علاقة ديكو بابن أخي وسرتاج؟

حمو متسمر في مكانه، كأنه جذع ثان للشجرة، ها هو يحتضنهم.. لقد قال لهم شيئاً.. لكن الصوت لم يصل لحمو، ليسمع ما قاله.

يوسف ابن أخي وأنا عمه.. لم يحتضني عندما ودعنا.. ماذا جرى؟ ديكو ليس قريبنا.. إنه شخص يعيش وحيداً على الصدقات والزكاة، وما يعطيه القرويون مقابل رعي حيواناتهم، من أبقار وخيول وبغال.

انتصب حمو واقفاً، فلامست عدة أغصان كوفيته، فمدّ يده بعد أن أحنى رأسه ثانية، ليتأكد بأن الدبق لم يلامس كوفيته وهو لا يزال مندهشاً مما يراه.

يوسف ومعه سرتاج أحد أبناء «حماة القرية» ومَنْ؟ ابن حسو، أخي خليل كان يرفض التحدث معي لأنني واحد من «الحماة»، لماذا يصاحب ابنه ابن واحد من الـ«الحماة» أمثال سرتاج؟ والأغرب من ذلك ما علاقتهم براعي الأبقار ديكو.

ما إن اختفى الاثنان من أمام نظره عاد أدراجه، خطى خطوات بطيئة كسلحفاة هرمة، بعد أن تأكد من أن يوسف ليس لوحده في طريقه إلى إركند.

ما إن انحدرت الشمس إلى مكانٍ مجهول، حتى خيم الظلام والصمت على القرية، واتخذ الجميع أماكنهم، الجنود والحماة المناوبون في خنادقهم، الدخان يتصاعد من المداخن ناشراً رائحته الخاصة، تلك الجلبة التي

تسبق هدوء الليل، الأبقار والثيران توقفت عن الخوار، وصارت الماشية في الزرائب والإسطبلات، في الحظائر تسمع أصوات البهائم زافرة مجترة وقد فرغت ضروعها، نساء وأطفال ينادي بعضهم بعضاً، ويجيب بعضهم بعضاً من فناء إلى فناء وفي الأزقة، الدجاج والبط والإوز والديكة الهندية في خُمها، الكلاب أمام الأبواب تشق السكون، مطلقة العنان لنباحها، أما أهل القرية فقد التزموا بيوتهم، منهم من حشر نفسه في فراشه كما هي عادة القرويين الكرد «ينامون في وقتٍ مبكر»، وبعضهم ما يزال يتسامر في بيته المشابه للكهوف، العربات من سيارات وغيرها، استقرت في سكونٍ ككتل الصخر الهامدة أمام بيوت أصحابها، لم تعد هناك أصوات سوى نباح الكلاب بين الحين والآخر، أصوات البوم وصغاره، أو أصوات عواء ابن أوى من على السفوح المحيطة بالقرية، فتتداخل مع نعيق البوم، وبدأت الخفافيش بالحركة وسط القرية، بينما يترامى إلى مسامع أهل البيت زعيق الفئران التي تقفز هنا وهناك، بحثا عن كسرة خبز أو قطعة جبن.

كان حمو في سكونه المطبق داخل غرفة الجلوس، الأطفال كانوا نائمين، وبهار ما تزال تتقلب في فراشها، تنتظر أو لا تنتظر حمو في غرفة النوم.

طُرق باب الدار فجأةً، وكان حمو يستمع إلى آلة التسجيل، إلى كاسيت جلبه يوسف معه كهدية لعمه، وقد أخفض الصوت خشية أن يسمعه أحد، وقال له يوسف إنه لـ(فرقة المقاومة «Koma Berxwedan»)، وكاسيت لـ«شفان» و«كلستان برور» والأغنية التي كانت آلة التسجيل تصدرها هي للثنائي شفان وكلستان.

Kurdistanê Kurdistan baxçê gulan derdê dilan –

Îro maye li bin destan barê giran li ser milan

كردستان... كردستان حديقة الورود.. هَمّ الفؤادِ

اليوم بقيت.. تحت الأيادي وعلى الأكتاف الحمل الشديد

ارتبك وارتعب، فأوقف آلة التسجيل، أخرج الكاسيت بسرعة ووضعه تحت البساط، وضع الآلة مكانها وهو يقول: أيعقل أن يكون أحد قد سمع الصوت؟ بالكاد كنت أسمع، انخرب بيتي، أيعقل أنه كان هناك من يسترق السمع أمام الباب؟ لم لا يا حمو؟ يمكن لهؤلاء أن يفعلوا أي شيء، وإلا مَنْ سيكون الطارق في مثل هذه الساعة.. إذا لم يكن الأمر كذلك؟ هل من الممكن أن يكون آroول قد طلبني ثانيةً، أو أنَّ هنالك أموراً طارئة حول القرية، أو في مكان آخر؟ اليوم ليس دوري في المناوبة أيضاً، لا في الحراسة ولا في مهامٍ أخرى.

اتجه نحو الباب بعد أن زاد من ضوء الكاز، فتح الباب قليلاً ونادى:

– من هناك؟

ما إن مد برأسه حتى بدا له شبح شخص وسط الظلمة، يبدو أنه ابتعد قليلاً، متنحياً عن طرف الباب، بعد أن طرقه.

– أنا يا حمو.. أنا حسو.

– حسو! أهلاً بك.. تفضل.. تفضل.

– شكراً يا حمو.. الوقت متأخر.. لم أرغب في إزعاجكم، ولكن ابني

سرتاج تأخر.. فجئت أسألكم عنه، أخبرتني والدته بأنه رافق يوسف ابن أخيك خليل.. لقد كان هنا.. سمعت صوت آلة التسجيل فقلت أن أتأكد، لا بد أنهم يسهرون عندكم.

- يوسف وسرتاج؟

- صحيح.

فغر فاه وتمتم في تعاسة:

- عندما خرج سرتاج.. ألم يقل لكم شيئاً؟

- ماذا سيقول؟

- أتعني أنه لم يخبرك أين سيذهب؟

- ماذا تقصد.. ليسوا هنا؟ أخبر أمه بأنه سيذهب إلى بيت حمو عند يوسف.

- إذن أنت أيضاً لا تعرف أين ذهبوا!

- أتقصد أنهم ليسوا هنا؟

سرعان ما ارتسم على وجه حمو ملامح الرجل الذي يعرف شيئاً غير طبيعي حدث معهم، ولكنه لا يريد أن يذكره حتى لا يتوتر سامعه أكثر، أجاب:

- لا.. ليسوا هنا، لقد ذهبوا معاً إلى قرية إركند.. حسب ما فهمت أن سرتاج سيرافق يوسف إلى أضنة.

استشاط حسو غضباً:

- أي مدينة يا حمو؟ سرتاج ليس معه ليرة تركية واحدة، لو كان الأمر

كذلك لأخبرني، ثم أليس لك علم؟!!

- بماذا يا حسو؟

- الجنود والمناوبون من الحماة.. الليلة جميعهم في استنفار.

- لماذا؟ هل هنالك شيء أو أي شبهات حول القرية؟

- كلا.. طيور الليل. (بتلعثم).

- ماذا تقول؟ (بتلعثم وارتباك أيضاً).. أين هم؟ هل هم قريبون من القرية؟

- إنهم الآن في إركند.

- من قال ذلك؟

- جاءت مكالمة لاسلكية من هناك.. اللعنة، أرجو من الله أن يمر الأمر بخير.. يوسف وسرتاج.. ولدي الوحيد هناك.. ابن الحرام! لماذا لم تخبرني بأنك ذاهب إلى هناك.. إذا كنت تريد الذهاب إلى المدينة.. على الأقل كنت أعطيتك مصروفك.

تعكرت بقايا الأمل.. فاستدار حسو وأصبح ظهره مواجهاً لحمو، فبانت بندقية الكلاشينكوف ذات الأخمص الطي، ابتاع الأتراك الكثير من أسلحة ألمانيا الشرقية التي لا تصلح للجيش الذي ينتمي إلى الناتو بعد توحيد شطري ألمانيا، وقاموا بتسليح جيش المرتزقة الحماة بها.. يتباهى به حسو أمام الجميع.. إذ استدار حمو إلى الداخل ليغلق الباب، اصطدم ببهار التي كانت تقف وراءه، أغلق الباب وابتعد عنها، وهو يستغفر ربه لأن جسده لامس جسدها.

- ماذا جرى؟

- ماذا جرى؟ يوسف في إركند.. والذين في الجبل.. الليلة دخلوا القرية.

عادت بهار إلى غرفة النوم دون أن تغلق الباب، تركته مفتوحاً ليغلقه حمو، أغلقه ولكن دون أن يدخل، دخل غرفة الجلوس، جلس وظهره للحائط البارد.. رأسه يكاد ينفجر، فلم يعد يفهم شيئاً مما يجري من حوله، يوسف يرافق سرتاج، ويذهبان إلى ديكو، ثم يتجهان إلى إركند.. الذين في الجبل يدخلونها هذه الليلة، هذه الليلة بالذات إلى القرية.

يا إلهي ماذا يحدث؟ الدنيا تزلزل، لم أعد أفهم شيئاً، آه يا حمو دماغي تكلس ولم أعد أفهم شيئاً.. يا إلهي ماذا جرى؟! ماذا يجري لهذه الدنيا؟

- 7 -

الشمس تقترب من المغيب، كانت الوديان غارقة في الظل، ولم يبق من نور الشمس إلا ما ينير القمم، كان قائد الوحدة قد انتهى من توزيع مجموعاتها حسب مهمة كل مجموعة لتتخذ أماكنها، للقيام بمهامها.

استعدت المجموعة التي ستقف في القمة المطلة على القرية، من الجهة الشرقية ومعها رشاش الـ(BKC)، قبل التحرك كانت التعليمات: «مهما حصل.. يجب ألا تترك أماكنها، وإن حدث شيء فعليها التمركز والانتظار إلى أن ينسحب آخر مقاتل من القرية ».

أما المجموعة التي ستكون في الجهة الشمالية، لنصب الكمين في طريق ثكنة خرخور، كانت تعليمات قائد الوحدة لأفرادها: يجب ألا تخدعوا أنفسكم وتستصغروا العدو، بقولكم: إنهم يخافون، ولن يجرؤوا على التدخل ليلاً، فالعدو يبقى عدواً، يجب أخذ الاحتياطات، كي لا تحدث أشياء لم تكن في الحسبان، نحن وسط حرب، وللحرب أحكامها، لا تنسوا أنه يكاد لا تخلو قرية من قرى كردستان من المتعاونين وذوي النفوس المريضة أو عملاء للعدو.. فور دخولنا القرية، من الممكن أن يقوم أحدهم بإخبارية، ومن يدري.. بعضهم قد يكون مزودا بأجهزة

لاسلكية.

أعطيت التعليمات نفسها للمجموعة التي كلفت بالتوجه إلى الجهة الجنوبية، على الطريق المؤدي إلى قرية تريان.

أما المجموعات التي ستكون داخل القرية فيجب عليها القيام بمهامها وفق تعليمات قادتها وكانت: «لا يجوز أن يفترق أحد عن مجموعته، يجب ألا يتحدث كل مقاتل على هواه مع القرويين. سنجمع القرويين في المسجد باعتباره الاجتماع الأول، سنكتفي بجمع الرجال والشباب، وفي المرة القادمة يمكننا عقد اجتماعٍ خاص للنساء أيضاً».

يجب أن تكون التدابير محكمةً على أطراف المسجد.. وأن تتم الأمور وفق التعليمات، أما بالنسبة للرفاق الذين يعرفون القرية، فسيرافق كل رفيق مجموعة، فلم تبق مجموعة إلا ويرافقها دليل يعرف القرية جيداً؛ طرقها.. أطرافها.. أزقتها، في حال حدوث أمر طارئ، فهم يعرفون جهة الانسحاب وطرقها، في حال انقطع بعض المقاتلين عن مجموعاتهم.. عليهم الانسحاب والعودة إلى القاعدة التي انطلقنا منها».

أما الرفاق الذين قمنا بتوكيلهم مهمة إلقاء الكلمة والتحدث إلى أهل القرية، فهم الرفيق «دوغان» ومعه الرفيق «سربست» والرفيقة «مزكين».

مرة أخرى نكرر، يجب ألا يلتهي أحد من الرفاق، بأحاديث جانبية مع القرويين، من طبيعة أهالي القرى أنهم فضوليون، إن فعلنا ذلك نكون قد نسينا مهامنا الخاصة، بالأخص التدابير الأمنية، ومن حاول التحدث إليكم، أرسلوهم إلى داخل المسجد باحترام، لا تعطوا المجال لأحد، يجب

أن يكون تركيز كل رفيق فقط على المهمة التي تقع على عاتقه.

إن حدث شيء كتدخل العدو أو أي أمور أخرى، فإن لم نكن مجبرين يجب ألا نطلق النار بين بيوت القرية، لتفادي حدوث اشتباكات بين البيوت، كي لا نكون السبب في إحداث أي تخريب أو إلحاق أي ضرر بأهل القرية.

التفت القائد خبات إلى الرفيق «دورم» المسئول الأمني للوحدة، الذي من مهامه تنظيم قائمة نوبات الحراسة وإعداد دور مناوبات مجموعات الرصد والاستطلاع وغيرها.. وسأله:

- هل زودت قادة المجموعات بـ«كلمة السر»؟

- نعم رفيق.. كلمة السر الليلة هي «عكَيد / بيرو».

- والآن على كافة المجموعات التي ستحمي القرية من الخارج التحرك، ما إن تأخذ أماكنها، سنبدأ كذلك التحرك إلى داخل القرية، قبل غروب الشمس، ساعة عودة القرويين وقطعان الماشية، عندما يكونون خارج بيوتهم منشغلين بتجهيزات الليل ستكون هي الساعة المناسبة ليشاهدونا ونحن ندخل القرية، ستزين أعلام «الحزب والجيش والجبهة» مقدمة الرتل، سيشاهد القرويون أمامهم رتلاً له بداية ولا تظهر نهايته، سيشاهدون جيشهم الثائر في النهار تتقدمه أعلامه بألوانها الوطنية، سيكون وقع هذا المشهد عليهم قوياً، ليعيشوا معنا اليوم، ولو بضع ساعات من الحرية، هكذا هو القروي الكردي، لن يصدق إلا إذا رأى بأم عينه، بتلك الصورة وقبل التحدث إليهم، سنكون قد حطمنا الدعايات

التي ينشرها العدو بينهم، عندما يدعون بقولهم: «لقد قضينا عليهم.. لم يبق منهم سوى ثلاثة أو أربعة، عدة أيام وسنقضي عليهم أيضاً».

رفع أحد المقاتلين يده يطلب الإذن بالتحدث، أشار إليه الرفيق خبات:

- تفضل رفيق.

- أثناء المسير.. أقترح أن تكون هناك مسافة كبيرة بين مقاتل وآخر في الرتل.

- من طبع القروي تضخيم الأشياء كما نعرف، فليظهر الرتل بأطول مسافة ممكنة، بتلك الصورة إذا كان عددنا ستين مقاتلاً.. بذلك إلى أن يصل الخبر إلى الثكنة والقرى الأخرى المجاورة، سيبدو عددنا أضعاف ما نحن عليه الآن.

- اقتراحٌ سديد، لتكن المسافة بين كل مقاتل والذي يليه لا تقل عن خمسين متراً.

أثار اقتراح الرفيق نعمان موجة من الابتسامة، التعليق والضحك بينما كانت قائدة فصيلة الرفيقات الرفيقة «مزكَين» لا تكف عن الابتسام.. متألقة ومتقدة العينين، تتكلم بحرارة وتحرك يديها بحركات رجولية عريضة.. اصطحبت اثنين من الرفاق، ومعهما منجل يشبه إلى حدٍ ما ساطور الجزار،قطعا به أغصان الأشجار، ليقوموا بإعداد قضبان طويلة لتعليق الأعلام عليها، تقدمت من الرفيق «خبات» وقالت:

- بقي أقل من ساعتين على غروب الشمس.. ألن نتحرك؟

- لتأخذ المجموعات أماكنها خارج القرية، ما يزال هناك متسع من

الوقت، فالثكنات لا تبتعد عن القرية سوى نصف ساعة ومن ثلاث جهات، علينا أن ننتظر بعض الشيء وأخذ كافة الأمور في الاعتبار.

عقارب الساعة مستمرة بالدوران بشكلٍ طبيعي، الحالة ليست كما هي العادة أثناء العمليات، هي لا بطيئة ولا مسرعة «تدور بشكل طبيعي»، هذه المرة كل ما هنالك هو الشعور بشيء من التشويق ولذة اعتبار الذات لدى المقاتلين، كونهم مقاتلين من أجل الحرية، يغمرهم الشعور بالرضا فداءً بأنفسهم في سبيل هذه المهمة المقدسة، كل فرد منهم يجد الجواب لهذا السؤال، لماذا يقاومون إذن؟ أليس من أجل مثل هذه اللحظات؟

الخروج من القرى محظور متى ما أقبل الليل، بل إن الحظر قائم حتى في المساء.. السكان يعودون إلى القرية من جميع الجهات؛ بعضهم سيراً على الأقدام، وبعضهم ركوباً على البغال، بعضهم في عربات تقرقع، النساء قد شمرن تنانيرهن، أو لبسن سراويل رجالية فضفاضة، حاملات في أيديهن قضباناً طويلة، يتبادلن الأحاديث، ويهرعن ليستقبلن الماشية التي تزدحم على الأبواب، في سحاب من الغبار والذباب، الأبقار وقطعان الماشية، قد تفرقت في الأزقة وما حولها، تنهمك النساء بتلك الأردية.. يسمع المرء أصواتاً قوية وقهقهات، صرخات حادة يختلط بها خوار البهائم.

بينما مقاتلو الوحدة كانوا في قمة الإحساس بالقوة وبالقدرة، على أن جميعهم ذوو رغبة وفكرة واحدة.. فكان شعورهم بتلك الطاقة مبعث اعتزاز وسعادة؛ لأنهم كانوا مقتنعين بأن أنفسهم لا تشتمل إلا على الخير.. ذلك الشعور الذي يخلق شجاعة خارقة وقوة مذهلة، يجعل من

الشباب أشبه بإله قادر على كل شيء.

عندما حان موعد التحرك.

- ليستعد الرفاق.. قالت الرفيقة مزكَين.

تقدمت من قائد المنطقة وبجانبه قائد الفصيل الأول الرفيق دوغان، قطعت حديثهم الذي كان يدور حول الترتيبات الخاصة، التي هي من مهام الرفيق دوغان، والأمور التي يجب التطرق إليها، سألت شبه هامسةً:

- رفيق «خبات» ألن تكون الميليشيا بانتظارنا خارج القرية؟ يجب أن ننبه الرفاق الذين يعرفونهم، أن يكونوا حذرين وألا يتم كشفهم، كي لا يتعرف عليهم جميع أهل القرية.. الاحتياط واجب.. أليس كذلك؟

- لا عليكِ..الرفيق «دورم» رتب الأمور.. مع ذلك كرري التنبيه.

بدأت الوحدة تتحرك في الوادي.. شقٌّ عميق، بين سلسلتين من المنحدرات، تضيقان عليه الخناق من الجانبين، كأنهما تريدان الإطباق عليه، بينما رتل الگريلا يبدو عليه قوة أعظم من أن يقهر، ثباته كثبات الصخور، يكبر شأنهم وتكبر معهم إرادة الشعب، تزداد قوتهم يوماً تلو الآخر، لتوازي عتو العاصفة.

الفدائي هو الرمز الجبار لروح الشعب، والارتباط بأرض هذا الوطن، ها هي القرية اتضحت ولم يظهر نصف الرتل بعد، ما إن برزت مقدمة الرتل المزين بالأعلام وبألوانها المستمدة من الشمس.. ودماء الشهداء.. والأخضر الذي كان بشرى الحمامة للنبي نوح على هذه القمم، تبشره بحلول السلام والحياة.. تحول القرويون رجالاً ونساءً إلى أشباه تماثيل

من على أسطح المنازل، في أرض الدور، في الأزقة.. أنظارهم نحو الرتل المتقدم.

الكثيرون لم يعرفوا حقيقة هوية الرتل القادم.. ليس من المتوقع أنهم گريلا.. لم يصدقوا أن ينزل الگريلا في مثل هذه الساعة، بينما لم تغرب الشمس بعد، لم يعتادوا قدوم الگريلا إلى القرية في النهار، فهم لا يقدمون إلا بعد أن تلف الظلمة الكون.

ما إن اقتربوا أكثر حتى تخلى الجميع عن أعمالهم، فرحين برؤية هذا العدد الكبير من المقاتلين.. أبناؤهم الكرد، جيش كردستاني.. فرحتهم كانت ممزوجةً بخوفٍ من حدوث شيء داخل القرية، أو العقاب غداً إذا لم يحدث الليلة.

تأكد الجميع أنهم گريلا.. عندما توضحت ألوان الأعلام.. بدأ القرويون رجالاً ونساءً بالنزول من بيوتهم العالية، والصعود إلى الأسطح المنخفضة القريبة، البعض خرج متقدماً باتجاه الرتل القادم.. روح الفضول والفرحة عمت قلوبهم، لم يتمكنوا من كبتها، تعالت الهتافات بحياة الكرد وكردستان.. بحياة الثورة والقائد والثوار، الترحيب للقيام بالواجب.

ما إن دخلت مقدمة الرتل أول بيوت القرية.. حتى أسرعت امرأة مسنة، لتفتح باب الزريبة لتدخل بقرات كانت قد تخلفت، وذلك لتفسح الطريق، فما إن فتحت الباب حتى هرعت إلى دار الرزينة بقرة ضخمة، يطاردها البعوض وهي تخور بصوتٍ قوي.. أبقار ثقيلة تبعتها بطيئة،

تلتفت لتنظر إلى مقدمة الرتل بأعينها الواسعة، ربما أثارتها ألوان الأعلام، تسمرت إحداها في أرض الدار تلطم جنبيها بذيلها لطماتٍ موزونة، وأطلقت المرأة من مكانها وبملء حنجرتها زغرودة وجدت صداها لدى الأخريات.

وما إن أصبحوا وسط القرية في ساحة الجامع، سرعان ما أخذ الرتل شكل أرتال لترديد الشعار في الاجتماع العسكري، وسط القرويين والأعلام على الجهة اليسرى وإلى الأمام بخطوة من الأرتال الثلاثة، القرويون كأنهم جذوع أشجار يابسة ينظرون إلى الجيش الثوري، الذي طالما سمعوا به والبعض كانوا يلتقونهم في ظلمات بعض الليالي، لم تتوقف موجات الزغاريد.. من أول القرية إلى آخرها، أسطح المنازل المجاورة اكتظت بالنساء.. الأطفال والرجال من حول الساحة.. الاستقبال أصبح عرساً حقيقيا، عرسٌ من نوع خاص، كان عرس استقبال وحدة من وحدات الجيش الشعبي لتحرير كردستان (ARGK).

بدأ حشد القرويين يزداد تدريجياً قادمين من كافة الأطراف، لينضموا إلى الجمع، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، كان لا بد أن يعبر القرويون عن فرحتهم بعفويتهم المعروفة، سرعان ما تشكلت دبكة مشتركة، تشابكت فيها أيادي مقاتلي الحرية مع أيادي الرجال والشباب ولحقتهم النساء، لم يعد هناك مكان لأي فوارق، لحظات أصبحوا فيها عائلة واحدة، أخوة وأخوات، بينما الحناجر تصدح بمكنونات أعماقها، بأغان وطنية ثورية.

Ey şoreşgerê Kurdistan   leşgerê roja giran

يا ثوار كردستان   جنود الأيام الصعبة

احمرت الوجوه من تدفق الدماء بصورة غير طبيعية، أصبحت الأجساد بحاجة لتبرد حرارتها قليلاً، وبدأت المسامات تفرز العرق، اختفت الشمس لتعطي المجال للضيوف، للقيام بمهامهم وواجباتهم في القرية بسلام وأمان، لتحميهم من عيون الغدر.

فكما توضع خميرة اللبن في الحليب، بعد تسخين الحليب وتركه ليبرد قليلاً، ثم يمزج معه قليل من اللبن، ويغطى بغطاء محكم، فيتخمر الحليب ويتحول إلى لبن، ها هي الشمس احتجبت وراء الجبال، لتغطيها بغطاء الظلمة، لتتخمر العجينة بعد إضافة الخميرة إليها، ليكتمل تخمير العجينة، هؤلاء الثوار الخميرة والشعب هم العجينة، سيصنعون معاً خبز الحرية والاستقلال.

تقدم أحد المسنين من وجهاء القرية، يدعى «حج أوصمان» من قائد الوحدة معاتباً إياه.

- لماذا لم تعلمونا مسبقاً بأنكم قادمون؟ كنا على الأقل قمنا بالواجب.

- أكبر واجب هو استقبالكم ورؤيتكم ورؤية أنفسنا بينكم يا عم.

- جئتم على الرأس والعين.. إنكم هكذا تخجلوننا، اليوم الذي لم أصدقه.. ها نحن نشاهده.. دون قيامنا بواجب الضيافة.. كل شيء يستصغر في الواجب من أجلكم يا ولدي، هذا اليوم كان بمثابة حلم لي.. لم أكن أصدق.. (التفت إلى الرفيق دوغان) وأكمل:

- رفيق البارحة كنت هنا.. لماذا لم تخبر عمك؟

ولم يستطع أن يكمل ما يريد البوح به، من أمل مكبوت بداخله، أمل مئات السنين، فتدحرجت دمعات من مقلتيه وتوقفت الكلمات في حلقه، لم يستطع أن يقول كل شيء بلغة الكلام.. فاحتضن الرفيق خبات القائد الفدائي «الرمز»، يقبله وهو يتمتم بالأدعية، ثم أمسك بيد الرفيقين موجهاً الكلام بصوت عالٍ، كأنه هو القائد، يخاطبهم ويرحب بهم ويدعو الله أن يحميهم جميعاً، ثم تقدم إلى الجمع متكئاً على عكازته، عندما قال قائد الفصيل الثاني:

- فليجتمع الرجال والشباب في المسجد.. أخبروا الجميع.

أحدهم تقدم وتساءل:

- هل هناك أحد من الرفاق على أطراف القرية؟

يبدو أنهم شاهدوا البعض منهم.

- لا عليكم.. إنهم رفاق.. التدابير تامة ولا داعي للخوف.

أجاب آخر:

- نحن لا نخاف على أنفسنا، نقسم لكم، من أجلكم.. نحن نخاف عليكم، لا نريد أن يحدث لأحد منكم أي مكروه في قريتنا، حتى نقطة دم من ظفركم كثيرة بالنسبة لنا.. ماذا نحن دونكم؟

قاطعته امرأة:

- نحن جميعاً فداء لكم، فداء هؤلاء الشباب والشابات، يد الله تحميكم بجاه «الكيلاني»، تحميكم من شر كل من يريد الشر والأذى لكم.

- الله يسمع منك يا نازى.. قال حج أوصمان.

- نحن من أجلكم يا خالة، هؤلاء الشباب هم فداء لشعبهم ووطنهم.
- الرب يحميكم..

ثم وضعت يدها تحجب ثغرها فكانت آخر زغرودة مع حلول الظلام.

بدأ القرويون يتوافدون إلى المسجد، بينما انفرد أحد الميليشيا بالرفيق «خبات» وهمس في أذنه بعيداً عن أنظار القرويين:

- الذين حدثتكم عنهم قد وصلوا.
- هل أرسلهم (..)؟
- صحيح.. إنهم في بيت «عبد الرحمن»، آخر بيت تجاه هركَول خارج القرية.
- كم عددهم؟
- اثنان من قرية «تريان» ومعهم فتاة وصلت من المدينة، وثلاثة شباب وفتاتان، شاب من قرية «خرخور»، وآخر من مدينة آروه، والآخرون من أبناء القرية.
- كم عددهم؟
- أحد عشر.
- و هل عائلاتهم على علم بالأمر؟
- البعض نعم.. ولكن هناك مَنْ أتى دون علم أو إذن من أهله.
- كان يجب على الجميع أن يعلموا أهاليهم.. على كلٍّ سنعلمهم بالأمر فيما بعد.. الآن خذ معك رفيقين واذهبوا إلى هناك وانتظروا إلى أن ننتهي.

أشار الرفيق خبات إلى قائد المجموعة المسئولة عن حماية محيط المسجد،

فأرسل معه مقاتلين من مجموعته ثم دخل المسجد، وتوقف جانباً كأي مقاتل عادي، قليلون ممن هم يعرفونه شخصياً، رغم أنهم سمعوا باسمه تكراراً، كان بعض الفضوليين من القرويين يسألون المقاتلين: مَن هو الرفيق خبات؟!

طرافة ما كان يحدث مع الكثيرين عندما كانوا يسألونه بالذات: من منهم يكون الرفيق خبات؟ فكان يبتسم ويجيب إنه لم يأت معنا.. ولم ينس أن يحذر الرفاق قبل الدخول إلى القرية.. بألا ينادوه باسمه وسط القرويين، طلب منهم أن ينادوه باسم «كَابار».

كان الرفيق «دوغان» يتحدث والجميع جالسون على الأرض داخل المسجد، يستمعون إليه، كما هو الحال أمام الملا في خطبة صلاة الجمعة، فكان هو «الملا» الليلة، ملا من نوع خاص، يدعوهم إلى الأخوة، إلى النضال من أجل الحرية، كان ينتقل في حديثه من نقطة إلى أخرى بطريقة فيها حنكة دعائية تشي عن وعي وثقافة واسعين، حول التطورات السياسية والتشهير بدعايات العدو، إظهار الحقائق بصورتها الموضوعية، التي تبدأ بأبسط الأمور إلى أعقدها، وبأسلوبٍ جذاب سلس وبسيط، بما يتناسب مع مستوى وعيهم، فيستطيع أبسط قروي فهم أعقد الأمور السياسة:

- العدو يكرر لكم في كل عام الدعايات نفسها، يقولون: في هذا الربيع سنقضي عليهم، وفي الربيع القادم ستكون النهاية التامة، الدعايات الكاذبة نفسها دائماً، بهذه الوعود يريدون خداع الجميع، بتلك الصورة

يحصلون على المساعدات الدولية من جهة، ومن جهة أخرى يحذرون الشعب ويخدعونهم ويحطمون آمالهم.

منذ الليلة التي هاجم فيها الرفيق «عكَيد» مدينة آروه[1] «Dihé» كما تعلمون، فقد عشتم ذلك اليوم، لأنكم قريبون منها وقريتكم تابعة لـ«آروه» بالذات، السنوات تمر ومحاولات الخداع لم تتوقف.. بكل أنواع الكذب والنفاق، مع الأسف لا يزال البعض منكم ينخدع بهذه الدعايات، يقولون عنا إننا وحوش، ينشرون عنا صوراً وحشية، مثل أن لنا آذاناً طويلة، يقولون ليس لهم فراش، فعندما يخلدون للنوم يمددون أذناً كفراش للنوم عليها ويلتحفون بالأذن الثانية.. لا أدري.. يقولون إن لدينا قروناً أيضاً.. أليس كذلك؟ بالله عليكم انظروا إلينا جيداً.. هل لنا قرون أو آذان بتلك الصورة؟

أثار ذلك موجة ضحك واستهزاء بين المستمعين، بمن فيهم الرفيق المتحدث.

ثم تابع:

– الكثير.. الكثير من هذه الأمور، يقولون عنا: أرمن.. كفار.. ليسوا مسلمين، جميعكم يعلم أن في هذا الوطن أكرادًا مسلمين ومسيحيين ويزيديين، بعض الكرد لا يعرفون أيضاً الـ (PKK)، وكما يقول الدين،

---

(1) آروه - Dihê: مدينة صغيرة تقع بين مدينتي سيرت وشرناخ، اسمها التاريخي الحقيقي والمتداول بين السكان المحليين وإلى اليوم هو (Dihê – دهى)، وبتاريخ 15 آب 1985 نفذ القائد العسكري لـ PKK معصوم قورقماز حركياً المعروف حركياً بـ«عكَيد» عملية الهجوم على الثكنة والمقرات الحكومية في المدينة والتي كانت انطلاقة شرارة الكفاح المسلح ضد الجيش التركي.

فالقرآن اعترف بالكتب السماوية.. ودعا النبي المسلمين إلى احترام الكتب السماوية.. العدو التركي يستخدم الفروقات الدينية والمنازعات القروية، يريد أن يفعل ذلك الآن كما فعل دائماً، ولكن بصورة أشمل وذلك بقتل الكرد بيد الكرد، ويفعلون بنا كما فعلوا بالأرمن، ومجازرهم في ثورة الشيخ سعيد وسيد رضا في ديرسم وغيرها.

كلنا أكراد ولا علاقة للدين بذلك.. الدين هو علاقة الإنسان مع ربه.. يجب ألا ننخدع مرة أخرى مثلما انخدع آباؤنا وأجدادنا، الوطن أولاً.. ما نحتاجه هو وطن حر، وإن لم يكن هناك وطن حر، لن يكون هناك دين ولا عبادة حرة وصحيحة، فالعبادة هي الشرف والكرامة والإيمان.

إذن.. نحن ما زلنا في وطنٍ يرزح تحت نير العدو، يستطيع أن يفعل بقيمنا من أكبرها إلى أصغرها ما يشاء، يستطيع في أي لحظة يريدها أن يفعل بنسائنا وعرضنا ما يشاء؟ ودون أن يتجرأ أحد على التفوه بكلمة واحدة.

أين هو الدين وقتها؟ أين الشرف والكرامة؟

إذن علينا أن نتحد ونتكاتف جميعنا، ودون أي فروقات، هذا هو الطريق الصحيح.. يقول سبحانه وتعالى: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.. ».

كان هذا الرفيق من غرب كردستان - سوريا، وخريج إحدى الجامعات، كان يردد عبارات تنم عن الحكمة والثقافة وسعة الاطلاع، كذكره بعض الأحاديث والآيات التي كان يحفظها وباللغة العربية، كان لها أشد الوقع

والتأثير عليهم.. يذكرها بالعربية ومن ثم يبدأ بشرح معانيها.

- التكاتف لا يعني أن نصعد جميعنا إلى الجبال ونحمل السلاح، لا.. كل شخص يستطيع أن يقوم بواجبه أينما كان وكيفما كان، يقول القائد «آبو«: «إذا لم تستطيعوا حمل السلاح فبالدعم المادي، وإن لم تستطيعوا.. فبالدعم المعنوي، وإن لم تستطيعوا أن تفعلوا ذلك علناً.. ألن تستطيعوا أن تقوموا بالدعاء لنا من أجل النصر.. عندما تؤدون صلواتكم»؟

طهروا قلوبكم.. قوموا بتربية أطفالكم تربية وطنية، اجمعوهم وقولوا لهم: أبناءنا.. لا تخونوا شعبكم ووطنكم.. ولا تخالطوا الخونة، اكرهوهم وابتعدوا عنهم.

مع الأسف لا يزال بعض الخونة يُخدَعون بخزعبلات العدو، فيتعاملون معهم، بالأخص «حماة القرى»، فالمثل الكردي يقول: إن لم تكن دودة الشجرة منها وفيها.. لن تسقط الشجرة ولن تموت».. هكذا هم أيضاً «دودة الخل منه وفيه».

أبسط مثال: أولئك الجنود الذين جاءوا من إسطنبول.. وتربوا هناك على أكل البسكويت، كيف لهؤلاء أن يعرفوا طرق وممرات هذه الجبال، التي يخاف حتى الذين ترعرعوا بين ثناياها من التجول فيها؟ مَن يجوب بأولئك الجنود في هذه الجبال؟ أليسوا حماة القرى الخونة؟ تعلمون أننا قبل أيام نصبنا كميناً على الطريق، قبضنا على البعض من حماة قرية تريان، وجردناهم من أسلحتهم.. منهم من أقسموا بالطلاق على أن يسلموا سلاحهم، ألم نكن نستطيع إعدام الجميع؟ إذا كنا كما يدعي العدو

وحوشاً وكفرة.

كلا هذا ليس من أخلاقنا، يقول القائد: «إذا كان هناك إنسان منغمس بنسبة تسعة وتسعين بالمائة في الخيانة، وبقيت منه ذرة واحدة نظيفة، ذرة واحدة.. لا أكثر.. يجب أن نتمسك بتلك الذرة، ولا نقطع الأمل بإصلاحه.. نزيد من هذه الذرة إلى اثنتين ثم ثلاثة فأربعة، وبهذه الصورة يوماً تلو الآخر، إلى أن نقوم بتنظيفه وإخراجه من المستنقع»، القتل ليس حلاً لكل شيء، لأننا إذا عملنا بتلك الصورة، فلن يبقى أحدٌ منا على قيد الحياة.. ليس هنالك أحد معصوم من الأخطاء.

الجار يقوم بتقديم الشكاوى عن جاره، والزوجة عن زوجها، الأخ عن أخيه؛ لقد شتّتَنا العدوُ، هذه الأفعال يسمونها بلغة السياسة «فرق تسد»، كما يفعل الراعي، يفتعل عراكاً بين الكلاب ويصعد لمكانٍ مرتفع ليستمتع بمشاهدة عراكهم.

المطلوب منكم في هذه القرية كأبسط مثال.. أن تتخلوا عن العداوات والشجارات القروية القديمة.. أن تكفوا عن الاقتتال من أجل دجاجة أو شاة أو من أجل حدود الحقول.

عندما تقول لأي كردي إن فلاناً قتل ابن عمه أو أخاه من أجل دجاجة، سيقول: السجن للرجال، إنه شهم.. سيد الرجال، أما إذا قلت إن فلاناً دخل السجن لأنه صعد الجبال وله علاقات سياسية أو لأنه فدائي.. مناضل من أجل شعبه ووطنه، سيقول لك: يا له من أحمق.. خرب بيته وبيت أهله.. لا بد أنه مجنون.

ارتفعت على الوجوه ابتسامات رافقتها همسات مسموعة، تخللها بعض الضحك، وهم يؤكدون على صحة ما يقوله محدثهم ويتمتمون: «والله صحيح.. قسماً هو كذلك.. نعم.. نعم ذلك صحيح..».

تابع ملا الليلة؛ الرفيق دوغان:

- هكذا نحن الكرد.. هذا ما نحن عليه جميعاً، نحن أيضاً جئنا من مثل هذا الواقع الاجتماعي، ولن نسمح باستمرار تلاعبات العدو التي يمارسها حتى الآن، من الآن فصاعداً يجب أن تكون خلافاتنا حول حدود الوطن.. وليس على حدود الحقول.. من أجل شبر من الأرض، يجب ألا يكون الأخوة والأقارب أعداءً، الأعداء هم الذين يزرعون هذه العداءات بيننا.

ثم تطرق (دوغان) إلى الكثير من الأمور، بهذا الأسلوب البسيط، مستمداً أمثلة من واقعهم، بعدها بدأ يجاوب على أسئلتهم واستفساراتهم، إلى أن اقترب الليل من منتصفه، وحان موعد الانسحاب من القرية، فبدأ القرويون يتوزعون على بيوتهم وبدأت المجموعات بالانسحاب من بين الأزقة المظلمة.. بينما عادت الكلاب إلى العواء على أطراف القرية وسط الظلمة.

تجمعت الوحدة، عدا المجموعة المطلة على القرية من الجهة الشرقية، كانت الميليشيا وبعض القرويين قد جمعوا شيئاً من احتياجات المقاتلين اليومية، من خبز وأطعمة كالجبن والزبيب.. شرائح من اللحم المجفف.. على وجه السرعة قام الرفيق «هوكَر» بتوزيعها على المجموعات، مؤكداً

على عدم حمل أي شيء بالأيدي، وضرورة حزمها في الحقائب فوراً.

في تلك الأثناء بدأت أشباحٌ آدمية تتقدم نحوهم، يتقدمهم الميليشيا «موسى» بدا الأمر للرفاق طبيعياً، على أنهم قرويون، لم يلفت ذلك انتباه أحد، ما إن حان وقت التحرك وإذ بهؤلاء الشباب ومعهم الفتيات.. لا يزالون بألبستهم المدنية، أخذوا أماكنهم في الرتل، بعد أن قامت الرفيقة «نفل» مساعدة الرفيقة مزكَين بتوزيعهم بين المجموعات، سرعان ما تهامس المقاتلون والمقاتلات بين بعضهم: «إنهم مقاتلون جدد.. رفاق جدد انضموا إلينا».

خرجت رفيقة من الرتل وتقدمت من المقاتلة الجديدة التي كانت تلاقي صعوبة في السير على وَقْع سير الوحدة، منبهة إياها بيدها وهمست لها، مراعية قوانين مسير الرتل التي تتطلب عدم إحداث بلبلة.. قالت لها: «رفيقة، دعيني أحمل عنكِ حقيبتك».

حاولت رفيقة ثانية مساعدة الفتاة الأخرى، وكذلك الرفاق الذين طلبوا مساعدة الشبان الجدد، وهم مصرون على حمل حقائبهم عوضاً عنهم، بينما يقول رفيق لأحد الشباب:

- أعطني حقيبتك يا رفيق.. فالطريق طويل ووعر.

كان يرفض ويجيب:

- كلا.. حملكم يكفيكم.. ثم إنها حقيبتي وأنا الذي يجب أن يحملها، كيف لي أن أجعل أحداً آخر يحملها عني؟ نحن الذين يجب أن نساعدكم في حمل حاجاتكم.

– يا رفيق نحن تعودنا على ذلك.. أما أنتم.. فلستم متعودين بعد، يجب أن تسمحوا لنا بأن نحملها عنكم، ستتعودون لا تستعجلوا.

اختفى الرتل وسط الظلام، بعد أن زحف صاعداً أولاً نحو الجهة الجنوبية، أمام القرويين كعملية تضليل، ليعتقدوا أن الرتل توجه إلى تلك الجهة.. وفور ابتعادهم عن القرية عاد الرتل والتفت باتجاه القمم التي نزلوا منها، بجانب أعشاش الصقور.

- 8 -

الليل في أنفاسه الأخيرة إيذاناً بولادة يوم جديد، بدأت هذه الولادة من ذرى قمم هركَول، وكمهمة أزلية لتلك القمم الأولى في استقبالها لخيوط النور الأولى، هركَول رسول الشمس، بمثابة القابلة التي تكون أول مستقبلي الوليد. كما يكون الرسل أول مستلمي الرسالة، ومن ثم ينشرها على العالمين، استقبل رسول الشمس رسالتها المكتوبة بخطوط من ذهب، وبدأ بنشرها على العالمين، مزيلاً ستار الظلام.

استعدت قطعان الماشية للخروج، تنظر بغريزيتها نحو أبواب الزرائب، واستعد القرويون للقيام بمهامهم التي قرروا أن ينجزوها قبل نومهم.

ما إن أطلوا من الأبواب، حتى تفاجأوا بأن ما كان ينوون القيام به لن يتم، وانتظرت القطعان وأنظارها ما تزال نحو الأبواب المغلقة دون جدوى.. عاد الأطفال مرتعدين إلى داخل بيوتهم، فعندما خرجوا ونظروا إلى أطراف القرية، من فوق أسطح المنازل.. ومن أزقة القرية، صرخ طفل عائدٌ إلى الداخل يلهث مرتعداً:

– أماه.. أماه، جنود.. جنود. وانفجر بالبكاء رعباً.

في مثل هذه الساعة، على أطراف القرية وداخلها، كانت قطعان الماشية

تخرج من الزرائب كالنمل، أما اليوم ومع الفجر كان هناك انتشار لقطيع من نوعٍ آخر، جاءوا من زرائب خارج هذه القرية، مدججين بكل أنواع أدواتٍ القتل، دبابات ومصفحات على الطرق في الجهة الغربية من القرية، والجنود منتشرون بين المنازل وفوق الأسطح، كلما طل أحد من القرويين ليخرج، ترتفع الصرخات محذرة:

- «يصاغ.. يصاغ» ممنوع.. ممنوع الخروج.

مرت الساعات الأولى بلا حراك، والقرية في سكون مطبق، كأنها مهجورة، اللهم إلا الدجاج خرج من قنه، وطيور الحمام المنهكة في الطيران على شكل أسراب تطير في سماء البيوت بحلقاتٍ دائرية، خائفة وفي حيرة من أمرها أين تحط، نصبت الأسلحة الرشاشة فوق التلال وعلى أسطح المنازل، انتشر أصحاب الألبسة المبرقعة، ومعهم كلابهم البوليسية، ورجال بألبسة نصف عسكرية نصف كردية، مدججين مثل الآخرين بالعتاد الحربي.

ما إن تجاوزت الساعة الثامنة حتى وصلت سيارة من جهة ثكنة «خرخور»، وكان في استقباله النقيب آroول، أدى التحية العسكرية بعصبية وتشنج، بينما رد الآخر التحية باستعلاء وخيلاء وبنوع من اللامبالاة، دون أن يهتم لكل تلك الرسميات، نزل ومن حوله العشرات من الجنود والحماة، سار بجانبه «آroول» و«كَرو».

- هل تركتم أحداً يخرج من القرية؟ قالها بلهجة مستبدة تقلصت شفتاه غضباً.

- سيدي الرائد.. لم نسمح حتى للماشية أن تخرج من الزرائب.

- جيد ما فعلتم.. لا نريد للرعاة أيضاً أن يكونوا خارج القرية.. يجب أن نعطيهم درساً يندمون على اليوم الذي ولدوا فيه.

- هم الذين يسببون لنا كل المشاكل سيدي القائد.. إنهم الوحيدون الذين يأوون الإرهابيين إنهم مثلهم. حشر كَرو نفسه في الحديث ككلب مطيع.

- لولا مساعدة هذه القرية لهم.. سيموتون جوعاً في هذه الجبال. أضاف آروول.

- لكنَّا قضينا عليهم خلال أربع وعشرين ساعة، لكن هذه القرية أصبحت مركزاً لهم.

- كم (..) من أمثالهم التحقوا بهم؟

- لا نعرف بالتحديد، ولكن حسب المعلومات التي حصلنا عليها من رجالنا في القرية، هنالك أكثر من عشرة.. منهم ثلاثة من القرية.. واحد من خرخور واثنان من تريان وهناك من أتوا من المدن.

- سأريهم.. أبناء من هم هؤلاء الـ (..)، لو لم يكن الأهل إرهابيين لما التحق أبناؤهم بهم.

- سيدي.. لو تعطونني الأمر.. خلال أربع وعشرين ساعة سأجلب لكم رءوس هؤلاء. أضاف كَرو.

ولكن الرائد لم يبال بما قاله (كَرو) وكأنه لم يسمع.. ليس الآخرون في نظرهم إلا بلهاء أو أوغاد.. وتابع التحدث إلى آroول:

- لتبدأوا بتجميعهم.. جميعاً، النساء في طرف والرجال في الطرف المقابل. يجب أن نريهم كيف يخونون وطنهم (T.C).

- أمرك سيدي الـبينباشي.

انتشروا كقطعان الذئاب لتجميع القرويين، يجرونهم، يسوقونهم كما تساق دابة أو شاة إلى حيث سكين الجزار، نساءً ورجالاً، لا يتركون أحداً داخل البيوت، بمن فيهم الأطفال والعجائز.

وقف آروول يلتهب غضباً، وبيده عصا غليظة، نفس العصا التي انهال بها على حمو وزملائه وسط ساحة الثكنة.. كالعادة متمنطقاً مسدساً على طرف من حزامه، لسعت الشمس وجهه، بين الحين والآخر يرفع سيدارته بعصبية ويمرر منديلاً صغيراً ليزيل العرق من جبهته، بينما يتطاير الشرر من عينيه المحمرتين، نتيجة سكره شبه الدائم، فالشراب لديه يحل مكان الماء، كانت عيناه تقدحان شرراً وتلمعان لمعاناً غير طبيعي، تقطران سماً زعافاً، بوجهه الصارم المتجهم، راح يجيل الطرف بين الحاضرين، هذا إذا أضفنا القوانين العسكرية الصارمة، وفق التربية الطورانية.

أما «كَرو»، فقد بقي مع الرائد عند المدرعات، وابنه «قلنكَ» لا يفارق آروول.. وهو مثلهم يلبس اللباس العسكري الرسمي، عدا شاربه الذي يميزه عن الجنود الأتراك لأن الشارب ممنوع، ويدلهم على القرويين همساً، كان يبدو مجرد جندي نظامي، لم يتعرف عليه إلا القليلون جداً، وهم من أقاربه الذين في إركند.

قلنكَ.. الذي صرخ أول صرخة في وجه أهل القرية المجتمعين قائلاً:

- هيا اجلسوا جميعاً.

نفذ القرويون البؤساء التعليمات، منصاعين لها، كما ينصاع القطيع لصرخات الراعي أو عندما يتجمع مرتعداً عند سماع عواء الذئاب، الرجال جالسون وأيديهم المتشققة مثنية فوق الركب إلى الأمام، بوجوههم الجبلية التي لفحتها الشمس، البعض ألبستهم مرقعة برقع تختلف ألوانها عن لون اللباس.. شواربهم منكوسة.

نظرت الأطفال مليئة بالرعب، سمات الهلع بادية على ملامحهم، أما الشباب فيتملكهم روح الشباب الذي يتسم بالعناد والتحدي، يصفهم المسنون بأنهم أغرار في أمور الحياة.. طائشون.. جهلة.. وذلك ليس إلا ضرباً من الجنون.

في الجهة المقابلة النساء في حالة من الخوف ممزوجة بالتحدي والشجاعة الأنثوية، التي يسميها المسنون من الرجال بالجرأة الحمقاء، صامتات كالجميع في انتظار بدء المسرحية.

هم في نوع من الأعراس؟ لسنوات طويلة تعودوا أن يروا أعراس الزواج فقط، أما مثل هذه الأعراس ولو أنها ليست غريبة على الكبار، لكنها بالنسبة للشباب والأطفال، الذين لا يعرفون سوى ما سمعوه من الكبار، كانت مجرد قصص أو أساطير تحكى لإضاعة الوقت في ليالي الشتاء الطويلة حول المدافئ، أما اليوم فهم يعيشونها في الواقع، إن ما كانوا يسمعونه عن مثل هذه الأمور من قبل الكبار، لم يكن في نظرهم سوى سيناريوهات للأفلام التي يتابعونها أحياناً على أجهزة التلفزة

التي وزعتها عليهم الثكنات مؤخراً.. ها هم على وشك تنفيذ حقيقي، الآن يتم سرد تلك النصوص إلى كل من سيأخذ مكانه في هذا الفيلم الواقعي، في الليل كان مشهد وها هو الصباح مشهد آخر، من هو مخرج هذا الفيلم؟ يا ترى كيف ستكون المشاهد؟ ماذا سيكون دور كل واحد منهم؟ في العادة الممثلون يعرفون مسبقاً أدوارهم، اليوم لا أحد يعرف بعد، ماذا سيكون مصيرهم.. أحداثها؟! بكل تأكيد سيكون تراجيدياً.

طار سرب من الطيور فوق رءوسهم، ثم نعق بوم نعيقاً فيه رزانة من تجارب الدهر، بدأت ذكرياتهم تختلط وانقطعوا عن العالم، وهم تحت رحمة فوهات أدوات القتل تلك، اسودت الحياة في أعينهم، من قبل لم يكونوا يستطيعون التمييز بين الحق والباطل، لم يعد لديهم شعور بالألم أو اللذة.

تحت أشعة الشمس تلك وفي العراء بدون حراك، سرعان ما أصاب أطرافهم الخدر والارتخاء، حقيقة هذا أم حلم؟ بدأ كل شخص يصور لنفسه، ما يحدث في القرية كما يشاء، تجسد للبعض النظر إلى الحماة والجنود على أنهم حيوانات خرافية، والنظرة في أعينهم تبدو كمحارق ينظر إليهم بنظرات من الرعب والاستهزاء والسخرية.. لم تكن الأمور والحالات العادية من الحياة في متناول التفكير.

تقدمت دبابة وسط الجمع مصدرة هديراً جنونياً كأنها آتية لتسحق الجميع، ما إن اقتربت عدة أمتار من وسط الجمع، فجأة وبعنف غيرت مسارها، بدأت تدور حول نفسها كوحشٍ خرافي مذعور، كادت فعلاً

أن تسحق البعض، ارتفعت من بين العجلات الحديدية وسلسلتها موجة من الغبار أغرقت الجمع تماماً.. هنيهة اختلط الرجال بالنساء.. الشباب والأطفال، ما إن تلاشى الغبار وصار سحابًا وارتفع في السماء.. صمّ الآذان هدير وصول حوامات من نوع الأباتشي.

بعد عدة جولات من الدوران الاستعراضي المنخفض فوق القرية وأهلها، تابعت تمطر قمم وسفوح جبل جاجى بالقذائف الصاروخية، ثم فتحت نيران رشاشاتها إلى الجهة الجنوبية الغربية من القرية.

عاد قلنكَ من بين أشجار مقابر القرية وأمرهم بالعودة إلى أماكنهم، افترق الرجال والنساء ثانيةً إلى فريقين متقابلين، التصق الأطفال بأمهاتهم، أخذوا يراقبون بدهشةٍ، أبسط حركات هؤلاء الجنود التي لم يسبق للكثيرين أن رأوهم هكذا عن قرب، ربما البعض راقبهم في بعض الأحيان عن بعد، بدا كمصارعة توشك أن تبدأ بينهما، تقدم آروول إلى وسط الفريقين، من حوله بعض من عناصر حماة القرى الـ«جتى» وجنود مشهِّرين أسلحتهم، بدا آروول الحكم الذي سيعلن بدء الجولة، الجنود وهم متخذون أماكنهم بين الفريقين بدأوا بتلقيم أسلحتهم، يصدرون أصواتاً لزرع الرعب في نفوسهم، تكملة لما فعلته الدبابة والحوامات.. بعد أن لقَّموا بنادقهم اصطف على جانب من الحشد وحدة من الجنود، وسرعان ما أحضر كَرو وآخرون لوحات خشبية مثبتة على عصي خشبية وتوجهوا إلى الجهة المقابلة لصف الجنود، على بعد أقل من مائة متر ثبتوها بالحجارة كأهداف رمي، على كل لوحة بدلاً من دائرة هدف الرمي كانت

صورة للزعيم عبدالله أوجلان.

لحظات وكان دوي الطلقات يدوي من صف الوحدة، وهم يطلقون النار إلى الأهداف حيث صور الزعيم.. لم يتوقفوا إلا بعد أن تناثرت الصور.

عاد آروول وسطهم وأعطى قلنكَ جهازه اللاسلكي الذي كان بيده، والذي لم يكن يتوقف عن الثرثرة بالتركية كالببغاء، مخرجاً طنيناً وأحياناً موسيقى تتبعه محادثات آمرة أو بالعكس، لقد شمر عن ساعديه إلى أعلى الزند، شد صدره مرفوعاً نحو الأمام وبنظرات من الكبرياء والعجرفة، بدأ يخاطب بؤساء القرية الكردية:

– اليوم مهمتي أن أعيدكم إلى وعيكم.. أن أرشدكم.. أنبهكم.. أن أفتح أعينكم على الحقائق، يبدو أنكم نسيتم تاريخ أجدادكم، نسيتم الماضي بسرعة، حتى تتجرأوا على خيانة (T.C) الكبرى، سنفعل بكم كما شاهدتم الآن وأمامكم ما فعله جنودنا الشجعان بزعيم الإرهابيين.. سأعلمكم وأعيد على مسامعكم تلك الدروس:

– «أنا أمي واحدة.. لكن آبائي ألف»[1]، لن أرحم من يخون تركيا العظمى، منذ البداية، عندما كان في القرية ثكنة متمركزة في المدرسة وكنتم حماة.. سلمتم أسلحتكم وكنتم سبب خروج جنودكم من القرية، وهو ما أفسح المجال لبعض الأجانب من الأرمن والسوريين أن يتلاعبوا

(1) Anem Bır.. Babam bın:

مثل تركي (أمي واحدة ولكن آبائي ألف).. يعبر عن وقاحة ولا أخلاقية الضابط التركي، على أنه بدون أصل ولا يعترف بأحد.. ويتباهى بأنه بالأساس ابن حرام، لا يعرف من أبوه... أي لا يعرف الرحمة.

بعقولكم، لم يتوقف الأمر عند هذا، بدأتم بإيوائهم وتقديم المساعدة لهم.. إنهم مجموعة من الحفاة.. العراة، تنخدعون ببعض الأشقياء، يحملون بأيديهم بعضاً من بنادق كلاشينكوف عفنة مثلهم.. ويقولون: نحن نحارب «T.C» العظيمة.. ببضع بنادق..! يجب أن تعلموا.. أن هذه الدولة الكبيرة.. دولتكم، كما ترون ما تملك هذه الدولة من قوة؟ ها هي الدبابات والمصفحات.. طائرات.. أسلحة كيميائية.. أسلحة من كل الأنواع.. أما هم.. ماذا يمتلكون؟ بضعة بنادق مهترئة؟ بإلقاء قنبلة كيماوية واحدة، سنفعل بكم ما فعله صدام في «حلبجه».. أيها الـ(..) مَنْ هم (..) الذين يأوونهم ويساعدونهم؟.. أبناء مَنْ التحقوا بهم؟

انتظر لحظات دون أن يتفوه أحد ولو بكلمة، تجمد الجميع في أماكنهم ولم يتحرك أحد، الرشاشات إلى جانب فوهة مدفع الدبابة موجهة إليهم، إلى ظهورهم من الجهات الأربعة، ذاك الصمت كان يقطعه من حين إلى أخر دوي انفجار يسمع من بعيد، كل شيء بات يفوح منه رائحة الحرب.

آرووول صرخ آمراً قلنكَ ومعه مجموعة من الجنود وعناصر من الحُماة:

– أحضروا هؤلاء الكلاب. (فتح قائمة من الأسماء وهو يتابع): لا تريدون أن تخبرونا أليس كذلك؟ حسنا، نحن سنقول لكم.

بدأ يقرأ:

– موسى.. نيجرفان.. حج خالد.. صوفي قادر. ليتقدموا إلى هنا.. هنا (وهو يؤشر بيده إلى وسط الساحة).

ثم انسحب مبتعداً لتتقدم مجموعة أخرى من الجنود بدون أسلحة إلى

وسط الساحة، حاملين العصي والهراوات، وبعضاً من شرائط الحبال والقيود، على رأسهم الشاويش كمال.. الضابط آroوول عاد إلى ظلال أشجار مقبرة القرية، البقعة الوحيدة التي بقيت مشجرة على أطراف القرية، والتي تحولت إلى شبه حديقة.

نزل كمال وفريقه إلى الساحة، من وردت أسماؤهم في القائمة جردوا من ألبستهم، ازداد عدد الجنود من حول الجمع، لحظات وسرعان ما فقد البعض منهم وعيه، الدماء بدأت تسيل من أجسادهم العارية، الشاويش كان ينبح موجهاً كلامه إلى موسى:

- هل أنت متزوج أيها الإرهابي الكلب؟ أين (..)؟

الدماء كانت تنزف من منخاريه، وتسيل من بين شاربه، كما تسيل المياه وسط جذور الأشجار، فتزيدها ارتفاعاً، وقوة ومتانة، فكانت الدماء تزيد من رجولة موسى، رجولته الفطرية معروفة لدى أهل القرية، وهو يترنح رفع رأسه متحدياً، بدا كأسدٍ جريح يأبى الخنوع، ومستعد لتحدي الموت.. الكدمات الدامية غطت ساقيه العاريتين.. عدا الشورت الذي يغطي أعلاهما.

- نعم..
- كم ولداً عندك؟
- اثنان.
- هل هم مثلك.. سيصبحان إرهابيين؟ كم عمرهم؟
- إنهم صغار.

- صغار.. لو كانوا كباراً لأرسلتهم ليلتحقوا بالإرهابيين.. أليس كذلك؟ لماذا لا ترسل زوجتك إليهم ليفعلوا (..)؟ إنهم بحاجة إلى مثل (..).

التفت إلى النساء متسائلاً:

- مَنْ تكون زوجة هذا الكلب؟

لم تتحرك النسوة ولم تنطق أي منهن بحرف، تقدم الجندي قورتاي ومعه واحد من الحُماة كدليل، كان يغطي وجهه بكوفية، لكي لا يعرفه أحد.. ساعده جنود آخرون، أخرجوها من بين الأخريات إلى الوسط، تقدم كمال منها وهو يقول:

- أنتِ زوجة هذا الإرهابي أيتها الـ..؟

ممتلئة بالشموخ الأنثوي، امرأة تعقد منديل الرأس تحت الذقن، ورغم كل شيء تبدو الأناقة وحسن الذوق طاغياً على أنوثتها الجبلية، ذاك من صفاتها الفطرية، عندما مد الشاويش يده ليمسكها من قميصها الوردي.. ما قامت به «كَولي زرى» زوجة «موسى» كان ردة فعل غير متوقعة.. أحست أنها على حافة البكاء، لكنها تمالكت مشاعرها وبملء فمها بصقت، فالتصقت بوجهه كشطية قذيفة، الشاويش كبت ردة فعله بغيظٍ جنوني، لينتقم بصورة ترضيه وعلى طريقته، وكما يقول المثل: «بصقوا في وجه الضفدع، فسألوه ألم تخجل؟ أجاب الضفدع: مياه البحار والأنهار لم تبلل وجهي أو تغرقني».. وهل هذه البصقة ستجعل من حيوانٍ مثله أن يخجل من نفسه؟

تركها الشاويش في مكانها، ليعود إليها في جولة أخرى، ويريها نتيجة هذه الفعلة، وقف أمام الملطخين بالدماء، صوفي قادر والحاج خالد.. كان الحاج خالد رجلاً وسيماً في أواخر العقد الخامس من عمره، له لحية صغيرة بيضاء مدببة، خشن الجلد، ممشوق القامة، ملامحه لا تدل على كبر سنه، سأله:

- أجب يا حج خالد.. أين ابنتك؟

- لا أعرف.

التفت يميناً ويساراً، موجهاً الكلام إلى القرويين:

- أسمعتم؟ إنه لا يعرف أين ابنته.. شرفه وعرضه.. لا يعرف أين تكون.. ولكن نحن نعرف.. أب لا يعرف أين ابنته.. إنه ليس أباً، إنه بكل تأكيد قواد، أرسل العاهرة إليهم.

ملتفتاً إلى الحاج خالد، وموجها الكلام إليه:

- كم سيدفعون لك ثمن (..)؟ هل أنت من أرسلتها أم ماذا؟

أجاب وهو ينظر إلى وجه الشاويش شذراً، مقطب الحاجبين:

- لا علم لي، عندما خرجوا عرفت أنها ذهبت معهم.

- طبعاً.. لأنها بدون تربية كأبيها.. لو لم تكن (..) لما رافَقتهم..

التفت مرةً أخرى موجهاً الكلام إلى الجمع، وهو يلوّح بكابلٍ كهربائي غليظ ومرن في الهواء، يصدر صفيراً حاداً:

- معهم نساء أيضاً أليس كذلك؟ إنهم أرمن.. كفار.. شيوعيون.. لا يعرفون أخواتهم وأمهاتهم.. لا فرق عندهم.. تلك النسوة (عا..)

يأخذونهن من أجل (..).

توقف لبرهة.. عن قذف الأوساخ من الثقب الذي في وجهه، ثم عاد إلى الآخرين:

- وأنتم يا نيجرڤان.. صوفي.. آه.. صوفي (وبدأ يمرر أصابعه من بين لحيته) انظروا إلى لحية هذا الشيطان.. يا ترى كم شيطاناً يتعلق بكل شعرة؟ هل أنتم أيضاً لا تعرفون أين أبناؤكم؟

- عندما ذهبوا لم يقولوا لنا.. قال ذلك حج خالد بصوتٍ خافت.

- اخرس أنت.

فقطب صوفي قادر حاجبيه ثم قال:

- بدون علمنا حضرة الشاويش.. نقسم لكم.. لا علم لنا.

- طبعاً لا علم لكم.. عندما جاءوا في الليل.. كم كان عددهم؟ تدبكون معهم، نساءكم يزغردن لهم..! لماذا لا تدبكون معنا ولا تزغردون لنا أيضاً؟ ها.. نيجرڤان.. لماذا تبقى هكذا كالأبله لا تجيب؟

ارتفع صوتٌ من وسط الرجال:

- حضرة الشاويش.. ماذا علينا أن نفعل؟ إنهم مسلحون مثلكم.. ماذا علينا أن نفعل؟

أدار كمال نظره كالآخرين نحو جهة المتحدث.. كان رجلاً مسناً، يتجاوز السبعين من العمر، متكئاً على عكازته، بدأ كمال يتقدم منه وهو يقول:

- أنت.. أنت أيضاً إرهابي.. أيها الختيار التعيس.. يأتونكم مسلحين؟

لماذا لا تطردونهم؟ لقد سلحتكم دولتكم الكبيرة TC أيضاً.. لتدافعوا عن القرية وتمنعوهم من دخولها.. لكنكم أعدتم الأسلحة.. لماذا أعدتموها أيها..؟

أجاب الرجل المسن بصوتٍ فيه تلك النبرات القاسية، المعهودة في الرجال المسنين:

– حضرة الشاويش.. نحن بسطاء، لا طاقة لنا أن نحارب أحداً.. نحن مجرد قرويين فقراء، ما علاقتنا بكل هذه الأمور؟

– فقراء!.. إذن.. لماذا تعطونهم الطعام وينضم أبناؤكم إليهم؟ هل ستمتنعون عن ذلك وتأتون بأولادكم الذين التحقوا بهم؟ هل توعدون بذلك؟

أجاب الشيخ متململاً وقد عبَّر وجهه عن جدٍ ووقار:

– نحن لا طاقة لنا على ذلك.. يأتون مسلحين.. نحن مجبرون أن نعطيهم الطعام ونلبي حاجاتهم، لا نستطيع طرد أحد، أنتم أيضاً تأتون مسلحين، لا نستطيع أن نقول لكم كذلك شيئاً، مجبرون أن نلبي مطالبكم أيضاً.

قال الشاويش كمال بحنقٍ يوحي بحقد دفين:

– أيها الخنزير.. أنتم مجرد حشرات.. سأرسلكم للمجيء بأبنائكم، وإلا سأقتلكم جميعاً.

أجابه الشيخ وهو يزفر:

– حضرة الشاويش.. وهل لهؤلاء الفقراء قوة للمجيء بأبنائهم؟ أنتم دولتنا.. أنتم جيشنا الذي يمتلك الدبابات والطائرات.. أنتم من يجب

أن يدافع عنا وعن أولادنا.. ها هو الجبل وأنتم تعرفون كل شيء.. لا بد أنكم تعرفون أماكنهم أيضاً، اذهبوا واقضوا عليهم.. خلصونا منهم.. أعيدوا لنا أولادنا؟

- تعرف التحدث أيضاً..أيها الحمار ابن الـ..

تقدم منه وكالبرق، صفعه صفعة على وجهه المخطَّط بأخاديد عميقة، حفرها كبر السن وعناء العمل، ترنح الشيخ ولكنه لم يقع، تمسك بمَن كان بجانبه.. لم يدع للخوف سبيلاً إلى نفسه، تابع أكثر عناداً وصرخ بصوتٍ مدوٍّ:

- إذا كنتم تملكون كل هذه الأسلحة ولا تستطيعون حمايتنا، فكيف لنا أن نحمي أنفسنا؟ بالله عليكم قولوا.. قولوا.. دعونا وشأننا.. ها هو الجبل وهم هناك، وأنتم جنود ولديكم الطائرات والدبابات، وسلاح صدام الكيماوي.. اذهبوا واقتلوهم جميعاً.. ما دمتم تقولون إنهم عراة وحفاة وليس لديهم إلا بنادق صدئة.. أريحونا منهم.. بعد الله TC دولتنا العظيمة.. أنتم حماتنا وكبارنا.

صرخة التحدي المدوية أعادت الجرأة إلى قلوب الخائفين، والرعب والاستغراب من شجاعة التحدي للضباط ومن يرافقهم من قطعان وماكينة موتهم.. اقترب الضباط والجنرال، تاركين أماكنهم في ظلال أشجار مقبرة القرية.. فارت الدماء في الوجوه بينما آروول لا يفلته وبأكثر حنقٍ وغيظ:

- أتستهزئ بدولتك العظيمة أيها..؟

شده إليه ممسكاً به من عروته، وأعاد شده صفعاً ثم ركلاً، كل ركلةً كانت أقوى من رفسة بغل، طارت عكازته من بين يديه، مخضبة بدمائه، وكستها طبقة غبار من تراب أرض جبل هركَول، لم تساعده قواه للصمود أكثر وهو في هذا العمر، أمام تلك الرفسات البغلية، وقع الحاج أوصمان أرضاً على وجهه وهو يصدر أنات احتضار، ممدداً كأنه جذع شجرة.

حاول بعضٌ من الرجال والشباب التدخل، اندفع وسط ذاك التدخل بعض الأطفال مسرعين نحو العكازة، التقطوها من بين الأقدام وبلمح البصر عادوا إلى أماكنهم، فور تدخل الجنود وإطلاقهم العيارات النارية من فوق رءوسهم، عاد الكل إلى حالة عدم الحراك.

عاد الشاويش ومسك موسى من شورته بيده اليسرى، وهو مقيد اليدين من الخلف، أما الآخرون فقد أحكموا ربطهم بالحبال، وشدّ الشورت نحو الأسفل، بلمح البصر أصبح موسى عارياً كما ولدته أمه، فصدرت الصرخات من وسط النساء، حجبن أنظارهن، بينما تشهّد الرجال واستعاذوا بالله، انهالت العصي والهراوات وأخمص البنادق على الحشد بدون تمييز، بدأوا يسحلون موسى وسطهم.. إلى جهة النساء، وهن يصرخن.

لم يقف الأمر عند هذا الحد؛ كان أكثر من مائة جندي قد حاصروهم وبدأوا ينهالون عليهم سواسية، رجالاً ونساءً، بأخمص البنادق والعصي، بين الصرخات والعويل والبكاء، تحول الجمع إلى حشر.. بل إلى قيامة، لم يبقَ أحد إلا ونال ما نال من الضرب، ثم بدأت الطلقات تصفر من فوق

رءوسهم، بدأ الجنود يتراجعون إلى أماكنهم، القرويون منهم من يتخبط بالدماء، ومنهم من يحمي طفله أو طفلته، يحمونهم خوفاً من أن يقضوا أجلهم بين الأقدام.

استمر الضرب، التنكيل والتعذيب لوقت طويل، ثم بدأوا يسحلون المقيدين نحو المدرعات، دبت موجة من الرعب بين الكبار والصغار، لحقت «كَولي زرى» بـ«موسى» وهي تصرخ، فأمسك بها أحد الحماة، ثم لحق به الشاويش كمال ممسكاً بها من جدائلها، وبعد أن عرى رأسها من منديلها بكلتا يديه، أمسكها من رقبتها وشدها من قميصها بقوة، من قوة القبضة المقصودة، لم يصمد القميص وحده، بل معها تمزقت ألبستها الداخلية أيضاً إلى مزَقٍ.. أصبحت عارية من النصف الأعلى، مما زاد من ضيق وغيظ الجمع.. «موسى» لم يتمالك نفسه، عندما حاول التدخل تلقى ضربة من أخمص بندقية أقرب جندي، فوقع على الفور أرضاً فاقداً وعيه.

صرخ أحد الرجال:

- كل شيء إلا هذا.. سبحانك يا رب.. شرفنا.. شرفنا.

لم يكن باستطاعة أحد التدخل، بعناد تسللت امرأة والوصول إلى «كَولي زرى» فنزعت غطاء رأسها وغطت صدرها، بينما «كولي زرى» هرولت عائدة لتختبئ بين النساء، فقامت النسوة بتغطية جسدها العاري، بينما آروول بدأ بالنزول وكأنه عائد من نزهة قصيرة، وبدأ بالكلام:

- سترون ماذا ستفعل (T.C) خلال أربع وعشرين ساعة.. سأجلب لكم رءوس الجميع، وعندما أجلب رءوس أبنائكم سيكون لي معكم

كلام آخر.. يدخلون القرية ويعقدون لكم الاجتماعات، تمدونهم بكل متطلباتهم أليس كذلك؟ لم نكن نعتقد أنكم ستنخدعون لهذه الدرجة.. حفنة من الأشقياء هؤلاء، زعيمهم «آبو» يمكث في سوريا يمارس كل أنواع الـ(..)، وسوريا تدفع له المال ليرسل هؤلاء، ليقوموا بالتخريب في دولتنا، إنهم حفنة من الخونة.. أعداء للوطن.. من يساعدهم هو عدو مثلهم، من الآن فصاعداً سنعدم كل من يتجرأ على هذا.. ليكن لكم علم بأننا نعرف كل ما يدور هنا.. لدينا علم بكل ما تقومون به، أما الذين التحقوا بهم، فسوف نعرف من هم.. من المؤكد أنهم أقاربكم ومن هذه القرية، فليست هناك أي قرية في هذه المنطقة سوى قريتكم، التي تئويهم وتقدم لهم المساعدات، أنتم فقط.

برز عبد الرحمن القروي، بعد أن نظف حنجرته بعدة بحات وبلع من ريقه، كمن قرر التحدث وليوقد النار في حضنهم، ليدخل الشك والهلع في داخلهم، وليحدث ما يحدث، قائلاً:

– إن الذين يساعدونهم والتحقوا بهم ليسوا فقط من عندنا كما تدعي يا حضرة الضابط.. بين من جاء والتحق بهم كما يقال: كانوا أيضا من عندكم حضرة الضابط.. من تحت حماية ثكنتكم.

– أتعرف مَنْ هم؟

– عندما خرجوا من القرية مروا بجانب بيتي في آخر القرية.. وقد شاهدتُ البعض منهم.. ولتعرفوا أننا لسنا الوحيدين.. بل كل القرى..

تساءل آروول لاهثاً لهاثاً شديداً:

- ماذا تقصد؟

أكمل عبدالرحمن وهو ينظر بتحدٍ في عيني آروول الذي بلله العرق وتشعث شعره:

- من بين الذين التحقوا بهم هم من تريان.. أبناء الذين يرافقونكم.

وأشار إلى حماة القرى.

- ماذا تقول؟ (بغضب).. منْ هم؟

- لا أعرفهم، كل ما أعرفه أن البعض من أبناء حُماتكم.

- من تريان!

ارتجفت ساقا قلنكَ عندما التف آروول وسأله:

- هل ذلك صحيح يا ابن..؟

- لكن.. لا.. ليس لي علم.. أقسم لا أعرف. أجاب قلنكَ.

- سنعرفهم.. عندما ترون رءوسهم هنا أمامكم، إن سمعنا مرة أخرى أنكم قدمتم لهم المساعدات سأحرق هذه القرية ولن أترك حجراً فوق حجر..

ختم كلامه وهو يلتفت مؤشراً نحو عبدالرحمن:

- هيا أحضروا هذا الكلب أيضاً..

على أثر دوران محركات السيارات والمدرعات، امتزجت رائحة البنزين والديزل مع الرائحة الخانقة للزيت المحروق، تحركت على طول الطريق لتخرج من القرية، تاركة وراءها خطوطاً وكتلاً من الغبار.. بدأ القطيع بالانسحاب.. أرتال متفرقة تنزل من المرتفعات، وتصعد من أسفل القرية

من بين البيوت، عندما تصل هذه الأرتال إلى الطريق الرئيسي، تتوحد في رتلٍ واحد، ثم ينقسم بعدها إلى ثلاثة أقسام، الأول يعود باتجاه الشمال إلى ثكنة خرخور، والثاني باتجاه الجنوب إلى تريان، أما الثالث فنحو الغرب حيث ثكنة آسكي آروه.

ما إن بات القرويون وحدهم، وبعد أن أخذ الذئاب بعضاً منهم، حتى تجمعوا حول الحاج أوصمان الذي أصبح جثة هامدة بلا حراك، أسلم روحه للباري، علا الصراخ وتداخل بالبكاء ونحيب النساء، بينما الرجال يدعون الله رب العالمين، حملوه إلى المسجد وأحضر البعض المعاول.. أما الملا فاستعد ومعه بعض المسنين لغسل الشهيد، وعم القرية حزن لفقدانهم الحاج أوصمان.. بينما الأطفال يتبادلون عكازته المخضبة بدمائه فيما بينهم.

- 9 -

بعد قضاء ليلته في مهمة نصب الكمائن حول الثكنة، عاد حمو إلى البيت، كالعادة كانت الكهرباء مقطوعة منذ بداية تلك الليلة، مصباح الكاز يرسل بصيص ضوء في باحة الدار وأمام درجات الباب، قبل أن يتنفس الصباح أو يولد نور الفجر في عقب عتمة الليل الموحشة، وضع حمو بندقيته وأسندها بالحجارة المرصوصة بجانب الباب، وعلى طول الحائط للجلوس، ثم توجَّه إلى الحظيرة، كانت الحيوانات ما تزال دافئة وعلى جفونها آثار النعاس، قدم العلف والعشب اليابس إلى الفرس والبقرة الوحيدة.. ذلك كل ما بقي لديه من الحيوانات، عاد إلى بندقيته وأخذته شبه دهشة وهو يقول لنفسه: «هل من المعقول أن تكون بهار نائمة حتى الآن؟ ليس من عادتها، عادةً هي مَنْ توقظني في مثل هذا الوقت، ماذا جرى لها؟! أتكون قد تأخرت في النوم.. وهي تنتظرني؟!

لا حول ولا قوة لنا، بعد عودتنا من إركند أصدر آروول أمراً بأن نزيد من يقظتنا، فقد تم تبليغه من أحد العملاء أن الإرهابيين يتأهبون لمهاجمتهم، ومنذ ذلك اليوم بات ممنوعاً على أيٍّ من «حماة القرى» النوم في بيته.

كان الباب محكم الإغلاق، ولكن قطعة من زجاج الباب كانت مكسورة من الزاوية اليمنى، فمد يده إلى الداخل من خلال تلك الفتحة وسحب المزلاج، وما إن دخل حتى شعر كأنها خرابة مهجورة، كل شيءٍ في مكانه المعتاد، لا أحد في المنزل، بدأ يجوب الغرف واحدة تلو الأخرى، لا أحد موجود، أين ذهبت؟! يبدو أنها كذلك لم تنم في البيت.. بسبب تأخري، بالتأكيد أخذت الأولاد وذهبت إلى بيت أهلها.. الحق معها يا حمو.. في هذه الأيام لم يعد أحد يثق بأقرب المقربين إليه، الأشياء اختلطت ببعضها.

لأنتظر قليلاً، ستعود الآن هي والأولاد، توجه إلى المطبخ وقد شعر بجوعٍ شديد. ما إن دخل المطبخ، حتى امتلأت رئتاه برائحة الزيت والخل والجبن الممزوج بالثوم البري، توقف قليلاً وعلبة الكبريت متحجرة بين يديه، صمت في سكونٍ موحش، أعاد علبة الكبريت إلى مكانها، زال شعوره بالجوع، شعر وكأنه منذ لحظات أكل، ولوحده، خروفاً بأكمله، مع أنه خلال الأربع والعشرين الساعة الماضية لم يضع لقمة طعام في فمه، لأنه رمى مخصصاته من علب الكونسروة إلى الوادي، أما شرائح الخبز، فقد تركها على أطراف الخنادق لتأكلها الطيور والحيوانات.

أتكون حماتي قد أخبرت بهار بالموضوع؟! شعر بدوار في رأسه، يا لها من طامة يا حمو! أقسم إن الأمر كذلك.. يا إلهي! ماذا جرى لـبهار عندما عرفت حقيقة الأمر؟! كيف كان وقع الخبر عليها، وأمها تخبرها عمّا يجب فعله؟ تركت البيت وذهبت معها، ها قد أصبحتَ وحيداً يا حمو، لو كانت أمي رحمها الله موجودة، إخوتي وزوجاتهم، كانوا لا يدعونني

أحتاج إلى شيء، ألم أكن السبب في هجرتهم؟! ألم أطرد أخي «بيازيد»؟! فأخذ زوجته وابنه الوحيد وذهب إلى مدينة «وان»؟ لم يعد وانقطعت أخبارهم عنا.. لماذا.. لماذا؟ أنا السبب.. من أجل ماذا؟ لأن ابنه فقأ عين المهر بضربة حجر.. كانوا أطفالاً يلعبون.. كلمة مني وكلمة منه، يومها قمت بفج رأسه، ولولا تدخُّل أخينا الأكبر خليل، دون شك، لاحتد الأمر بيننا ووصل إلى قتل أحدنا للآخر، على أثر ذلك لحق به أخي «باز» أيضاً، بعد أن أنهى خدمته الإلزامية كان ينتظر أن نزوجه.. ولكن.. حديثاً يقال: إن بيازيد ساعده وقد تزوج هناك وصارت لديه عائلة، لم أسأل عن أحد منهم، كان خليل الوحيد من بينهم الذي يتجرأ ويحاول إبعادي عما أنا فيه، لكنني لم أطعه كذلك، لم أعمل بما كان يرشدني إليه، كم مرة حاولت بهار أن تخفف عني.. لأعيش بتفاهم مع إخوتي؟ ولكنني كنت أعتبرها وكل النساء ناقصات العقل، أقل كلمة كنت أقولها: «لا تحشري نفسك بأمور الرجال».

عندما بدأت الفرس بالصهيل استيقظ وكان الفجر طريا، آه يا حمو.. يجب أن تتولى أمر إيصال الحيوانات إلى القطيع قبل أن يبتعد عن القرية، عاد إلى الحظيرة ثانية وفتح الباب على مصراعيه، حل رسن الفرس، كذلك رسن البقرة وخرج بهما، كانت السماء صافية تماماً.. تابع الطريق باتجاه الساحة التي يطل عليها بيت ديكو، حيث يجتمع القطيع.. البغال، الجواميس، الأبقار، الثيران والخيول في قطيع واحد، كان ديكو ماسكاً مقصاً بيده وبالأخرى قبضة من شعر يقوم بفرمها وتفتيتها، ما إن وصل

حمو دون أن ينتبه لقدومه، سمع ديكو أحدهم يقول له:

- صباح الخير أخ ديندار.

رفع ديكو رأسه كاشفاً عن أسنانه المصفرة، ولكن دون أن يضحك كعادته.. ديكو قصير القامة، هزيل الجسم، دميم الوجه، له صوتٌ حاد.. كان يرتدي سروالاً أزرق قاتماً، وقميصاً خاكي اللون، شد بطنه بزنارٍ، منذ فترة طويلة لم يسمع أحدا يناديه باسمه الحقيقي.. عاد ليتذكر السبب وراء لقبه (ديكو).

والده توفي قبل أشهر من ولادته، أما والدته، ففي اليوم الذي ولدت أختًا له، وفارقت المولودة الحياة في يومها الأول، ساعد أهل القرية أمه وأخذوها إلى سيرت.. على أثر الولادة أي بعد الوضع مباشرة، لكي تعيد عافيتها، الأطباء نصحوها بالتغذية الجيدة.. حينها كل ما فهمه ديكو أن والدته، وهي الوحيدة في حياته، بحاجة لطعام مغذٍ مثل اللحم.. نعم اللحم، احتار في أمره.. ماذا يفعل وأمه في الفراش؟

في إحدى الليالي، تسلل خلسة إلى قن الدجاج في باحة دار حمو.. ليلتها على أثر صياح الدجاج، صرخ والد حمو، وخرج بلباس النوم، وبيده بندقية الصيد، ارتعب ديكو من دوي الطلقة في الهواء وهو يسمع صرخة «يبدو هنالك ثعلب في القن».. ذلك الثعلب..! تجمد ديكو في مكانه رعباً، بعد سماعه دويَّ طلقة البندقية والديك لا يزال بين يديه، سأله والد حمو: ماذا تفعل هنا يا ديندار؟ كان ديكو طفلاً، لم يعد يعرف ماذا يقول، كل ما قاله: «ديك.. ديك.. لحم لأمي.. أُمي.. أمي مريضة..» والد حمو وبعد سماعه

تمتمات ديكو لم يضف أي كلمة، أعطاه الديك وهو يقول له: خذ الديك يا ديكو.. ولكن يجب ألا تعود لفعل مثل هذه الأمور.. تعال واطلب مني ما تشاء..هيا اذهب إلى أمك..

وبعد أن انتشرت القصة بين أهل القرية.. أصبح الجميع ينادونه ديكو.

- ديكو.. ديكو أين سرحت؟ ماذا هناك..؟ قال حمو.

رد ديكو محبذاً وهو ينهض:

- أهلاً يا حمو.. أهلاً بك.

- ماذا تفعل؟ ما الذي بيدك؟

وقف ديكو وبدأ يربت على رقبة الفرس ملاطفاً وأجاب:

- قطعت قبضة شعر من ذنب الفرس وأقوم بفرمها.

- ماذا ستفعل بها؟

- حمو.. هذه أمور الرعاة.. بعد الفرم نخلطه مع القليل من الملح ونطعمه للبغال.

- هل هو دواء؟

- كلا.. هكذا البغال تتعرف على رائحة الفرس.. والفرس أينما تكون لا تبتعد البغال عنها، تتبعها وترعى قريباً من حولها.. تصبح كأم لها.

- من أين تعلمت هذه الأمور يا ديندار؟

- تعلمتها من أمي رحمها الله.. وكما تعلم والدي أيضاً كان راعي قطيع القرية.

توقف حمو صامتاً كمن يريد أن يقول شيئاً، لكنه تردد، ديكو ينتظر ما

يريد حمو البوح به، انسحب حمو دون كلمة، عاد في طريقه واختفى بين الأزقة.

مر بقرب سرب من الإوز يرعى في فسحة من المرج، بجانب جدول ينساب من بين أشجار الحور، العوسج يتعلق بحواف الصخور، أما المجرى، فهو مغطى بأعشاب مختلفة الأنواع، تابع الطريق ورائحة الصخور الجيرية التي تدب عليها الخيل، تزكم الأنوف، ما إن وصل إلى سرب الإوز، حتى هاجمته إوزة، مدت رأسها مُصدرة فحيحاً كالأفعى، لتمنعه من الاقتراب من صغارها.

تابع حمو طريقه باتجاه بيت عمه، لرفع الصخرة العملاقة التي على صدره.. كيف عليه أن يتصرف؟

عندما اقترب من بيت عمه، كانت حماته قد شمرت عن ذراعيها القويتين، تقوم بإعداد الطين المضاف إليه التبن والملح لترقيع الجدران، في الأماكن التي عرتها الثلوج والأمطار خلال الشتاء.

- الله يقويكِ عمتي.

ظلت منحنية، ولكنها التفتت إليه بوجهها الذي فيه قساوة، غير أنه ما يزال جميلاً، ردت التحية وتساءلت:

- أهلاً يا حمو.. متى عدت؟

فأجابها حمو بصوتٍ مترعٍ بالمرارة:

- في الصباح.. هل بهار والأولاد هنا؟

- لقد حدثتها يا حمو.. تمكث في الداخل.. لا تكف عن البكاء.. ترفض

الخروج وتقول: لو قتلتموني لن أقبل بذلك.. اقتلوني أفضل.. إنها تهدد بالانتحار، لقد ذهب عمك إلى بيت الملا علي من أجل ذلك.. تفضل يا بني، اذهب وحدثها.

انهالت عليه كل هموم العالم.. فتحدث كمن يكون بلا روح.

- بماذا أحدثها؟ بأي وجه يا حماتي؟ لا أستطيع.

بدأ يعود أدراجه.. فنادته حماته:

- إلى أين يا حمو؟ هل تناولت الفطور؟

لم يجب حمو بشيء، ولكنه هز رأسه، وتابع مهموماً باتجاه بيت الملا علي.

كان الملا وعمه جالسين على بساطٍ من اللباد، مُد على المرج الطري، تحت أشعة الشمس المشرقة، والتي أخذت أشعتها تتراقص على الخضرة التي لا تزال مخضبة بالندى، يرتشفان الشاي ويتبادلان أطراف الحديث، رحب به الملا، بقي عمه صامتاً، مرت فترة على هذا النحو حتى قطع الملا ذلك الصمت، نظر إلى حمو بعينيه العسليتين، كأنهما تنظران إلى البعيد من فوق جميع الأشياء، ومن تحت الشارب المقصوص قصاً دقيقاً، ارتسمت ابتسامة بدا لحمو فيها سخرية أكثر مما فيها من بشاشة، قدم له كأساً من الشاي الساخن، قائلاً:

- البارحة أخذوكم إلى إركند يا حمو.. أليس كذلك؟

أجاب حمو بحياء:

- ذلك صحيح حضرة الملا، لم أكن في القرية.. كنت على أطرافها.

- الشرك في الكفر والذنب.. ليس من الضرورة أن تفعل أنت هذا.. يا

حمو استيقظ، ألم تكن معهم؟ رحمك الله يا حاج أوصمان.

- ها..

سأل وهو يمسد لحيته:

- هل تعلم أين هم؛ يوسف وسرتاج ابن صديقك حسو؟

- البارحة خلسة سمعتها من ابن أختي.. وكانت معهم فتاة قادمة من المدينة وآخرون.

- انظر.. شباب في عُمر يوسف وسرتاج يفهمون أمور الدنيا، أما أمثالنا.. نحن.. ههههه.. فما زلنا في البداية، في القاع.. ما زلنا في الصفر لم نبرح مكاننا.

بقي حمو صامتاً لا يجيب، خطرت في ذهنه فكرة أخرى، جعلته يجعد وجهه وينطق ببعض الكلمات المبهمة، ثم عدل من جلسته وقال:

- الـ «بين باشي» طلب أخي خليل، وأخذوا حسو من هناك مباشرةً إلى سيرت.

- لماذا؟ سأله عمه.

- من أجل يوسف.. لقد حققوا معي أيضاً.. ظناً منهم أنني أنا من حرضه ليلتحق بـ«طيور الليل»[1] في الجبل.

- بماذا أجبت؟

- قالوا لي اطلب أخاك ليأتي ويعيد ابنه وإلا..

---

(1) طيور الليل: كان القرويين يطلقون هذا الاسم على وحدات الگريلا، تحاشياً لذكر الاسم مباشرة، باعتبار الگريلا يقومون بمهامهم ليلاً.

- وإلا ماذا؟

- ما أدراني يا عم؟ إنها دولة وتستطيع فعل ما تشاء، فقط لو تدرون ماذا فعلوا البارحة بأهل إركند.

- سمعت يا حمو.. وسمعت أيضاً عن أفعالهم يومَ هجوم مَن في الجبل على ثكنة مدينة (آروه - دهى) ودخولهم للمدينة أول مرة؟

ثم أضاف العم شمدين يقول بحسرة:

- يومها يا حضرة الملا.. لم يكن في كل هذه القرى، إلا مخفر صغير، فيه ستة مجندين فقط، كانوا موجودين في هذه القرية، يبدو أن «طيور الليل» بعد انتهائهم من عملية (دهى - آروه) انسحبوا باتجاه مرتفعات جبل هركَول من فوق قريتنا.

فقال الملا مؤيداً:

- نعم لي علم.. يقال: بعد عملية آروه جاءوا عدة مرات إلى بيت الراعي إبراهيم[1] رحمه الله، لا أعلم إن كان ذلك صحيحاً، لكنه يقال أيضاً: إبراهيم رحمه الله يومها كان خارج القرية وفي وضح النهار اعتقله درك مخفر القرية وكانوا هم المجندين الستة؟

أكمل العم شمدين:

- ذلك صحيح.. جردوه من ألبسته تماماً.. وانهالوا عليه ضرباً بعصي من شجر الزعرور الشوكي.. نعم كانوا فقط ستة جنود، ليس هذا

(1) الراعي إبراهيم كان من قرية "تريان" وعمر الهوتي كان من قرية "هوت"، كان لهما علاقات مباشرة مع أول وحدة گريلا في المنطقة وقائد الوحدة الشهيد معصوم قورقماز، منفذ أول عملية عسكرية ضد الجيش التركي في 15 آب 1984 على مدينة آروه.

فحسب بل جابوا به القرية، وهم ينهالون عليه ضرباً بتلك العصي، ثم أخذوه بتلك الصورة سيراً على الأقدام إلى (دهى- آروه).. كان يوجد في سهل كاتوس[1] المئات من بيوت الشَّعر للكوجر، يومها وانتقاماً اعتقلوا كذلك عمر الهوتي، وبعد أن فقد الراعي حياته بين أيديهم، رحمه الله، رموا بجثته من حوامة وسط تلك الخيم.

- يومها كنت في «به صارى روفيا - منحدر الثعالب» مع والدي، رحمه الله، كيف أنسى ذلك يا عم؟ أردف حمو.

- و البارحة جردتم إبراهيم آخر «حج أوصمان» رحمه الله.. أعطاكم عمره، أليس كذلك؟

مرّ بجانبهم ثور تساقط الشعر عن كتفيه.. بدون قرون وذو ذَنَب غليظ وطويل، نهايته تلامس الأرض، يسرح في الأرض المرجية المسطحة دون أي مبالاة لما يجري في هذه القرية.

قال العم شمدين:

- ها هو حمو موجود حضرة الملا.. علينا أن ننهي هذه المسألة، إن ابنتي تهدد بالانتحار.

- بهار مثل ابنتي وأعرفها، سأتحدث إليها بنفسي.

ثم وجه الكلام إلى حمو:

- يقول عمك.. أن نزوج بهار لـ«ديكو» يا حمو، ماذا تقول؟

---

(1) سهل كاتوس: عبارة عن أرض شبه منبسطة تقع بين سلسلة قمم جبل جاجى وبين قمة " كَرى نيسكا" إلى الجهة الشمالية الشرقية لمدينة آروه.

- مَنْ؟ ديكو..؟!

تدخل عمه:

- يا بني.. إن ديكو وحيد بلا زوجة أو أولاد.. ثم إنه على بركة من أمره، نستطيع أن نعطيه بعض المال كمساعدة له، ونشترط عليه أن يطلقها في اليوم التالي، وبعد أن تكتمل مدة العدة الشرعية.. نعود لتزويجك إياها، ماذا تقول؟

كان جواب حمو الإيجابي، مفاجئا وغير متوقع، عندما قال:

- كما ترون يا عم.. أنا لا مانع لدي.

- إذن لنتوكل على الله وعلى الملا. قال العم شمدين.

- التوكل على الله يا حج شمدين، سأتولى الأمر، وسأتحدث اليوم مع بهار بنفسي، وبعد صلاة المغرب سأذهب إلى ديكو وأفاتحه بالأمر.

- على بركة الله مولانا. قال العم شمدين.

نهض الملا ليرافق العم شمدين للتحدث إلى بهار دون أن ينتظر صلاة المغرب، وهم واقفون سأل حمو:

- و لكن يا عمي، بخصوص الأطفال.

- لا عليك.. سيبقون عندنا، عدة أيام حتى تعود أمهم.

- لقد تحدثت مع خليل هاتفياً، ولكني لم أخبره بالأمر، وكما فهمت منه إنه سيأتي قريباً، أستطيع أن أرسلهم معه، لن يرفض،أما بالنسبة لـكَرناس فليبقَ معي.

أجاب العم شمدين وقد فرغ من احتساء كأسه التي بين يديه، ثم

قرفص ليضعها بجانب الكئوس الأخرى على طبقٍ صغير:

- إنهم أبناؤنا يا حمو لا عليك.

- ..أ..

تركهم حمو.. بينما نادى الملا زوجته يطلب منها العمامة والجبة.

عندما أصبح حمو خارج القرية، أحس أن روحه تدفعه للانطواء على ذاته والانفراد، مر بوادٍ كان الجبل فيه متصدعاً، مالت صخرتان عملاقتان من الطرفين لتلتقيا فوق الجدول، مشكلتين جسراً يكاد يكون المعبر الوحيد بين طرفي النهير.

عندما يبدأ ذوبان الثلوج.. وبالأخص من الجهة الشمالية الشرقية من القرية، بجانب قرية (تال) المهجورة.. توجد مغارة، كما يقال، تؤدي إلى جوف جبل هركول حيث على شكل بحيرة، في بدايات أيار من كل عام تنفجر المياه من تلك المغارة، محدثة صوتاً قوياً كانفجار، عندها يتحول هذا النهير إلى نهرٍ جارف، الجدول الذي قطعه حمو، ما كان إلا فرعاً عن النهير الرئيسي، رغم ذلك فسرعة تدفق المياه وهديره يصم الآذان، يوحي بأن مياه بحر بأكمله تمر من هذا الوادي.

انهارَ قسمٌ من سَفح الجبل تاركاً منحدراً يكاد يكون جداراً عمودياً، تابع طريقه على حواف الصخور القريبة من الماء، كان يخشى أن تدفعه الشجيرات الشوكية إلى الماء، لحظات ووصل إلى قمة الجرف الصخري.. حيث الوادي المكسو قاعه بالعشب النضر وأشجار الصفصاف الأخضر، الذي يمر به النهير الصغير.. منذ مجيء الثكنة إلى القرية وتشكيل مجموعة

حماة القرى فيها، بقيت حقول هذا الوادي الخصب مهجورة، تنمو فيها النباتات البرية والأشجار بأنواعها، التي ترسل تحتها ظلالاً قاتمة، الطرق تتلوى وتنعطف وتصعد وتهبط، فوق الوادي كانت تنتشر غلالة في بدايات حرارة الصيف.. في قاع الوادي كان الخال مامند الوحيد يصارع البقاء والحفاظ على حقله، يفلحه بالثيران.. من أين لـحمو أن يدرك أنه من أجل هذه الأرض أول من أوجد المحراث الذي كما هو عليه، وأول من روَّض الحيوان واستخدم طاقته.. إن الخال مامند هو بذرة التاريخ الماضي الحاضر.

أما الجو، فقد امتلأ برائحة الغابة، وسط الغابة تداخلت أشجار البلوط والسنديان، الزعرور والكوزن.. إضافة إلى الكثير من الأشجار التي لا تعد ولا تحصى، إلى الأسفل كانت الحمائم البرية قد حطت في نسقٍ طويل على سياج حقلٍ مهجور صامتةً ساكنةً، على بعد عشرات الأمتار من خلفه في جوف الغابة شاهد فراغاً على شكل بحيرة خضراء من المرج، ما إن وصل إليها، شعر بنوعٍ من السكون والهدوء والارتياح، كأنه قصد المكان بالذات، وقد جمع طاقته لهذا الهدف، ما إن وصل لم يجلس وكأنه انهارَ، تمدد على الفور وغطى جبهته بظهر يده اليمنى، أما اليد الأخرى، فقد تركها ممددة، لو أرسل يده اليمنى مثل الأخرى، سيقول من يراه إنه بدون روح.

عدة نسور تحلق فوقه في السماء، حط سرب من الغربان على الأشجار من حوله، وهو بدون حراك، بدأت النسور تخفض من تحليقها، وهي

تراقب ذلك الجسد، الغربان تشحذ مناقيرها، ألا تزال فيه روح، أم وليمة عامرة؟ بينما حمو غارقٌ في مصيبته، لا يدري ما يجول من حوله، هنالك من يشحذ مناقيره، استعداداً لالتهامه وهو ما يزال حياً، بصورة مفاجئة وبلمح البصر، حلق نسرٌ مثل السهم من فوقه، كادت جناحاه أن تلامس صدره، بهلع قفز جالساً كمن استيقظ على أثر حلمٍ عميق ومخيف.

ماذا جرى؟ مرت ثوان، تناثرت أفكاره يراقب ما حوله، سرب من النسور في السماء والغربان من حوله، نعيقها يملأ الغابة، يبدو أن النسور فقدت الأمل، عادت إلى التحليق في أوج السماء، الغربان بدأت تبتعد، نهض متوتر الأعصاب ومن حوله همهمة الجنادب وطنين النحل، جلس يلف سيجارة من كيس التبغ الذي يشبه أكياس النقود القديمة، الفارق أنه كيس من القماش الشفاف، ليكون بنفس الوقت كغربال، يغربل التبغ ويتخلص من الناعم.

ماذا جرى لك يا حمو؟ حتى الطيور تريد التهامك، وأنت ما زلت على قيد الحياة، تحوم من حولك، مستعدة للانقضاض عليك، كل شيء يحوم من حولك.. ماذا بقي لك؟ لقد التُهِم كل شيء من حولك.. أصبحت كشجرة عارية، نُفِضت أوراقها ثم قُطِعت أغصانها، ينفخ دخان سيجارته، فيخرج ملء منخاريه، ويعلو من خلال شاربه على شكل كتلٍ من سحاب، سرعان ما يتبدد في الهواء كالضباب.

وسط الغابة، وقع نظره على جذع شجرة قاتمة السواد، يبدو أن صاعقة ضربتها وجعلتها كقطعة فحم، بقيت هكذا منتصبة بدون حياة،

«أصبحتَ مثل هذه الشجرة العارية.. أنت مثلها يا حمو.. مثلها تماماً، ماذا بقي لك»؟

طارت أفكاره بعيداً كسرب حمام، هذه هي طبيعة الإنسان، عندما يفقد كل شيء، بدأ بتنسيق أفكاره على آمال جديدة، وهو يقول: تلك الشجرة ماتت ولم يبقَ فيها روح يا حمو.. أما أنت فما تزال أمامك سنوات لتعيشها، كلها بضعة أيام وستعود بهار ثانية، ويلتم الشمل، بعدها سأبتعد عن تلك الطرق، حتى لا أقع في أيديهم مرة أخرى، ماذا أفعل؟ أريد مثلاً إعادة البندقية؟

ولكن ماذا بقي لي؟ كيف سأعيش أنا وبهار والأولاد؟ لقد كنت السبب في بيع القطيع والجواميس، الأبقار.. هجرت حقولي وأرضي والبعض منها بعتها بأبخس ثمن، لم يبق شيء في هذه الحياة يعيلني غير راتب هذه البندقية، وإذا حدثت مواجهات معهم في الجبل، لن أطلق النار على الهدف.. سأسير مرافقاً للجنود، مجرد واجبات روتينية فقط، سأنتظر بضعة أيام، لن تخرب الدنيا يا حمو.. ستعود بهار ثانية.

عندما قام ليعود إلى بيته، كانت الريح تلعب بالأشجار الباسقة بمزيد من العنف شيئاً بعد شيء، أخذت طيورٌ كبيرة تدور حول أعشاشها مُصدرة صيحاتٍ حادة، كان كَرناس ينتظره في البيت، جالباً معه الغداء الذي أرسلته معه جدته «عواش»، وها قد حان وقت العشاء.

– بابا.. أين كنت حتى الآن؟ قالها في شبه عتاب.

نظر حمو إلى وجه كَرناس، كان شعره ينسدل على جبينه كأنه عُرف مُهر

صغير، وجهه ينم عن الحزن والاستياء، نظراته تقدح شرراً وهي موجهة إليه، فلم يحتمل نظرات ولده، فأدار نظره إلى طرف آخر.

- بابا.. أصحيح ما يقولونه؟

- ماذا يقولون؟

- كل أطفال القرية يتحدثون.

- عم يتحدثون؟

- بابا.. اليوم لم ألعب معهم، لم أستطع، إنهم يستهزئون بي..

وانسلت الدموع من مقلتيه، بينما كانت الدموع في عيني حمو قد بلغت أوجها، وتعرّق جبينه، ووصلت الغصة إلى حلقه، عرف ما يقصده ولده كَرناس، لذلك بقي صامتاً دون جواب.

- بابا.. لماذا ذهبت أمي إلى بيت جدي وترفض العودة إلى بيتنا؟

- لا أعرف.. لا أعرف دعني وشأني يا كَرناس، دعني أريد أن أذهب للنوم.

- الوقت ما يزال مبكراً يا أبي، الشمس لم تغب بعد.

توقف الاثنان عن الكلام، وكأنهما فقدا القدرة ونسيا اللغة، قال كَرناس بصوتٍ مخنوق:

- الأطفال كانوا يستهزئون بي وينادون معاً «أبوك سيزوج أمك..»، «سيزوّج حمو زوجته.. زوّج حمو زوجته»، ماذا يعني ذلك يا أبي؟ «زوّج زوجته»؟ لم أفهم.. إنهم رفضوا اللعب معي.

فأجاب مجبراً:

- لا أعرف يا بني.. لا أعرف.

- عندما كنت عائداً إلى البيت عند النبع، النساء أيضًا كن يتهامسن: «هذا هو كَرناس»، وقالت إحداهن: «أبوه سيُزَوِّج أمه بهار»..

- كفى يا كَرناس، هذا كافٍ.. ارحمني يا ولدي أرجوك.. كُفَّ عن أسئلتك.. لماذا جئت؟ اذهب إلى أمك.. اذهب إلى هناك.. هيا..

استغرب كَرناس ما آل إليه، لأول مرة يراه في هذا الحال، خاف أن يتحول كلامه إلى صفعة، فتركه، وما إن ابتعد إلى خارج السياج المجدول من أغصان الأشجار، حتى انفجر بالبكاء، ركض بسرعة عائداً نحو بيت جده.

بقي حمو وحيداً، دخل وأغلق الباب وراءه، في الخارج غطت الظلمة مرة أخرى قمم هركَول، وعمت أرجاء الكون، بعد أن ودعت تلك القمم نور الشمس في لحظاتها الأخيرة، كما قامت في الصباح باستقبال رسالة الشمس ونشرها.. الآن بدأت بلَمّ ما قامت بنشره، وتسليمها لصاحبة الرسالة ثانية، لتمكث وتغلق الباب وراءها بإسدال ستائر الظلام كما فعل حمو.

- 10 -

عندما وصل كَرناس فناء الدار عائداً، وهو يهم لصعود الدرج، سمع نحيب والدته من الداخل وهي تصرخ:

- لا.. لا أمي.. اقتلوني.. سأقتل نفسي.. لن أقبل.

بهار بصوتٍ شبه مخنوق وهي تبكي، تصرخ وتذرف الدموع، شعرها تمرد على منديل رأسها وانسدل على وجهها.. ليشاركها التمرد على الواقع المفروض عليها، ذلك الشعر الفحمي اللون، كذلك يعلن الحداد لمأساة بهار.. إضافة إلى امتناعها عن تناول الطعام.. وهل بقيت لديها شهية لتناول شيء؟ لم يبق لها رغبة لتكمل الحياة، لبست السواد رغم أنها تعتبر عادة مكروهة لدى النساء الكرد، ربما هي مكتسبة من دين الأجداد، كالكثير من العادات التي لا تزال تحكم حياتهم.. من الإيزيدية والزردشتية، بينما والدتها عواش تروّح عنها، وتحاول بشتى الطرق أن تواسيها وتهون عليها:

- يا ابنتي.. من أجل هذا الرضيع.. يومان ولم تأكلي شيئاً، ماذا سيرضع الطفل؟! حرام عليكِ يا ابنتي.

توقفت بهار للحظة عن النحيب ومسحت دموعها بطرف منديل

رأسها، أعادت الشعر المتمرد إلى مكانه، لتدخل في تفكير يشبه لون ذاك الشعر، بماذا تفكر؟ ما الذي يجب أن تفعله؟ لا تريد أن يتحدث إليها أحد، شحب وجهها من فرط القلق، انطفأ البريق في عينيها، بدت كأنها تعاني من مرضٍ خفي.

توجهت إلى غرفة النوم، انطوت في زاوية من الغرفة، كانت تشعر بثقل وألم لا يحتملان في معدتها، يرن في رأسها الكثير من الأمور، تشعر أن عينيها لا تريدان أن تريا شيئاً، انطبقت أجفانها على عينيها، وكأنها لم تعد تقوى على رفعهما، ألقت برأسها فوق أقرب وسادة، كمن يريد النوم والنعاس يخدره.. هيهات يا بهار.. أي نوم؟ ما إن وضعت رأسها حتى شعرت بجمجمتها تغلي كمرجل، آه يا بهار.. اللعنة على اليوم الذي ولدت فيه، أي حياة نعيشها نحن النساء! أي حياة عشتها حتى الآن! لم أهنأ بيوم في حياتي.. آه يا بهار يا عاثرة الحظ!

كأن شيئاً ما نثرَ أفكاراً وذكريات وأحلاماً في رأسها، بدأت تتذكر ذاك الشاب، يوم التقيا أول مرة وأحبا بعضهما، كان ذلك في منتصف قمم هركَول (دشتا سورى).. لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذي تأخرت فيه إلى أن انتهت من حلب الماشية، وسبقتها زميلاتها، وهي تعود:

«كانت صدفة.. صدفة.. وهل كانت كذلك؟ أم أنني تقصدت التأخير كي ألتقي به؟! آه يا «ألند.. **Elend**» لقد كنت فعلاً مثل «نور القمر»، أين هو الآن؟ الله أعلم.. كل ما أعرفه أنه منذ سنوات تزوج، الآن لا بد أن له أطفالاً.. لم تكتحل عينيها برؤيته منذ اليوم الذي أجبروه على ترك

القرية كالكثيرين، عندما رفض حمل سلاح الأتراك.. ألم يكن أفضل لو أن ذلك قد تم؟ لو لم يجبرني أهلي على الزواج من حمو، لكنت الآن معه وما كنت في ما أنا فيه».

الدوامة التي في رأسها مستمرة، عالمها المنفصل يتخبط في أعماقها، «ليت الحياة كانت دائماً كتلك اللحظات يا ألند، كيف أمسك بيدي، ويدانا ترتجفان.. قلبي كان يدوي.. كيف مرت الساعات خلف تلك الصخور وكأنها لحظات.. يومها لأول مرة سمعت مثل تلك الكلمات من شاب.. وكيف كان يحرجني لأقول وأكرر تلك الكلمة؛ أحبك..أحبك..».

رغم مرور السنوات عندما كانت بهار تتذكر تلك اللحظات، تشعر بأن قلبها يدوي بتلك الدقات نفسها، ويحمرّ خداها.. خاصة عندما لامست شفتاه خدها.. كيف تواعدا على الزواج، «آه.. لم يتحقق ذلك.. كنت مستعدة للهروب معه.. ليخطفني، حتى في ليلة زفافي، ولكن للأسف لم يكن في القرية.. نعم، لم تكن بيده حيلة، لسوء حظي يومها كان لا يزال معتقلاً.. حظك أسود يا بهار.. أسود، عندما أفرج عنه كان الأوان قد فات، يومها كان فوق سطح منزلهم، نظراتنا لم تفترق ودمعت عيناه، وأنا إلى الآن لا تزال تلك الحسرة تدمي قلبي، كيف وقفوا عائقاً بيننا»؟

تذكرت ودموع الحسرة تتدحرج على الوسادة، وكأن ما حدث يحدث الآن، الحسرة التي كثيراً ما تُكبت، وتُخنق مثيلاتها في نفوس فتيات كردستان، كالشمس التي تسحبها أيدٍ سوداء شريرة، بخيط واهٍ ما وراء الأفق، والتي تبدأ كما تبدأ الشمس بالسطوع، ذهبية وديعة فوق أفقٍ مشع

بالألوان، سرعان ما تتحول إلى حسرات مدفونة في أغوارهم، مرافقةً إياهم حتى القبر، مجرد ذكريات ممزوجة بالمرارة والكآبة.. كم من العشاق لم يحتملوا ذلك وانتهت قصصهم إما برمي أنفسهم في الأنهار أو من أعالي الجبال أو شنقا.. أو.. أو.. حتى أضحت هذه الجبال أرض المآسي!

«ماذا وماذا يا بهار؟ ماذا أقول؟ كل ذلك مضى.. هل أفعل مثل «كُلنار.. Gulnar» أتجرع السم وأنهي كل شيء.. أضع حداً لهذه الحياة؟ ولمَ لا.. لمَ لا؟ بعد كل هذا لم يعد هناك معنى للحياة.. وهل بقي لها طعم؟ لم أعد أطيق العيش يوماً آخر».

كانت قطرات من دموعها المنسابة تنتفخ فوق خديها، عندما قامت متوجهة نحو الزريبة، كان يبدو كل شيء من حولها أشد كآبة وجهامة وشؤماً، قررت أن تحذو حذوَ كُلنار.. تذكرت الكيس المليء بالمادة السامة التي لا تعرف اسمها، كل ما تعرفه أنه مع بداية الربيع يتم استخدامه في رش أرضية الزرائب لإبادة البعوض والبراغيث وغيرها من الحشرات التي تكثر عادةً مع بداية هذا الفصل.. رشت والدتها بعضاً منه هذا الصباح.

«جرعة واحدة.. واحدة تكفي.. إذا لم أستطع تحمل الألم وكبت أنفاسي.. هناك لن يسمع أحد أناتي وآهاتي».

مدت بهار يدها إلى فتحةٍ صغيرةٍ في جدار الزريبة، أسفل السقف بقليل، وأخذت ملء كفها من تلك المادة القاتلة، بعد أن حلت عقدة الكيس، وهي تنظر إليها «إنها أنعم من الدقيق، ولونها أبيض ثلجي».. بدا وكأنها

تستغرب وتستهزئ من هذه المادة وهي تنظر إليها.. كيف لهذه المادة الناعمة الثلجية في بياضها، أن تكون سامةً وقاتلة؟

كانت تشعر بكامل شجاعتها.. وقع الكيس من يدها، وتبعثر البعض منه أرضاً، انزلق منديلها الذي كان يغطي رأسها، وعاد شعرها إلى التمرد، رافعاً العلم الأسود فوق هامتها.. أغمضت عينيها وتباعدت شفتاها لتفسحا الطريق، ليصبح الطريق مفتوحاً إلى جوفها.. شعرت برغبة في تذوقها أولاً.. أي طعم لها؟ لكنها تراجعت عن ذلك.. «لِمَ التذوق؟ كُلنار تجرعت نفس المادة.. لا داعي.. هيا يا بهار.. هيا..».

أخذت نفساً عميقاً، إنه النَفَس الأخير، الذي تشهق به في هذه الدنيا. شهقة بمثابة وضع حد لتلك الشهقة الأولى، التي رافقتها صرخات ولادتها، دون إرادتها، تلك الشهقة لو كانت بإرادتها لندمت على فعلتها، ذاك النفس الأول من هواء هذا الكون.. الشهقة الأولى لم تكن بإرادتها، ولكن وضع حدٍ لها وهذه المرة، بكل تأكيد سيكون بملء قناعتها وإرادتها.. ودون أي شك، ليس من حق أحد أن يتدخل في الأمر.

لأول مرة شعرت في حياتها، أنها حرة.. حرة في اتخاذِ قرارٍ.. ولكن ما هو هذا القرار.. إنها الآن حرة.. حرة فقط بأن تضع نهاية لتلك الشهقة.. لأول مرة وفقط لوضع حد لحياتها تكون حرة.. تنفست نفساً عميقاً لتنهي استنشاق أوكسجين هذا الكون اللعين.. القذر.

تركت يدها الأخرى تنسدل بكل حريتها، بدا أنها أسلمت الروح قبل أن تتجرع الجرعة، رفعت راحة يدها المليئة وبدأت اليد ترتفع وترتفع،

وهي تحاول السيطرة على الارتعاشات التي تنتابها، قربت كفة يدها حتى لامست شفتها السفلى تماماً.. كل ما عليها الآن، هو أن تقلب يدها كمغرفة السمان، تفرغها في فمها.

«هيا.. هيا.. لماذا تنتظرين؟ بسرعة..». قالت وهي تستجمع قواها.

بدأت أنفاسها تلهث وكأنها تصعد في أحد منحدرات هركَول، فجأة عم الأجواء صراخ.. صراخ الرضيع:

«وآه.. وآه..».

ماذا كان يقول؟ لماذا صرخ؟ ولماذا الآن..؟ هل هي قدرة ربانية، أنه شعر بما تنوي أمه القيام به؟ تتركه هكذا محروماً من دفء حضنها.. وثدييها المعطاءين اللذين ينبع منهما ماء حياته؟ أكان يناديها في صرخاته تلك..يرجوها «لا تفعلي ذلك.. لا يا أماه؟» أم كان يطلق إشارة الخطر، ينادي ويصرخ في وجه الآخرين، الذين كانوا سبب ما تريد أمه القيام به؟ يصرخ ويلعنهم «لماذا لا تكفون عن ذلك؟ لماذا لا تدعون أمي وشأنها؟ أيها الملاعين.. اللعنة عليكم وعلى شرائعكم.. اتركونا نرتاح ولو ليوم واحد.. لا تتدخلوا في حياتنا.. أنا الرضيع تتلاعبون بمصير الحضن الذي يحميني.. الويل لكم.. اعتذروا لأمي لتمتنع عما تنوي فعله الآن.. هيا أيها الملاعين».. أم إنه كان يهددهم بأنه لا بد أن يأتي ذلك اليوم، الذي سيكبر فيه.. لا محال سينتقم من الذين يفرضون شرائعهم على أمه.

تلك الصرخات المؤلمة، بدت كالصهيل في دماء الأم.. صوت يدق في العصب، مع كل نبضة كالرنين، يعلن عن آلاف الأمنيات التي ستخضر

على جنبات صدرها.. تجسدت أمامها البسمة، التي ترتسم على شفتيه، موزعاً نظراته ذات اليمين وذات الشمال، كأنه زهرة نامية تتراقص في مهب النسائم.

شعرت بأن موجة من الارتعاش دبت في كيانها، كانت قشعريرة مثل سيلٍ كهربائي يسري في جسدها، بقيت يدها متحجرة تلامس شفتها، داهمها التردد.. أتستمع إلى النداء الذي بداخلها، نداء داخلها المكره على ما تقوم به؟ نعم مكره.. إنهم لا يحلون حبالهم عن رقبتها، لكونها امرأة، أتدفع بيدها وتفرغ حمولته، لتضع حداً لهذا التعذيب؟ أم تستمع لنداءات الرضيع الذي يستنجد؟ لا بد أنه افتقدها.. يناديها.. يريد ثدييها.. لا بد أنه جائع.

«هيا يا بهار قرري.. قرري.. إلى من أستمع؟ لو فرغتها في جوفي، ماذا سيكون مصير صرخات هذا الملاك؟ ينادي مَنْ؟ من الذي سيضع حداً لهذه الصرخات؟ إذا لم أكن أنا، من إذن؟ لا يا بهار.. لتدوي الصرخات التي في داخلك.. أستطيع التحمل، ولكن صرخة واحدة من صرخاته، تساوي الدنيا بما فيها.. لا..لا.. من أجل أن أوقف تلك الصرخات يجب أن أمتنع عما أريد القيام به».

بدأت راحة يدها ترتخي مبتعدة عن شفتيها نحو الأسفل، وكلما ابتعدت يدها كانت شدة الصرخات تخف حتى زالت، عندما أفرغت كل ما بيدها على الأرض، دون أن تنظر أين أفرغته، شعرت أن الصرخات كانت تصدر من أحشائها، لا من مكان آخر.

نفضت راحة يدها بلمسات متثاقلة على طرف ثوبها، ثم مسحت شفتها التي لامست المادة القاتلة بطرف منديلها، حدقات عينيها كانت قد توسعتا بصورة جنونية، أعادت منديل رأسها لتغطي راية الحزن، وبدأت تمسح الملامح الوحشية التي بدت على تقاسيم وجهها وعينيها بأحد أطرافها، خرجت متوجهة إلى الرضيع بينما كانت قد قررت أمراً آخر.. حلاً آخر ينقذها وينقذ الرضيع.

في صباح اليوم التالي، بينما كان حمو يعود من الطاحون، أسفل القرية من جهة الغرب، وهو يتبع فرسه المحمَّل تاركاً له العنان، جاءت «حافلة صغيرة» زرقاء داكنة، متوجهة نحو القرية، قادمةً من مدينة «سيرت»، ما إن وصلت إلى حمو وسبقته بقليل حتى توقفت، ترجل منها السائق، الذي كان يوماً من أعز أصدقاء حمو، في سنوات الطفولة والشباب، منذ أكثر من ثلاثة أعوام قاطعه، لا يتحدث إليه، فقد اتخذ قراراً في نفسه بمقاطعة كل من يحمل سلاح الأتراك، فهو لا يسمح بركوب «حماة القرى» سيارته، ولو قتلوه، ولم يتنازل عن قراره هذا وإلى اليوم، رغم تعرضه للتعذيب والاعتقال عشرات المرات، هو معروف ليس على مستوى القرية فقط، بل في المنطقة أجمع، من لا يعرف السائق «سيامند»؟

اندهش حمو لهذا التصرف من سيامند، بداية اعتقد أن توقفه لم يكن لأجله، ربما لأمر آخر، لذلك تابع دون أن ينظر أو يلتفت وكأن شيئاً لم يكن، أوقفه سيامند منادياً بصوتٍ آمر ودون أي مقدمات:

- حمو.. حمو.. لا تعتقد بأنني سأتخلى عن مقاطعتك.. لكن الأمر لم يعد

يُحتمل.

هدير محرك القافلة يعلو، حمو يتقدم نحوه ليسمع ما يقول.

- ماذا قلت يا سيامند؟

عندما اقترب حمو، تابع سيامند قائلاً:

- ألم تعد تخجل من نفسك؟ ألا يكفي كل ما فعلته حتى الآن؟ اللعنة عليك وعلى اليوم الذي أصبحت فيه من الـ«جتى» وعلى أفعالك، ألم يبقَ فيك حياء.. ألم يعد فيك ولو ذرة من الشرف؟

احمر وجه حمو، عندما سمع سيامند يمطره بتلك الكلمات، أمام جميع الركاب، دون أن يعلم السبب، اعتقد أنه ربما يحدثه بسبب أوضاعه الأخيرة، وأنه هو من يرفض التخلي عن سلاحه، أو ربما عن ما جرى في قرية إركند، حمو لا يزال يكن له كل الاحترام، فأخذ الأمر من مبدأ الاحترام، هذا دون أي رد مبتذل، ولو صفعه لَمَا ردّ، لأنه بلا شك يستحق ذلك، لكن كانت هناك رغبة جامحة في داخله ليعلن وليسمع الركاب بأنه أراد تسليم بندقيته، أراد أن يصرخ: «عذبوني ورموني مثل الكلاب.. ألا تعلمون ذلك؟ ارحموني». لكنه كبت تلك الرغبة وتساءل.. «ربما هنالك من جديد».

- ماذا هناك يا سيامند؟ لقد حفظت هذا الدرس جيداً.. يكفي، ألست في القرية؟ ألم تعد تعرف ما أنا فيه؟

- بالله عليك ما الذي أنت فيه.. ماذا؟ كيف تفعل ذلك؟

- ماذا فعلت أيضاً؟

- أتضربها أيها الوقح؟ بهار الوحيدة التي سلمت من أفعالك.. ماذا فعلت المسكينة حتى تطردها؟ ألا تخجل؟ تقوم بضرب المسكينة؟

- ما قصدك يا سيامند.. أنا لا أفهم.. ماذا تقصد بكلامك؟ بهار والأطفال في بيت والدها.

- بيت والديها؟! أليس لك علم بأن بهار هربت.. هربت من أفعالك، امرأة تقطع الطرق والبراري لوحدها.. امرأة لا يرافقها سوى رضيعها.. وطفل في عمر كَرناس، ماذا يستطيع أن يفعل إن لاقَاهم ابن حرام؟ وما شاء الله.. كم هم كثر.. منذ أن.. ».

من نظراته فهم حمو ما يقصد.. بينما من داخل السيارة تطالعه الوجوه المكدودة، لم يدع سيامند يكمل كلامه، لم يدعه أن يكمل، فور سماعه كلمات «هربت.. طرق.. براري.. وحدها»، ثم استدرك في خجل وتساءل مكرراً:

- ماذا تقصد.. بهار تركت القرية؟ أين ذهبت؟! لا علم لي بذلك.. أقسم لك.

- لا علم لك؟ صادفتها في الطريق كانت متجهةً نحو إركند، فعدت وأوصلتها إلى هناك.. كانت تصرّ على أن أعود لأخذها إلى مدينة سيرت، أو مباشرة إلى أضنة عند خليل.

- أعوذ بالله.. بهار.. تفعل هذا؟ ألم يكن معها أحد.. والدها أو والدتها؟

- لا.. معها الرضيع ويرافقها كَرناس.

- البارحة كنت في بيت عمي.. لا أدري كيف تقوم بذلك.. لو كان

عمي يعلم لما تركها تذهب لوحدها.. أين هي الآن؟

– في بيت أختك نازى.

كانت فرسه قد سبقته إلى القرية، فبدأ يهرول للحاق بها، بينما سبقتهم السيارة إلى أحشاء القرية تجوب أزقتها.

ما إن أنزل حمو حمل فرسه، ودون أن يدخلها الإسطبل، ربطها بطريقة عشوائية في أرض الدار، أسرع إلى بيت عمه، بينما السماء ترش الأرض بزخات خفيفة ناعمة، وبدأت الصواعق من برقٍ ورعد تتداخل فوق قمم هركَول، مصدرة دوي انفجاراتٍ متقطعة، وبعضها همهمات مكتومة، رغم الأجواء التي بدأت تمطر، خرج العم شمدين ومعه زوجته «عواش».. وقد علما بمحاولة انتحار ابنتهما، عندما دخلت عواش الزريبة، وشاهدت كيس السم المرمي أرضاً، وقد حُلَّ رباطه، ففهمت الأمر، وحدثت بهار.. التي أنكرت ذلك في بادئ الأمر.

لم ينته سيامند بعد من طعام الغداء، عندما أجبره شمدين على إيصالهم إلى إركند فوراً، لم يرده خائباً، رغم تعرض السيارة لتزحلقٍ خطير، فالأرض أصبحت ملساء لزجة تحت عجلاتها، الطريق ترابيٌّ غير معبدٍ بالإسفلت، تنغرز فيه عجلات السيارة، فيلامس سافلها الأرض أحياناً، وتخرج بصعوبة من الحفر المليئة بالمياه والطين، بعد دوران العجلات في مكانها للحظات.

تتشبث بهار بما نوته، أن تتوجه إلى أضنة أو تنتظر هنا، إلى أن يصل الخبر إلى خليل ويأتي، رغم الرجاء إلا أنها لم تعد ترى ملجأً ينقذها إلا خليل،

لينجيها وأطفالها مما هي فيه.

صعدت بهار السيارة مكرهة كالعادة وغير مقتنعة، وهي تبكي بكاءً مريراً، تتفتت لها الأفئدة، الآن لا ملجأ لها سوى سلاح المرأة الأبدي، ألا وهو البكاء، والدتها عواش تشاركها.. وماذا تفعلان غير ذلك؟ وهي تقول:

- يكفي يا ابنتي.. نحن لسنا في قريتنا.. يكفي.. لا تفضحينا أمام الناس.

- و هل بقي من شيء؟ أي مستور يا أمي؟ اقتلوني.

رغم نضارة الربيع ونقائه، البريق الذي يكسو الطبيعة وكأنها مقدرٌ لها أن تكون هكذا، لتروّح قليلاً عن بهار وتسهل عليها حالتها المعاكسة لذاك البريق تماماً، فهي تنتحب والسماء تنتحب، تنهمر دمعة من مقلتي بهار فتنهمر ملايين الدموع من مقلتي السماء، تصرخ بهار مرة فتصرخ السماء رعوداً، ثم تتخللها لحظات من الصمت وهي تناجي نفسها:

- لماذا ولدت امرأة؟ يا إلهي لماذا خلقتني امرأة.. لماذا؟ اللعنة علي وعلى جنسي الذي لا حول له ولا قوة، ماذا نحن؟..نعاج؟ خرفان؟ أم أبقار؟ ما دمنا الغصن المحطم، لماذا لا نموت؟ فالأغصان المحطمة تموت.. يحرقونها في المواقد أو في العراء.. قسماً هو كذلك.. ألا نحترق؟ إنهم يحرقوننا في مواقد المآسي والحسرات، ها هم يعاقبونني.. يقولون نفس الكلام.. أنتِ امرأة.. عيب.. كيف تفعلين هذا وذاك؟ (عيب).. منذ أن وعيت وأنا أسمع هذه الكلمة.. «عيب.. عيب.. لا تفعلي كذا.. عيب

لا تخرجي بهذا الشكل.. عيب لا تجلسي هكذا.. عيب لا تأكلي هكذا.. عيب.. عيب.. كلنا أمرٌ معيب، كل ما في الأمر أن هذا هو قدرنا.. وما عليَّ إلا أن أخرس، يا إلهي لماذا تخلقنا»؟

كانت بهار لا تزال في دوامتها تنتظر مصيرها، بل صفحتها الجديدة، عندما وصلوا إلى القرية، كانت الشمس قد برزت من وسط الغيوم بوجهها الكئيب، لتعلن عن هزيمتها، بدأت تودع سفوح هركَول، وتجاهد على مضضٍ كي تلملم ذيولها، ساحبة ضياء عينيها، كما تلملم بهار ذيول خيبة آمالها.

- 11 -

أخفض ديكو فتيل الفانوس قليلاً، كانت تصدر أحياناً دخاناً قاتماً، مغطية النصف الأعلى من بلورتها بطبقة من الشحوار، تفحصها ليتأكد إن كانت هناك حاجة لينزعها وينظفها من جديد، كان نورها لا بأس به، تضيء الغرفة بشكل جيد، لملم مائدة عشائه المتواضع ووضعها بجانب الباب من الداخل، دون أن ينسى أن يلقّن المدفأة حطباً، جلس على قطعة من اللباد شبه مهترئة، دس الناي في جيب سرواله المعلق، وأخرج مذياعاً صغيراً من جيب سترته، ذلك الراديو قيمته مثل بندقيته، التي حصل عليها مؤخراً، بدأ يغير توليف الموجات حتى استقرت على صوت إذاعة يرفان الكردية، فكان صوت (شفان برور) يغني أغنية «مَنْ نحن _ Kîne Em»، ثم تواصل صوت «مريم خان» العذب يصدح.

يستغرق في الاستماع، كمؤمنٍ خاشع يستمع إلى تلاوة تراتيل صوفية، يتابع سماع الأغاني كلمة بكلمة، ومنذ أن حصل على هذا المذياع يكاد لا يفوت على نفسه أيا من برامج هذه الإذاعة، هو لا يجيد إلا الكردية، لا يفهم لغات الإذاعات الأخرى، أغاني فولكلورية ثم برامج التعليق على الأحداث، هذه الليلة بعد أن انتهى من سماع الأغاني، لم يتابع التعليقات،

تفكيره أصبح في مكانٍ آخر.. فيما حدثوه اليوم.. راودته أفكار شبهات وشكوك بالأمر، ولا يفهم لماذا حدثوه هو بالذات؟ قال لنفسه: «إن جميع من أعرفهم من أقرباء وغرباء لا يكنون لي عاطفة محبة ولا حتى شعور العداوة، لماذا اختاروك أنت بالذات يا ديكو؟ أليس في هذه القرية رجال غيرك»؟

«يوم..أو عدة أيام.. يجب عليّ أن أطلقها ثانيةً! إذا كانوا يريدون الخير لي لماذا لا يزوجونني فتاة من فتياتهم، ولو كانت أرملة.. زواجاً دائماً؟ لم اختاروني أنا؟ فالقرية مليئة بالرجال، أيكون هناك لعبة يا ديكو؟! أممكن أنهم اكتشفوا شيئاً من أمري، أو بدأوا يشكون بعلاقتي بـهم؟! لا أتوقع، لا.. لا أعتقد.. إذن أي أمر هذا؟ هل أصدق ما قالوه؟ في الصباح يأتي حمو بحيواناته ويناديني باسمي «يا ديندار»؟! وفي المساء يأتي الملا علي ومعه العم شمدين بشكل مفاجئ، ويختارونني من بين رجال القرية، لماذا؟ ليزوجوني بهار لحل قسم حمو أمام الگريلا.

«لو لم يكن الملا علي والعم شمدين لكان من الممكن أن يكون في الأمر مكيدة، ربما كنت قلت إنهما يريدان أن يجعلوني أخدم ذلك الكلب «آroول».. لكوني راعياً وفي البرية دائماً.. كعميل مثلاً؟؟ الملا علي يعرفني جيداً وأنا أعرف حقيقته، لذلك أؤمن أن ليست له نوايا سيئة في الأمر.. نعم.. العم شمدين كان يتوسل ويقول: قم بذلك.. اقبل يا ديندار.

«إن في ذلك فضيلة.. فضيلة»، فضيلة أن يطلق سراح حمو، وألا يفي بـيمينه، ليبقى «جتى».. لماذا؟ لكي لا يعيد بندقيته.. سمعت أنهم عذبوهم

بشدة في الثكنة، حمو نال النصيب الأكبر عندما ذهب لتسليم سلاحه، أرَوْه نجوم الظهر، ولكنه يستحق ذلك.. بل أكثر من ذلك.. وكل من يسلك هذا الطريق.. ولكن بهار بنت حلال، فداها ألف شخص مثل حمو، ووالدها العم شمدين، إنه بمثابة أب لنا جميعنا.. أخجل أن أناديه باسمه ومنذ صغري أناديه أبي الحاج.. وهو كذلك يكاد أن يكون الوحيد الذي يعتبرني بمقام ابن له.. الوحيد الذي يزورني بين الحين والآخر، لوحده أو برفقة الملا، ولم يحدث يوماً أن أتى إلي فارغ اليدين، ودون أن يدس كذلك أحياناً ما تيسر له من مالٍ في جيبي.

لم أخطئ عندما قلت لهم لأستشير، وجاءت تلك الكلمة كزلة لسان، فسأل العم على الفور: تستشير مَنْ يا ديندار؟ ليس لك لا أب ولا أم ولا أخ تستشيرهم.. فالقرار لك، «ولكن من الجيد أني صححت الأمر وقلت لأفكر، أقصد لأفكر حتى الغد».

كان المذيع كرم سيار يودع المستمعين ويتلو عنوان الإذاعة.. التوقيت اليومي وترددات البث وأموراً أخرى متعلقة بالأمر.. يعني أن الساعة حانت للذهاب.. قام وبدأ يجوب الغرفة ثم المطبخ، يعود بأكياس محشوة، حشرها داخل كيس للطحين وربطها بقطعة من الحبل المصنوع من وبر الماعز، على شكل حمالات حقيبة الظهر.. وغطاها بكوفيته التي نزعها من رأسه.

ديكو لم يعد ديكو المعتاد، كما هو معروف من خصوصياته وتكوينه كرجل خامل.. لا اعتبار له عند أحد، فعندما يكون مجبراً للذهاب إلى

بيت أحد وسط القرية، يلاحقه الأطفال الذين رمتهم أمهاتهم إلى الأزقة، يلاحقونه بالحجارة وينادونه: «ديك.. ديكو.. ديك.. ديكو.. يجوب الأزقة ليعرف مكان الديكة.. ليسرقها ليلاً.. ديكو.. ديكو».

تضاربت في رأسه تلك الأفكار التي كان يسجلها في تلافيف دماغه، جلس ومرر ساعديه في الحمالتين، وعلقها على كتفه، استقر الكيس المحشو كحقيبة ظهر في مكانه، خرج دون أن ينسى إخفاض فتيلة الفانوس، إلى حد بالكاد بقيت شعلة نار مشتعلة، نظر إلى جميع الأطراف، ليتأكد ألا أحد يراقبه أو موجود حول بيته، ثم مدّ يده حتى الكتف إلى جوف كومة البرسيم الجاف خلف بيته، وسحب يده مخرجاً شيئاً بدا وسط الظلمة مثل عصى قصيرة، ولكنها غليظة ثم علقه على كتفه واختفى.

عندما عاد.. لم يكن يعلم كم هي الساعة، ها هي الشمس قد نشرت دفئها، وها هي الثلوج المتبقية على سفوح هركَول تبكي، ليعود جريان الجداول جراء دموعها الغزيرة، إنها تبكي.. تبكي فرحاً بشروق الشمس، بعد أن خبا دفؤها لشتاءٍ طويل.

ما إن يحين الليل، نتيجة التجمد تعاني السكون، لخوفها من فقدان شروق الشمس مرة أخرى، فتتكور وتتجلد كصخور الجبل، وعندما يأتي الصباح وتشرق الشمس مرة أخرى وتستلذ بدفئها، رغماً عنها تذرف دموع الفرح، مما يعطيها بياضاً ناصعاً، تنتشر تلك الدموع المنسابة في الجداول ولتتوحد في مجرى الأنهار، لتمر من القرى.. المدن.. الحقول.. البراري موزعة الخير على الجميع.

هذا الصباح استقبلها ديكو أيضاً بتلك الفرحة، ولكن برجولة الكردي، تلك الرجولة التي قلما تسمح للدموع أن تنهمر من مقلتيه، ذاك الصباح المشرق لم يكن طبيعياً أيضاً، كعادته بعد أن علق حقيبة الرعاة المنسوجة من الصوف على كتفه الأيسر وحمل عصاه الغليظة، توجه إلى القطيع الذي كان قد تجمع للبدء بجولة جديدة في المراعي، لم يبتعد بالقطيع، بقي على أطراف القرية، ولم تكد فترة القيلولة قد حانت، حتى جاءه العم شمدين ومعه الملا ثانيةً، فجلسا وجلس ديكو أمامهما فوق صخرة مطمورة في الأرض، بقي قسم منها ناتئاً، بدأ الملا:

- ها.. ديندار.. ماذا قلت يا بني؟

ديندار ولأول مرة في حياته، أمام أهل قريته يشعر بهذا الاحترام ويقدر ذاته هذا التقدير، لكنه كبت جماح شعوره ولم يستطع أن يتفوه إلا بجملة واحدة:

- كما ترى يا حضرة الملا.

- هل هذا يعني أنك موافق يا بني؟

وأردف العم شمدين:

- يعني أنك موافق يا بني؟

- كما ترون.

قال الشيخ وهو يربت على كتف ديكو بمودة ومحبة:

- كنت واثقاً بأنك لن تردنا خائبين وتكسر بخاطرنا يا بني، أنت شهم وابن حلال، إن كان هناك شخص عاقل بيننا، فهو أنت يا ديندار، لا

تستمع إلى كلام الناس.

- ماذا ستفعل الآن يا حضرة الملا؟ سأل العم شمدين.

- فور أن تنتهي عدتها.. يجب أن يخرج أحدهم ليرعي القطيع إلى أن يتم الانتهاء من ترتيبات الزواج.

- إذن على بركة الله، سأحدث حمو في الأمر.

كل الأعراس تعلن بالتهليلات والزغاريد وحتى بإطلاق النار، تُجرى المراسم بالطبول والمزامير، لكي يعلم الجميع أن فلاناً سيتزوج من فلانة والعكس، لكن هذا العرس تم دون إعلانات ومراسم، ودون أن تشارك الفتيات أو النسوة ليزغردن، ديكو لا أخ له ولا أب، ليطلقوا له عيارات نارية فرحاً، وليوصلوا الخبر إلى الجميع، ماذا نسميه؟ عرسٌ سري؟ أي اسم يطلق على هذا الزواج؟ في الواقع لم يكن، لا عرساً ولا مأتماً، من عادة الأكراد أن يزغردوا حتى في بعض المآتم.

لم يكن شيئاً مما سبق، كل ما هنالك أنه تم بعض الإجراءات الشرعية، التي انتهى منها الملا مع بعض الأقارب، فقط كشهود، بهار مرتعدة خوفاً و«كَلى» متمسكة بثيابها أينما ذهبت، أخرجتها جدتها عدة مرات لكنها كانت تتمرغ أرضاً وتبكي بكاءً جنونياً، تشاهد أموراً تجري أمامها، ولكن ماذا يجري؟ طفولتها وبراءتها لا تفهمان ما يجري حولها، تعود لتصر على الجلوس في حضن أمها.. رفعت بهار نظرها، وربما كانت تلك أول مرة في حياتها تنظر إلى وجه ديكو، ذلك الشاب أو الرجل الذي طالما كان أضحوكة الصغار والكبار في هذه القرية، سيصبح زوجها.. ذلك

المجنون.. ولكن كيف.. ولماذا هو؟

لقد انصاعت لقدرها، إنها امرأة.. ماذا كان عليها أن تفعل؟ ليس باليد حيلة، لم تدخل اللقمة في حلقها، ولم تجف عيناها لأيام طويلة.. تبحث عن مخرج، أتنتحر؟ مخرج حاولت سلوكه، ولكن جسارتها لم تكفِ للاستمرار حتى النهاية، ثم إن الملا أخبرها أن المنتحر جزاؤه جهنم وبئس المصير.. ولكن الحقيقة أن المانع لم يكن إلا الرضيع.

«ماذا تقول نساء القرية عني، وما هو الكلام الذي سينتشر على ألسنتهن؟ سأتزوج من راعي الأبقار.. من أهبل.. ثم أعود إلى زوجي، آه منك يا بهار ومن هذه الحياة البائسة، ليت الأرض تنشق وتبلعني.. ماذا علي أن أفعل»؟

في النهاية قررت بأنه ما دام الأمر ليس خارج الشرع، وسأعود قريباً إلى بيتي وأطفالي، ليكن الأمر كذلك، وبما أنه لا يوجد طريق آخر يجب علي أن أتقبل الواقع ولو من أجل أطفالي.. إنه قدري.

أرسل العم شمدين فرشاً وتجهيزات مناسبة بعض الشيء من بيته إلى بيت ديكو، على الأقل من أجل ابنته، ثم أخذوا بهار إلى ديكو كما تأخذ الأموات إلى المقبرة، كان مسيراً جنائزياً لا زواجاً، كل ما في الأمر أنه وبهذه البساطة زفت بهار إلى ديكو.. دون زفة.

- 12 -

في ذلك النهار كانت الريح كعادتها تعصف من الغرب، أصبحت السماء رمادية اللون، لا يزال هنالك أكثر من ساعة لغروب الشمس.. من غزارة المطر أظلمت السماء واشتدت العاصفة، بينما غطت الخالة نازي ظهرها بكيسٍ من القنب، لتحميه من المطر، وهي تقوم بعزل الحملان عن أمّاتها وتقدمٍ العلف لها.. خرج ضيفهم خليل، كان رائق المزاج طيب النفس، قال:

– يكفي يا أختاه.. فالمطر يشتد.. ستصابين بالبرد.

بينما قامت الخالة نازي بمساعدة حملٍ صغير كان مضطرباً وهو يفتش عن حلمة ضرع أمه.. وقف الأطفال في فناء البيت مستمتعين بمشاهدة تساقط قطرات المطر الغزيرة، متشبثين بسياج القصب المحبوك بقليل من العناء، الفاصل بين فناء الدار والزريبة، وهم يراقبون الحمل الصغير المضطرب، جلست نازى وبدأت تحلب الأمّات بينما صوت الحليب يسقط في الإناء مطرداً.

ما إن انتهت الخالة من كل شيء حتى عادت تحمل سطلين من الحليب، توجهت نحو المطبخ، كانت ابنتها «كُه تون»، ذات السبعة عشر ربيعاً

قد أوقدت النار وأخذ الدخان يتصاعد من مدخنة المطبخ المصنوعة من الفخار، كانت «كُه تون» تنتظر بقوامها الدقيق، مياسة القد، طويلة ضفائر الشعر، واسعة العينين خاشعة النظر، تشارك الأطفال الاستمتاع بالنظر إلى المطر المنهمر، ومستعدة لتغلي الحليب، بينما خليل الذي وصل مع زوجته ظهر اليوم، كان ما يزال واقفاً وسط الأطفال، كما هو حال أبناء المدينة أو الذين أصبحوا كذلك، بعد انقطاعهم لسنوات عن حياة القرية التي ترعرعوا فيها، لا بد وأنه يتذكر طفولته والقرية من خلال حركات الأطفال.

- ما بك يا أخي؟ يبدو أنك اشتقت إلى حياة القرية.

- معكِ حق أختاه.. فلم أزر القرية منذ مدة طويلة.

دخلت نازي ومعها خليل إلا أن الأطفال أبوا الدخول، إلى أن أظلمت الدنيا تماماً، كان سقوط المطر على الأسطح وزجاج النوافذ يصدر أصوات قرقعة وطقطقة، كررت نازى وبنوع من الإصرار، وهي تقول:

- لم تقل لي يا خليل، كيف حال الأولاد؟ ولماذا لم تأتِ بهم معك؟

- لا يستطيعون لأنهم يذهبون إلى المدرسة، أتينا لزيارة يوسف، هذا إذا سمحوا لنا.. سنذهب إلى الجبل ونطمئن عليه.

- أهلاً بكم يا أخي.. هذا حقكم، اليوم التقيت عبد الرحمن وسألني عنك وأخبرني بأنه سيزورك الليلة.

- عبد الرحمن! منذ مدة سمعت أنه اعتقل.

- صحيح ما تقوله يا أخي.. قبل يومين.. مساءً أطلقوا سراحهم.

- لوحده أم..؟
- الجميع.. لكن موسى.. يا حرام.
- ماذا جرى له؟!
- وماذا سيجري؟! إنه الآن في المشفى من شدة التعذيب.. أما الآخرون، فقد أصبحوا أنصاف رجال.
- إذن حج خالد ونيچرفان.. والجميع هنا؟
- عبد الرحمن قال لي إنه سيخبر الجميع ليقوموا بزيارتنا.
- الواجب يتطلب العكس، يجب أن نقوم نحن بزيارتهم.
- هم ليسوا غرباء يا أخي.. غداً سنذهب معاً لتقديم التعازي لأهل المرحوم حاج أوصمان.
- أكيد.. أكيد.. ليرحمه الله.. نال في هذا العمر شرف الشهادة، ولكن أخبريني، كيف هو وضع أخي؟
- أتقصد حمو؟
- نعم.
- الدم لا يصبح ماءً.. إنه يبقى أخونا، لقد أصبحت حالته كالشاة الضالة.
- يقولون إن الرفاق أمسكوا بهم في كمين، هل ذلك صحيح؟
- ليس هذا فقط، عندما جاء الجنود إلى القرية كان معهم.
- يعني أنه ما يزال كما هو.. الـ(..).
- لا داعي لمثل هذه الكلمات يا أخي.. إنه أخوك.

- اللعنة على هكذا أخ.. آخ.. لماذا لم يقتله الرفاق؟ لارتاحوا وأراحونا من أفعاله..

- حمو تغيرت أموره يا خليل.

- ماذا تقصدين؟

مدت نازى أصابعها الطويلة الغليظة على ركبتيها وقالت:

- لقد قام حمو بتزويج بهار.

فنظر إليها مندهشاً، لم يصدق ما سمع وما تفوهت به أخته وسأل:

- ماذا تقصدين.. زوَّج.. زوَّج زوجته؟

قصت نازى له ما جرى بطريقة سردية متقنة، فالمرأة الكردية تتقن فن السرد، كاد خليل أن يجن مما سمعه، ولولا المطر والظلمة لذهب الآن وأمسك برقبة حمو دون أن يتركها إلى أن يفقد روحه.

- أخبرني هاتفياً أنني مطلوب بسبب التحاق يوسف بـ«طيور الليل»، ولكن لم يذكر لي هذه الأمور.. ماذا جرى لذلك المجنون؟ تلك العائلة.. أصبحنا كحفنة من الحصى ألقيت على صخرة، ضربتنا الرياح فتبعثرنا جميعاً، نعم تحملنا كل ذلك، ولكن أن يصل الأمر به إلى هذا الحد؟ زوجته؟ ولماذا؟ من أجل بندقية.. الذنب ذنبنا نحن، لو قمنا بقلع أسنانه من اليوم الأول.. لما وصلت الأمور إلى ما هي عليه الآن، لقد اخترق السكين الجسد إلى أن وصل إلى العظم، أين الناس ونحن والأفندي.. أين.؟!

هدأت الخالة نازي من روع أخيها:

- ليس كما كان يا أخي.. يبدو أنه بدأ يستيقظ.

كزَّ خليل على أسنانه وشد قبضته، وقال غاضباً:

– يستيقظ! وما الفائدة الآن؟ بعد فوات الأوان.. كيف يستيقظ وتقولين كان معهم يوم داهموا قريتكم.. هجره إخوته.. لم يترك شيئاً من الميراث.. ها هي بهار المسكينة.. ولكن أين أطفاله؟

– إنهم في بيت جدهم.. يبقى معه گرناس.

– قسماً لن أتركهم مع هذا الأب الخائن.. يربيهم بالمال الحرام.. مال ثمن دماء بني جلدته.. أمثاله حرام أن يكونوا بشراً ولا آباء..

إن سماع أخبار من هذا النوع هي مصيبة تشل طبيعة الرجل الكردي لمدة من الزمن.. طافت بسمة خفيفة على شفتي نازى، كانت تجيب عن كل ما يسأل عنه خليل، بنفس الهدوء والرصانة، نفس المرح الذي يشتمل على عدم الاكتراث.. أضافت:

– دعك الآن منه.. يا خليل.. بإمكانك زيارته والتحدث إليه.. لا بد أنه سيستمع إلى أخيه هذه المرة.

أمام باب الدار ومن خلال مصراعي إحدى النوافذ، يتسربّ إلى باحة الدار ضوء سراج الكاز الخافت، وأمام درجات الباب يقبع الكلب الذي بدأ يعوي كتحذيرٍ، سرعان ما جاء صوت وقع الأقدام، يبدو أن أحدهم قادم، ثم تابعه سعال جاف، إنهم أكثر من شخصٍ.. كفّ الكلب عن العواء ربما تنحى، طُرق الباب طرقاتٍ خفيفة.. صدرت عدة أصوات معاً.. هرعت «كُه تون» وفتحت الباب، قام الجميع ليستقبلوا الضيوف.

– تفضلوا.. تفضلوا..

دخل عبد الرحمن وقد تبللت ثيابه، وتابعه حج خالد، نزع كوفيته، وقف حاسر الرأس.. يفرك شعر لحيته وضوء سراج الكاز ينعكس على قطرات الماء التي كانت تغطي لحيته.. انسلت قطرات منها إلى رقبته ثم إلى صدره.. وتتالت القطرات.. فقام الجميع، لتتنحى النساء جانباً، وليفتحن المجال للرجال إلى صدر الغرفة.. ساد جو آخر، جو ما بين نشوة الترحيب والفرح، بينما الأطفال كانوا قد حشروا أنفسهم في فُرُشِهم في الغرفة المجاورة، ركن البيت حيث وسائد الصوف والسجاد والبسط والأغطية مصفوفة صفاً منسقاً جميلاً على طول الحائط المقابل، كانت الجدران مزينة أيضاً بدزينات من أنواع مختلفة من صحونٍ نحاسية ولوحات طرزت بدقة وبألوانٍ زاهية على يدي (كُه تون) الناعمتين، بينها ورود ومزهريات، أشكال أسطورية لحيوانات من طيور وأحصنة، والأجمل كانت لوحة «شاه ماران» حيث فتاة جميلة، تبرز تضاريس نهديها التي تشع أنوثة، وبجسمٍ على شكل حورية تبرز رءوس الأفاعي، من الأعلى والأسفل حسب قًصتها الأسطورية، فمن النادر أن تجد بيتاً كردياً يخلو من تلك اللوحة.. وقد صفت تحت الدكة أوعية المربى وعصير الطماطم والمخللات التي تحفظ في أوعية بلاستيكية، بجانبها أقفاص الحجل التي تستيقظ أحياناً من غفوتها، وتحت ضوء سراج الكاز الخافت تُخرج رأسها وتنقر الأرض، تصدر أصواتاً على شكل طنين خافت.

عندما دارت كئوس الشاي.. كان زوج نازى يضرم النار في المدفأة، وحج خالد يقول:

- خالة نازى.. جميل أنكم لم تعزلوا المدفأة بعد، الجو أصبح بارداً وكأن الشتاء عاد ثانيةً.. مطر.. بمطر.

- فقط مطر يا حج!.. فهو ممزوج بالثلج أيضاً. علق نيچرڤان.

- الأيام الماضية كانت دافئة، ظننا أن الجو قد تغير وحل الربيع.

- هنالك متسع من الوقت.. نحن في منتصف أيار، وأيار في السهل ليس كما في الجبل.. من المؤكد أن قمم هركَول ستتغطى بالثلج ثانية.

كان المغزل الكردستاني البسيط، الذي هو عبارة عن عود طوله حوالي خمسون سنتيمتراً، وكما هو معروف يثبت في رأسه قطعة دائرية من الخشب بقطر حوالي خمس سنتيمترات، وبوسطه دُقَّ مسمارٌ معكوف بعد أن نُزع رأسه، بيد نازى تلعب به، مرة تبرمه بنزق على طرف فخذها الأيسر وتتركه يفتل بسرعة وهي ترفع يدها التي تلف عليها كمشة الصوف، وسريعاً ما يتحول إلى خيط رفيع، فتوقف الفتل وتلف الخيط أسفل الرأس الدائري على العود فيتحول إلى شكل كرة من الخيوط، وتكمل حديثها دون التوقف عن الغَزْل:

- نحن هنا في البيت نعاني البرد.. لكن هم كيف حالهم؟! كيف يتحملون؟! كيف يتصرفون؟!

- الجبل مليء بالمغارات. قال خليل.

- أي مغارات يا رجل.. هم لا يذهبون إلى المغارات، فالمغارات معروفة للجميع، فهم لا يمكثون فيها. ردَّ عبد الرحمن، وتابع:

- بيوتهم على ظهورهم، خيمهم من النايلون، قطع النايلون التي

يستخدمونها في إعداد البيوت البلاستكية للزراعة في المدن.

– كيف يتدفأون.. قسماً «إنهم أسود».. فنحن بين هذه الجدران نرتجف من البرد. قال خليل.

– يوقدون النيران. قال حج خالد.

– داخل تلك الخيم من النايلون، ويوقدون النار! كيف؟ ألا تحترق؟

– لا تحترق؟ كما هم يقولون: لأن الجو خارجاً يكون بارد جداً.. من يصدق.. إنهم يملأون أكياس النايلون العادية بالماء ويضعونها فوق قطعة صاج.. ومن ثم فوق الجمر.. دون أن يحترق أو ينثقب الكيس.. أحياناً كذلك إذا كانوا مجبرين يقومون بإعداد الشاي في قناني الماء البلاستيكية التي يستخدمها الجنود.. يملأونها بالماء ويدفنونها بين الجمر دون ألسنة النار، لحظات بعد غليان الماء يضيفون إليه الشاي..

– عجيب.. أول مرة أسمع هذا..

ساد شيء من الهدوء، بينما يرتشف المتواجدون الشاي، قطع حج خالد الصمت متسائلاً:

– لم تخبرنا يا أبا يوسف.. كيف حالكم؟ يا رجل أهكذا تفعل؟ لم تزرنا منذ مدة طويلة.

– ماذا نفعل يا حاج.. إنها الظروف.. تعلمون الوضع وحال الدنيا.

– هل ذهبت إلى القرية؟ ألم تزر أخاك حمو؟

تدخلت نازى:

– لقد وصل اليوم.. حدثته عن وضعه..

– لقد خرب بيته بيديه.. نحمد الله أننا نجحنا في تسليمهم أسلحتهم.. ها نحن ماذا جرى لنا؟ يأخذوننا إلى السجن.. يعذبوننا.. في اليوم التالي نكون بين إخوتنا بشرف وكرامة.. أما أمثاله..

– أمثالهم لا يستطيعون أن يرفعوا أعينهم والنظر إلى الناس. تابع نيچرڤان.

– تصور لم يعد سائقو الحافلات يقبلون أن يركب الحماة سياراتهم. قال عبد الرحمن.

قال الآخر وهو يشعل سيجارةً ليطرد نعاسه:

– فقط هذا؟ إن حالتهم كحالة الكلاب.. لا أحد يتنازل ليسلم عليهم أو يرد على سلامهم.

– لقد صدقوا كذب الأتراك.. نحن أيضاً في البداية صدقناهم وانخدعنا بكلامهم..

فجأة عطس حج خالد عطسة جافة معتذراً «العفو لم أشفَ بعد منذ ذلك اليوم.. من البرد»، قبل أن يقول:

– متى انخدعنا.. لقد فهمناهم بعد مسألة استسلام «مصطفى جمن –[1] «Mustefa Çîmen» ومقتل «رشيد آغا» في قرية «كوزن –

( ) مصطفى جيمن: اسمه الحركي (توفيق) كان أحد كوادر (ب ك ك) المتقدمين من (حلوان - أورفا)، وكان المساعد السياسي لمعصوم قورقماز - عكيد قائد HRK*، وكان أحد أبرز المشاركين في تنفيذ أول عملية عسكرية في (آروه)، وهو من أعد اللافتات التي علقت في شوارع المدينة بعد دخولها، استسلم على أثر إصابته بجراح.. وتم اغتياله فيما بعد على يد حزب العمال الكردستاني.

HRK*: أول مؤسسة عسكرية لحزب العمال الكردستاني وتعني الأحرف (قوات تحرير كردستان).

Kewzen» واستشهاد الرفيق فراس[1] في قرية أبو بكرا.

كانت زوجة خليل بين يديها طاقية زوجها تقوم بخياطة فتق صغير في أحد حوافها من الداخل، و«كُه تون» تجلس مصالبة ساقيها تحتها بالقرب منها بجانب الباب، خلف المدفأة، تمكثان في ركنٍ شبه مظلم، الفتاة تجلس رغم الضوء الخافت وبين يديها قطعة قماش أبيض تقوم بتطريز لوحة جديدة، لم تشاركا في الحديث، إلى أن انهدم الجدار الذي يفصلهما عن الرجال، عندما قالت زوجة خليل، متسائلة:

- متى كان ذلك.. عمي الحاج؟

- عبد الرحمن يومها كان في مجلس الآغا.. يوم قتلوه.

هز عبد الرحمن رأسه منتظراً أن ينتهي حج خالد من كلامه، وبدأ بسرد الحادثة، التي ربما قصها عشرات المرات:

- كان ذلك بعد عملية دخولهم إلى «آروه» بعدة أشهر.. كانوا مجموعة صغيرة مؤلفة من خمسة رفاق، كنا في مجلس الآغا، استغربنا حين طُرق الباب بقوة، دخل رفيقان إلى المضافة التي كنا فيها، بينما كان الآغا جالساً فوق فراش عالٍ كعادته، ما إن دخل الرفيقان انفرد كل واحد إلى جانب من الباب.. جلسوا القرفصاء وأسلحتهم بيدهم، فسأل أحدهما: «من هو رشيد آغا..؟»، فهم رشيد آغا خطورة الأمر.

قاطعه زوج نازى:

---

(1) فراس: كان أول كادر قيادي في المنطقة، ومن بين المجموعات الاستكشافية التي أرسلها الحزب إلى المناطق قبل انطلاقة الكفاح المسلح، على شكل مجموعات صغيرة.

- وكيف لا يعرف عديم الشرف.. لا رحمة الله عليه وليدخله جهنم.. ماذا كان يفعل بالقرويين!! إلى درجة أنه كان يأخذ النساء من أزواجهم عنوة، وأمام الجميع.. كمثال يوم أخذ زوجة مراد في منتصف النهار وأركبها خلفه على الحصان.. أخذها دون أن يتجرأ أحدهم على التفوه بكلمة.

تابع عبد الرحمن:

- كان الرفاق يعرفون وضعه، عندما سألوا، تجمد الآغا في مكانه دون أن يتحرك، ولكن لا مفر، يومها لم يكن للمقاتلين هيبة اليوم.. كان عددهم محدوداً وأمثال الآغا لم يكونوا يحسبون لهم أيَّ حساب، كما تعلمون كنا نعتبر شأنهم كشأن حزب الكاواجية[1] كما تعلمون.. جاءت مجموعة منهم إلى المنطقة، ومن ثم اختفوا دون أن يبقى لهم أثر.. تجرأ الآغا وقال: أنا هو.. ماذا تريدون؟

- أرادوا إخراجه، ولكنه لم يتحرك، وعلى الفور وجه أحدهم إليه فوهة بندقيته الرشاشة وفتح النار، كان ابن الآغا بالقرب منهم فقفز على أحدهم وبيده سكين فجرحه.

- كيف سمحوا له بأن يجد الفرصة للحصول على السكين؟

- كان هنالك أمام الضيوف، طبق كبير من الفاكهة والسكاكين موزعة معها.

- وأنتم كيف نفذتم بجلدكم؟

(1) الكاواجية: نسبة إلى منظمة كاوا الثورية، وهي منظمة كردستانية برزت على الساحة في شمال كردستان (تركيا)، سرعان ما دعت إلى الكفاح المسلح ضد الاستعمار التركي.. بعد انقلاب 11 أيلول 1980 من قبل كنعان أفرين، فر كوادرهم إلى الخارج، ولم يعد لهم من أثر.

- لم يطلقوا النار بشكل عشوائي، استهدفوه فقط، أما نحن، فقد كان هناك في زاوية الغرفة باب مخفي يؤدي للطابق الأرضي.. وبسرعةٍ نزلنا منه إلى الإسطبل ومن هناك خرجنا.

- والرفيق الجريح ماذا جرى له؟

- عندما خرجوا يبدو أنه لم يستطع أن يرافق مجموعته.. الطعنة كانت شديدة الخطورة أخذوه إلى خارج القرية إلى الجنوب منها، هناك حيث عدة زرائب ولشدة البرد وحالته السيئة أدخلوه إلى الزريبة، وأخفوه بين التبن بعد أن سلحوه بقنبلة.

- بقي هناك؟

- في الصباح غلام الآغا المسيحي عندما ذهب إلى الزريبة ليعلف البهائم.. وجده هناك، ففر هارباً باتجاه القرية مرتعباً.. حاول ألا يخبر أحداً، ولكن من ملامح وجهه المرتعبة عرفوا أنه رأى شيئاً في الزريبة، كان الجنود في القرية فحاصروه وبدل أن يفجر القنبلة في نفسه..سلم نفسه.

- استسلامه سبب الكثير من المصائب في المنطقة.. أفشى بأسماء القرويين المتعاونين معهم، وبما فيهم أسماء الميليشيا والقرويين الذين شاركوا مع معصوم قورقماز في الهجوم على «آروه».. لقد اعترف وخان رفاقه.

- عددهم في تلك الفترة كان قليلاً، كانوا عدة رفاق، كان الرفيق فراس.. وعدة رفاق آخرين لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة.

- الخيانة.. الخيانة، لقد أرسلها الله بلاء على رءوسنا نحن الكرد، ورغم كل شيء مستمرة، قبل أقل من شهر كانت مجموعة من الرفاق على جبل

قلندرا في الجهة الغربية المطلة على نهر بوطان، وفي الليل دخلوا إلى قرية قلندرا من أجل الزاد.. هل تصدقون أنهم قدموا لهم طعاماً مسموماً.. لكن الله حماهم وسترهم، وعائلة الخائن جمال تركت القرية وهربت.

سأل خليل:

- أيضاً.. لا حول ولا قوة إلا بالله متى سنتيقظ؟! متى؟!

قال زوج نازى:

- يعني ما زال عندنا الكثير من أمثال (بور رشى - Por reşê).

- بور رشى.. ماذا يعني بور رشى؟ سألت أم يوسف.

- بور رشى.. ألم تسمعي بقصة محاولة تسميمها لأمين زكو عندما كان من الأشقياء في قرية طورك؟

- لا.. من أين أسمع؟

أكمل زوج نازى قائلاً:

- بور رشى.. امرأة أصلها من قرية تيرم، من عائلة خالد حاجي، كانت متزوجة في قرية طورك، وفي ليلة زارهم المحكوم أمين زكو وعصابته، فأعدت لهم بور رشى شوربة فاصولياء ودست فيه السم لقتل أمين ومن معه.

- وأمين زكو من يكون؟

- الليل طويل يا عم، ليس من مفر، يجب أن تسرد لنا قصته.. لا تنسَ أن لي علماً بزيارات أمين زكو لك عندما كنت تمكث في الجبل مع القطيع.

علق حج خالد.

عدل زوج نازى من جلسته وهو يضحك من تحت شاربه كهرٍ هرم، وهو من نوع المسنين الذين يزدادون سخطاً على الحياة، وفي نفس الوقت أكثر تشبثاً بها، وقال:

- لا.. لا.. ليست إلا عدة مرات.. ثم هذا قبل أن يصبح الواطي عميل الترك ومن حماة القرى (چتى).

- مرة أو عدة مرات.. المهم أمين زكو كذلك كان مشهوراً، ولكن كنا صغاراً ونسمع عنه. قال عبدالرحمن.

- اللعنة على تلك الأيام، المنطقة كانت مليئة بالمحكومين، قُطَّاع الطرق والأشقياء.. الشكر لله جاءت الگريلا وتخلصنا منهم.. انظروا أغلب أولئك الأشقياء الآن هم حماة قرى وقادة حماة القرى، عملاء للأتراك..

التفت إليهم وأكمل:

- أمين زكو أصله من قرية (بنـڤى – Binêv)، القرية في الأساس كانت من عائلتين عائلة أمين وعائلة عبدالرحمن، عائلة أمين كانوا آغوات، بعد فترة عائلة عبدالرحمن ازداد عدد رجالها، وأصبحوا الأقوى، أصبحوا هم آغوات القرية وعلى رأسهم عبدالرحمن آغا، عبدالرحمن آغا كان رجلاً سيئ الأخلاق، بدأ بالانتقام من عائلة أمين الذين كانوا آغواتهم، لم يترك شيئاً إلا وفعله بعائلة أمين، تصوروا، وصل به الأمر إلى أخذ النساء المتزوجات من أزواجهن، وزوَّجهن من رجاله غصباً، ونعرف أنه زوّج ست نساء متزوجات من رجاله؛ لأن يده كانت قد طالت إلى الحكام الترك في المنطقة، فكان يأخذ النساء إلى المحكمة، وهناك من جديد كان القاضي

يقوم بتطليقهن، ويعطيهن الحق شرعاً بالزواج من رجال عبدالرحمن آغا.

- إلى هذه الحد كان ظالماً؟!! لعنة الله عليه.. عديم الشرف والناموس. قالت أم يوسف.

- نعم.. وأكثر.. وكما سمعت من أمين، إنه قام بتنظيم الأخوة (محمد رش - محمد علي) وأبناء عمه (أحمد - حميد - رمضان - حجي)، فتركوا القرية مع عائلاتهم واشتروا بنادق.

- وقيل يومها إن أمين قال: «لن أتخلى عن هذه القرية قبل أن أقتل أربعين رجلاً.. ».

في ذلك الصيف اعتقلوا سبعة من رجال عبدالرحمن آغا، وأخذوهم إلى هركَول، وربطوهم وراء بعضهم في صف واحد، وبطلقة واحدة مرت من أجساد السبعة، وهم في الوضعية نفسها، أضرموا النار فيهم، وكما قيل سرعان ما ارتفعت رائحة اللحم والدهن المشوي، فيما بعد تمكنوا من قتل عبدالرحمن آغا، بعد أن اعتقلوه مع بعض رجاله في أحد بيوت قرية «جول»، حيث أخذوهم إلى الجبل وقاموا بدفنهم في أرضية إحدى المغارات.

عادت القرية كما كانت، إلى أن قام أمين زكو ورجاله بنصب كمين بين قريتي (تَرحم) و(هلالا)، وهناك اعتقلوا محمود مختار من قرية (نيفلا - Nîvila) ومعه رجل، وفي أطراف مرتفعات «ده بانى» قتلوا الاثنين، وانقسمت القرية ثانيةً، كحال كل مصائبنا، إلى فريقين، فريق مع الحكومة التركية وآخر مع المحكومين.

يومها على أثر تلك الحادثة، بدأت حملات بحث عسكرية عن أمين زكو ومن معه من أقارب محمود وجميع أعدائه، أمين زكو حتى ذلك الحين كان قد أحرق تسعة رجال وقتل أربعة وأربعين رجلاً، اثنان منهم من قرية نيفلا، أما محاولة اغتياله، فقد كانت قد خُطط لها ونفذت على يد بور رشى بحسب اعترافها، حين أعدت حساء الفاصولياء ودست فيه السم، للتخلص من أمين ورجاله، في البداية دخل المحكومون القرية على شكل مجموعتين، وما إن مدت العائلة مائدة الطعام، ومن خلال حركاتهم شكوا في أمرهم، فطلبوا من زوج بور رشى أن يتناول الطعام أولاً ولكنه تحجج بأنه سبقهم، عندها ازدادت شكوكهم، فلم يتناولوا الطعام وحققوا في الأمر، وبعد التحقيق في الأمر اعترفت بور رَشى وقالت إن عائلتها دفعتها لفعل هذا، فاعتقلوا زوجها، المدعو خليل، وطلبوا فدية مقابل إطلاق سراحه، يومها على ما أذكر كما قيل، طلبوا حوالي أربعين ألف ليرة تركية، طبعاً في تلك الأيام كان يعتبر مبلغاً كبيراً، تدخل خليل بك من آروه ومنعهم من قتله، يومها (البارتي)؛ الحزب الديمقراطي الكردستاني، كان له نشاطات تنظيمية في آروه، وكل عائلة كانت تدفع تبرعات للبيشمركَة، مبلغاً من المال بحسب عدد أفراد العائلة، تدخلوا كذلك بالأمر، وضمن الشروط أن يترك أمين زكو ورجاله المنطقة ويذهبوا إلى جنوب كردستان.

عندما شكا أهالي قرية «بنفى – **Binêve**» من أمين زكو، أمين كان وقتها قد أصبح من البيشمركَة يجمع التبرعات، فيما بعد عاد أمين من الجنوب الكردستاني هرباً، بعد التطورات الأخيرة للثورة، ونهايتها المفجعة، عادوا

إلى المنطقة وتوجهوا إلى بيت قاسوا مختار قرية «شكالى – Şekala»، ليقوم بترتيب أمر استسلامهم إلى السلطات التركية، أخذهم قاسوا إلى مغارة أسفل مدينة آروه، وتوجه إلى خليل آغا، ليُعلمه بأمر نواياهم، خليل بك كما تعلمون هو ابن آقيب آغا الذي قاد انتفاضة آروه.. فصعب عليه الأمر.. رفض وقال: كيف يستسلمون.. أنا سأقوم بتقديم المساعدة لمعيشتهم؟! كان جوابه القاطع: مهما حدث يجب ألا يستسلموا.

في النهاية جاء إليهم خليل آغا بالذات، وقال لهم: سيعدمونكم.. ألا تعرفون كم من الرجال قتلتم؟! أما أمين ورفاقه، فقد قالوا لخليل آغا: «يا خالي (باعتبار خليل آغا من أخوالهم)، لم يعد لنا مفر، الطرق أُغلقت في وجوهنا، ونحن بهذه الحالة.. السجن أفضل»، بعدها بأيام جاءت سيارة البلدية واستسلم الجميع.

قاطعت أم يوسف همسات الجالسين وهي متشوقة لمعرفة النهاية، فسألت:

– و هل أعدموهم؟

زوج نازى كمنْ كان بحاجة إلى فرصة، مد يده إلى كأس الشاي الذي كان قد برد، وأفرغ ما تبقى فيه في جوفه دفعة واحدة، وأكمل:

– حكم على أمين بالمؤبد، ومن ثم خفف الحكم إلى خمسة وعشرين عاماً.. على أثر العفو الذي سمي يومها باسم عفو أجاويد.. وبعد دخول الجيش التركي قبرص، خفف حكمهم إلى السجن المفتوح في (زنكَل داغ) مع الأعمال الشاقة، بعدها هرب أمين إلى المتروبولات التركية، وعندما سمع قاسوا بهربه، طلبوا الصلح على اعتبار أن ما كان قد انتهى، وكانت بداية

مرحلة دخول رفاق (ب ك ك) إلى المنطقة.. أولى مجموعاتهم كانوا يجوبون القرى تحت اسم تجار الغنم، يومها بدأ تدخُّل الرفاق في هذه الأمور والتقوا بالقاتلين وأصلحوا بينهم، نعم على يد الرفاق عادت المياه إلى مجاريها، وعادت الزيارات فيما بين بعضهم وفي كافة المناسبات.

- لله الشكر.. منذ اليوم الذي قويت فيه شوكة الگريلا.. انظروا لقد اختفى الآغوات والبكوات.. أين ذاك العدد الهائل من أولئك الأشقياء؟ أشقياء آروه التي كانت مشهورة بجرائمها على طول تركيا، اليوم لا أحد يجرؤ على ارتكاب تلك الحماقات، انتهينا من قصصهم. قال عبدالرحمن.

- كانوا كالسرطان.. يعتدون على شرف وناموس الناس، ويسطون على أموالهم.. ألا تلاحظون أن أغلب تلك المجموعات الآن هم عملاء، وأول من انضموا إلى تشكيلات حماة القرى في المنطقة.. أمين زكو رئيس الـجتى في قريته.. قبل أيام في أطراف قرية (دريشكى – **Dirîşkê**) كان كذلك حميد وفي مقدمة رتل الجنود أثناء حملة تمشيط ضد الگريلا.

- أكيد باعتبارهم يعرفون جغرافية المنطقة تماماً.. كونهم كانوا دائماً يختبئون هناك، أيام كانوا فيها أشقياء.. الآن الأتراك يستخدمونهم كالكلاب في ملاحقة الگريلا.

الليل طويل، كل شيء على طبيعته، كانت ابنة نازى قد جددت الشاي، وسرعان ما جاءت بصينية كبيرة الحجم من زاوية الغرفة، عليها صحونٌ صغيرة الحجم مليئة بأصناف من المكسرات كالجوز واللوز والزبيب مع التين المجفف، صحن مليء بالعسل الجبلي.. وزعت الصحون وعدل

الجميع من جلستهم، بينما حج خالد علق:

- فلتسلم يداك وليفتح الله نصيبك بابن حلال يا (كَه تون).. هيا مدوا أيديكم..هيا خليل.. لن تجد مثل هذه الأشياء في المدينة.. إنها من بساتيننا..

- كيف الأوضاع هناك أخي خليل؟ قاطعه نيچرڤان.

رد خليل موجها حديثه للحج:

- ماذا تقول.. يا حاج في أي مكان كان.. هل تصبح حياة المدينة مثل القرية؟! الآلاف من العائلات يضطرون لترك قراهم وبيع قطعان الماشية التي كانت مصدر عيشهم ويرحلون إلى هناك، عشرة أشخاص تراهم في غرفة واحدة، شقق لا تتسع لربع هذا العدد.. عدة عائلات في شقة واحدة.. لا عمل.. هناك بطالة، ومن يجدون عملاً، بالكاد يؤمنون ثمن رغيف خبزهم.. صغاراً وكباراً يعملون، ومع ذلك لا يستطيعون أن يؤمنوا أبسط احتياجات الحياة، في بداية مجيئهم تراهم وقد باعوا كل شيء، فيتدبرون أمورهم لبعض الوقت، ثم ما إن ينتهي مالهم، فتراهم يقعون في حالة من البؤس.. أينما تذهب، تواجه جيوشاً من العاطلين، الحالة صعبة يا حاج، استنشاق نَفَسٍ واحدٍ من هواء جبل هركَول يساوي المدينة بما فيها، هناك كل شيء بالمال؛ الماء، الوقود، من أصغر الأشياء إلى أكبرها، أما هنا، في القرية، لو لديك عنزتان وعدة دجاجات تستطيع أن تتدبر بها أمور عائلتك.. وقودك من الجبل.. هنا تجلبون الحطب من الجبل من أجل المدفأة.. أما هناك، فتضطر أن تشتري الفحم.. أما الماء فما شاء الله، هنا أينما تذهب ترى الينابيع والجداول.. يا ليت الماء هناك يشبه الماء.. ثم ماذا

أقول.. مجبرون..

قاطعه صوفي قادر بصوته القاسي، كاشفاً عن أسنانه التي بدت تحت ضوء الفانوس ناصعة البياض، ودون أن يتجه بالكلام إلى أحد:

- الجنود بدأوا يقومون بإحراق القرى، يحرقون البساتين ويقطعون أشجار الفاكهة، ماذا علينا أن نفعل.. فكما تعرفون يعرضون علينا طريقين: إما الرحيل أو أن نصبح (جتى - حماة قرى)، والأغلبية يرفضون.. يفضلون الموت، لا الرحيل فقط، على ألا يحملوا بنادقهم في مواجهة إخوتهم.

أضاف عبدالرحمن:

- ليكن الله في عوننا.. إنهم يفرضون علينا هذا، في بعض الليالي يطلقون قذائف المدفعية على منتصف القرية بالذات، قبل حوالي أسبوع وقعت قذيفة هاون على زريبة صوفي محمد.. ستر الله، ولم تأت على سطح منزله.. قتل عجل، وأصيبت بقرته إصابة مميتة، اضطر إلى ذبحها في الصباح.

- الله يرى كل شيء.. لا بد أن يأتي يوم للظالم.. إنه إله.

قال نيچرڤان ذلك متمنياً، وقد غاظه مجرد التفكير في هذا الظلم، بينما طافت على وجه عبد الرحمن ابتسامة عريضة مليئة بالرضا والامتنان وقال:

- إن الله أرسل إليهم أبناء «إبراهيم الخليل».

- شكراً لله عز وجل.

- ليكن الله في عونهم. قالت نازى.

هز عبد الرحمن رأسه عدة مرات..

- الله أعطى الإنسان العقل واليدين والقدمين ليقوم بالعمل بنفسه، فقط

الدعاء لا يكفي، لن يكون في عونهم أحد.

- الحق معك عبد الرحمن، لو لم يعرضوا أنفسهم لمشقات هذه الحياة، لما حدث كل هذا الوعي.

- أي أمور تقصد؟

- انظروا، ما شاء الله، في البداية بعد أن خرجوا إلى الجبال انهالت علينا وعلى المنطقة جميعاً النِّعَم، فتحوا الطرق والمدارس والكهرباء والهاتف وغيرها الكثير.

- وسرعان ما تبين حقيقة اهتمامهم المفاجئ، بمناطقنا وقرانا وهذه الخدمات بتلك الصورة الغريبة..

- نعم، كل ذلك لم يكن إلا من أجل أن يخدعونا؟

- في مدينة «سيرت».. الموظفون يتحدثون عن زيادة رواتبهم.. بات موظفو الحكومة في المناطق الكردستانية يقبضون أضعافاً مضاعفة.. الموظفون يسمون هذه الزيادة بـ «راتب عبد الله أوجلان».

ساد الجو صوت ضحكات الموجودين.

- الحق معهم قبل أن يخرجوا إلى الجبل، كان جنودهم في مناطقنا أشباه عراة حفاة.. ألا تتذكرون؟ كانوا يتضورون جوعاً، اليوم الموظفون الذين يتم تعيينهم في القرى والمدن الكردستانية، رواتبهم أضعاف رواتب الموظفين في القسم التركي.. كذلك الجنود والشرطة.

- أكثر ما يزعج في الأمر.. هم «حماة القرى»، كالبهائم، حرام أن يكونوا بشراً.

- لا والله.. حرام أن يكونوا بهائم أيضاً، فالشاة إن لم تنفعك في حليبها تذبحها فتستفيد من لحمها، أما هؤلاء فما النفع منهم؟ خائنون يبيعون شرفهم من أجل عدة ليرات تركية.

- أنتم أهل «إركند» فعلتم عين الصواب حين تخلصتم من أسلحتهم بسرعة.. ولكن الغريب كيف استلموها؟ ليس من عادتهم. قال خليل.

- أخ خليل في البداية لم تكن قوانينهم كما اليوم إجبارية إلى هذا الحد، لقد كانت أقل قسوة.

خرج زوج نازى إلى الخارج، وبدون تأخر عاد وهو يئن برداً، جلس بجانب المدفأة، يستمد منها الدفء، بينما النار داخلها تتأجج وترسل وهجها الأحمر إلى أطراف الغرفة، سأله حج خالد:

- كيف الجو.. هل توقف المطر؟

- توقف.. ولكن هناك برد شديد.

- هل الجو غائم أم صحو..؟

- لم أنتبه إلى ذلك.

علا صوت الضحكات.. فعلق حج خالد على الأمر، بسرد نكتة للقرويين:

- فعلتَ مثل قصة ذلك القروي العجوز.. يقولون: دخل رجل مسن إلى مضافةٍ، مثلما فعلتَ أنت.. سألوه: يا حاج أنت قادم من الخارج، كيف هو الجو.. غائم أم صاف؟ فأجاب الرجل العجوز: لم أنظر.. فمن شدة المطر لا يستطيع الإنسان النظر إلى السماء.. لا أعرف أكان صحواً أم غائماً..

ضحك الجميع.

– إذن هو بارد.. أربعينية الشتاء عادت ثانيةً.

كان الليل يزحف في السماء دون أن يشعروا بمرور هذه الساعات، ترك الضيوف أهل البيت، فيما خرج خليل برفقة عبد الرحمن وتحدث إليه دون أن يسمعه أحد، وما لبث أن عاد إلى الداخل، بعد أن تفرق الضيوف كل واحد باتجاه بيته وسط الظلمة.

- 13 -

السماء ترسل حبالاً من المطر إلى السهول والوديان، قمم (دولا سكَاه – Dola Segah) في الجهة الجنوبية الشرقية إلى الأعلى من تريان، كانت مغطاةً ببقايا رقع ثلجية متباعدة، سلسلة الجبال وراء حاجز من السحاب بدت مقسَّمة إلى نصفين، الجنود على شكل مجموعات منتشرين في سفوح القمم المتجاورة، متكورين تحت مشمعاتهم الفردية.

في البداية اتخذوا التدابير اللازمة، فزادوا من نقاط الحراسة، ظل الجميع في حالة التأهب والجاهزية التامة، فمثل هذه اللحظات تكون مناسبة جداً لهجمات الكَريلا، كما علق آروول قبل غروب الشمس، وهو واقف مغطياً نفسه كالجميع بالمشمع العسكري: الإرهابيون مثل الذئاب يعشقون الأجواء الضبابية، تماماً كالأجواء التي نحن فيها الآن، وأكثر النقاط أهمية، والتي يجب التدقيق فيها أثناء عمليات حملات التمشيط ثلاث.. أولها: الكمائن، نصبهم للكمائن في طرق تقدم وحداتنا العسكرية، هو أحد أساليبهم الأساسية، أما النقطة الثانية فهي قيامهم بهجمات ليلية مفاجئة على مواقع تمركزنا في مثل هذه الأماكن، وخاصةً في مثل هذه الظروف، والثالثة والتي هي من أعمالهم زراعة الألغام، لذا يتوجب الحذر وكشف

الخنادق بأجهزة كشف الألغام Dedektor.. يمنع دخول أحد من الجنود إلى الخنادق القديمة وعبور منافذ الطرق الجبلية الإجبارية البعيدة عن تردد السكان المدنيين إليها دون الكشف المسبق.

ما إن أسدل الليل ستاره، حتى ارتفع عواء الذئاب حولهم من جميع الجهات، بعد تفريغ القرى ومنع وصول الگوجر (البدو) مع قطعانهم إلى هذه القمم، الوحوش التي تتكاثر وتصبح أعدادها أضعافاً متضاعفة، لم تعد تخاف البشر، تمرح حرة طليقة في خلاء هذه القمم والوديان.

بدأ يهطل مزيج من المطر والثلج، حتى في أربعينية الصيف، إذا هطل المطر في هذه القمم سرعان ما يتحول ثلجاً، البرودة في هذه المرتفعات تكون قاتلةً أحياناً، خاصة للذين لم يتأقلموا معها، تأتي كلسعات نار السعير، أغلب هؤلاء الجنود قادمون من المتروبولات من داخل تركيا ببشرتهم الأنثوية، كيف ستكون لهم القدرة على الصمود؟!

جيد أن بدأ الأمر من قائد العملية آروول، بدأ يشتم على طريقته وهو يقول علناً:

أبناء (..) اتصلنا بالمركز وسألناهم مسبقاً عن الأحوال الجوية، أخبرونا أن الجو خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة سيكون صحواً ومناسباً، فاتخذ قرار الخروج إلى عملية التمشيط هذه.

يتصل بالمركز بشكل متكرر ليقدم تقريراً عن الأوضاع، وحالة الجنود والحماة، لكن المركز مصر على موقفه الرافض لإنهاء العملية، الحوامات كذلك لا تستطيع التحليق في هذه الظروف، فالرياح قوية والغيوم

انخفضت لدرجة أنها غطت المرتفعات وحجبت الوديان، المكالمات اللاسلكية لا تتوقف:

- الظروف سيئة جداً وحالة الطقس غير محتملة يا سيدي، الثلج يتساقط بغزارة.

- تدبروا أموركم بالمشمعات الفردية للعناصر.. وانتظروا حتى صباح الغد.

ما فائدة المشمعات في تلك القمم التي تصفر رياحها كأزيز الرصاص؟ وأمطارها تمتزج بالثلج؟ تلاصق عناصر المجموعات ببعضهم ضمن الخنادق دون حركة، أطرافهم تتخدر، تسري في رءوس أصابع الأقدام وخزاتٌ غير محتملة، في تلك الحالة بدا أنهم لا يشعرون إن كانت أكتافهم لا تزال في مكانها أم لا، لا وجود للحطب في تلك المرتفعات، كونها جرداء، لا شيء سوى الصخور المفتتة يحتمون بها، بعضهم يحاول ممارسة التمارين الرياضية كي لا تتجمد أطرافهم، وما إن يتوقفوا عن الحركة لثوانٍ تعود حالتهم إلى ما كانت عليه.

قادة الفصائل والحماة أخبروا آroول أن الوضع يزداد سوءاً، وإذا لم يتم التحرك وفعل شيء، حتى الصباح، فإن معظم الجنود سيتجمدون وتشل أطرافهم، وسيقعون فريسة للمرض.

بدأ آروول جولة جديدة من الاتصالات مع القيادة، وصل الأمر إلى حالة لم يعد هنالك فيها قوانين، أو التقيد بأدب المخاطبة العسكرية، حسب محددات التسلسل للرتب والدرجات العسكرية، فضحوا حقيقتهم أمام

الجنود والحماة من خلال محادثاتهم اللاسلكية.

ففي تلك القمم تحدثوا كيفما كان مع بعضهم، وعلناً كانوا يشتمون قادتهم، قائلين: إنهم في مكاتبهم.. بجانب المدافئ ونحن «..» لماذا سيهتمون؟ بمن فيهم آroول الذي كان أكثرهم حنقاً رغم أن له خيمة صغيرة خاصة بالقيادة.

هدف عملية التمشيط هذه جاءت على أثر حصولهم على معلوماتٍ، تفيد عن تحركات الگريلا في تلك الجهة، كان تحرك الجنود وفق خطة عسكرية، أعدت على الشكل التالي:

في اليوم الأول: التمركز على القمم الإستراتيجية في تلك الجهة واتخاذ حالة الحماية، في اليوم الثاني: منذ الصباح الباكر البدء بتمشيط أطراف القمم والمرتفعات المجاورة، من تلال وجروف صخرية، ثم النزول إلى الوديان ونقاط تعسكر الگريلا المحتملة، الانسحاب والعودة سيكون في اليوم الثالث ظهراً.

ظروف المناخ غيرت وأفسدت كل شيء، ولو بقوا في تلك القمم دون حدوث أي هجمات من الگريلا، وبهذه الحالة حتى الصباح لن يستطيع أي جندي أو أحد من الحماة النوم، وسيكونون بذلك قد أمضوا ليلتين ويوماً دون أن يناموا، فكيف سيقومون بالتحرك؟

كُلّف مسئول الاتصالات اللاسلكية لدى آروول، بإدارة أمور الاتصال، وكانت الاتصالات في البداية تتم وفق شيفرة من الأرقام؛ الأرقام (54..43..48..13)، بعد فترة لم تبق هنالك لا شيفرات ولا

من يحزنون.

حبس العريف أرطغول أنفاسه محدثاً القيادة، وقال بلهجة رصينة:

- سيدي، الأمور غير محتملة، معظم الجنود يفقدون وعيهم، والبعض تجمد، ولا نعرف ماذا نفعل لهم وسط هذه الظلمة، الثلج على الأرض يزيد على المتر، ولا توجد أي تدابير من أجله، وبدون النار سيتجمد معظم الجنود بحلول الصباح.

- التعليمات لا تُناقش، أيها (..) لماذا تتحدثون بهذه العلنية؟ تحدثوا بالشيفرات.

كمن فقد عقله حسب النظام العسكري أجاب أرطغول:

- الأوضاع هنا ليست كما هي في الوديان يا سيدي.

بدأوا يضخمون الأوضاع بزيادة الثلج، وفعلاً بعض الجنود أصبحوا شبه مجمدين يفقدون وعيهم، أعطوا صورة وكأنهم وسط جهنم، استمر الوضع بهذه الصورة، وفعلاً بدأت الظروف تسوء أكثر، في حوالي منتصف الليل، جاءت التعليمات أخيراً على الشكل التالي: أوامر مركز القيادة تشمل عودة كافة الوحدات إلى مراكزها.

ما إن انتشر الخبر، حتى دبت حالة تشبه حالة القطيع الذي هاجمته ذئابٌ جائعة في تلك المرتفعات، بسماع الخبر حدث انفلات وحالة من الأنانية الغريزية لدى الجنود، غريزة التشبث بالحياة، داهم كيانهم شوق لذة الدفء، لم يعد هنالك، لا نظام ولا انضباط، اختلط الجنود بالحماة، لم يعد هنالك مجموعات أو وحدات، قادة أو مرءوسون.. جميعهم على

عجل، يريد الهرب نحو الثكنة والقرية.. مر أحدهم بجانب حمو وهمس له بالكردية:

- شوف (..) أبناء (..) انظر ماذا يفعلون بنا.. ألا ترى يا حمو؟

كان الجندي مصطفى من قال ذلك، عرفه حمو من صوته رغم البرودة التي تغير صوت المرء بشكل كبير، كالعادة تقدم بعض الحماة الجنود، كونهم يعرفون الطرق الجبلية، تخلص الجميع من حمولاتهم الثانوية التي جاءوا بها معهم من أجل الأيام الثلاثة، كالمعلبات وغيرها من الأطعمة، فما إن سمعوا الخبر حتى بدأ كل واحد منهم، يرمي المعلبات خلسة إلى أطراف القمم التي يمكثون فيها.

وبخفة تلك الأحمال، وكما يُفتح باب الإسطبل وتتدافع منه الأحصنة والبغال إلى الخارج بدأوا النزول، كان أحد الجنود قد تجمدت أطرافه، فكُلّف بحمله اثنان من الجنود واثنان من الحماة بإمرة قلنكَ بن كَرو، وأحد الحماة هو حمو، فاضطروا أن يتخلفوا عن بقية الرتل وهم يتبادلون حمله، كان الجنود بالكاد يستطيعون النزول، بينما أصبح الجندي الكسيح حملاً إضافياً فوق حمل حمو.

وصل حمو ومن معه، بعد وصول الرتل إلى الثكنة بساعة، وهم يشقون طريقهم وبصعوبة، يتابعون الطريق الذي شقه الآخرون في القمم وسط الثلوج، العاصفة سرعان ما كانت تردم الشق الذي سلكه الآخرون.. والأرض تحت الثلج كانت قد تشبعت بالماء، ونتيجة تساقط الثلج قد تجمدت، أصبحت الأرض تحت طبقة الثلج كالصابون تتزحلق الأقدام

عليها، كلما تقدموا في النزول، كان نسبة المطر تزداد على حساب الثلج.. وعندما صاروا على أطراف الثكنة لم يبق إلا المطر.. الطريق لم يبق منه مكان ولو بحجم راحة الكف إلا وقد اكتسى بالطين، دون أن نذكر الماء الذي بدأ يتقطر منهم من قمة الرأس حتى أخمص القدمين.

ما إن وصلوا وسلموا الجندي إلى مستوصف الثكنة، حتى توزعوا إلى بيوتهم، تاركين تدابير الحراسة للجنود والحماة المناوبين، ممَّنْ لم يخرج معهم وبقيت مناوباتهم في الثكنة وعلى أطراف القرية.

سار حمو وقلنكَ وسط ظلمة الليل بين الأزقة، الظلام دامس إلى درجة أنك لو وضعت أصابعك أمام عينيك مباشرة لا تراها، الليل بطبعه يفرض وحشة مخيفة، فكيف للأرض أن تُرى وسط هذا الظلام؟ البيوت تبدو كالأشباح وسط الضباب، ما إن اقتربوا من بيت المختار حتى نزع قلنكَ قبعته، مسح جبينه بكُمه وقال:

– أين ستذهب بهذه الحالة يا حمو؟

فأجابه حمو محتفظاً بهدوئه:

– ماذا تقصد؟

– ما رأيك لو تذهب معي إلى البيت؟ ستبدل ثيابك عندنا ونرتشف معاً كأساً من الشاي الساخن.. من بين يدي زينب.

استغرب حمو من هذه الدعوة وتساءل: «ليس من عادته!» فأجاب:

– شكراً.. يا قلنكَ الوقت متأخر.

ولكنه فعلاً يبدو أنه جاد في دعوته، وأصر:

- حمو، أنت الآن وحيد، ولم تعد بهار بعد.. من سيغسل لك ثيابك؟ إن زينب بمثابة أخت لك، فهي شهمة يا حمو، إنها زوجة مثالية، ولا تقصر في شيء، ليت كل نساء القرية مثل زوجتي زينب.

ذلك حرك خيال حمو وأعاد صورتها نصف عارية مع ذلك الضابط، في تلك الليلة وهو يقول في نفسه: «زوجة مثالية؟ آه يا قلنكَ.. والدك يبدو أنه بلاء رأسك أنت أيضاً.. المسكين لا يعرف حقيقة زينب بعد».. لكنه أجاب باحترام:

- شكراً لك يا قلنكَ.

رفض حتى ارتشاف كأسٍ من الشاي عنده، متحججاً بأن الوقت غير مناسب ومتأخر، افترقا، وصل حمو إلى بيته وكان كَرناس وحيداً وقد غطّ في نومٍ عميق، بينما كان ينزع حمو ثيابه عاودته الذكرى، ومن طبيعة الليل أن يحفِّز في المرء الذكريات، تذكر حمو الأحداث بدءاً من وفاة والده وصولاً إلى وضعه الأخير وما مر به، وبدت جميعها في حلكة الليل سوادًا.

صفير الرياح وهمهمتها تضرب النوافذ، كانت ريحاً شديدة البرودة، تحمل معها ما يسقط من حبات المطر الممزوجة بالثلج، بينما التهى قلنكَ لفترة قصيرة في بيت والده كَرو الملاصق لبيته، الذي خصص له منذ زواجه، ثم قام وتوجه إلى بيته وهو بتلك الحالة، وما إن اقترب من باب البيت، حتى نسي صقيع تلك القمم، وهو يقول كمن يحدّث نفسه: «وأخيراً وصلت إلى زينب.. الدفء.. ستقوم بمساعدتي لنزع ألبستي.. جواربي، وتعد لي ماءً ساخناً.. وستدفئني، أما الفراش.. يا إلهي إنه عش

وليس مجرد فراش. سأنام حتى مساء الغد».

تلك الرغبات الغريزية المجنونة، دفعت به إلى ألا يتمالك نفسه من الدخول بهدوئه المعهود، فجرى مسرعاً ليفاجئها، كونها تعلم أنهم سيبقون لثلاثة أيام في الجبل، فتح الباب بعنف وبسرعة، ما إن أصبح داخل غرفة النوم، حتى تحجر مكانه كصخرة.. ماذا يجري هنا؟ أَحُلمٌ هذا الذي أراه أم حقيقة؟ هل أصابني البرد وبدأت أتوهم.. أرى أشباحاً أمامي؟ ما هذا يا إلهي؟ زينب عارية ومعها رجل.. من هذا الذي معها؟ لقد ألقى الهول على بصره غشاوة للحظات، فلم يستطع أن يميز الأشياء.. كل شيء كالبرق.. استيقظ يا قلنكَ.. أنت لست في حلم ولا تتوهم.. زينب تخونني، يا إلهي ما الذي أراه؟، أراد قلنكَ أن يصرخ.. ولكن خانه لسانه وتعقّد، وتعطلت حواسه منذ لحظة دخوله.

كان اللهاث يقطع أنفاسهما، شعر قلنكَ أن أنفاسه هي التي انقطعت، وأحسّ بدوارٍ في رأسه، دارت الدنيا أمام عينيه واسودّت، عندما وقع بصرهما على القادم، بدرت منهما صرخة اندهاشٍ، وانفصلا عن بعضهما، صدرت من زينب صرخة جنونية مرتعدة وخائفة، أصيبت بالهلع لحظة رؤيتها لـقلنكَ.. لهثت مرتعبة وقالت:

– قلنكَ؟ قلنكَ.. أنت.. أنت؟ يا إلهي.. ألم تذهبوا إلى الجبل؟ قلنكَ.

غطت جسدها العاري بالوسادة وهي فوق الفراش، وبدأت تسحب بجسدها كالأفعى في تراجعها، أما الآخر فتحرك بسرعة البرق محاولا لململة لباسه.. ليغطي به عورته.

- أنت؟ أنت أيها الكلب كمال (الشاويش)؟ أيها..

لم يعط الشاويش كمال أيّ مجال ليسدد قلنكَ بندقيته نحوه، حمل ثيابه العسكرية وقفز نحو قلنكَ، ضربه ضربة بكوعه الأيمن، ودفعه بكامل ثقل جسده، أزاحه عن الطريق، كان الباب ما يزال مفتوحاً، وبلمح البصر فر نحو الخارج.

تسديدة البندقية والطلقات التي أُطلِقت، أحدثت دوياً في أركان البيت، سبب انطفاء النور وامتلاء جو الغرفة بالغبار، الذي صدر من الجدران والسقف، وانتشرت رائحة البارود، رافق هذا الدويَّ صرخة صدرت من زينب، سرعان ما تحولت إلى أنات قوية، ثم خفت تدريجيا حتى انقطعت.

لم يسمع معظم القرويين دوي الطلقات، نتيجة تداخل جلجلة الصواعق بين الحين والآخر، وهمهمة الرياح، وحتى لو سمعوها، فالأمر بالنسبة لهم بات شبه طبيعي، في كل الليالي بين الحين والآخر يتم إطلاق مثل هذه الرشقات من قبل حراس الثكنة، لم يعرف أحد بالأمر سوى عائلته والجيران، الذين تجمعوا بسبب الصرخات التي صدرت.

لم يكن حمو قد تدثر في فراشه بعد، حين سمع صوت إطلاق النار، عرف أن الطلقات صدرت من وسط القرية لكنه كالآخرين استقبل الأمر بصورة طبيعية «إنها رشقات تنبيهية لا أكثر.. ليس هنالك من تبادل لإطلاق النار أو ما شابه ذلك»، وسرعان ما غط في نوم عميق.

كانت الشمس قد أشرقت، وأصبح الجو صحوًا، وكما هو معروف عن جو الربيع، إنه يتقلب في اليوم عشرات المرات أحياناً، الليلة الماضية كانت

عالماً آخر، فجو البارحة مختلف تماماً عن اليوم، كأن فصلاً كاملاً انقضى أثناء تلك الساعات المعدودة.

كان يغط في نوم عميق، استيقظ على صوت أحد يلهث ويقفز إلى السرير مرتعداً: بابا.. بابًا، والنائم عندما يستيقظ يكون في حالة من التشتت ولم يستجمع قواه العقلية تماماً، وإذ واجه شخصاً في حالة من الرعب والهلع كادت تعديه وتصيبه هو الآخر، هذا الشخص كان ابنه كَرناس الذي سبقه في الاستيقاظ، وأخذ البقرة والفرس إلى القطيع، فمنذ أن غادرت والدته أصبح هذا من مهامه عندما يكون والده غائباً.

- ماذا جرى لك؟ ماذا هناك يا كَرناس؟ لماذا ترتجف هكذا؟ هل أصابك البرد؟

- أي برد يا أبي.. ألا تعرف ما الذي حدث؟

- ماذا حدث؟ قل لي.

- قلنكَ يا أبي.. يقولون إن قلنكَ قتل زينب.

اندهش حمو ولا يدري كيف انتصب واقفاً بشكل فجائي، وأصبح في استيقاظٍ كامل لحظة سماعه تلك الكلمة.

- قتل زينب! من قال ذلك؟

- أبي.. الجنود وأهل القرية مجتمعون هناك، والنساء يصرخن، اخرج لترَى.

لدى خروجه ذهُلَ حمو مما يجري من بعيد، فعلاً كان عدد كبير من جنود الثكنة حول بيت المختار، مدججين بكامل عتادهم في الأزقة، النساء

والرجال والأطفال، وكأن عرساً يقام هناك، والجنود نصبوا أسلحتهم الرشاشة فوق الأسطح.

مشى حمو عائداً إلى بيته بعد أن فهم الأمر، وأن الجنود ألقوا القبض على قلنكَ وأخذوه إلى الثكنة، من حسن حظه أن الشاويش كمال لم يجد فرصة كافية ليجمع كل أغراضه، فقد سقطت بعض من أوراقه ومن ثيابه الداخلية، فكانت إثباتاً للحقيقة، وإلا لكانوا حولوا الأمر إلى تهمة وألبسوها إياه.

ما إن وصل حمو، حتى جلس في مكانه المعتاد، في أرض الدار فوق حجارة درج الباب المنحوتة بإتقان، مسنداً ظهره إلى جدار بيته، معرضاً جسده للشمس، هه، البارحة كان يحدثني عن الالتزام.. كيف أتمسك بسلاحي ويقول: «إن TC تبقى دولتنا، هؤلاء الإرهابيون في الجبل كفار يجب ألا ننخدع بهم، الدولة تقدم لنا كل شيء، الراتب الذي يدفعونه لنا، لا يدفعونه لضباطهم، لولا هذه الثكنة لكان الإرهابيون أحرقوا القرية منذ فترة طويلة، هؤلاء الضباط يضحون بدمائهم من أجل حمايتنا، حتى وإن ضربونا أحياناً، فذلك من أجل مصلحتنا، يجب أن نحترمهم.. فهم كإخوتنا الكبار».

«إيه.. إيه.. هه..إخوة كبار.. تتحدث عنهم يا قلنكَ؟ يجعلوننا نزوِّج زوجاتنا.. يغتصبونهن.. ويأخذوننا إلى حملات التمشيط لملاحقة مَن في الجبل، فإما أن نَقتُلَ أو نُقتَل، كم نحن سُذّج! وهل هذه المرة الأولى التي فعلت زينب ذلك؟ كانت قد أصبحت (..) وأنت لا تدري، أعرف جيداً

أنت أحمق، وأن ما تقوله وتفعله هو مما يفصّله والدك، رأس الأفعى».

بدأ هدير حوامة يعلو شيئاً فشيئاً لاقترابها من المنطقة، ثم أصبحت مرئية للأعين وهي تقترب، وصلت وحطت في الثكنة، ودون أن تطيل المكوث ارتفعت وعادت من حيث جاءت، يبدو أنهم أخذوهما إلى سيرت.

كان الجمع ما زال حول بيت كَرو، منهم مَنْ هو منهمك بالصراخ والبكاء والنحيب، من العار الذي لحق بهم، وخاصة أهل زينب، وكَرو كان غير مبالٍ كأن شيئاً لم يحدث، وهو يجوب وسط الجمع من مكان إلى آخر، وبيده بندقيته مثل أي جندي.

لم يعد حمو يحتمل، ولا يعرف سبب الدوار الذي أصابه، هل السبب هو ما يجري حوله أم لإصابته البارحة بالبرد؟ لم يعد رأسه يحتمل أكثر، أخرج من جيب قميصه حبة أسبرين وتناولها، ثم الثانية، فالثالثة.. لكن دون جدوى، فتمدد في مكانه محاولاً أن ينسى ما يجري، شعر بارتخاء غزا كل أنحاء جسده، «ترى كم يوماً ستستغرق عودة بهار.. كم يوماً يا حمو؟ يجب أن أذهب إلى الملا وأذكره، ليقوم ديكو بالطلاق وأعيدها بسرعة.. لكن الملا يعرف ولا بد أنه سيقوم بذلك من تلقاء نفسه، مع ذلك يجب أن أذهب بنفسي وأذكره، لا أستطيع تحمل حياة كهذه، أنا وكَرناس هنا، وكَلي والصغير في بيت حماتي.. كيف أنتظر انتهاء عدتها؟ ولكن على الأقل سأكون مطمئناً عليها في بيت حماتي وأنها ستعود إلي مع الأطفال.

توقف وأعاد كلمة حماتي وبدأ يستهزئ من نفسه: «حماتي.. وهل هي حماتي.. الآن بعد كل الذي حصل؟ حماتي أم حماة ديكو؟ هذا مؤقت يا

حمو وسوف يتغير الوضع، إنها مؤقتاً حماة ديكو وليست حماتي.. إنها الآن تعتني بأولادي إلى أن أعيد بهار.. بهار ستعيد الحياة إلى هذا البيت ثانيةً.. هذا البيت الذي تحول بعد خروجها منه إلى شبه خرابة مهجورة، يا إلهي كم كان دورها أساسياً في حياتنا! فمنذ أن خرجت لم يعد لدي رغبة بالبقاء في البيت حتى ولو لساعة واحدة، أشعر أن الوحدة ستقتلني.. نعم، ستقتلك هذه الوحدة يا حمو».

ولكن ما لم يدركه حمو هو أن كل إنسان لا بد أن يغدو يوماً ما يتيماً.

- 14 -

الحرارة تمتص رطوبة التراب، فترتفع من قشرة الأرض على شكل ألسنة دخان خفيف ناعم، لبست الطبيعة حلتها الجديدة بعد تخلصها من لباسها المهترئ، عدا قمم هركَول التي تأبى الرضوخ، أطرافه أصبحت عارية من الثلوج، توحد شكل الطبيعة في المرتفعات والوديان والسهول، الأنهار والجداول في أوج جريانها وتدفقها.. تجرف معها قطع الأشجار وحطامها، وتقتلع بعضاً من جذورها، تتدحرج الصخور والحجارة، وعند وقوعها في المجرى تصدر دوياً يصم الآذان، وتردد المنحدرات الصخرية صداها، لينتشر في كل مكان من القرية.

عددٌ من الجنود لا يُعرف ما إن كانوا في جدال أم نقاش، يدور بينهم حديثٌ بصورة غير رسمية، وأحياناً يبدون غارقين في تفكيرٍ عميق ومتأزم.. كما يعرف عن الجنود وكيف يكونون في حالة ساعات الفراغ كعاطلين، كل منهم يبحث عن شيء يملأ به وقت فراغه، لكن الوضع هنا مختلف تماماً، فكل شيء من حولهم أصبح يوحي بالموت، ها هو الربيع، نفضت المرتفعات الثلوج عن جسدها، واتضحت معالم التضاريس، وانفتحت على مصاريعها أمام تحركات الكَريلا، شروق الشمس وبداية

الربيع أصبحا مكروهين لدى الجنود.

كان قورتاي ينظر إلى قرص الشمس، بعد أن أطل من وراء قمم هركَول، مسنداً ذقنه إلى راحة يده اليمنى وممسكاً بقبضة يده اليسرى، أسفل فوهة سلاح «G3»، يا ترى ماذا يدور في خلده؟ في تلافيف دماغه؟ في سكونه ذاك؟

خفف ضغط إسناد ذقنه إلى راحته لإفساح المجال لفكيه، ليتمكن من الكلام، وقال:

- أتعرفون؟ آه لو لم تكن هذه الشمس.. لكنا في راحة تامة.

مصطفى الذي كان يدير ظهره إليه مستغرقاً مثله في التفكير، لكن نظره كان متجهاً نحو القرية، منذ أن أنارها ضوء الشمس وأيقظ كل شيء، كان يرى فيها فسحة من الحزن، ما تزال تحت تأثير الحادثة التي حصلت، فأدار وجهه إلى قورتاي وقال:

- أتدري أنت أيضاً؟ لولا هذه الشمس لبقيت هذه القرية في الظلام وإلى الأبد.

- ماذا تقصد يا مصطفى؟ سأل جندي يلهو بقبعته العسكرية.

- لا أدري ماذا يقصد. قورتاي.

عدّل قورتاي جلسته وأكمل بغيظ:

- لولا هذه الشمس لما ذابت الثلوج، ولبقينا بأمان من الخطر القادم من القمم.

تدخل الجندي الذي كان يسند ظهره إلى حجرة من حجارة الخندق

وقال باستهزاء:

- لقد خرف مصطفى.. إنه يهذي.. ألا تتخلى عن أفكارك المتخلفة تلك يا مصطفى؟ التفت إلى قورتاي وأكمل: انظر إليه يا قورتاي ما شاء الله.. لقد أصبح فيلسوفاً.. منذ أن جاء إلى هذه الثكنة، أنا أعرفه منذ مدة طويلة ولم تكن دنياه سوى سيجارته، أما اليوم..

يقاطعه الجندي الآخر:

- اليوم يحلل الشمس والثلوج..

تلك هي الحقيقة.. فالجنود ليسوا مخطئين عندما يقولون عن هركَول، إنها فيتنام مصغرة.

تابع قورتاي بعصبيته المعتادة:

- صحيح.. ولكن السؤال هو: «متى تتحول هذه المرتفعات إلى ما نسميها نحن الجنود»؟.. أليس عندما ترتفع هذه النقطة المضيئة اللعينة؟ مشيرا بيده إلى قرص الشمس.. أليس عندما ترتفع حرارتها وتنظف قمم الجبال من الثلوج.. وتفتح المجال لتحركات الإرهابيين في كل مكان؟ عندها لا نجرؤ ولا نستطيع النوم ساعة بهناء، لا الليل ليل ولا النهار نهار، وبالرغم من كل ذلك.. ها هو فيلسوفنا مصطفى يريد أن تكون الشمس مشرقة دائماً وأبداً.

أجاب مصطفى مغتاظاً:

- إذا كانت الشمس مشرقة.. فإن أمثال الشاويش كمال لا يستطيعون فعل ما قام به، لولاها إلى أين كانت ستئول الأمور الآن؟

- لقد بدأت تَجرؤ على الدخول في السياسة يا مصطفى.

ركّز قورتاي من وضعية جلوسه بعد أن أسند سلاحه إلى أكياس التراب المرصوصة فوق بعضها بعضاً، على شكل جدارٍ حول الخندق، وأجاب:

- ما ذنب الشاويش يا مصطفى؟ لو حصل وقبلت بك امرأة مثل زينب، قسماً لما قصرت، وكنتَ فعلت ليس فقط كما فعل كمال، بل الله وحده يعلم ماذا كنت ستفعل أيضاً.

- لست منحطاً كما تتصور يا قورتاي.

- ما علاقتك بالأمر؟ أريد أن أفهم.. هل هي أختك؟ زوجتك؟ أم لأنك أيضاً (..) آه.. لم أكن أعلم لماذا كان مصطفى يذهب إلى بيت كَرو.

احمرّ وجه مصطفى من الغيظ والحنق، وبدأ يراقب من حوله، نظر بغضب إلى ما حوله، أشاح بوجهه عن زملائه ببطء، وأخذ يتأمل التمعن في لباسه العسكري، من أسفل قدميه إلى ما تستطيع أن تراه عيناه وكبت أنفاسه، شملت نظرته على شيءٍ من الكره، ولم يكن فيها إلا احتقارٌ هادئ، كمن ينسحب من الحديث، عاد إلى وضعه الأول، مطلقاً العنان لنظره إلى البعيد.. القرية.. الوديان.. الجبال، حينئذ انبجست في رأسه فكرة فلسفية غريبة هو نفسه احتار كيف جاءته، مفادها: «إن سعادة الإنسان ليست في الاعتداء على أعراض الناس وقتلهم، بل في التضحية بنفسه من أجلهم».. بينما زملاؤه مستمرون بالثرثرة، ويلعنون الشمس والربيع واليوم الذي تم فيه فرزهم وانتقالهم إلى هذه الثكنة.

بعد منتصف النهار تكون كتل الغيوم الربيعية غاية في الجمال والجلال،

تتغير أشكالها ببطءٍ وهدوءٍ تام، كأنها عجينة من الألوان.. تتجسم على شكل طيور، وأحياناً على شكل حيواناتٍ مجنحة، صور لوحوش خرافية أو كتلٍ جبلية، كأنه يُعرَض أمامك فيلم سينمائي.. عن العصور البدائية للكون، أو فيلم مصور لأساطير خرافية عن الغيلان والوعول، الجن والعفاريت.

استمر الوضع بتلك الصورة، حتى تحولت الشمس إلى جهة الغرب، وأصبح فيلماً بالألوان، فكست تلك الأشكال الخيالية ألوان الجمر، البرتقالي المحمر، يتداخل بين الفراغات لونٌ أزرق صاف، مخضر، وأجزاء ذهبية.

قرص الشمس يقطعه من الوسط خط متعرج من الغيوم، ثم أصبح الخط إلى الأعلى قليلاً، ثم القسم العلوي، بدا قرص الشمس على شكل صاج الخبز محمراً، جُرِدت من أشعتها وخطوطها الذهبية، بدت كما لو أنها كرة حمراء قانية، توقفت هكذا في الهواء الطلق، بينما القرية.. الوديان.. الجبال كانت قد أُسدِلت عليها ستارةٌ سوداء، والظلمة برزت مثل الجن، على شكل ألسنة الضباب من جوف الأرض.

لم يكن صوت المؤذن قد ارتفع لصلاة العشاء، حين عمت فوضى وحالة غير طبيعية في الثكنة، عندما عاد قورتاي من دوريته ليعطي تقريره إلى الضابط المناوب وهو يقول:

– ما إن وصلنا إلى أعلى المنحدر الذي يطل على الوادي في الجهة الشمالية من القرية، هناك باعدنا المسافة بين الجندي والآخر لخطورة الموقف، كان

مصطفى الأخير في المجموعة، وفي مكان نصب الكمين المؤقت انتظرناه ليصعد ويستكشف الخنادق، لكنه تأخر في العودة، أخذنا الأمر بصورة طبيعية نظراً لوعورة المكان، توقعنا أنه تزحلق بشيء ما أو تأخره لسبب آخر، أصدرنا أصواتا على طريقة الإرهابيين، وانتظرناه، لكنه لم يظهر، فعدنا إلى الوادي، ولكن لم يكن له من أثرٍ.

– ماذا تقصد..! ماذا تتوقعون؟ سأل الضابط المناوب.

– لا أعرف سيدي الضابط.

– هل هنالك احتمال بأنه هرب؟

– سيدي إن مصطفى له أقارب كثر بين الإرهابيين، هنالك من قتلوا من بينهم، ثم إنه كان يحمل شيئاً من أفكارهم.

رُفع التقرير مباشرة إلى الـ«بين باشي»، وعلى الفور أُعلنت حالة الاستنفار، وتم طلب حضور كافة الـ(چتى) مباشرة، لم يكن قد مر ثلاثة أرباع الساعة حتى كان الجميع في ظلمة الليل وسط ساحة الثكنة، ودون أن يستطيع أحد مشاهدة ملامح رفيقه، كان آroول أمام الأرتال يخاطبهم:

– هذه الثكنة هي قدم الدولة.. وفي هذه النقطة تحديداً، وليعرف الجميع.. وراءها T.C الكبرى.. صاحبة الجيش المعروف بالجيش التركي الكبير.. يعرفه العالم أجمع كثاني أكبر جيش بين جيوش الناتو عدداً، تاريخ هذا الجيش معروف.. وصل إلى إفريقيا جنوباً وفيينا غرباً وكل دول البلقان، مَنْ لم يفهم ذلك بعد فليفهمه، حفنة من الانفصاليين الحفاة العراة يريدون أن يجزئوا وطننا، والبعض من أمثالهم يتعاملون معهم.

استمر خطابه:

- «شاهدتم بأم أعينكم.. ماذا جرى في إركند.. هناك البعض من أمثالهم في هذه القرية أيضاً إرهابيون، عندما يحين الوقت المناسب سنعرف كيف نتصرف معهم، قبل أيام كان بين الذين التحقوا بهم.. اثنان من هذه القرية، والأمر الأكثر فظاعة أن يكون أحدهم ابن أحد حماة هذه القرية.. لدينا معلومات تفيد بأن هناك من يمدونهم بالمساعدات، كيف يجرؤون على ذلك؟ ليس هذا فقط، الليلة أحد الجنود هرب بعتاده ولا بد أن يكون على علاقة سابقة مع أحد أولئك المتعاملين معهم في القرية.. كيف يتجرأ على الفرار في ظلمة الليل هذه، وحده ودون مساعدة أحد مع كامل عتاده العسكري؟ هذه الأمور سنعود إليها فيما بعد.

المواقع المحددة لكل فصيل ومجموعة سيكون حسب التوزيع، ستأخذون أماكنكم، وعلى الفور، أولاً سنقوم بحملة تمشيط وتكثيف الدوريات حول أطراف القرية، للبحث عن الهارب.. المجموعة التي تقوم بالقبض عليه ستحصل على مكافأة، وإذا التقيتم أو صادفتم أحداً لا ينصاع لإيعاز التوقف، أطلقوا عليه النار دون تردد.. ليكن من كان.. إنسانًا أم حيوانًا».

كان الليل قد تجاوز منتصفه، وهدأ كل شيء بعد موجة شرسة من نباح الكلاب، كانت قد اجتاحت القرية وأطرافها، تم نصب الكمائن على أطراف القرية، بعد عملية واسعة من التمشيط والبحث بين الحقول والبساتين.

كان حمو يرافق الوحدة التي مرت بجانب بيت ديكو، ولا يظهر من وسط الظلمة إلا ضوءٌ خافت من شقوق النافذة المطلة على الوادي نحو الشمال، عندما مر حمو من هناك، انتابه شعور بالقشعريرة، هي نفس الحالة التي كان يشعر بها عندما كان يعود من مهمة مثل هذه المهام الليلية، وهو يقترب من البيت ويجول في خاطره ذاك الدفء بجانب بهار.. بهار في الداخل يا حمو.. كيف هي زوجتك الآن؟ هل هي نائمة أم »..»؟ لا بد أنها مع ديكو في فراشٍ واحد.. آه يا حمو، كان من المفروض أن يكون طلاقها من ديكو قد تم حسب الاتفاق، لكن حوادث هذه الأيام لا تعطي المجال كما يقال: «حتى لحكّ الرأس».. القرية والقرويون في أي وضع وأنا في أي وضع؟ لم أعد أفهم شيئاً.. يكاد رأسي ينفجر.

كان حمو في عالمه الداخلي ذاك، نسي أنه في خندق، وما إن عاد إلى واقعه في ذلك المكان، حتى نشب في داخله صراع غريزي، فالغريزة وسط الحرب، هي مساحة الصراع الأكثر غالبية في حالة الإنسان النفسية، تلك الغريزة التي تتلخص في نقطة واحدة، ألا وهي الصراع ما بين الحياة والموت، ففي كل لحظة يحياها المرء يكون معرضاً لأن يفقد فيها حياته، هذا الصراع يدفع بـحمو ثانية إلى عالمه الداخلي: «آه يا حمو.. صحيح، ألا تسأل نفسك؟ ماذا لو حصل هجوم من الذين في الجبل وقُتِلت؟ نعم يا حمو، الموت».

شعر حمو مع آخر كلمة بأن كل أوصاله بدأت ترتعش، ولم يستطع أن يجزم ما إن كانت تلك الرعشات ناجمة عن برودة الليل أم انتابه الخوف

وسيطرت على شعوره حالة لم يعتد عليها، دائماً كان يتخذ مكانه في الخنادق الأمامية، متقدماً طوابير من الجنود، غير آبهٍ بشيء.

«ماذا جرى لك..؟ ركبتاك ترتجفان لا تستطيع تثبيتهما، ماذا جرى لك؟ هل أنت جبان لهذه الدرجة؟ كلا لست جباناً ولا تخاف بتاتاً، المسألة ليست مسألة خوف يا حمو ليست مسألة خوف، الحياة ليست بيد الإنسان؛ فالساعة عندما تحين سيتم ذلك أينما كنت، ولو كنت في بيتك وبمأمن، لقد قدر الله أن نعود من التمشيط في تلك الليلة ليرى قلنكَ زينب على تلك الحالة.. الله وحده العليم كم مرة فعلت ذلك ونجت بفعلتها، لكن تلك المرة كانت ساعتها قد حانت».

قطع سلسلة أفكاره صوت خافت لجندي ينادي قائده:

– قائدي «قوميتانم.. قوميتانم.. قوميتانم».

ترك قائد الوحدة مكانه وبدأ يقترب من الجندي بسرعة وهلع وبركبتين مثنيتين، ممسكاً بندقيته الجاهزة للتصويب بكلتا يديه، لم يسمع حمو إلا همساتهما، وهما يشيران إلى شجيراتٍ قريبة، عندها طلبا حمو، فاقترب منهما مباشرة، وبنفس الصورة شعر حمو بنبضات قلبه تخفق، وبدأ يسمع صوت دقاتها بوضوح، ثم تسارعت بصورة جنونية، لحد أنْ شعر أنَّ قلبه يكاد يقفز إلى الخارج، تحولت أنفاسه إلى لهاثٍ شديد، وكأنه يصعد جبلاً عالياً، رغم أنه واقف في مكانه منذ ساعات، القشعريرة تدب في كامل جسده.

– ما الأمر؟ نطق بتلك الكلمتين بصعوبة.

- انظر إلى هناك، هل ترى؟

نظر حمو جيداً إلى المكان المشار إليه.

- لا أرى شيئاً.. ماذا هناك؟

- ألا ترى ذلك الضوء الصغير؟ هنالك أحدٌ ما يدخن سيجارة.

- سيجارة؟! لا أرى شيئاً.

- انظر جيداً، وسط تلك الظلمة بين كومة الشجيرات، انظر عندما يسحب نفساً من سيجارته كيف تبرز جمرتها، فتظهر جيداً ثم تعود للانخفاض.. انظر.

راقب حمو وهو بنفس حالته، بهذه الصورة المحيرة، وقال بصوت مسموع:

- صحيح.. لقد شاهدته.

قائد الكمين بفزع أكبر، وأمسكه بغيظ من كتفه، ودون أن يباعد بين فكيه قال:

- اخفض صوتك، اخفض صوتك.

لكن حمو شعر بنوع من الهدوء والراحة دبا في جسده، وزالت الحالة التي انتابته بعد أن أخذ نفساً عميقاً، قال:

- قوميتانم، إنه «سراج الغول».. ليست بسيجارة.

- ماذا يعني «سراج الغول»..ماذا يكون؟ أهناك جن وعفاريت في القرية؟

- كلا قوميتانم، «سراج الغول» هي حشرة تشبه الصرصور.

- حشرة تفعل ذلك؟! لأول مرة أرى شيئاً كهذا! أمر لا يصدق! انظر إنها تضيء مثل السيجارة، فوسفورية اللون.

- صحيح «قوميتانم». قال حمو ذلك وقد كست وجهه غير الظاهر الملامح وسط الظلمة ابتسامة، التفت إلى قائد الوحدة وتابع:

- يقولون إن أنثى هذه الحشرة.. تفعل ذلك لإثارة الذكر وجذبه إليها.

- اللعنة عليها، لقد بثَّت فينا خوفاً بدلاً من إثارة ذكرها، كدت أن آمُرَ بفتح نيران الرشاشات عليها.

عاد حمو بهدوء إلى مكانه وجلس فوق العشب الذي جمعه في مكان جلوسه، غطى ركبتيه بمعطفٍ عسكري طويل، وهو مستغرب من الحالات التي تنتابه في هذه الليلة، «لماذا بدأت أرتعش فور أن ناداني قائد الكمين؟ هل كان ذلك بسبب البرد أم الخوف؟ في القمم كانت تصل الثلوج إلى ما فوق الركب، ولم تحدث معي مثل هذه الحالة، إذن هذا بسبب الخوف، ولكن الخوف من ماذا.. ولماذا؟ أيعقل أن يكون من الموت يا حمو»؟!

توقف بعض الشيء، بل أوقف دوران شريط الفيلم الذي يتسلسل في رأسه، فكر في الأمر جيداً.

«الموت، الموت من أجل ماذا يا حمو؟ من أجل ماذا؟ بل لماذا؟ لو حدث وأن.. ماذا سيحدث يا حمو؟ مجرد طلقة ستأتي في رأسي وأموت، نعم أموت».

ذهب بخياله إلى بهار، كيف كان يدفن وجهه بين شلال شعرها القاتم،

كسواد هذه الليلة، كان يبهجه أعظم البهجة، أن يرى رشاقتها ومرونتها الجميلة.. كيف لم أكن أعرف قيمة ذلك؟ أنا الأحمق.. كنت أفكر بزواجٍ آخر.

أعاد في خياله الليالي التي كان يقضيها، وهو يراقب أنامل بهار النحيفة، الماضية في أعمال التطريز تحت ضوء المصباح، وينير وجهها الجميل الناعم الرقيق.

إلهي.. إلهي كم هو شاسع، الفرق بين سواد ليلٍ قارسٍ موحشٍ مخيفٍ وسواد شلال شعرها، ذاك الشعر الذي ما كنت أدفن وجهي بينه حتى كنت أشعر بالدفء والأمان والحنان، آه يا بهار.. لو حدث ومُت لن تعودي إلى البيت ثانية، ستبقين هناك وسيستمر ديكو بدفن وجهه بين ذلك الشلال، أما كَرناس وكَلي والصغير سيصبحون يتامى الأب.. فقط يتامى الأب؟ سيصبحون يتامى الأب والأم.. أنا ميتٌ وأنتِ بين أحضان ديكو، من سيرعاهم وكيف سيكبرون؟

ابتلع ريقه، أو بالأحرى غصّ غصة، شعر وكأنه يبتلع صخرة من صخور هركَول.

«لماذا أموت؟ مِن أجل مَنْ يا حمو؟ من سيستفيد من موتي؟ ومن الخاسر والذي سيدفع الثمن؟ ألا يكفي ما ابتليت به؟ لقد جُرِّدتُ من كل شيءٍ.. كم كنتَ مجنوناً يا حمو.. أي جنون هذا الذي كنتَ فيه.. عندما كنتَ تتقدم أرتالاً من الجنود في حملات التمشيط، بمجرد سماعك بضع كلمات من آroول.. كنت تسخر من رفاقك الذين لا يتجرأون على تقدم أرتالهم».

مرة أخرى قطع صوتٌ تفكير حمو، كان هذا الصوت من الخندق الذي يلي الخندق الأول، توجه قائد الكمين ثانيةً إلى ذاك الخندق، بنفس الصورة التي كان عليها في المرة الأولى، وسرعان ما نادى متظاهراً الشجاعة:

- مَنْ أنت.. من هناك؟

لكن لا جواب، ثم كرر التنبيه ثانية، وتم تلقيم البنادق، جاء الجواب:

- أنا.. أنا.. أنا.

جاء ذلك الصوت الخافت من أسفل الخنادق في تلك الظلمة.

- مَنْ أنت؟

و على الفور:

- أنا.. أنا راعي البقر.

كان حمو قد أصبح مرة أخرى بجانب قائد الكمين، عندما سمع الجواب الأخير، بدأ ينادي بالكردية:

- مَنْ أنت؟

- أنا ديكو.

- ديندار؟ أهذا أنت؟

- نعم.. نعم.. هذا أنا.

تدخل قائد الكمين وهو يسأل حمو:

- هل عرفته؟ مَنْ هو؟ منْ هو؟ من الرعب لا يستطيع ربط الكلمات ببعضها بشكل واضح ومفهوم.

- إنه راعي أبقار القرية.

- راعي أبقار.. ماذا يفعل؟ ماذا يفعل في هذه الليلة خارج القرية؟ احذروا.. من الممكن أن تكون لعبة من ألعاب الإرهابيين، أن يكون مصطفى قد ذهب إليهم ويريدون أن يخدعونا بهذه الصورة.

أجاب الجندي الذي طلبه قائد الوحدة:

- سيدي.. إنها لعبة من ألعاب أولئك الشياطين، إنها لعبتهم، أقسم لك.

- تجرأ حمو ورفع رأسه من الخندق وراء جذع شجرة منتصب، سأل مرة أخرى:

- من معك يا ديندار؟

- أنا وحدي.. وحدي يا حمو. بينما كان يصدر خشخشة ناتجة عن تهشيم الأعشاب من الاتجاه الذي كان يتقدم منه.. لا أحد يفهم ماذا يفعل.

- تقدم.. تعال إلى هنا.. ارفع يديك.

لحظات وكان ديكو بوسطهم.. بدأ قائد الكمين، بعد أن استجمع جرأته وتوقف جسده قليلاً عن الارتعاش:

- بعد منتصف الليل.. ماذا تفعل هنا لوحدك؟ من أين أنت قادم؟ قل..

صفعه عدة صفعات، ثم أشار إلى جنديين متمركزين في نفس الخندق للقيام بتفتيشه، نُفِّذَ الأمر على وجه السرعة، وديكو منصاع للتفتيش بكل هدوء، بينما قائد الوحدة ما يزال يزعق، ونبرات صوته توضح أن موجة الخوف التي انتابته لم تنته بعد.

- قل لي ماذا تفعل في منتصف الليل وأين كنت.. من أين أنت قادم؟

يجيب ديكو محتفظاً بهدوئه:

– لقد ضلّ عجل من القطيع مع حلول الليل ولاحقته إلى أسفل القرية، لقد ابتعد كثيراً.. حل الليل واختفى العجل.

بدأ الضابط يتكلم بلهجة مستبدة:

– أنت تكذب، أين العجل؟

– لم أستطع الإمساك به.

الآن توضح كل شيء، تبددت شكوك حمو وتيقن يقيناً مطلقاً..أصبح يدرك تماماً من أين يأتي.. والسر وراء ليلة ذهاب يوسف وسرتاج إليه، في تلك الليلة وإلى قرية إركند، تماماً ليلة دخولهم القرية.. والتحاقهما بهم، واليوم يهرب مصطفى وديندار ليس في البيت، ها هو يعود بعد أن سلم مصطفى إليهم.. توقف حمو يقلب الحقيقة التي تجلت في رأسه.. هل يبوح بها؟ نعم قسماً هو على علاقة معهم، ولكن إذا أخبرت عنه ماذا سيكون مصير بهار؟! يبدو أنه أتخذ قراره وهو يقول بين نفسه: «كلا يا حمو.. يا أحمق، حتى بعيداً عن مسألة بهار.. لن أخبر أحداً بالأمر»، وعلى الفور تدخل لينقذ الموقف، قائلاً:

– سيدي.. «قوميتانم».. ألا تعرفه من قبل؟ إنه راعي قطيع القرية.

– من هو حتى أعرفه؟ هذا (..).

– قوميتانم.. ليس هذا ما أقصده، إنه أهبل يعني بعض مساميره ناقصة.. ليس كاملاً، كثيراً ما ينام في العراء والبراري.

هدأ قائد الكمين بعض الشيء وبدأ يصدر أصواتاً كمن يضحك

متسائلاً:

- أتعني أنه مجنون يا حمو؟!!

- لو لم يكن كذلك يا سيدي، فماذا يفعل هنا في منتصف الليل؟

- هل هو هكذا دائماً؟

- نعم سيدي.. إنه هكذا منذ أن توفي والداه.

عاد قائد الكمين متحدثاً إلى ديكو.. موجهاً إليه فوهة البندقية، كمن يريد أن يخيف مجنوناً فعلاً:

- سنقتلك بهذه البندقية إن خرجت مرة أخرى في الليل.. هل تسمع؟ هل تفهم ما أقوله؟

ولكن ديكو ظل صامتاً، كأنه أصم أبكم، دون أن يتفوه بأي كلمة، أو يبدي أي حركة.

تدخل حمو ثانية، وقال:

- إنه لا يفهم التركية.

- قل له ذلك.. مرة أخرى، إذا أمسكنا به سنقتله.. ممنوع الخروج من القرية ليلاً دون إذن.

ترجم حمو ما قاله قائد الكمين، ثم تركوا ديكو في حال سبيله، خرج ديكو من وسطهم وسار نحو البيت مختفياً في ظلمة الليل، ليعود الهدوء ثانية إلى خنادق الكمين، وحمو إلى عالم فيلمه مرة أخرى، وهو يصحح اللقطات التي كان قد تخيَّلها، ديكو على علاقة بهم وإن بهار كانت لوحدها في فراشها، كم كان فرح حمو غير المرئي كبيراً، عندما عرف أن

ديكو لم يكن بجانب بهار.. هذا يعني أن..

تدثر ديكو بلحافٍ قديم، متمدداً على قطعة اللباد بثيابه، بعيداً عن بهار التي كانت كحمامة راقدة في عشها، صمت الليل يخيم على الكون بكل هيبة ووحشة، يخطو خطواته مثل غيوم النهار، بتثاقلٍ وهدوء، كأن شروق الشمس لن يعود مرة أخرى، رغم أن لكل شيء موعده.

- 15 -

منذ برهة فرغت بهار تماماً من غسل الأواني وتنظيفها، وألقت بعضها فوق بعض، مكوّمة إياها على جانب النبع، لكن ليست لديها رغبة في النهوض، هناك سرٌ خفي يشل قدميها ويمنعها من ذلك.

كانت بشائر الصيف المفرح البهيج، تتوضح يوماً بعد آخر، نزعت منديل رأسها، وغمرت يديها في الماء الذي يتدفق من ثقبٍ، ثم مررتهما على شعرها، غاصت في أغوارها: «ما هو السر الخفي الذي يشل قدميكِ؟ أي قدر كُتب لكِ يا بهار؟ ماذا حصل للرجال؟ هل بتُّ لا أفهم شيئاً.. أم أن الدنيا تغيرت؟ كل شيء أصبح يختلف عما كان عليه، أين هي الأيام التي قضيتها منذ أن ولدت في هذه القرية؟ لم يعد من شيء كما كان.. حمو كان يخرج ليلاً وقلنا إنه من الحماة، كان لديه مناوبات حراسة وغيرها، ولكن ما بال ديندار؟ ديندار الذي كان بنظري ونظر جميع أهل القرية، مجرد راعي بقر.. ديكو المجنون.. أي جنون في ذلك؟ هل انقلبت هذه الدنيا رأساً على عقب.. المجانين أصبحوا عقلاء والعقلاء مجانين؟

بدأت بمقارنة في تلافيف دماغها، ما بين زوج الأمس وزوج اليوم، بين حمو وديندار.

«حمو كان معروفاً عنه، أين يذهب ومن أين يعود، سواء كان في النهار أم الليل، أما هذا الرجل فغريب أمره، يكتنف حياته غموض، عندما يغدو الليل تراه ملأ كيساً على شكل حقيبة الظهر، وأعدّ طعاماً خفيفاً ومن ثم يختفي، ولكن إلى أين؟ هل من الممكن أن يكون هذا الرجل مجنوناً فعلاً؟ عندما كنا أطفالاً كانت جدتي تقص علينا قصصاً عن الجن والعفاريت، وعلاقتهم ببعض البشر».

شعرت بخوف دبّ في كيانها، ما إن مرت في مخيلتها تلك الأمور، يا إلهي أيعقل هذا؟ أمن الممكن أن يكون فعلاً مجنوناً، أم لجنونه ساعات؟.. أن تكون له علاقة مع الجن، كما كانت تحكي لنا جدتي؟.. ولكن لم أجد فيه علامات الجنون.

اختفى ضياءٌ من الأمنيات العذبة عن ملامحها، بدأت تتذكر البعض من صور الجن التي كانت ترتسم صورهم وتتشكل في مخيلتها الصغيرة وهي طفلة.

هو كذلك يا بهار.. يا إلهي! عندما كانت جدتي تقص علينا تلك القصص، كانت تقول: الجن لا يظهرون في النهار.. فهو أيضاً يختفي ليلاً، هل يأخذ لهم الطعام؟ أيعقل أن تكون له علاقة بأولئك الجن؟ أو.. اندهشت بتذكرها قصة من قصص جدتها عن زواج فلاحٍ يتيمٍ من جنية، أيمكن أن يكون هو أيضاً كذلك؟ يا إلهي، أيكون السر وراء عدم زواجه حتى الآن، أن يكون متزوجاً من جنية؟ أي بلاءٍ ابتليتُ به يا إلهي؟ ما ذنبي يا رباه؟ أي قدر هذا الذي كتبته لي؟

أبصرت شخصاً قادماً نحو النبع، فوضعت الأواني فوق رأسها وانطلقت عائدة إلى البيت، تعدو كأنها صبية في مقتبل العمر، بعد أن زفرت زفيراً ملؤه اليأس، هبت آمالها مثل ذرات الغبار فوق أغوارها المكوية.

كانت قد قررت أن تقف عند الأمر، وتفهم هذا الغموض في حياة هذا الرجل، ها قد مرّ أكثر من أسبوعٍ على هذا الزواج، الذي كان مقرراً ألا يتعدى اليومين، ولكن من سوء حظ بهار.. وهي تتأوه: قدري، حظي أسود، وفعلاً ربما كان ذلك قدراً، أن يذهب الملا لزيارة ذويه في مدينة آمد «ديار بكر»، كان يجب ألا تتعدى زيارته تلك اليومين، وها قد مرّ أكثر من أسبوع، ولم يعد، أمر طلاقي بيده وهو متكفل بهذا الزواج.

حل الظلام وجلس ديكو ينظر إلى السقف متأملاً الشقوق التي فيه، رأى سحلية تمر في شق من شقوق الجدار، نسيج العنكبوت كان يتدلى من السقف بكثافة، بينما على صدغيه خيوط بيضاء، تظهر عند مفارق شعر رأسه، ولكن لم تكن تشعر المرء بكبر السن، استبد به نوعٌ من الحزن، منذ برهة كانت بهار قد فرغت من بعض واجباتها المنزلية وجلست تراقبه، ماذا يدور في رأس هذا الزوج المؤقت؟ ماذا قصد من كلامه، عندما طلبت أن أساعده في ترتيب أكياس التموين المتراصة في المطبخ، التي وصلت اليوم من المدينة، لا داعي لذلك، إنها ليست لنا، ما معنى إنها ليست لنا؟ إذن لمن هي؟ ولماذا أتي بها إلى هنا، إذا كانت من أجل التحضيرات الشتوية؟ ليس من عادة أي قروي أن يقوم بهذه التحضيرات ونحن ما نزال في الربيع،

كما تعودنا أن التحضيرات تتم في الأيام الأخيرة من الخريف، قبل سقوط الثلوج التي تقطع الطرق، لا مع ذوبانها؟ ثم إنه وحيد ماذا سيفعل بهذه الكمية الكبيرة؟ كنا عائلة مع ذلك لم يحدث أن قام حمو بشراء هكذا كمية دفعة واحدة..!!

عندما سألت لم يرد على ذلك بشيء، الملفت للنظر أن ديندار ليس بديكو المعروف، يوماً بعد يوم يبدو مختلفاً تماماً، تتوضح هذه الحقيقة أكثر لبهار. يبدو رجلاً آخر.. مكتمل الرجولة، ويمتلك كل ميزات الرجل المتزن، لم يكن ممن لا يكترثون بالأمور ولا يحفلون بها، ولم يكن مظلم النفس، قاتم المزاج، بل هو شديد الحماسة دائماً، كل ما كان يقال عنه وسمعت به بهار في القرية، من أحاديث عن راعي البقر الوحيد اليتيم كان خاطئاً.. أنا حمقاء.. لا داعي لكل هذا الخوف، الأمر ليس كذلك. نعم.. يا بهار، لكن هناك أمر واحد غامض وغريب، سر واحد.. اختفاؤه ليلاً.. ترى أين يذهب؟ أما بالنسبة للأمور الأخرى فحياته مختلفة، إنه ليس كغيره من الرجال، ممن عرفتهم في هذه القرية أمثال حمو وغيره، طريقة حديثه ومعاملته معي، كأنه غريب.. شاءت الأقدار أن ترمي بي في هذا البيت، ولو أن تسمية هذا الكوخ بالبيت ظلمٌ، مقارنة مع غيره من بيوت القرية.

كانت بهار تراقبه بصمت، وتفكر بطريقةٍ توصلها لفهم الغموض الذي يكمن في أغوار هذا الرجل، هناك أسرار مخفية، وأمور كثيرة في أعماقه، هي مخفية عن أهل القرية، ما السر وراء انجذاب بهار إليه؟ لقد كانت تتفادى حتى مجرد رفع نظرها، لترى وجه راعي البقر المجنون هذا، لكن

منذ أن تم هذا الزواج بدأت تنمو لديها مشاعر وعواطف أخرى نحوه، لا تعرف بالتحديد لماذا؟ بدت لها أعماق وخفايا هذا الرجل، كالدخول إلى مغارةٍ مظلمة، لا تعرف ما بداخلها سوى ما سمعت به وتناقلته الألسنة، ما إن دخلت الظلمة حتى بدأ نظرها يألف الظلام، وتبصر ما بداخلها من خفايا، هي مجهولة لدى الجميع، إن ما رأته وعرفته بنفسها، بدأ يجذبها نحوه، فهو يفرض احترامه الرجولي عليها، بطريقة محيرة، كيف فعل ذلك؟ كيف جعلها تنجذب إليه، بالرغم من سماعها لما تناقلته أفواه أهل القرية عنه؟ ما السر وراء ذلك يا ترى؟ فهو يبدو رجلاً كاملاً، ويختلف عما كان يقال عنه، فهو يتحدث عن أمور لم تسمعها سابقاً من أحد، سوى أحياناً من خليل.

حمو لم يكن يحدثها أو يعطيها أية أهمية في البيت، لم تكن بنظره إلا أحد مكملات البيت، أو مجرد خادمة في منزله، طوال سنوات زواجهما لم يتحدث إليها يوماً ما في مسألة جدية، ولم يكن لها أي اعتبار، وكان يجب أن تقوم بكل شيء وهي صامتة، ولا يحق لها التدخل في أي أمر مهما كان بسيطاً، لم تكن تسمع سوى كلمات حفظتها عن ظهر قلب.. أنتِ امرأة.. تلك الأمور ليست من شأن النساء.. المرأة الصامتة في البيت تساوي ثقلها ذهباً.

لم تجد طوال عمرها في هذه القرية، رجلاً يتحدث إلى زوجته كما ديندار وخليل، كأنهما فقيهان تتلمذا على يد الملا، ولكن كلمات حديثهما تختلف عن كلمات الملا.

الأيام تمر ومع مرورها، بدأ يسود جو من التفاهم والارتياح بين الزوجين، أصبحت بهار تتحدث كغير عادتها القديمة، وكأن لسانها حلّ، بعد بُكمٍ دامَ لسنوات، خاصةً بُكمها في محادثة الرجال، الإطالة في الحديث والتساؤل عن أمور ليست من شأن النساء كما كان يُقال، وصلت بها الشجاعة وبعد تفكيرٍ وترددٍ طويلين دارا في رأسها، إلى أن تسأله عندما استعد للخروج مع صلاة العشاء:

- ديندار إنك تخرج أيضاً في الليل، ألا يكفيك التجوال وملاحقة القطيع طوال النهار.. ألا تتعب؟

صمتت قليلاً ثم تابعت:

- صحيح، إلى أين تذهب يا ديندار؟

رفع ديندار نظره، ويخرج فيها بدوره من دائرته الخاصة، فقد عانى تناقضات كثيرة من صعوبة الحياة التي يعيشها، نظرته تلك كانت بمثابة خروجه من دائرة حياته الدينية الضيقة، وكأنه يرى وجه بهار لأول مرة، رغم مرور أسابيع على هذا الزواج الغريب، بدأ ينظر إلى وجهها تماماً ويتمعن ملامحها، تحت ضوء المصباح، مسدداً مغناطيس عينيه إلى تلك العينين السوداوين مباشرة، الذي ينير أناملها النحيفة الماضية في عمل من أعمال التطريز، وينير وجهها الجميل الناعم الرقيق، كان صوتٌ داخلي ما ينفك يقول لها: كم أنتِ جميلة! لكنه خنق الصوت، واستغرق السمع إلى السؤال الذي طالما خشي منه، لكنه تدبر أمر جوابه سلفاً، خطرت في ذهنه فكرة أخرى جعلته ينطق ببعض الكلمات المبهمة.. وقف كالعاجز أمام

سؤالٍ ملؤه الدهشة والإذعان.. يخشى أن يجيب عنه، لأي شخص كان ومهما تكن الأسباب.

عندما تم هذا الزواج الذي كان من المفروض ألا يدوم طويلاً، اتخذ قراراً بعدم خروجه في ليالي هذا الزواج المؤقت، وفعلاً لم يخرج لأربع ليالٍ متتالية، لم يكن عدم خروجه من مبدأ أنه العريس، أو كما يعرف لدى البعض باسم أيام العسل.

فلم يكن مكوثه والتزامه البيت إلا لرغبته في عدم معرفة أحد سبب خروجه في الليل وعودته في ساعاتٍ متأخرة، ولم تكن إلا تجنباً وتدبيراً، لكي لا يطرح عليه هذا السؤال، ومن أي شخصٍ كان.

بمرور الأيام التي لم تكن في الحسبان، وتحت ظروفٍ اضطرارية خرج، ومع خروجه حدث ما لم يكن في الحسبان أيضاً، عندما صدف في تلك الليلة دخوله في وسط الكمين، رغم أن الأنظار إليه ما تزال كما هي: «ديكو المجنون الدرويش اليتيم»، لقد طال أمر هذا الزواج وتجاوز الأسبوعين والملا لم يعد بعد ليقوم بإجراءات الطلاق، والراعي الأصيل لا يظهر ما يجول في ذهنه مباشرة، وهو يعرف أن الناس يعاملونه كشخص غبي بسيط وبريء.

تكرر خروجه بسبب الظروف التي فرضت عليه، حاول التصحيح والتغطية على الأمر عدة مرات ببعض الحجج، لكن ها هو الآن وجهاً لوجه أمام السؤال الذي يخشاه دائماً، ومِمَّنْ يُسأل؟ من زوجته المؤقتة التي ستعود إلى زوجها السابق، الذي هو من حماة القرى (چتى).. غداً ماذا لو

باحت لحمو، وأخبرته بخروجه المتكرر غير المعروف السبب في الليل؟ ديندار بدوره لم يكذب، ولم يتعود على الكذب حتى يكذب على بهار، وإلى الآن لم يرد لها طلباً، وهي التي أخرجته من وحدته الموحشة، ودائرة زهده، منذ أن دخلت هذا البيت.

في اليوم الذي دخلت فيه حياته، وكأنه ولد من جديد، لم يعرف طوال هذه السنين كيف أمضى حياته بمفرده، في إطار جدران هذا المنزل.. والأغرب من ذلك هو.. كيف أنه ألف هذه الابتسامة، وبهذه السرعة، منذ أن دخلت بيته، في نظره أصبح كل شيء يشع بريقاً، دبت فيه الحياة، كان جسداً بدون روح، وبهار لم تكن إلا ذلك الروح، بقدومها ملأت البيت حيوية.

كيف كنت أعيش طوال حياتي؟ فعلاً.. إن المرأة عماد الدار، صدق من قال: إن البيت الذي لا امرأة فيه.. لا حياة فيه.. الآن أستوعب معنى هذا الكلام.. ما تحمله ذاكرتي من ذكريات، لا تحتوي على ما أعيشه في هذه الأيام، بحياتي لم أر المرأة في فراشي، كل ما تحمله ذاكرتي عندما كنت طفلاً أن أمي كانت مريضة تلازم الفراش، ولم تستطع فعل شيء، لتجعل البيت مليئاً بالحيوية، كنت وحيداً ويتيماً، أعيش وحدتي بمفردي.. اعتدت أن أقوم بأعمال المنزل بنفسي، لذلك رحمة الله عليها، عندما وافتها المنية، لم أشعر بتغييرٍ في هذه الأمور، رغم الأثر الذي تركته في نفسي.. ليرحمها الله.. أيام.. مجرد أيام مرت ودخلت هذه المرأة حياتي، ولن يدوم بقاؤها أيضاً سوى أيام، هذه المرأة.. أي أثر نحتته في نفسي؟ لقد تغير هذا البيت،

ولم أعد أصدق أن هذا هو البيت الذي تعودت عليه، يبدو عليه التغيير في كل زاوية منه.. الجدران والشبابيك والأبواب.. أين الشقوق التي كانت في جدران البيت؟ وأين رقع الطين التي كانت؟ لقد تغير كل شيء..

أوقف أفكاره ثم عاد ثانية إلى عالمه:

لا يزال هنالك صمتٌ داخلي بيني وبينها، فلا هي تتدخل بأموري الشخصية، ولا أنا أفعل ذلك، هي مجرد ضيفة شاءت الأقدار أنها دخلت حياتي، وهي أيضاً تعتبر نفسها كذلك، إذن ما الداعي لكل هذا؟ ليس هذا إلا حلاً لعقدة القسم لا أكثر، عدة أيام وتعود إلى زوجها حمو.

كل هذا يدور في مخيلته.. بينما بهار تلاحقت في خيالها صور.. تنتظر الجواب والبسمة مرتسمة على شفتيها، موزعة نظراتها ذات اليمين وذات الشمال، ديندار واقف كالأصم بدون أي كلمة، وكأن ريحاً عاتية اكتسحت أقوالها فذابت في الهواء، اضطرت أن تتابع هي لتحطيم الصمت:

- هل بقيت حيوانات من القطيع خارج القرية، فتخرج ليلاً لتتأكد من وجودها يا ديندار؟

صمتت مرة أخرى عندما لاحظت صمت ديكو المطبق، وأن الحديث أصبح فقط لإخراجه من ذلك الصمت.. ولِمَ لا.. فهما لوحدهما، لماذا لا يقضيان ليلتهما بالتحدث إلى بعضهما بعضاً؟ وفعلاً كانت هذه هي الليلة الأولى التي كان الحديث فيها يشبه حديث زوج وزوجة، لا حديث مضيفٍ وضيفته، كانت الليلة التي تحطَّم فيها جدار الغربة بينهما.

- ديندار.. لم تجبني؟

أصبح لا بد من أن يجيب، يجب أن يقول أي شيء، ليكسر ذلك الصمت:

- كلا يا بهار.. هكذا تعودت.. فأنا أحب الخروج ليلاً.

- ألا تخاف؟

- من ماذا؟

- الجنود دائماً حول القرية.. الذئاب..

- كلا.. لا أخافهم.

لاحظت بهار أنه يختصر أجوبته، فانسحبت من الحديث وشبكت يديها ببعضهما، وذهبت إلى الفراش وهي تقول: ولكني أخاف.

في ليلة من الليالي التي تلت تلك الليلة، بدأ ديندار يستعد للخروج مرة أخرى، بعد أن قام بتحضير نفسه، وإعداد ما سيأخذه معه.، قررت بهار أن تتعقبه، حتى إن كان هناك مخاطرة في الأمر، رغم خوفها من ظلمة الليل فهي امرأة. ثم إن المخاوف المتعلقة بذاكرتها من قصص جدتها، ما تزال تقرع باب مخيلتها، فهي تخاف الجن والعفاريت، فكانت تحكي لها جدتها أن الجن يرون البشر، أما البشر فلا يرونهم، ماذا لو تبعته وشاهدوني وأخبروه بالأمر، أو ماذا لو ضربتني جنية؟ فكما سمعت، إن ضربة منها تشل أعضاء الإنسان.

لذلك قامت بتغيير رأيها ولم تتجرأ على فعل ذلك، خرج في الليلة التالية أيضاً وفي الموعد نفسه، وبعد التفكير تذكرت طريقة كما سمعتها من جدتها، تجنبها من تلك المخلوقات، فدثرت محفظة القرآن الصغيرة كحجاب في صدرها، وما إن خرج ديندار واختفى في الظلمة، وهي تراقبه

خلسة، حددت الجهة التي ذهب فيها، وتبعته من بعيد، بحيث تراه شبحاً أسود في الظلام يتحرك من بعيد، وهي تتبعه من خلف تلك الشجيرات والصخور، وكلما خطت خطوة بعيداً عن المنزل، تشعر بأن جسارتها تخونها، وبشعورٍ يقلقها، صوتٌ يدوي بداخلها يشدها إلى الوراء، ولكنها عاندت تلك الأصوات والصرخات وأكملت الطريق، قررت أن تتبعه لمعرفة حقيقة خروج زوجها، ومهما كلفها ذلك، كان استغرابها الأكبر هو من الوجهة المعاكسة لجهة القرية التي ذهب فيها ديكو.

في بداية الغابة كانت هناك كومة من أغصان الأشجار، والتي تكومت على شكل قبب لاستخدامها كعلف للحيوانات شتاءً، أصابها الفزع عندما شاهدته وهو يدس بيده وحشر بنصفه الأعلى في كومة من تلك الأكوام، اندهشت وهي تراقبه من بين الأحراش، غطت فمها بكف يدها اليمنى خوفاً من أن يصدر منها أي صوتٍ دون إرادتها، وهي تحدث نفسها: يا إلهي.. هكذا إذن.. صحيح.. صحيح ما يقولون عنه.. لا أرى غير ذلك.. أيكون الجن من حوله الآن؟ أعوذ بالله.. ماذا يفعل.. إنه يحشر نفسه داخل الكومة.. فقط تظهر ساقاه كأنهما رمحان منغرزان في بطن الكومة، ورءوسها مندفعة نحو الخارج.

انتظرت بينما ديندار ما يزال نصفه مدفوناً في جوف هذه الكومة، كأنه مهر يولد من أحشاء أمه، يصدر خشخشة تهشم الأوراق والأغصان، ماذا يفعل؟ بقي بعض الشيء بتلك الصورة، ثم خرج من جوف الكومة، يا إلهي ما الذي بيده.. لقد أخرج شيئاً من داخل الكومة.. ماذا.. ماذا؟

وصدرت قرقعة من بين يديه، ناتجة من تصادم قطع حديدية، إنها بندقية.. ديندار وسلاح! إنه ليس من الحماة.. أجل القرية بأكملها تعرف ذلك، ومن يأتمنه ويسلمه سكيناً لا سلاحاً؟ من أين له هذا السلاح؟ لو كان من الحماة لكنت عرفت بذلك، الچتى كما يسميهم ديكو معروفون في هذه القرية.. لكان قد جلب سلاحه إلى البيت، لماذا يخبئه هنا؟ ماذا يفعل راعي البقر بالسلاح في هذا الليل؟

حمل ديندار حِمله بعد أن لف حزاماً حول خصره، وعلق السلاح على كتفه الأيمن، ورغم عتمة الليل بدا لبهار وكأنه ازداد قوة ورجولة، اختفت مشيته الكسولة وغدت خطواته ثابتة واثقة.

بينما بهار في طريق العودة نافخة بملء صدرها في فراغ السماء زفرات، كأنها انتهت من عمل شاق، وأصابها التعب والإجهاد.

في تلك الليلة لم يُغمض لها جفنٌ، بقيت في مكانها فوق الفراش، كوّمت جسدها قليلاً في بداية غفوتها، ولم تكن قد مرت سوى دقائق على إطباق جفنيها، حتى استيقظت على مواء قطة، كان صوت هذه القطة حزيناً، وكأنها هي الأخرى مفتتة المشاعر، لتمتزج بتضرعاتها وشكواها.. صعقت جمجمتها نوبة الضجر التي أصبحت معهودة لديها، جارفة بها إلى أعماق تأويلاتها وتفسيراتها.

عندما عاد ديندار كان الليل قد تجاوز منتصفه، بينما بهار كانت على حالتها تلك مكومة جسدها في الفراش، لم تقم عند مجيئه، تظاهرت بأنها نائمة، بينما ديندار دخل كلص يخشى أن يصدر أي صوت، عند دخوله

مباشرة تسلل إلى الزاوية الأخرى، بحذر لا يريد أن يوقظ النائمة اليقظة، وهو يتمدد ويحاول أن يلتحف، وإذ يصدم بصوت بهار وهي تقول:

- أعانك الله..

شد زمام تأملاته:

- أنتِ يقظة.. إلى الآن يا بهار؟

- لقد انشغل بالي عليك.. لم أستطع النوم.

عليّ أنا؟ تساءل بينه وبين نفسه باستغراب.. بهار ينشغل بالها عليّ.. وهل أمري أصبح يهمها فعلاً؟!

- لماذا تتمدد هكذا؟ أتريد أن تنام هناك؟ أضافت بهار.

- كل ليلة أنام هنا..

- لماذا لا تأتي إلى الفراش.. ألستُ زوجتك على سنة الله يا دينذار؟

أجاب بعد سكوتٍ دام لثوانٍ:

- زوجتي طبعاً.. ولكن لم أكن أود إزعاجكِ.

نهضت جالسة في الفراش وابتسمت شاردة الفكر، ثم قالت وهي تعض على شفتيها:

- تعال إلى الفراش يا دينذار.. لا بد أن طريقك كان طويلاً.. لقد تأخرت هذه الليلة.. تعبت أليس كذلك.. ألست جائعاً؟

كانت مستعدة لتقوم بواجباتها كزوجة إذا طلب منها، ولكن دينذار قال:

- كلا يا بهار.. لا أشعر بالجوع.

تنحَّت بهار جانباً إلى طرف الفراش مفسحةً له المكان، أول مرة في حياته يفعلها، يحشر نفسه بجانب امرأة، عندما لامس جسده جسدها شعر بشبه تيارٍ كهربائي يجتاح جسده.. أخذت بهار تمسح على شعره برفق، في تلك اللحظات بدأت تحس أنها تملك الدنيا بين يديها، بدءا خطوة بخطوة يتخلصان مما يغطيهما.. إلى أن أصبحا جسداً.

صاحت الديكة عند مطلع الفجر واستيقظ ديندار، ولكن لم تكن بهار بجانبه، جلس مصغياً إلى هذا اللحن الصادر من ديكة القرية، بعضها صادر من بعيد وبعضها من قريب، كانت تتردد هذه الألحان في أذنيه، من خلال تجربته كونه ترعرع في القرية، يعرف من خلال صياح الديك، هو ديك أي بيت من بيوت القرية، أما الوقت الذي هو فيه.. عرف بأنه حان وقت استيقاظه.

رويداً رويداً تسلل ضوء الفجر الباهت إلى داخل الغرفة من شقٍ في الباب، نهض وسرعان ما لبس لباسه، بينما طلت بهار حاملة الخبز الطازج وهي عائدة، هرعت بالخروج وهي تحمل سطلاً إلى باحة الدار، جلست خلف البقرة وسرعان ما صدر صوت رشقات الحليب داخل السطل، بينما البقرة واقفة بطاعة ورضوخ وهي تمضغ شيئاً من التبن، بدت وكأنها خزان حليب، وما إن أنهت حلب البقرة، حتى أسرعت إلى الداخل برشاقة وحيوية وعلى وجهها ابتسامة حنونة، وهي تقدم مائدة الفطور، بعد أن غلت له كأساً من الحليب.

- يا الله! أي نوعٍ من الحليب هذا؟

- اشرب إنه ساخن.. رائحته تعبق بروائح ورود هركَول.

علق ديكو.. وربما هذه أول مرة في حياته يجامل امرأة:

- ورود هركَول.. إضافة لرائحة طعم يدي بهار.

علت الشمس من بعيد، وبدأت تصل المسامع أصوات البقر والخيول من أسفل بيت ديكو، فهو المكان المعروف الذي يجمعون فيه قطيع القرية، فخارت الأبقار، وصهلت الخيول، وتداخل معها نهيق الحمير وشحيج البغال، قام ديندار بأخذ بقرته الوحيدة صوب القطيع، كان قد تشكل قطيعٌ ضخم كأنه جيش محتشد، ينسحب من القرية ويختفي مبتعداً في أحشاء الغابة على سفوح التلال، انتشر القطيع ليرعى، وقف ديندار في ظل شجيراتٍ بجانب الجدول، وقد نمت أشواكٌ كثيفة على حافتيه، ومن حوله كانت غابة البلوط الهرمة الصارمة، ذات الأشجار العالية، والنباتات المتداخلة بين الأشجار، التي تدل على قدم هذه الغابة.

في منتصف النهار بينما كان ديندار في مهمته..القطيع يتقدم وينتشر في ثنايا الغابة وهو يراقبها من عَلٍ، اليوم تمت بيطرة الفرس والجياد التي راحت تتحرك ببطء لتقضم العشب النضر حولها، بينما القطيع يبقى منتشراً ولا يبتعد من حولها، فجأة انتصب كلبه واقفاً معلناً إشارة تحذير لصاحبه، رأسه مندفع إلى الأمام وبمستوى واحدٍ مع ظهره، يهز ذيله يميناً وشمالاً.. التفت بذلك الاتجاه، ودون وضوحٍ جيد من بين جذوع الأشجار كان يتقدم شخص بلباسٍ نسائي، ما إن وصل إلى فسحة خاوية من الأشجار، حتى عرفها، إنها قامة بهار تحمل صرة بيدها وهي متجهة

نحوه.

ما إن وصلت قالت بابتسامة:

- مرحباً ديندار.

وثب ديكو واقفاً وقلبه يخفق بنزق، شعر فجأة أن القدر يقف بجانبه لأول مرة في حياته:

- أهلاً.. مستفهماً.. مندهشاً.. ماذا جاء بكِ إلى هنا؟

عدلت بهار غطاء شعرها، منديلها المنقوش بورود زاهية الألوان، كانت ترتدي فستاناً أزرق اللون، يلف خصرها حزامٌ نسجته من الصوف، بنقوشٍ ملونة وبمهارة الإبداع التي تتميز بها المرأة الكردية، اللون الطاغي هو الأحمر الخمري، تحدثت بحرارة أنثوية رائعة ممتزجة بدفء الربيع، في تلك اللحظات بدت في عيني ديندار أنها حقاً وردة من ورود هذه الجبال، اسمها بهار.. فعلاً هي ربيع الحياة.. بهار هركَول، وبعينين طفوليتين وابتسامة رائعة يشوبها الدلع الأنثوي، فتخضب وجهها بحمرة قانية، تفرج الشفتين الرقيقتين بشاشة، بصوتٍ له رنة لا تجيدها إلا النساء، قالت:

- هل هناك مانع في هذا؟ لقد أحضرت غداءك.

ديندار ما يزال غارقاً في بحر دهشته، بصوتٍ يقطعه الانفعال قال:

- غدائي؟

طوال حياته لم ير هذا الاهتمام من أحد.. يُجلب غداؤه، هذا ما لم يتوقعه أبداً، ما إن وضعت الصرة، جلست لتفك عقدتها، كان الكلب أمامهما

وهو يهز ذيله ورأسه، كأنه يشكرها ويطالبهما بحصته.

تابع الكلب النظر إلى بهار بنظراتٍ لا تقل دهشة عن نظرات ديندار، لأنه أيضاً لم يعتد الحصول على قطعة من الخبز في مثل هذه الساعات، لم تتأخر بهار وسرعان ما رمت إليه برغيف كاملٍ، استند على قدميه الخلفيتين فرحاً وأطلق الأماميتين إلى مداهما بالتقاط حصته.. هما بدورهما جلسا لتناول ما جاءت به، وكان اندهاش ديكو الأكثر حين رأى ما جاءت به بهار، ديكٌ مشويٌ محمَّر، تم إعداده في التنور، فأظهر عن أسنانه من أسفل شاربيه، بضحكة مسموعة متناقلاً بنظراته، ما بين الديك ونظرات بهار.. سألت ملحة:

- لماذا تضحك؟ ألم يعجبك ما أعددته؟

صمت برهة كأنه يستجمع أنفاسه قبل أن يستطرد قائلاً:

- الأمر ليس كذلك يا بهار.. ولكنكِ ذكرتِني بأمرٍ.

سألت وهي تهز رأسها:

- ما هو؟ أرجو أن تجيب هذه المرة وألا تفعل مثل ما تفعله دائماً.. تسكت ولا تجيب.

- أنا يا بهار!؟ لا عليكِ سأجيب.. أولاً وقبل كل شيء ذكرتني باليوم الذي نادوني فيه بديكو، هل تعرفين قصة اسمي؟

- لأن اسمك ديندار.. ديندار وديكو اسمان قريبان.

- لا، الأمر ليس كذلك.. سأقص لكِ.. كانت أمي مريضة وحاولت أن أسرق ديك عمك، وثانياً: أنا لم أفهم ما تقصدين بالشيء الذي لم أجب

عنه.

- لا شيء يا ديندار.. ولكن هناك أمور تخبئها عن الجميع.. فلماذا تخبئها عني أيضاً.

- أي أمور تقصدين؟

صمتت لبرهة ثم عاودت الكلام:

- في الليل يا ديندار.. ليلة أمس بعد خروجك حدث أمر أريد أن أصارحك به.

- أي أمر هذا؟ ماذا حدث؟

- خروجك في الليل أقلقني، كنت أصدق ما تتناقله الأفواه عنك.

استاء وتحرك من مكانه منفعلاً:

- ما الذي تتناقله الأفواه.. ماذا تقصدين؟

ابتسمت بهار ابتسامة ماكرة وقالت:

- يتهمونك بالجنون.

ضحك ديكو ضحكة صبيانية.

- لما لا تصدقينهم؟

- لأن ما رأيته ليلة البارحة بعينيَّ هاتين التي ستأكلهما الدود..

- سلامة عيناك! ماذا رأيتِ؟ قاطعها ديكو.

- ما أردت أن أصارحك به.. أنني كنت أصدق ما كان يقال عنك.. كنت أشك بأنك تلتقي بالجن أثناء خروجك في الليل، وعند خروجك ليلة البارحة، لحقت بك وكنت أتتبعك من بعيد.

قاطعها ديندار ولم يتمالك نفسه:

- ماذا؟ متى؟

- بعد خروجك مباشرة.

- ماذا رأيتِ؟

- وماذا رأيت؟ رأيتك أنت.

تعثرت اللقمة في حلقه وتعرقت جبهته، سرعان ما أمسك بطرف كوفيته وجفف العرق عن صدغيه:

- ماذا..أنا؟ إلى أين لحقتِ بي؟

كانت بساطة بهار جميلة فأحبت كل ما هو بسيط.. حقيقي وصادق.. كانت لديها وسيلة خاصة في جعل الناس بسطاء، يبدو أنها اكتسبت تلك الخصوصيات من التجربة وتربية العائلة، عادت لتقول بعد فترة من التفكير بنبرات مهموسة:

- كما قلت لك.. حتى قبل تلك الليلة كنت ما أزال أصدق الأمور التي كانت تقال بحقك.

برزت على شفتيه ابتسامة عذبة وما إن تمر كلمة «الليل» على مسمعه حتى يصاب بهلعٍ خوفاً من أن تكون قد اكتشفته.

- بهار.. لماذا لاً تقولين ما تريدينه..؟!

- أنت لست كما هو معروف ويُقال عنك بين أهل القرية.. هل لك علاقة بهم؟ ومنذ متى؟ ألا تخبرني بالله عليك!

- بهم؟ بمَنْ.. بالجن؟

عجلت بإعطاء الجواب:

- بطيور الليل.. الذين في الجبل.

قطب ديكو حاجبيه غاضباً وسكت لحظة، مضيفاً مزيداً من الارتباك، ارتجف انفعالاً وأمسك بيده الرغيف الذي كان على ركبته، ومزّق قطعة منه بعصبية:

- الذين في الجبل؟ من أخبركِ.. من قال لكِ ذلك؟

غطت عينيها الجميلتين بأهدابها وقالت بعد فترة من الصمت:

- لقد شاهدتك وأنت تخرج البندقية من مخبئها.. لكني لا أعرف أين ذهبت بعد ذلك.

تجهمت طلعته، وفرقع بشفتيه، تحدث بنبرة خشنة:

- هل قمتِ بتعقبي فعلاً؟ هل فعلتِ ذلك من تلقاء نفسك وبإرادتك أم.. أن هناك من كلفكِ بفعل ذلك؟ صارحيني وقولي الحقيقة؟

لجأت إلى الصمت مرة أخرى ثم أضافت متأملة:

- لقد فهمت الآن لماذا جاء سرتاج ويوسف إليك، بعد أن خرجا من القرية.

غيرت من نبرة صوتها وأكملت:

- ديندار.. لا مانع في ذلك.. وإذا تطلب مني الأمر سأقوم بمساعدتك بكل شيء.

توقفت لترى ردة فعله، وأكملت:

- إذا استطعت.. لقد بقيت الصيف الماضي حوالي شهر في أضنة عند

خليل أثناء حملي بطفلي، وهناك سمعت الكثير عنهم، هل تعرف كم أشتاق لمجرد رؤيتهم.. أي أناسٍ هم؟ ويُقال: إنهم ليسوا رجالاً فقط.. بل بينهم فتيات أيضاً.. هل هذا صحيح يا ديندار؟ كيف هم؟ كيف ينامون ويعيشون في العراء؟ لقد حدثني عنهم خليل، وما كان يقال عنهم كما فهمت، إنه ليس صحيحاً.. ليس كما قال لنا الجنود الترك في اجتماع للقرويين، ألم تسمع؟ يقولون عنهم إنهم أرمن وأكراد قدموا من سوريا.. وإن أعداءً مثل الأرمن من يدربونهم، وكانوا يصفونهم بأن لكل واحد قرناً وأذنين عملاقتين يستخدمون واحدة منها بدل الفراش ويلتحفون بالأخرى.. آه يا ديندار.. كم كنت أشعر بالخوف، عندما كنت أسمع ذلك.. ويقولون أيضاً إنهم يخطفون الشباب والشابات ويقطعون رءوسهم ويمتصون دماءهم، كل ذلك كذب أليس كذلك؟

استرسل ديندار بوقارٍ بعد فترة من الصمت، استغرق فيها بالتفكير وسأل:

- من حدثكِ عنهم؟ خليل؟

- نعم.. خليل.

- ماذا قال غير ذلك؟

- كان يتحدث هناك دائماً عن الرفاق الذين في الجبل.. قبل ذلك كنت أصدق ما كان يقال بحقهم.

ارتسم الأسى على جانب شاربه، وتحول من رجل مكفهر شرس إلى فتى رقيق خاضع، كان يشعر بألمٍ لأنها أثناء حديثها، قد ظلت هادئة

هدوءها المعهود، فلم يبدُ أن هذا الوضع الجديد، قد بث في نفسها شيئاً من الاضطراب، وكأنها لا تصدقه ولا تفكر في المستقبل، قال:

- أيام وسيعود الملا علي يا بهار.. وستعودين إلى حمو، مالكِ من هذه الأمور؟

تأوه بحسرة ثم تابع:

- ليس لدي علاقة بأحد.

تنهدت بهار وابتسمت ابتسامة مشرقة، من دون أن تحول وجهها عنه، نهضت بحركاتٍ رشيقة من ذراعيها، بينما هز ديندار رأسه مبتسماً ابتسامة مقتضبة شاحبة، وهو يحك صدره، كان يمسك قلبه خوفاً من الانفجار.. الابتسامة بعذوبتها التي ما تزال تملأ ملامحها.. هناك على جانبي شفتيها.. في النقطتين الساحرتين.. اندفعت هي وطوقت عنقه.. تدحرجا على المرج..

بدأ ينظر حوله بارتباك، مرسلاً نظره تجاه قمم هركَول، وكلبه متمدد عند قدميها، بعد أن عاد من جولة تفقدية حول القطيع.

في تلك الليلة كان أمر بهار ما يزال يقلق ديندار، وهو غارقٌ في ما بين الشك واليقين.. أتوجد حيلة في الأمر؟ ولِمَ لا؟! من الممكن أن يكون زواجه هذا قد تم من قبل حمو وأسياده لكشف أمره.. لِمَ لا يا ديندار؟ ما قيمة الشرف لدى من يبيع وطنه، ويخون شعبه؟ حمو معروف لدى الجميع، إخوته هجروه.. كان يستحق الموت، لكن الرفاق.. الرفاق أطلقوا سراحه وعفوا عنه.. عندما اعتقلوه في الكمين.

يفكر في الأمر من زوايا أخرى يكرر مراراً وهو يغمض عينيه، محاولاً طرد هذه الصورة المزعجة؛ ما تم كان حقيقياً تماماً.. وطلاقها الذي تم كان نتيجة قسمه أمام الكَريلا.. ولا أعتقد أن تكون هناك مكيدة في الأمر قد حيكت لكشفي.. بهار ليست هكذا.. إنها ملاك طاهر.. والجميع يعرف أنني ديكو المجنون.. مهما كان فليكن.. يجب ألا أبوح بشيء لأي شخص كان.. حتى لبهار.. رغم قناعتي بصدقها ومعرفتها جزءاً من الحقيقة.. ما إن يعود الملا ستعود إلى حمو.. حمو ما يزال فرداً من الچتي المرتزقة.. خائن.. زوّجني بهار.. هذا الزواج المؤقت.. لكنه لم يتخلَّ عن سلاحه.. ماذا لو أخبرته بهار بالذي ذكرته اليوم؟ بهار تربية العم شمدين، من المؤسف أن امرأة مثلها قد تزوجت رجلا مثل حمو.. عندما تزوجت منه لم يكن هناك شيء اسمه حماة القرى أو ما شابه ذلك.. وكنت شاهداً على إصرارها، لمنع حمو من حمل السلاح وإعادته فيما بعد، لكنها امرأة فماذا تستطيع أن تفعل؟

- 16 -

كان الفانوس لا يزال يرسل بصيص نورٍ في الباحة، قبل أن يولد نور الفجر على أعقاب عتمة الليل ويتنفّس الصباح، عندما انطلقت نازي إلى الحظيرة، بين الحيوانات الدافئة، وأخذت تقوم ببعض التصليحات هنا وهناك، تعدل من وضعية المعالف التي تزحزحت من أمكنتها، نتيجة اصطدام أقدام الماشية بها، التسلق وكثرة الحركة الغريزية المكروهة عادة التي تُعرف بها الماعز.

وقف خليل أمام باب الدار وهو حاسر الرأس، يستنشق الهواء الصباحي القادم من الحقول والمروج، يملأ رئتيه به، فتسري في جسده حيوية ونشوة تثيران فيه حبّ الحياة، وكل شيء حوله يموج بالخصوبة والجمال.

نادته نازى بفرحٍ وحب:

– تعالَ يا خليلً.. تعالً لترى هذا الجَدي اللعين.. ما أجمله!

قفز خليل على الفور، من فوق عدة عوارض وأغصان مشدودة، منحنياً إلى داخل الحظيرة، فرأى وليداً لطيفاً دقيق القوائم، وبرهُ قصير ناعم، وفي مؤخرته شبه عود هو الذنب.

- لا تخش لمسه، فقد لعقته أمه ونظفته. قالت نازي.

أخذ خليل يربت على رأسه ويمرر يديه على ظهره الحار، الذي لا يزال رطباً، وهو يقول:

- لا أدري يا أختي سبب شدة حبي لهذه المخلوقات الصغيرة.

رفع الجدي الصغير رأسه، ونظر بعينين شديدتي السواد تعلوهما غيمة من الفتور، ثم ابتعد عنهما يقفز في الهواء برشاقة كالأرنب، لاحظت قفزاته الغريبة دجاجة كانت في زاوية من الحظيرة، فوق العوارض، فبدأت تصيح وتنفض جناحيها، جفلت الحمامة التي كانت تحوم حول صغارها بالقرب منها.

عاد خليل، ووقف ثانية أمام باب الدار وعيناه مواجهتان للشمس، ثم راح ينظر على مهل إلى القرية نظرة المبتهج، على مقربة من التنور كان ثمة حديث صاخب يدور طبقاً لحركات الأيدي بين نساء تجمعن هناك.

وثب ديكٌ فوق سياج مصنوع من الأغصان المجدولة، رفرف بجناحيه وأخذ يصيح، فاستدار خليل استدارة مفاجئة، ليرى الديك الذي كان يصيح، فظهر عبد الرحمن من تلك الجهة من خلف السياج، ما إن التقت نظراتهما، حتى بادره عبد الرحمن على الفور:

- صباح الخير.

رد خليل تحية الصباح بالمثل وتوجه نحوه وهو يقول:

- ماذا جرى لك يا رجل؟ لم تظهر منذ أيام.

تهامسا على انفراد، وسرعان ما بان مفعول تلك الهمسات، دبّت إشراقة على وجه خليل، اختفى عبد الرحمن ثانية من حيث جاء، وسط أزقة القرية.

وقف خليل يراجع نفسه ملياً، تمتم محدثاً نفسه، ثم عاد شارد النظرات مستغرقاً في التفكير، مرت امرأة لم ينتبه إليها، إلا حين بادرته بالتحية، وهي تحمل طفلاً يسبح في أحلام مزينة بألوان قوس قزح، في نوم هادئ حالم مدهش.

في صباح اليوم التالي، وقبل شروق الشمس كان خليل وزوجته يرافقهما حج خالد قد خرجوا من القرية متسللين، توقفوا في مكانٍ بعيد خارج القرية إلى الجهة الشمالية الشرقية منها.

الأفق الشرقي يبتسم للشمس، والهواء مشبع برائحة الخضار والمواشي ودخان المواقد، طيور الحجل، ديكة جبال كردستان، تحيي قدوم الصباح، فتنادي بعضها بعضاً، وترد بعضها على بعض في كل الجهات مؤذنة بانبلاج الفجر، أخيراً وصل من القرية صياح أول ديك، فرد عليه ديكٌ ثان وثالث، تعالت صيحاتها.

قام عبد الرحمن باستطلاع المرتفعات والقمم المطلة على القرية، ومن ثم مرتفعات هركَول.، عندما تأكد خلوها من أي تحرك عسكري، وهو ينزل من القمة المطلة، كان المنظار يتدلى على صدره، كأنه جوهرة تتأرجح، وعلى كتفه الكلاشينكوف، فبدا نصف مقاتل، البندقية لا غنى عنها للكردي، ليس معنى ذلك أنه خائف، ولكنه يعلم أن غيره

لو سار في هذه الجبال بوديانها السحيقة وبغاباتها لَشَعر بالخوف يسري في مساماته.

ناداهم قائلاً:

- هيا لنذهب.

الجبال تبدو هاربة عند الأفق، متألقة الذرى تحت أشعة الشمس التي أخذت تشرق، كان خليل يتأمل هذه القمم الساطعة التي تنبجس مع لحظات المسير صعوداً من الوادي، مظهراً الصراحة والعظمة فيها، كان يستعيد في خياله متلذذاً أياماً مضت، وكل ما كان يتذكره يشعره تارةً بألمٍ وتارةً أخرى بسعادةٍ غامرة، اختلط لهاث الذكريات مع لهاثه نتيجة الصعود في الطريق الجبلي الوعر، الذي تحدده مساحات من الرمل الناعم، وعليها آثار سير المواشي.. بينما زوجة خليل هي كالطبيعة وادعة غارقة في نفسها، لبست ثيابها الكردية الزاهية، وعصبت رأسها بمنديلٍ أبيض، تمتطي بغلاً فوق حمله غير الثقيل، أما الدابة الثانية، فقد كانت محملة تماماً بأشياء جاء بها خليل معه.

إلى الغرب من أطراف نهر بوطان، وعلى أطراف مدينة سيرت يترامى إلى الأسماع بين حينٍ وآخر هدير إطلاق مدافع من بعيد، دوي طلقات متقطعة ورشقات رشاشات من الثكنات القريبة، كل شيء يوحي بأن هذه الجبال هي ساحات حرب.

لحقهم كل من نيچرڤان وموسى، بينما عبد الرحمن ومن معه كانوا في استراحة بعد مسير استغرق أكثر من ساعة، فور وصولهم سأل موسى:

- في أي نقطة يتمركز الرفاق؟ موجهاً سؤاله لـعبد الرحمن.

- حسب ما أشاروا لي، الليلة يجب أن يكونوا قد غيروا نقطة تعسكرهم منتقلين إلى (باني هرجا - Banê Hirça).

- نقطة المغارات؟

- لا أعتقد ذلك، أظن أنهم انتقلوا إلى الأعلى.. عند نقطة الجرف، كما تعلم، فهم لا يعسكرون في الوديان العميقة في مثل هذه الفترة، تلك النقطة أكثر إستراتيجية وفاعلية، تطل على مرتفعات المنطقة.

قاطعهم خليل متسائلاً:

- ماذا فهمتم من نتيجة الاشتباك الذي حدث أول البارحة، في المرتفعات المطلة على نهر بوطان؟

- الرفاق نفذوا عملية هجوم على قمة مشتركة بين الچتى والجنود في ثكنة قرية (شوز).. بعد العملية لم يبتعد الرفاق، بل نصبوا الكمائن على عدة معابر جبلية.. حسب توقعاتهم بخروج الجنود منها في الصباح، للقيام بحملة التمشيط في المنطقة، ونتيجة لهذه الكمائن حدث تماس بين الطرفين.. امتد ليتحول إلى اشتباك.

- مساءً استمعت إلى نشرة الأخبار.

- نعم.

- هل النتيجة كانت فعلاً.. استشهاد ذلك العدد الكبير من الرفاق؟

- ما عدد الشهداء.. حسب ما ورد في النشرة؟ سأل حج خالد.

قاموا لمتابعة التحرك من جديد، بدأ عبد الرحمن يضحك مقهقهاً من

تلك النتيجة وهو يقول:

- افهموا الأمر بالعكس تماماً.

- ماذا تقصد؟

- الحقيقة أن هناك مقاتلاً واحداً لا أكثر قد أصيب بجراح طفيفة، هذه هي عادة الأتراك، دائماً يكذبون ويجعلون عدد قتلاهم مساوياً لعدد الرفاق المقاتلين المستشهدين، يبدو أن خائناً من بين المقاتلين قد هرب من صفوف الگريلا، واستسلم في اليوم التالي.

- عجيب أمر الأتراك عندما تستمع إلى إعلامهم، من ناحية تظن أنه لا شيء يجري في تركيا.. لا حرب ولا من يحزنون، ومن ناحية أخرى كل هذه العمليات ومجريات الحرب، عندما يبلغ السيل الزبى أو كما يقول المثل: لا تَخفى الرماح في الأكياس، يصغرون العمليات التي لا يستطيعون إخفاءها، لكبر حجمها وخسائرهم الفادحة دون أن ينسوا تسميتها بأنها مجرد أعمال حفاة أشقياء.. مشاركة الطائرات الحربية وحوامات مختلفة الأنواع، بما فيها الكوبرا والأباتشي إلى جانب آلاف الجنود في تلك العمليات من أجل مجرد عدة أشقياء؟!! ضحك الجميع مقهقهين.

- يظهرون الأمر على أنهم أبطال لا يموتون.. يقتلون فقط. تابع عبدالرحمن.

- هذا هو نفاقهم الدائم.. من يعش الواقع، ويقارن مع ما يأتي في نشرات الأخبار، يفهم حقيقة نفاقهم، وكيف يتم خداع الشعب.

أضاف موسى.

الطرق الجبلية معروفة بوعورتها وضيقها والتواءاتها، أعداد لا تحصى من البعوض تلاحقهم وتلتصق بوجوههم، بين الحين والآخر يحاول أحدهم إبعادها وإزالة ما التصق منها بوجهه بظهره يديه، كلما تقدم صعودهم، كان الجو يزداد طراوة وبرودة، الريح تهمهم بين أوراق الأشجار، البعض يعلق على أكتافه حقائب الرعاة، المحشوة بأشياء من احتياجات المقاتلين، صعودهم مستمر وسط الغابة التي اكتمل اخضرارها في هذه الوديان المتعرجة المتداخلة والمتفرعة على شكل شقوق صخرية عملاقة.

عندما اقتربت الساعة من العاشرة كانوا قد عبروا حدود الغابة القاسية، متجهين صعوداً نحو الزوزان، أخذوا يسيرون في طريقٍ منعرج تظهر عليه آثار المارة، ربما غيرهم سبقهم.. لا بد من وجود أشخاصٍ مثلهم متوجهين في هذه المنعطفات لسببٍ ما، كما ظهرت آثار قوائم بعض الحيوانات أيضاً، ثم مالَ الدرب في انحناءة واسعة، لينتهي عند أفرع شجرة بلوط ضخمة، تدلت أغصانها حتى كادت تلامس الأرض وتقبل وجنتها، يبدو وجود آثار أقدام ذئابٍ بالقرب من الانهدامات الصخرية، كانوا قد افترسوا فريستهم وخلّفوا من رائحتها ما يجبر المرء على تجنب هذا الطريق، وأمام ذلك آثار أفعى ضخمة فوق تراب الطريق الناعم، وبقايا جلدها القديم بين بعض الأعشاب بالقرب من صخرة كبيرة.. في الطرف المقابل من الوادي، كان أحد القرويين عائداً

من الصيد، وضع بندقيته على كتفه، وعلق طيور الحجل التي اصطادها باكراً بحزامه.

بينما التعب بادٍ على وجوههم، والعرق يتصبب من جباههم، ويسيل على وجوههم كخيوط ذهبية، تلمع تحت أشعة الشمس البراقة، بدأوا الصعود من شقٍ صخري عميق، ما زال عبد الرحمن يتقدمهم حاملا جلد الأفعى الكريستالي على شكل أنبوب من النايلون غير مبالٍ، كمن يمشي في طريق معبد لا بين الأدغال والشقوق الصخرية والانهدامات.

سأله نچيرڤان:

- يبدو أن جلد الأفعى هذا قد أعجبك يا عبد الرحمن.. ماذا ستفعل به؟

وقف خليل وأنفاسه تكاد تخنقه، اتكأ على صخرة وأرخى إحدى ساقيه، وهو يقول بعد أن نظف حنجرته من البلغم المكوم داخلها:

- ¬اللعنة على الدخان وحياة المدينة.

ثم بدأ يستنشق الهواء الجبلي النقي بشراهة.. تابع:

- آه.. شهقة واحدة من هواء هركَول، تعادل المدينة بما فيها، هواء المدينة يجب ألا يسمى هواء.. إنه مزيجٌ من الملوثات.

فور توقف خليل كان كل واحد قد أخذ مكانه، جلس أو استند على الصخور المترامية على أطراف الطريق، بينما البغل ما يزال تحت ثقل حمله، دون أن تترجّل زوجة خليل، والبغل توقف دون إيعاز كغريزة بني جلدته، وكأن الاستراحة كانت من أجله، ليستغل الفرصة ابتعد

عنهم يقضم الأعشاب بين الصخور، بينما أم يوسف فارسٌ يُسيّره فرسه، لجامه ليس بيدها، وهي تبدو ككتلة هامدة على ظهره، المسكينة.. لا تجرؤ على القيام بأي حركة، ولا تتفوه بأي كلمة.

كان موسى بجانب عبد الرحمن، تناول يهشِّم جلد الأفعى بين راحتي يديه، مصدراً خشخشةً كخشخشة تهشم أوراق الأشجار اليابسة.

- إنك تذكرني بأيام الطفولة يا موسى. أضاف خليل يقول مرحاً.

- أي شيء تقصد؟ قال حج خالد.

- عندما كنا صغاراً.. ألا تتذكرون؟ عندما كنا نجد جلد أفعى مثلها، كنا نقوم بهشمها ومسح أيدينا ووجوهنا بها.

ارتفعت ضحكات الجميع، وقال موسى:

- نعم.. الكبار كانوا يقولون لنا إن القيام بذلك، يكسب الإنسان القوة والشفاء من الأمراض.

قاطعه عبد الرحمن، وقال:

- كان جدي يقول لنا: قم بمسح أسفل قدميك به لتكتسب قوة وسرعة في الجري مثل الأفعى.

عاودوا الضحك، وبدا أنهم أعادوا جلسة من جلسات طفولتهم، ولم يكونوا قد أنهوا موجات الضحك تلك، حتى قاطعتهم عدة صرخات من أعلى النتوءات الصخرية، من الصوت تعرف عبد الرحمن على صاحبه، بدأوا التحرك وهو يقول:

- إنه الراعي برهيم «**Berhîm**».

- ألا يعرف أننا ذاهبون إليهم؟ هل نأتمنه؟ سأل خليل.

- لا عليك، «برهيم» دائماً يلتقي بهم، وهو من أوائل الذين تعاملوا معهم، وقد كان يقوم سراً، ولا يزال، بتقديم المساعدة، وحسب قدرته بتأمين البعض من احتياجاتهم، في البداية كان هناك فقط شخصان في هذه المنطقة لهما علاقة بهم، أولهم كان الراعي كوت محمد «الكوزَني»، والثاني كان برهيم، وهما اللذان عرَّفانا بهم.

ما إن صعدوا تلال (باني هرجى - **Banê Hirçê**)، حتى انفتحت أمامهم السماء الواسعة.. المرتفعات.. الغابة، هامة هركَول المزركشة بمرتفعاته ووديانه، الجبل الساحر الكهل يقف منتصباً وسط غابة الجبال، قممه كأبراج أجراسها مهيبة، ترن أجراسها وترسل رنينها دون انقطاع، تنشر أمواجها في وطن الجبال، بينما قمم الجبال الأخرى تصغي، وهي تتناوب نشر ألحان أجراسها، وتراقب بعضها بعضاً، كأنها في سباقٍ وتود أن تعرف، أجراس مَنْ منها تقرع أجمل وأقوى.

السماء خالية من الغيوم.. شفافة كزجاج تم غسله بالكحول، وتم تلميعه بعناية، على الأطراف كانت الماعز تقفز فوق الصخور متمازحات، ملاحقة بعضها بعضاً بحركات رشيقة شقية، تبدي فرحها بقدوم الربيع، وتبهرها الأعشاب الخضراء الطرية.، من وسط الصخور المترامية، من وراء الأخاديد والشقوق الصخرية، تعالى نباح الكلاب، سرعان ما برز شخصٌ بصعوده نتوءاً صخرياً مطلاً على الأطراف، على كتفه بندقية صيد، وهو يجفف بطرف كمه العرق المتصبب من وجهه

المتقد، صفَّر ثم نادى الكلاب بصوتٍ جهوري، بلغ من شدة الرنين أن صداه وصل أعماق الوادي، يحمل بيده عصا غليظة طويلة، وعلى كتفه لبادة على شكل عباءة بدون أكمام، أطل وهو شاحب الوجه، أشعث اللحية، منفرج القميص عن صدرٍ كثيف الشعر أشيب، بعمامة شبيهة بنبات الفطر، بدا رأسه قمة من قمم هركَول المغطاة بالثلوج، وهو يُصفر كأنه لا يعرف سوى التصفير، ما إن شاهد القادمين، حتى التفت ونادى شاباً صغيراً برفقته، لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، كان جالساً في ظل شجرة بلوط عاكفاً على تقليم قضيب، إنه مساعده في رعي القطيع:

- شيرو.. انتبه إلى القطيع.. سأعود حالاً.

بدأ بالوثب من فوق الصخور بنشاطٍ كشابٍ في مقتبل العمر.. متقدماً الحاضرين، مهلّل الأسارير وفرحاً، بدا شيخاً قصيراً نحيلاً، قاتم العينين، مقطب الحاجبين، قسمات وجهه ليست منسقة، أول ما يلفت نظر المرء فيه هو أطرافه القوية، ملامحه الذكية، حاجبان غزاهما الشيب، على حزامه كان يعلق كيساً صغيراً فيه التبغ.. وخنجراً قديماً مثقوب الغمد:

- مرحباً بكم.. مرحباً.

من بين الجميع تركزت نظراته على خليل وزوجته التي كانت قد ترجلت، وكانت بفارغ الصبر بلغت الجبال المكسوة بالثلج، التي طالما حُدّثت عنها وعن ساكنيها.. على وجه السرعة احتضن خليل مرحباً

بهم.

- أعانكم الله.. قال برهيم.

- ولتكن لك القوة أيضاً يا برهو.

لم يطيلوا، حتى بادرهم برهو بنفسه، وهو الراعي المخضرم الذي يعرف أسرار وخفايا هذا الجبل:

- لا بد أنكم جئتم لزيارة أشبالكم؟ إن لم أكن مخطئاً.

- لستَ مخطئاً يا عم برهو.. أين هم؟

- إنهم هناك.. في نقطة الجرف، القمة المطلة على المغارات.

عندما سمعت أم يوسف ذلك، لم تتمالك نفسها، انتابها شعور جياش ملؤه الشوق، على الفور سألت:

- عم برهيم.. هل ولدي يوسف أيضاً هناك؟

- آه.. يوسف.. لم يعد اسمه يوسف.. ما شاء الله مثل النمر.. ليحفظه الله.

- ماذا؟ ماذا تقصد؟ «لم يعد اسمه يوسف؟!» سألت بتلهُفٍ.

- عندما ينضم إليهم مقاتل جديد.. يقومون بتسميته بأسماء حركية. أجابها موسى.

- لماذا؟

- لا أعرف.. ولكن يبدو أنه تدبير.. حتى لا يعرف أحد أسماءهم الحقيقية.

- ما اسمه الان؟

- .. اسمه عكَيد. أجاب عبد الرحمن.
- عكَيد؟ اسم جميل.
- إنه اسم قائد أول عملية أنصارية على «دهى – أروه – **Dihê**» عام 1984 .. الرفيق كان من باطمان.

انتابتها نشوة صبيانية، دبت روح الشباب فيها، بدأت تتقدمهم بلهفة، وهم يتجهون صوب نقطة تعسكر الگريلا، يتسللون من بين الصخور المليئة بالصدوع العميقة، بينما الصمت كان سائداً في قاعدة معسكرهم، كانت عينا الحارس النافذتان الحادتان تستطيعان، من بعيد ومن زاوية المراقبة من وسط الشجيرات الكثيفة، متابعة أي حركة في الأطراف، بعد اقترابهم من القاعدة، مباشرة وكالعادة انسحب أحد الحراس وبقي الآخر في مكانه من بين الحرش الذي يتناوبون الحراسة بشكل ثنائي في جوفه، ومن خلف الصخور، محتجباً عن الرؤية بقدر المستطاع، منحنياً وهو يتسلل بالنزول من موقع الحراسة، المطلة على كافة الاتجاهات، أخبر الضابط المناوب، بينما كان المقاتلون الجدد في شقٍّ صخري، ملتفين حول الرفيق فرهاد، يتلقون التدريب العسكري، فوق قطعة قماش عسكرية، كانوا قد فككوا بندقية كلاشينكوف، المجموعات كانت متباعدة على حدة عن بعضها بعضاً، الأكثرية منهم نائمون ملتفون من حول بقايا الجمر والرماد، الذي خلفته نيران الليل، والبعض منهم بقي يقظاً يرتشف الشاي، أباريق الشاي القاتمة المسودة، هامدة وسط الجمر، الحقائب العسكرية مضبوطة بجاهزية

تامة، البنادق ترقد بجانب رءوس المقاتلين، أكثرية النائمين ناموا دون أن يخلعوا أحذيتهم، ممنوع نزع جعبهم، حسب النظام المطلوب في حياة الگريلا، التي تعتبر كعضو من جسد المقاتل، يجب عليهم أن يكونوا متيقظين وعلى استعداد، قبل ومع شروق الشمس، إلى أن يتم التأكد من خلو الجغرافيا من أي حملات تمشيط أو أي شيء طارئ، يستمر ذلك إلى ما بين الساعة التاسعة والعاشرة، بعدها يستطيع كل مقاتل أن يأخذ قسطاً من الراحة والنوم.

ما إن نزل الحارس حتى توجهت إليه الأنظار، وذلك ما يفهمه غريزياً كل مقاتل ويكتسبه بالتجربة، سرعان ما نظر بعض المقاتلين إلى عقارب الساعة، التي أشارت بتجاوزها العاشرة، ولكن ساعة مناوبة تبديل الحراس كذلك لم تكتمل بعد، إذن لماذا نزل الحارس؟ ذلك يعني أن هناك شيئاً مريباً.. ولكن ما هو؟

للحرب أحكامها، فليس هناك قوالب جاهزة للحروب، ولا ساعات محددة بتحركات العدو أو أمورٍ أخرى، ما إن تحدث إلى الضابط المناوب حتى عاد إلى موقعه، ولم يعط الضابط المناوب أي تعليمات توحي بشيء من ذلك القبيل، بقي هادئاً وتابع سيره بصورة طبيعية من بين المجموعات، باتجاه مكان توقف الإدارة، حيث الرفيق خبات.

بمروره بجانب مكان إعداد الطعام كان أمام أحد المقاتلين شاة مذبوحة للتو، لا يزال الدم الحار يسيل منها على الصخرة التي تم الذبح عليها، فالراعي برهيم سلمها لهم كما أوصاه صاحبها، بينما المقاتل أخذ

يقطعها بسكينٍ قِطَعاً صغيرة.. وبجانبه مقاتلة بيدها جذعٌ طري مرن تحركه مثيرة به بعض الهواء، وهي تقول: «هذه تصلح سيخاً لبندقيتي»، التفتت وسألت:

– هل هناك شيء يا رفيق تيماف؟

تيماف دون أن يتوقف، وهو ينتزع في طريقه أوراقاً من الشجر، يجيب بإيماءات من رأسه:

– لا.. لا.. لا شيء.. يبدو أن هنالك قرويين على أطراف النقطة.

أخبر قائد الوحدة بالأمر، عاد وتوجه إلى مكان الحراسة، بينما الزوار كانوا قد اقتربوا متسللين من الشقوق، من فوق الصخور وبين الأحراش، فجأة خرج فدائي أشبه بصخرة دبت فيها الحياة على حين غرة، قائلاً بصوتٍ أشبه أن يكون همساً، وكمن يخاطب نفسه:

– أهلاً بكم.. مرحباً.

تجهمت طلة خليل بهذه المفاجئة، وفرقع بشفتيه وبإحساس من البهجة جعله لا يشعر بطول مسافة الطريق، وصاح بخشونة:

– ها هم.. إنهم هم.. وأخيراً أراهم بأم عيني.

فلم يتمالك نفسه، اندفع نحو الرفيق تيماف وهو يقبله ويقول:

– آه.. دعني أشم رائحتهم.. رائحتهم.. إنها مسك وعنبر.

تتالى الآخرون أيضاً، بينما أم يوسف لا تقل شوقاً عن زوجها، كانت نظراتها تنم عن الدهشة والحيرة والارتباك، وهي تقول:

– كلهم بمثابة يوسف.. وهي تقبله قبلة الأم لأبنائها.

تقدمهم تيماف.. بينما أم يوسف بين الحين والآخر تتوقف لتخلص فستانها من الأشواك التي تتشبث به، اصطحبهم إلى داخل فسحة مسورة بالصخور، تغطيها عدة أشجار من البلوط والسنديان، هناك سنديانة عملاقة وقد تشققت قشرة جذعها كجلد تمساح عجوز، تعانقت أغصانها حاجبةً عنهم السماء، لم يكن حجاباً كاملاً، تتعارك أغصانها وتتمايل بنسمات خفيفة، في المكان الذي جلسوا فيه، كان هناك نشارة للخشب متناثرة على الأرض، نتيجة قيام نقار الخشب بحفر أحد الجذوع لإعداد عشه.

مرت مجموعة من المقاتلات والمقاتلين، كل واحد منهم يحمل ثلاثة غالونات سعتها عشرة ليترات من الماء، واحدة في حقيبة الظهر وفي كل يد واحدة، أدوا التحية وتابعوا دون أن يتوقفوا.

جلسوا في ذلك المكان الذي يشبه شكل الفنجان، أو قعره يشبه إلى حدٍ بعيد جوف الصحن، لم يأخذوهم إلى وسط نقطة التعسكر بين أماكن تمركز المجموعات، بينما التهى الحاج خالد وأحد المقاتلين بإنزال الحمولة عن البغل لإراحته، سأل خليل:

- كما أعلم ليس هنالك من ينابيع في هذه الأطراف.. من أين يجلب هؤلاء الرفاق الماء؟

أجاب عبدالرحمن وهو يجفف العرق من على جبينه بطرفٍ من حزامه، هامساً:

- ذلك صحيح..إنه الراعي برهيم.. الراعي برهيم دلهم على نبع لا

يعرفه أحد.

خليل مستغرباً:

- كيف ذلك؟ لم أفهم.

- يقول الراعي برهيم.. إنه عندما كان يرعى القطيع في الأطراف.. كان لديه تيس، فكان يلاحظ اختفاءه في نفس المكان بين الصخور وفي شقوقها.. لحظات ثم يعود والماء يشرشر من ذقنه.. ذات مرة، كما قال، لحق بالتيس إلى أسفل الصخور والشقوق التي على شكل أنفاق، وإذ هنالك نبع.. التيس هو الوحيد الذي اكتشفه فكان يذهب ويشرب ثم يعود.

- التيس.. من بعض الحيوانات الذكية ويبدو أن حسه قوي.. هل النبع قريب من هنا؟

- لذلك الرفاق أطلقوا عليه نبع التيس.. إنه قريب، الرفاق حريصون على مكانه.. هنالك فقط عدة مقاتلين يعرفون مكانه.

أخذوا أماكنهم بعيداً من قعر تعسكر الوحدة، ومن إحدى خصوصيات حياة الگريلا، هو إبقاء المدنيين في إطار علاقة محصورة مع بعض المقاتلين، هي جزء من تدابيرهم التنظيمية والعسكرية.. باعتبار أن هذه هي الزيارة الأولى لخليل وزوجته.. والمرة الأولى التي يلتقون فيها بالگريلا بكامل عتادهم العسكري.

- أين هم، هل هم فقط هؤلاء؟ قلتم إن عددهم كبير. تساءلت زوجة خليل.

- إنها وحدة عسكرية.. الرفاق لا يأخذون الغرباء إلى وسط المقاتلين.

أجاب عبد الرحمن

- لماذا؟ ألا يثقون بنا؟

- إنها ليست مسألة ثقة.

- ماذا إذن؟ سألت أم يوسف.

- إنهم يفعلون ذلك من أجلنا، لكي لا يتعرف جميع المقاتلين على المدنيين من القرويين وغيرهم من الذين هم على علاقة بهم.

- أتعتقد أنهم يخافون من بعضهم؟

- ليس الأمر خوفاً، كافة الرفاق يفدون بعضهم بعضاً، ولكن في بعض الأحيان من الممكن أن تحدث عمليات هروب أحد المقاتلين من ضعيفي الإيمان، مهما كان فهم بشر، أو لا يستطيعون تحمل حياة الكريلا، أو أي شيء آخر، فلكي لا يسببوا الضرر لأحد، كما حدث في هروب أحدهم بعد عملية «شوذ».

أضاف خليل وقد ارتعش حاجباه قليلاً، واختلجت شفته السفلى بعض الاختلاج:

- إذا كان الأمر كذلك، فهم محقون وصائبون بتدبيرهم هذا، انظروا حتى في هذه الأمور يفكرون بنا، يضحون بأنفسهم من أجلنا ولا يريدون أن يلحقوا بنا أي ضرر.

- ليحمِهم الله بجاه الكيلاني. قالت أم يوسف.

لم يطل مكوثهم.. جاء الرفيق هوكَر يحمل إبريق الشاي القاتم مع

الكاسات، جلس القرفصاء بعد أن رحب بهم وبدأ بملء الأكواب، ووضع كيساً صغيراً من السكر وسطهم، دون توافر ملاعق، أخذ خليل يلتفت يميناً ويساراً، لا يعرف كيف يتصرف لإضافة السكر إلى كأسه، خجل من أن يسأل.. عرف حج خالد ما يبغيه.. فمدّ يده إلى أوراق شجيرات البلوط الطرية بجانبه وقطف بعضها وقال:

- هذه هي ملاعق الگريلا يا خليل..

ثم تناول قطعة غصن صغيرة يابسة وقطع عوداً منها، وبدأ بتحريك السكر الذي حل أسفل الكأس الذي يتصاعد منه بخار ناعم دقيق، وهو يقول: «ملاعق الكرد».

خليل وزوجته يضحكان مستغربين من هذا الدرس الأول الغريب في حياة الگريلا، أما الأمر الآخر الذي لاحظوه هو أنهم لا يتحركون خطوة بدون بنادقهم، ويتحدثون فيما بينهم بلهجة رصينة موزونة.

لم يكونوا قد انتهوا من ارتشاف الشاي بعد، حتى ظهر الرفيق خبات من بين ثنايا الصخور، ترافقه الرفيقة نَفَل والرفيق دوغان، وهي تمشي بجانب القائد هذه المشية الرشيقة الشماء، يبدو في قسمات وجهها الكثير من الذكورة، بل وشيء من الغلظة، لولا قامتها الفارعة، وصدرها الناهد وكتفاها القويتان، لا سيما عيناها الرماديتان الواسعتان، اللتان تظللها أهداب يضرب لونها إلى زرقة تحت حاجبين دقيقين، تعبران عن كثيرٍ من الجد ورقة العاطفة في آنٍ واحد، كذلك شفتاها اللتان تنفرجان عن ابتسامة لطيفة محببة، صحيح أنها لا تبتسم إلا نادراً، ولكن ابتسامتها

دائماً تخطف البصر.. جسمها كله يفيض عافية وقوة.

القائد بهيبته الرائعة.. وجهه قوي التعبير، ذكي الملامح، قامة رياضية وبنية متينة، تقدم بخفة وتوازنٍ مهيب، كأنه يمهد الصخور بقدميه لتسويتها بالأرض، خطواته كانت رشيقة وقصيرة، فهذه هي حال الگريلا، الذي ألف التحرك على مثل هذه الأرض الجبلية.

بعد الترحيب والاستقبال، اتخذ مكانه وسطهم، بجلسة مريحة على جذع تلك الشجرة الضاربة بجذورها في أغوار هركَول، كست وجهه ابتسامة صافية عريضة.. أعاد الترحيب بهم:

- مرحباً بالزوار.

وبضحكة مسموعة سأل:

- إنهم ضيوفنا أليس كذلك رفيق عبد الرحمن؟

- والد ووالدة الرفيق عكَيد.

- عكَيد ابنكم؟

- كان ابننا يا رفيق، أما الآن فهو ابن الثورة وكردستان. أجاب خليل.

- كم يوماً مر على مجيئكم من أضنة؟

- منذ أكثر من عشرة أيام، ننتظر في القرية.

- أخبرنا الرفيق عبدالرحمن بالأمر، لقد كنا منشغلين خلال هذه الفترة في المرتفعات المطلة على نهر بوطان، هل سمعتم بالعملية التي نفذها الرفاق على قمة ثكنة شوذ؟

- يوم الاشتباك يا حضرة الرفيق كنا نراقب الطائرات والحوامات التي

كانت تحلق وتقصف تلك المرتفعات، لقد كنا نشاهدها من القرية.. معظم القرويين صعدوا فوق أسطح منازلهم ليشاهدوا، ولكثرة دوي الانفجارات، كانت قلوبنا تخفق من الخوف عليكم، خاصة عند سماعنا نشرة الأخبار والنتيجة التي أعلنوا عنها على شاشات التلفاز.

عاد نقار الخشب إلى رأس الجذع الذي كان يصنع فيه عشه، عاود الحفر، فبدأت النشارة التي يخلفها تتناثر لتنتشر على شكل رذاذ خفيف على الجالسين.

- بهذه الطريقة يخدعون شعبهم وشعبنا.. يخفون خسائرهم، لقد اغتنم الرفاق إحدى عشرة بندقية مع كامل عتادها من الموقع الرئيسي، كذلك سلاح قاذف «لاو»، عدا الذخيرة وأشياء أخرى.

- أرجو أن يكون الرفاق سالمين. قالت أم يوسف.

- لا عليكم، الرفاق بخير، وعكَيد كذلك.

سادت ضحكة على أثر جواب الرفيق، ولتجاوب قبل أن تنهي ضحكتها، فقطبت جبينها بمرح، قائلة:

- لا.. والله أنا لا أقصد يوسف فقط.. نحن كلنا فداكم وكلكم بمثابة يوسف.

أجاب مازحاً:

- إنه لا يصلح لشيء، لا يستطيع السير.. أثناء المسير فهو يتخلف دائماً عن الوحدة، ماذا سنفعل به؟ أرسلته إلى هنا والآن تتباهين أمام الآخرين أيضاً، بأنك أم لمقاتل گريلا، وأشار إلى الرفيقة نفل التي

رافقته في المجيء وهو يقول: اسألي الرفيقة نفل، إنه لا يستطيع اللحاق بأحد.

أم يوسف لم تكن أقل ميلاً للمداعبة المزاح. أجابت بلباقة:

– من أين له أن يستطيع السير في هذه الجبال يا رفيق؟ يوم أن ذهبنا إلى المدينة كان يوسف لا يزال طفلاً، ولم يقم بشيء سوى الدراسة، إنه ابننا المدلل.

– ما نحن فيه.. بسبب دلال أمهاتنا هذا.

كان نقار الخشب ما يزال يصدر أصوات نقراته، وساد جو من الوئام العائلي، وتبددت ضبابية التحفظ، ثم سادت لحظات من الصمت المطبق، فسأل خبات:

– كيف وضع المدينة يا رفيق خليل.. أوضاع الشعب المهجرين؟

– من ناحية الحياة.. قسماً فهي ليست حياة بشر يا رفيق، ولكن ليس باليد حيلة، ماذا نفعل؟ مجبورون، الكثيرون تم تهجيرهم عنوة، أُحرقت القرى، ولا يستطيعون العودة بسبب سوء الأحوال، ومُنع الصعود إلى المراعي و.. و.. ترى هناك عدة عائلات تسكن جميعها في شقة واحدة.. إضافة إلى الاعتقالات، ومداهمة البيوت ليلاً ونهاراً وملاحقات البوليس.. من ضرب وتعذيب ودس الـ«ميت»[1] بين المهجرين.

بعد السؤال عن أحوال المدينة، وعن حالة الشعب في المتروبولات، نظر الرفيق خبات إلى ساعته، وراقب عقاربها:

---

(1) الميت: جهاز الاستخبارات التركية.

- استأذن.. سنتحدث لاحقاً، خذوا راحتكم الآن، سيبقى الرفيق دوغان معكم، لدي بعض المهام يجب أن أنتهي منها، وسأعود ثانية.

قال الرفيق دوغان:

- أشكرك رفيق.. لقد سمعت الكثير من رفيقنا الجديد عگيد عن والده خليل، خاصة قصة فرماني آغا انتفاضة آروه في القرن التاسع عشر..

سأل خبات:

- و ما علاقة خليل بذلك.. إنه ضيفنا ربما يكون متعباً؟

قاطعه خليل وهو يقول:

- الرفيق ربما يقصد عن فترة مجيء الصحفية الكردية إلى المنطقة من (موش) التي تعيش في ألمانيا، كانت بحاجة إلى مساعدة لجمع المعلومات عن انتفاضة آقيب آغا.. لقد أرسلها قريبها إلينا وقمت بمساعدتها، جبت معها القرى ومن نعرفهم ممن لديهم معلومات.. هذا كل ما في الأمر.

قال خبات ضاحكاً:

- أنت والرفيق دوغان.. أنا لدي مشاغل.. كما ترون..

ثم وجه الكلام إلى الرفيق تيماف بلهجة آمرة وهو يتابع:

- عندما ينتهون من التدريب ليأتوا ويقابلوا أهلهم وذويهم.

بدأ خليل يحدث الرفيق دوغان وهو يكرر:

- رفيق! صحيح كنت معها لفترة.. وسمعت الكثير من المسنين..

هنالك من عايش تلك الفترة.. وحاولنا الحصول على وثائق من سجلات آروه، ومن مدينة سيرت عن أحداث تلك الفترة، ولكن للأسف لم يعطونا شيئاً.. هنالك من عرض على موظفي الدولة مبالغ كبيرة كرشوة للحصول عليها ولكن لم تنفع.

– المهم ما الذي سمعتموه؟ وما هي معلوماتكم حول الانتفاضة؟

– رفيق سأقص عليك ما أعلمه.. وكما سمعت من المسنين في المنطقة، ولكن كما لاحظت فأنت تريد تدوينها وتكتب عنها.. أليس كذلك؟

– نحن هنا في المنطقة، إننا لسنا من أبنائها.. ولكن على الأقل يجب أن يكون لدينا ولو بعض المعلومات عن أحداثها.. ندون البعض منها كعبر.. منطقتكم هذه قبل انطلاقة الثورة كانت عبارة عن مزيج محير.. آغوات، بكَوات، أشقياء، مجرمون، وطنيون، خونة.. هنالك من كان من الأشقياء والمجرمين وفجأة أصبحوا وطنيين وانضموا إلى صفوف البيشمركة، ثم عادوا إلى ممارسة نفس الإجرام.. أمر غريب.. أي حياة كانت تعيشها هذه المنطقة؟

– ذلك صحيح.. وقصة آقيب آغا وعائلته بنفس الصورة.. سأسرد لك قصتهم ولكن على طريقتنا نحن القرويين.

ابتسم الجميع وقال دوغان متسائلاً:

– كيف على طريقتكم؟

– كما نعرف.. التاريخ يسجل الأحداث حسب حدوثها، أي يسجل الأيام والأعوام، ولكن لا وجود لكل ذلك في طريقة سردنا للأحداث،

لا أعرف بالضبط في أي عام حدث هذا أو ذاك.. أستطيع فقط أن أسرد قصتهم كما سمعتها، وما بقي في ذاكرتي.

- لا يهم، سأسمع منك كيف كانت قصة عصيانهم.

- سأبدأ لك من قصة كبيرهم «فرماني آغا».

- تفضل..

- كان في منطقة آروه صراع على آغوية الآغوات بين أحمد بشار وفرماني.. الأقوى بينهما كان أحمد آغا، بدأ فرماني آغا يجهز مكيدة للقضاء على أحمد آغا، في أحد الأيام دعاه فرماني آغا إلى مضافته، وكان قد اتفق مع رجاله على إشارة بدء الانقضاض عليه وقتله.

عندما كانوا في المضافة، وما إن أعطى فرماني آغا الإشارة، والتي هي فور أن ينقر بغليونه على الأرض يبدأ رجاله بالانقضاض على أحمد آغا ويقتلونه بالخناجر، وبالفعل تم ذلك وقتلوه، عائلة أحمد بشار هربت إلى منطقة (خسخى - Xisxê) قرية (أرتفنا- Ertevina)، كما يقولون كان ذلك في شهر رمضان، بدأت مناوشاتهم المسلحة بين بعضهم البعض، حتى عيد الفطر في ذلك العام، قتل اثنان وثمانون رجلاً من الطرفين، يقولون: في أحد المرات اعتقل رجال فرماني آغا أحد الآغوات، من أتباع أحمد آغا المقتول، فربطه فرماني آغا على معلفة الخيول، وكان يتم تقديم التبن له.

مع الزمن سيطر على أغلب القرى والعشائر، حتى عشائر شرناخ مثل: (حج بيرا - Hac Pîra) عائلات كبيرة، كعائلة «عمر تمر» من

عشيرة (باتيا – Batiya)، ومن منطقة (مشارى – Mişarê) بصري آغا، ومن فندك وقلعتها في جبل كَابار إلى الغرب من شرناخ عائلة علي رمو، استسلمت له جميع القرى والعشائر في المنطقة عدا أهل قرية (أرس– Êrs) لم يقاوموا سلطته، ولكن ظلت بينهم مناوشات بين الحين والآخر.

– الرجل هكذا شكل إمارة؟

– صحيح رفيق.. وهو الذي بنى قلعة هينى.. إذا كنت تعرفها إلى الغرب من قرية دريشكى وشمال غرب أسكي آروه؟

– أعرفها جيداً لقد وقعنا في كمين هناك، أسفل القرية عند بئر يعود للقلعة.. كنا بصدد التزود بالماء.. والجنود كانوا قد نصبوا كمينا هناك.

– نعم إليك قصة تلك القلعة، وكيف بناها، يقولون: كان فرماني آغا قد أمر بنقل حجارة قصر «تلى مشارى – Tilê Mişarê» المعروف بـ«قصر جيليا – Çiliya» قصر رسول آغا، إلى هناك لبناء قلعة هينى.

– كيف ذلك.. فكل حجرة بضخامة فيل.. كيف كانوا ينقلونها في هذه الوديان والجبال؟

– ليس هذا فقط، بل يقولون وصل بممارسته للظلم، إلى حد أنه عندما كان يزور بيوت القرويين، وإن صدف وزار بيت أحدهم ووجد عاموداً قوياً وجميلاً في سقف بيته، كان يأمره بهدم السقف لإخراج العمود وأخذه إلى مكان بناء القلعة.

– إلى هذا الحد؟

– نعم.. يقولون: في تلك المناوشات قتل ثلاثون آغا من الآغوات من بين الطرفين، وسبعة وخمسون عريساً كانت ما تزال حناء العرس على أيديهم.

قال حج خالد:

– لكنك نسيت أن قريتي «شكالا» و«شاورا» قامتا ضده ولم تستسلما له.

– صحيح ولكن كما نعرف بالنهاية، استسلموا أيضاً لـحكمه، الوحيد الذي نفذ بجلده ومن بين يديه من الذين وقفوا في وجهه كان محمد أحمو وهو كبير قرية (أرس)، ولو أمسكوا به لقتلوه، لكنه لم يستسلم، هرب إلى جبل كَابار، إلى قرية (دير شاوى – Dêrşaw) مع قطيعه، بقي عند حج مصطفى آغا وتحت حمايته، كان يأخذ من كل عشيرة عدداً من الرجال حسب حجم العشيرة، يجمعهم ويقودهم في غزوات العشائر، بدأ بالغزوات على عشائر المنطقة وضم أكثر من 110 قرى من المختارية إلى المزارع تحت حكمه.

يقولون: في أحد الأيام اغتنموا الكثير من الغنائم، ومنها قطعان ماشية تعود لعشيرة «عمر تمر باتيا» من شرناخ، فيعيد فرماني لهم قطيعهم، ويرسل له 3000 رأس غنم إلى نبع قائمقام إلى الشمال الغربي من شرناخ، ما بين آروه وشرناخ.

يقولون: أثناء ذلك تحدى كل من «علي خان تتر» و«حاجي بيرا» عائلة «آغا سور» من شرناخ، فرماني، واعتبروا ما تم ذلك خوفاً منهم،

وقالوا: إنّ «آغا سور» قال وهو يقصد فرماني آغا: «من سيرفع رأسه.. سأفعل به كذا وكذا..».

يقال عندما سمع فرماني هذا، قال: آغا سور.. فليفعل مائة رجل بأمك.. أنت لستَ ذلك الرجل الذي يفعل ما يقوله.. سأضربك وأحطم أنفك..

يقولون: إنه أعاد الغنائم من عند جسر (خويدان - Xuêdan) ثانيةً إلى نبع قائمقام، وفيما بعد تدخل وسطاء، أرسل إلى (عمر تمر) ليأتي ويأخذ قطيعه، بينما آغا سور تدخل راجياً وهو يقول: لقد أخطأت.. بينما جاوبه فرماني: لا أقبل اعتذارك.. ولكن لن أكسر بخاطر بوطاني من أجل أمثالكم الدخيلين.. «باعتبار حاجي بيرا ليسوا من أصول بوطان».. أعاد الغنائم إلى أصحابها، ودفع لهم ثمن ما تلف منها، مقابلها استسلم عمر تمر لـفرماني آغا، اتحد عمر وفرماني وهاجما شرناخ، جاءوا بغنائم شرناخ ولم يعيدوا شيئاً، وبعدها هاجما معاً «Gerga Mehmedê Emo» في «سلوبي»، ونهبا كل شيء وعادا أدراجهما بغنائمهما، ولم يكتفيا، بل تابعا الغزو على (خسخى - Xisxê) عائلة أمين كوركَين في برواري.

لقد نهبا وسلبا وسيطرا على كافة عشائر المنطقة مع آغواتهم.

- هكذا كانت سلطة إمارته.. والسلطات العثمانية أين كانت؟

- رفيق، لم يكن هناك دولة في هذه الجبال.. حتى جاءت نهايته.. بقتله..

- كيف تم ذلك؟

- في أحد الأيام، فرماني وأحد أبنائه يدعى إسماعيل، يرافقهم عبد اسمه بلال، يخرجون إلى الصيد، في الليل يحلون ضيوفاً في قرية «أرس»، ومع الصباح الباكر يخرجون إلى الصيد «صيد الحجل»، بعد أن ينصبوا الفخاخ والحجل (الربات).. حجل على الشجرة وحجل بين الشبكة.. بلال كان يحمل بنادقهم «مارتلي - بنغري - هديا باش - موزر»، يختفي خلف الصخور بحجة قضاء حاجة، فيطلق النار على فرماني، عندها يرمي إسماعيل بنفسه على بلال.. يبدو أن بلال كان أقوى، فيسحب خنجره من نوع «صالح بكَي» ويطعن إسماعيل بطعناتٍ عديدة، ولكنها لم تكن مميتة، الطلقة كانت قد شقت بطن فرماني تماماً واندلقت أحشاؤه خارجة متناثرة على الأرض، لم يمت فرماني أيضاً، هرب بلال باتجاه قريته (شاورا) القريبة، يقولون يومها كان يرافقهم أيضاً رجل من قرية أرس يدعى شاهين، فرماني ورغم حالته كان يقول له: يا شاهين نحن كما ترى.. والله لو «بلو» أي (بلال).. يفلت، سأنهي أصلك من الأساس.

شاهين يخاف من تهديد فرماني، فيحمل بندقية ويلاحق بلو ويتمكن من قتله فوراً، يقول فرماني لابنه إسماعيل: إذا سأل أحد: من قتل بلو؟ ستتحمل المسئولية وتقول أنا من قتله.

عند سماع القرويين دوي إطلاق النار، ذهبوا إلى المكان، كان إسماعيل قد فارق الحياة قبل أبيه، أما فرماني فيبدو أنه حقاً كان رجلاً جباراً،

تصور رفيق.. كانت أحشاؤه قد خرجت وتبعثرت بين القش، بينما كان يحاول جمعها بنفسه، ينظفها من القش ويعيدها إلى داخل كرشه، يقولون: وهو كذلك كان يسأل أحد وجهاء قرية «أرس» ممن وصلوا المكان، ويدعى حاجي محمد: كيف جرحي يا حاج محمد.. هل سأموت..؟ يجيبه حاج محمد: جراحك يا فرماني آغا قسماً بليغة.. وكما يريدها الله.

حملوه إلى قرية أرس ولم يصل القرية حتى كان قد فارق الحياة، عندما عرفت عائلة فرماني أن أهل أرس هم من قتلوا «بلو» لم يتعرضوا للقرية، أخذوه إلى قلعة هيني وهناك قاموا بدفنه، بعدها ابنه آقيب آغا **AqÎb axa** ينتقم ويقوم بقتل عائلة بلال في شاورا.. أطفالاً، رجالاً، نساءً.. قتلهم عن بكرة أبيهم، ولم يبق منهم إلا واحد، لم يكن موجوداً يومها في البيت، إحدى النساء خبأته في برميل الدبس وكان «يدعى «محى كَر»، كذلك نجت بعض النسوة لتواجدهن عند أهاليهن أو في مكان خارج القرية، البعض منهن كنَّ حوامل.. ومنهن من عادت وتشكلت العائلة ثانية.

- يعني آقيب آغا أيضاً كان مثل والده؟ ولكن سمعت الكثير عنه كرجل وطني.. كيف ذلك؟

- رفيق.. آقيب آغا كما عرف في حكمه كان رجلاً متديناً، يحب الخير، يذهب إلى مجالس العشائر والقرويين، متسامحاً، وبرزت لديه روحٌ قومية ووطنية، كان ينتقد ما حدث ويحدث بأنه غير صحيحٍ وغير عادل..

بدأ يدعو إلى وحدة الصف وتوجيه القتال نحو الأعداء الحقيقيين العثمانيين، التقى رؤساء العشائر في بوطان وشكل منهم تحالفاً:

شرناخ: آغا سور – علي خان تتر.

دير كَولى: عمر تمر (أُعدم فيما بعد في آمد).

كارسيا: بير زيدين.

جيليا: رسول محمد.

شوفي Şovî: يوسف علي بن خلف الشوفي.

كانت على أثره انتفاضة بوطان (شرناخ – جزرة – آروه).. آقيب آغا جمع العشائر (كَارسي – شوفي – ولات كَولي – ولاتي).. جمع الأسلحة واستعد للانتفاضة، تم توزيع الأسلحة أسفل قرية أرس.

– انظر المصادفة، الرفيق عكَيد أثناء تنفيذه عملية 15 آب 1984، بالهجوم على آروه يكون انسحابه إلى الأعلى من قرية أرس.. وهناك يقومون بإخفاء الأسلحة التي اغتنموها من الثكنة..

– رفيق باعتبارها قرية مطلة وقريبة من آروه.. يومها تمت السيطرة على آروه «دهى»، وبعد الانسحاب إلى أسفل قرية أرس ثانية عند نبع سبيندار، كان لديهم جريح واحد وهو من كَارسا، الأسلحة التي اغتنموها لم يفعلوا بها مثلما فعل الرفيق عكَيد، بل وزعوها على القرويين، يومها كان الثوار قد قبضوا على رئيس شعبة آروه، وسيق أسيراً إلى قلعة هينى، مقر آقيب آغا، ويقولون: إنه قال لهم: لماذا جلبتموه إلى هنا؟ هل من أجل البذار..

كان آقيب معروفاً بالشهامة واحترامه لرجاله، يقولون في أحد الأيام تحداه رسول محمد آغا وهو يقول له ممازحاً: يا آقيب آغا إن رجالك من حولك لا يطيعونك.. فيجيبه آقيب آغا: يا رسول آغا.. أنا كبش بين الأكباش.. أما أنت.. مجرد كبش بين الأغنام..

أرسلت السلطات العثمانية حملة عسكرية، وقضت على الانتفاضة، كما هو معروف عند قرية (خيرت) عند محاولة عبورهم نهر بوطان بالسفينة، والهدف كان مدينة سيرت، وبفشلهم هاجم الأتراك المنطقة وجلبوا معهم جنوداً مرتزقة من الزنوج السود.. وبدأوا بحرق البيوت والقرى وارتكاب المجازر.

– و ماذا كان مصير الكبش والأكباش؟

– أعلن آقيب آغا من يريد الذهاب معه إلى سوريا للهرب.. ويومها يقولون: كان (علي جاويش الماميري – أحمد تمو – أحمد أفندي) كلهم عملاء للحكومة، علي جاويش كان بمثابة مساعد للقائمقام.. كانوا يتجولون في المنطقة ويقنعون الثوار بالاستسلام، وفعلاً بدأوا بإنزال رجال الانتفاضة من الكهوف والمغاور وتسليمهم إلى السلطات العثمانية، أرسل أحمد أفندي خبراً إلى آقيب آغا يبلغه إصدار قرار العفو ليعود، عاد ومعه ابنه خليل، زوج آقيب آغا أخته لـ«أحمد أفندي» فتم العفو عنه، وما إن عاد، حتى اعتقلوه وأرسلوه إلى سجن سيرت، يقولون: في أحد الليالي كان يقرأ القرآن ويصلي، فقال لمن حوله: مع الفجر سيأتي اثنان وسيقولون يا آغا لك زوار.. لا تصدقوهم.. اعلموا

بأنهم سيأخذونني لإعدامي.. وفعلاً حدث ذلك.. بجانب مجرى نهير (كزر) أسفل جبل قلندرا أعدموه، أما ابناه طاهر ومصطفى فقد بقيا في غرب كردستان – سوريا، أما خليل فقد عاد وتزوج من ابنة تيلي آغا من قرية » تريان»، في البداية كان ملاحقاً، وعندما تزوج أحمد أفندي من أخته، توسط له، فأعفي عنه، تم ذلك واستقر في دهى «آروه»، وأعطوه وظيفة مساعد قائد المنطقة (Il onjome)، ولكنه سرعان ما ارتبط بعلاقات مع الحزب الديمقراطي الكردستاني (ب د ك)، كان يجمع التبرعات من العشائر لثورة البارزاني وإرسال الشباب للانضمام إلى البيشمركَة.. حافظ على القيم ومحبة الناس، يُقال: أثناء انطلاقة 15 آب 1984.. كان قد فقد بصره نتيجة تقدمه في العمر، لكنه عندما سمع دوي العيارات والطلقات، نادى ابنه واسمه (شيخ موس) وسأله: ماذا يجري يا بني؟ وعندما أجابه ابنه شيخ موس: يقولون هاجم الثوار وسيطروا على المدينة.

يُقال: دمعت عيناه وهو يحمد ربه ويقول «الحمد لله.. ربي لك ألف شكر.. رأيت هذا اليوم.. قبل أن أموت.. يوم أن يسيطر ثوارنا على (دهى – آروه).. »، ثم يلتفت إلى ابنه ويقول: يا ولدي.. هل يوجد سلاح أعطوني إياه.. أريد أن أطلق طلقات.. لأتذكر أيام والدي.. وحدث أن كان أحد موظفي البلدية من الأتراك يهرب رعباً وهو ينادي: (أمي أيضاً كردية..أمي أيضاً..).

– بقي أن تحدثنا عن حالة ابنه الآخر لقمان.. قال نيچرڤان وضحك

ضحكة رنانة.

أثار الأمر حفيظة دوغان وهو يسأل:

- ما قصة لقمان؟

- لقمان ابن خليل بگ، كان لديه عادة سيئة.. فكان يذهب إلى الجوامع ويسرق الأحذية.. فالمرحوم خليل آغا كان يقول: ما أخجل منه وما يقتلني، أن الناس سيقولون «لقمان ابن خليل آغا.. ».

كانت الشمس قد تجاوزت منتصف السماء، حتى أطلّ المقاتلون الجدد، والتقت أعينهم بأهاليهم، أنظارهم في حيرة واستغراب، لم يستطع الأقارب التعرف عليهم من النظرة الأولى، لأنهم ولأول مرة يشاهدونهم وهم بلباس الگريلا المعروف (الشروال والقميص والصدرية، حازمين خصرهم بحزام محكم)، زي عسكري من اللون الخاكي.

ما إن التقت عينا الأم بابنها، حتى سادت البسمة وجهها، وتألقت عيناها بحنان لا يوصف، ذلك اللقاء كان ذا جانبين، حزين من جانب، وجميل من الجانب الآخر، كان وجه يوسف يشرق فرحاً، يبدو أكثر جمالاً، وقد أضحى أخفّ وزناً ويرهف السمع بانتباه، على وجهه ابتسامة عريضة صافية، تشعّ بغرور الشباب وقوته، أما سرتاج الذي هو الآن باسم قلندر، بعينيه الرماديتين اللامعتين اللتين يغمضهما بعجبٍ وزهوٍ وهو ينظر في ما حوله، إن ذلك كله وسائر شخصه يفيض بما يفيض به الشباب من قوة وثقة بالنفس.

جلب الرفيق هوكَر ومعه مقاتلان الغداء الذي كان اللحم المقلي.. بقوا لوحدهم يتغدون مع ذويهم، بعد أن تركهم الرفاق القدماء، ليأخذوا راحتهم التامة في لقائهم، وهم يشبعون عيونهم بالنظر إلى بعضهم بعضاً بلهفة جنونية، رآهم الأهل جميلين أقوياء أحراراً، كان يوسف يبدو أنشط حركة وأشد جسارة من أي وقتٍ مضى، كان يحس بغبطة وارتياح، تغمره سعادة وشعور بالحدة والقوة والغرابة، تشمل الكون بأسره، وتبلغ من الشدة والاندفاع والحماسة مبلغاً كبيراً.

هناك وعلى مدى النظر يمتد صف من التلال الصغيرة، ظل الندى على بعض الشجيرات التي بدأت ترشق بها الأغصان عنان السماء، يبدو أنهم شبعوا التحديق في أعين بعضهم البعض، وبدت اللهفة أثناء الحديث تظهر أكثر، بعد أن اقترب موعد الفراق، حيث الساعة كانت قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، عندما عاد الرفيق خبات، ترافقه الرفيقتان مزكَين ونفَل، ومقاتل من مسئولي الأمن.

نهض الجميع على الفور مبدين الاحترام، حينها انسحب المقاتلون الجدد، وجلسوا جلسة الجندي في مجلس رسمي، يتواجد فيه قادة كبار.. للحظات ساد الصمت.. صمتٌ ثقيل والأعين مركزة صوب القائد، وهو يلوذ بالصمت بمهابة، مثل ناسكٍ حقيقي في هذه الجبال، بقيت الرفيقة مزكَين واقفة تسند ظهرها إلى صخرة، بتضاريس جسمها الأنثوي الممشوق تحت ثيابها ذات اللون الزيتي الداكن، ويسقط تحت قدميها ظل طويل أسود، كانت قد شمرت عن ساعديها القويتين،

اللتين تمسكان بالبندقية بما يشبه الغضب، عيناها العميقتان السوداوان ترميان أحياناً بنظرة سريعة، فيتقطب عندئذٍ حاجباها، المرء يستطيع أن يقرأ في هاتين العينين ما كانت تشعر به من لذة الإعجاب بمكانتها، وما كانت تحسه من أنها جميلة، وهي تبتسم ابتسامة اعتزاز وفخر، سألت:

- ماذا.. هل تعرفتم عليهم؟

تلك الكلمات أصبحت مفتاحاً بدّدت به الصمت، وأنعشت الابتسامات على الوجوه، ركزت أم يوسف نظراتها العذبة، مرحةً ومحتفظةً بهدوئها، فأجابت:

- كم تغير لون بشرتهم، خفّ وزن عكَيد كثيراً.

القائد موجهاً الحديث إلى عكَيد مازحاً:

- ما رأيك يا رفيق عكَيد؟ أمك تقول إنك لا تنفعنا، ماذا تقول؟ هل نعيدك معهم؟ حياة المدينة مريحة وكل شيء فيها متوفر، ألا ترى كيف هي حياتنا في الجبل؟ يجب أن تفكر جيداً قبل اتخاذ قرارك؟

بينما بدأ عكَيد كمن يستذكر شيئاً طال نسيانه، كان مقتنعاً بأنه لن يندم على قطع الصلة بحياته الماضية، ليعيش هذه الحياة القاسية، وأجاب مباشرة:

- صحيح، هنا صعوبة ولكن الحياة الحقيقية تكمن في هذه الصعوبات، على الأقل نحن في جبالنا.. لن تكون هناك عودة يا رفيق، لقد اتخذت القرار قبل مجيئي.

- ما رأيك أنت يا رفيق قلندر؟ هل تعرف الرفيق خليل؟ سأل القائد

خبات.

- نحن من قرية واحدة.. خليل هو أخ حمو الذي زوّج زوجته من ديندار. أجاب قلندر.

- والد قلندر «حسو» أيضاً مثل أخي، من الحماة. قال خليل.

فسأل الرفيق خبات:

- كيف هو وضع أخيك؟ لقد أطلقنا سراحه شرط أن يسلم سلاحه، لكن عوض أن يسلمه طلق زوجته، ليلة البارحة جاء ديندار إلى الرفاق، لقد تزوج من زوجته شرط أن يطلقها بعد عدة أيام.

- إن زوجته ملاك حضرة الرفيق، كم تعذبت معه تلك المسكينة.. وها هو يحصد نتيجة ما فعل.

- لماذا لا تتحدث إلى حمو مرة أخرى؟ هل التقيت به في هذه الأيام؟

- لا، لا أريد التحدث إليه، لقد تحدثت إليه كثيراً.. حضرة الرفيق، إن مسألة حمو كمسألة هذا الطير، ورفع نظره نحو الأعلى، كان نقار الخشب لا يزال ينقر الجذع نقرات نزقة، مشيراً إليه، وتابع: إن نقار الخشب هذا كما يقولون ينقر جذوع الأشجار من الفجر حتى المساء، وعند المساء يتعب ويؤلمه رأسه فيتوب ويقول لن أعود مرة أخرى إلى النقر والحفر، ولكن ما إن تشرق الشمس ويحين الصباح، حتى ينسى توبته في المساء، ويعود ثانية إلى النقر والحفر، هكذا هو حمو، كنت أتحدث إليه مراراً وتكراراً.. كم مرة نجحت في إقناعه، في البداية هو أيضاً لم يكن يريد حمل سلاح الأتراك، ولكن في الفترة الأخيرة، لا

أعرف ماذا جرى له.

انفرد كلٌّ من الرفيق خبات والرفيق دوغان مع خليل، يرافقهما عبد الرحمن وراء بعض الصخور، جلس الأربعة بينما ينتظر القائد الفدائي في ثقة شيئاً جديداً، وفعلاً أخرج خليل رسالة من جيبه، تم لفها على شكل حجاب لا يتجاوز حجمها حجم الإبهام، وتم لفها بشريط لاصق شفاف جيداً، دون أي كتابة عليها، كان قد خبأها في حواف قبعته من الداخل بفتق القليل منها، وحشرها في طبقة ما بين القماش وبطانتها، أعادت زوجته خياطتها من جديد كما كانت، وهو يقول أثناء مدها للرفيق:

– توجد في الطريق العشرات من الحواجز التي تقوم بالتفتيش، لا يتركون مكاناً إلا ويفتشونه، أما هذه، ومد علبة كرتون بحجم تلك التي تباع الأحذية فيها، وأكمل: أما هذا التبغ هو هدية صغيرة مني لكم..

– هدية! وهل نحن ننتظر الهدايا يا أخ خليل؟ ما الذي جلبته؟

و هو يفتح العلبة ويقول:

– ليس هدية أرجو ألا تفهموا غلطاً رفيق، كل ما هنالك أردت أن أريكم نكهة تبغ خورس..».

– تبغ خورس.. لقد سمعت به كثيراً – تناوله الرفيق خبات وهو ينظر إلى رونقه المغري– انظروا، أمر غريب أليس كذلك.. انظروا إلى لونه الذهبي.. كأنها خيوطٌ من ذهب لا دخان.

- حضرة الرفيق، يقولون ليس هنالك في العالم أطيب وأجمل من تبغ خورس..

- لا أدخن، ولكن لا بأس سأعطي هذا الدخان للرفيقة نفل لتوزعه.. في المنطقة كذلك تبغ قرية آورخ مشهور.. أليس كذلك؟

أجاب عبدالرحمن:

- تبغ آورخ يأتي في المرتبة الثانية بعد تبغ خورس، قبل فترة جلبت بعضاً منه للرفاق.. وأثناء حملة تمشيط للجنود في مرتفعات هركَول المطلة على منطقة بسطى.. في الخنادق شاهد حماة القرى عقب سجائر المقاتلين.. عرفوا أنه تبغ قرية آورخ.. في اليوم التالي ذهبوا إلى القرية وعذبوا الأهالي وكانوا يريدون معرفة من الذي يرسل التبغ للگريلا.

- لماذا تبغ هذين القريتين.. خورس في ماردين وآورخ في جبال بوطان؟

- حضرة الرفيق، يقول كبارنا من خلال تجربتهم في زراعة التبغ إن الماء والتربة هما الأساس وليس النوع.. نفس الدخان جربوه لكن النتيجة كانت على ما عليها..

أخرج الرفيق مشرطا صغيراً من جيب صدريته العسكرية، وبكل عناية قام بشق أطراف الرسالة التي كانت على شكل تقرير، قام بقراءتها بصورة غير مسموعة، جاء في الرسالة:

«إلى قيادة قطاع كَارسا

تحية وبعد

أيها الرفاق المحترمون

لقد التقينا بالمليس[1] الذي أرسلتموه قبل أيام واستلمنا رسالتكم، الأوضاع التنظيمية هنا بشكل عام في تطور يومي، خاصة بعد أن تلافينا الأضرار التي أصابت التنظيم من جراء اعتقال رفيقة من رفيقات الفاعلات، وتحت التعذيب اعترفت وأدلت بأسماء بعض ميليشياتنا، ومن بين تلك الأسماء أيضاً.. اسم المليس المكلف بربط المراسلة بيننا.

الذي أردنا أن نقوم بإعلامكم به هو أمر يتعلق بمسألة حدثت في منطقتكم قبل سنوات، وهي الخيانة التي تمت في قرية «أبو بكرا»، والتي أدت إلى استشهاد الرفاق (فراس، روكن، جيجك وأديب)، والفاعل هو مختار القرية الحاج صالح[1] الذي هرب على أثرها، وهو الآن تحت مراقبتنا، وننتظر جوابكم لكيفية التصرف تجاهه.

كذلك هنالك عدد كبير من الشباب والشابات يرغبون بالانضمام، فالعدد كبير جدًا، ويبحثون عن طرق الوصول إلى الجبل، في الأيام الأخيرة ونظرا للتدابير التي اتخذتها الفاشية التركية، خففنا من إرسالهم إلى إيالة بوطان، لأننا فتحنا أقنية مع رفاق في إيالتي آمد وكارزان.

حول تأمين الاحتياجات التكتيكية والمستلزمات، إليكم قائمة بما أرسلناه عاجلاً:

(1) مليس: بالكردية تعني ميليشيا أو الوطنيين الكرد المتعاونين مع الثوار.

(2) الحاج صالح: هو مختار قرية أبو بكرا، التي تقع ما بين برواري ومدينة آروه، وهو الذي أقام دعوى كاذبة على تلك المجموعة من المقاتلين، وكان قد اشترك بنصب الكمين الذي أودى بحياتهم، ومن ثم تركوا المنطقة وهربوا جميعاً.

- كاميرا فيديو صغيرة مع ثلاثة عشر كاسيت.
- آلات تصوير.. عدد 2 مع ثلاثين فيلماً.
- جهاز راديو.. عدد 1.
- أحذية نوع Mekap.. عدد 120 زوجاً.
- جوارب.. عدد 162 زوجاً.
- آلة تسجيل.. عدد 3 نوع صغير.
- مكبر صوت يدوي.. عدد 1
- دفاتر.. عدد 73.
- أقلام.. عدد 100.
- ساعات.. عدد 13.

ما إن انتهى الرفيق (خبات) حتى سأل مباشرة:

- هل تعرفون الحاج صالح هذا.. جيدا؟
- ومن لا يعرف ذلك الخائن؟! أجاب خليل.
- أريد سماع قصته مرة أخرى، من يعرف الحادثة؟ وما هي تفاصيل خيانته؟ هل فعلاً هو من قام بذلك؟ سأل خبات مرة أخرى.
- رفيق، كانوا عندنا في قرية إركند، ليلتها خرج معهم «küt M-hmet» رافقهم حتى قرية «كوزن»، وهناك افترق عنهم «كوت محمد» وتابعوا هم نحو قرية «أبو بكرا»، فقد كانوا مدعوّين من قبل المختار حاج صالح، كما قالوا.. بينما في الحقيقة كان قد اتفق مع الجنود ونصبوا كميناً لهم.

- أين كان الكمين بالتحديد؟ استفسر خبات.

تابع عبد الرحمن:

- وسط القرية.. كان الجنود قد تمركزوا فوق أسطح المنازل وفي الزرائب، وكما ذكر أهل القرية فيما بعد، في البداية تسلل رفيقان بين بيوت القرية، وبقي اثنان خارجها متخفيين، ولم يكن لهم علمٌ بالكمين.. ما إن أصبحوا وسط البيوت، حتى فُتِحت عليهم نيران الأسلحة، فأصيبت الرفيقة (Roken) بجرحٍ بليغ، قاومت حتى النفس الأخير، أما الرفيقة (Çîçek)، فقد استشهدت مباشرة، الرفيق فراس أصيب هو أيضاً بعدة جروح.. رغم ذلك استطاع الانسحاب والوصول إلى تنور القرية خارج البيوت، لم يستطع الخروج من الطوق، بقي يقاوم حتى تمكنوا منه، صباحاً أطلقوا عليه النار وسط القرويين واستشهد، الرفيق الآخر هو أديب، كان شاباً من قرية (خيركا – Xêrika) التابعة لـشرناخ، إلى الطرف الشرقي من هركَول، رغم جروحه استطاع كسر الطوق والانسحاب إلى خارج القرية، لكنه لم يستطع الابتعاد كثيراً، في الصباح تابعوا آثار دمائه.. إلى الجهة الغربية من القرية أرض منبسطة حيث توجد عدة آبار، هناك وجدوه فاقداً الوعي، بعد تعذيب وحشي أطلقوا النار عليه هو الآخر، على الفور هرب المختار دون أن يعرف أحد إلى أين.. ثم ترك القرويون القرية، وأصبحت مهجورة منذ ذاك اليوم.

- لا بأس سنكتب لهم الجواب.

قاطعه خليل:

- أتينا بالمستلزمات حتى مدينة (سيرت - **Sêrt**)، ولكن لم نستطع جلبها كلها دفعة واحدة إلى القرية، هنالك تدقيق مشدد عند الجسر خاصة الأحذية، أحذية نوع الـ(**Mekap**) يمنع اصطحابها إلى القرى، جلبنا فقط حوالي 70 زوجاً، أخفيناها تحت أكياس الطحين، وأرسلنا أحد القرويين ليحضر البقية.

- لا بأس، كما ترون فالأحذية ضرورية، معظم أحذية الرفاق أصبحت مرقعة وشبه مهترئة، صخور هركَول لا ترحم، تقضم الأحذية، كأنها رءوس رماح وخناجر.

سأله عبد الرحمن قائلاً:

- صحيح رفيق.. هل التحق بكم خورشيد؟

- من يكون هذا.. خورشيد؟

- ألم تسمعوا بالحادثة التي وقعت في قرية كوزَن قبل يومين؟

- صحيح كنا في منطقة مطلة على القرية آنذاك، شاهدنا الحوامة عندما حطت هناك، وتجمع القرويون وضجَّت أطراف القرية وداخلها بالجنود، ما الذي كان يحدث هناك؟

- لا نعرف بالضبط، يقولون هو من نفذ عملية بمفرده، ومنذ ذلك اليوم اختفى عن الأنظار، خورشيد هو أخ (**Kut Mehmet** - كوت محمد) الذي تم تعذيبه على يد رجال عبدي آغا واستشهد خريف عام 1989 أسفل مرتفعات جبل جاجي«**Çaçê**».

- ليس لنا علم بهذا الأمر.. سأترك لكم أمر تقصي هذه الحادثة.

- رفيق! بالنسبة لموضوع المدرسين أرسلوهم، ولكن ليس هناك لا مدرسة ولا من يحزنون.. لقد حدثتُ الرفيق دوغان عنهم قبل هذه المرة.. لكنكم لم تجاوبوني بشيء.

- نعم لي علم، لم نكن متفرغين لأمرهم، ما هي أوضاعهم؟ هل ما زالوا مستمرين بألاعيبهم؟

- المدرس أصلان وهو من (Dêrsim) قد تخطى الحدود، يجوب بين القرويين، يشعل الفتن بينهم ويحرضهم ضدنا بأكاذيبه.

- باسم العدو.. أليس كذلك؟

- صحيح، أما المدرس نصر الدين، فقلما يتحدث، لكنه ليس كـأصلان، ويوجد بجانب المدرسة بيت الحاج كندال.. زوجته «زلخو».. مشتبه بأمرها.

- ما الأمر المشتبه فيها؟

- عندما كانت قريتنا من الچتى.. كما تعرفون، حولوا المدرسة إلى ثكنة عسكرية، بعد أن ذهبت الكتيبة التي كانت تتمركز في المدرسة.. زلخو تذهب دائماً إلى ثكنة خرخور وتأخذ للضباط احتياجاتهم، كاللبن والبيض.. والحليب..

- لا عـليك، في هذه الأيام لدينا الوقت الكافي، سنتقصى هذه الأمور.

بعد أن تم تسليم المستلزمات التي جاءوا بها، بين الجد والمزاح، وهم يودعون بعضهم، وجه الرفيق خبات حديثه إلى خليل قائلاً:

- حسبما فهمت.. سيبقى أخوك حمو بدون زوجة.
- لا أعتقد ذلك رفيق.. عندهم أولاد، لماذا؟
- يبدو أن هذا ما قررته بهار، لذلك يجب تدبر الأمر.

كان كل شيء قد تهيأ للرحيل والعودة، أمسك موسى بلجام البغل جيداً بعد أن سحبه إلى جانب صخرة، إلى أن امتطته أم يوسف.

- الوداع..

الگريلا يبدون لهم الآن مختلفين كل الاختلاف عما كانوا يتخيلونه من قبل، لا شيء يشبه ما كانت تصوره لهم أحلامهم، أو ما كانت تصوره الأوصاف التي قرأوها أو سمعوها، إنهم جميلون أقوياء.. فكرة التضحية الواعية تشد أزرهم وتقوِّي عزيمتهم، ينظرون إلى الناس وإلى سعادتهم هادئين فخورين.

تحركوا، بينما تخشخش تحت حوافر البغل أوراق البلوط الباقية من العام الماضي تارةً، وتارة تقرقع نعالها الحديدية على الحصى والحجارة المغروزة في أرض الطريق، بدت المروج الخضراء المترامية الأطراف، والدروب الجبلية الضيقة.

تعلق غصن من أغصان شجرة البطم بمنديل أم يوسف، فأزاحها موسى وتابعوا إلى القرية، التي كانت بيوتها تتمرد تحت دفء الشمس وسط تلك التلال.

- 17 -

نبتت الأعشاب في المروج وعلى سفوح التلال، وازدادت ارتفاعاً يوماً تلو آخر، تريح النفوس خاصة في ساعات الصباح الباكر، ويمتلئ الجو برائحة عطرها المتطاير في الهواء.

خرجت والدة بهار، الخالة عواش، وتوجهت إلى الشمال الغربي من القرية، وسط تلك السفوح عند لسان الغابة التي كانت في يوم من الأيام تمتد إلى داخل القرية، ولكن الفئوس عملت على تقطيعها بلا رحمة، مع مرور السنين بدأ ذلك اللسان يتآكل، مع خروج الذين في الجبل «الگريلا» واعتصامهم على هركَول، توقف ذلك التآكل وأصبح اللسان ينمو من جديد نمواً بطيئاً كنمو الظفر، لكانت الغابة وصلت إلى القرية لولا الثكنة التي تحصد حتى الأعشاب من حولها.

خارج القرية إلى البعيد لا أحد يجرؤ على فعل ذلك، فقد صدر قرار من قبل قيادة الگريلا: «يمنع قطع أشجار الغابة الخضراء وبيعها كحطب في المدن، أما من أجل حاجات سكان القرى، فعلى القرويين تجميع الأشجار والحطب اليابس منه».

هكذا بدأت الغابات في المنطقة تزدهر ثانية، وأصبحت حرة دون الخوف

من أصال الفئوس.

أغلب القرويين سمعوا بالحادثة التي وقعت قبل عام، عندما جاء تاجر الحطب التركي أوغوز ثانية، وليعلن استمرارية ارتكاب المجازر بحق الغابة، ودون أن ينصاع للقرار، إلى أن قبضت عليه مجموعة من المقاتلين مع عماله، فأطلقوا سراح الجميع إلا التاجر الذي تم إعدامه على فرع شجرة عملاقة وسط الغابة، وكان حشد المشاهدين هم فقط تلك الأشجار المحيطة بهم أثناء تنفيذ الحكم، وتلك الشجرة العملاقة كانت منصة الإعدام التي نُفِّذَ عليها الحكم بالمجرم، الذي طالما ارتكب المجازر بحق الغابة، وباهتزاز أغصان تلك الحشود وتضاربها التي كانت تصفق للعدالة، وزقزقة العصافير كانت بمثابة صيحات الحرية، كان ذلك العقاب الملائم، نتيجة عدم رضوخه وعدم عودته إلى الصواب، كان درساً جيداً لأعداء الغابة.

عواش رغم تقدمها في السن ما تزال رشيقة الخطوات، كمعظم نساء القرى الجبلية، قدماها تحملان جسدها بصعوبة ووهن، فوق ذلك كانت تحمل على ظهرها حفيدتها «كَولي» تتلوى بحملها، بعد أن خرجت من الطريق الجبلي الضيق الصاعد، الملتف يميناً ويساراً ليشق الغابة، والصخور التي كانت تبدو على شكل انتفاخات في جسد الأرض.

أصابها الإنهاك، فجلست بروية فوق صخرة مقابلة لقرية (تال) المهجورة على جانب الطريق، فلامس قدم الطفلة الصخرة، لم تتمالك نفسها، وقفت على الفور لتنزلق من بين الصخور، تركض بين الأزهار ببراءة الطفولة وفضولية الاستفسار، السؤال عن العالم الذي قذفت بهم أمهاتهم إليه،

ليتعرفوا دون إرادتهم على ما تقع عليه أنظارهم البريئة، فتاة جميلة، لطيفة، آية من البراءة، وردية البشرة، ممتلئة القد، لها عينان سوداوان تشعان مرحاً، وشفتان حمراوان تبتسمان دائماً، وهي ضاحكة المحيا كثيرة الكلام.

مدت الخالة عواش بصرها باتجاه أنقاض القرية التي كانت قبل سنواتٍ قليلة تعج بالحياة، هجّرَ الجيش التركي المئات من القرى وأحرقها، فلا ترى فيها الآن إلا أنقاضاً، ليجتاحها نباتٌ كثيف، بساتين مهجورة، ملأى بأشجار الكمثرى والخوخ والصفصاف، الأعشاب البرية التي لم تعد تخشى المناجل انتهزت هذه الفرصة، فنمت بضراوة وسرعة حتى أصبحت كأنها أشجار صغيرة.. تسلق عليها عوسج الكرمة البرية، أعشاب شوكية تتجاوز الجدران التي بقيت منها فقط أنقاض، أشجار الآكاسيا ذات الأزهار البيضاء العبقة، تحف بها أشجار وارفة الظلال، جذوع الكرمة اللينة المنبثقة إصراراً للبقاء، كتخليد لذكرى من زرعها في أحواش الدور، فروع اللباب المتعرجة المتسلقة عليها، البساتين خالية مقفرة كالفلاء سواء بسواء، أما أشجار الفاكهة التي تم قطعها بمناشير كهربائية بيد الجنود وحماة القرى، منها ما عادت وأورقت، النباتات المتسلقة تلف حول جذوعها الطرية، تمتد هنا وهناك حتى أصبحت أطلال القرية كلها شبكة متداخلة من النبات والشجر، تحولت إلى أدغال برية وملجأ للذئاب والدببة والأرانب البرية، طيور الحجل والماعز البري تحب هذه الأنحاء، فترى آثارها على رمال الطريق الجبلي الضيق، والخنازير البرية كفلاح جبار عزقت رقعاً من المروج بأنيابها الطويلة بحثاً عن الديدان وجذور الأعشاب، قلبت كل شيءٍ رأساً

على عقب.. آية الجبال هي: كل شيء جميل ومتوحش في آنٍ واحد.

– أماه.. ما هذه الزهرة؟ أماه.. انظري كم هي حمراء.. حمراء.. جميلة.

كانت قدماها الصغيرتان اللتان تنتعلان جزمتين سوداوين عتيقتين، تحطان على الأرض دون أن تتركا أثراً، تضع باقة الورود البرية فوق شفتيها اللتين هما أيضاً كحمرة الزهور، لا تعرف كيفية الشم فتقبلها، وتشمها بسحب شهيقٍ من فمها لا من أنفها، مما يجعل النار تنشب داخل عواش لعلها تتذكر طفولتها، أو بهار عندما كانت في عمرها، بعد أن حصدت السنوات عمرها، استرخت وتركت كَولي تلعب وتمرح دون أن تبتعد عنها، بين الحين والآخر عندما تقوم الصغيرة بحركات أكثر شقاوة تقوم بتنبيهها وكأنها تتحدث إلى نفسها:

كَولي.. لا تصعدي إلى الصخور هكذا...كَولي.. لا تقفزي من فوق الصخور هكذا.. ستؤذين نفسك يا صغيرتي.

بينما كَولي تحتضن باقة من الأزهار، بمختلف الأنواع والألوان بحذر كي لا تقع منها واحدة، ومن شدة الإمساك بها تتناثر أحيانا أدران حمراء وصفراء وبيضاء على الصخور، وكأنها تنثر الورود على الجبال، كما نُثِرَت على ضريح «ممو زين».

أما الجدة عواش، فتمسك بيدها اليسرى، ذيل ما يسمى «الجارك – ميزر»، وباليد الأخرى عصا يوجد برأسها نصل حديدي كنصل الرمح، تتعمق إلى داخل الغابة، تجمع الأعشاب مثل الـ«بنجار – **Pinjar**»، بالأخص ما يدعى «الكرنك – **Kerenk**» (الكعوب)، ذلك النبات الشوكي الذي يشبه الخس

المصفر، لا زال معظمه داخل الأرض، عدا قسم من أوراقه الشوكية على السطح، حط بالقرب منهم هدهد مع فراخها تعلمهم الطيران، فتقفز من صخرة إلى أخرى، تهدهد وتلاحقها فراخها بصعوبة، مما أثار ذلك فضول كَولي فاتجهت نحو هذا الطير وفراخه الصغيرة في العمر مثلها، حاولت اللحاق بها وهي تركض وتقفز كالمهرة، فأخطأت وزلت قدمها فوقعت، وسرعان ما علا الصراخ والبكاء لتتجاوب معها صخور الجبل، لما سببته من ألم للطفلة، وكأنها تلعن قساوتها والجبل لخشونة ملامح وجهه، التجاعيد القاسية التي ارتسمت على طلعته.

اضطرت العجوز عواش أن تواسي نداء الجبل، وتأثره بالصرخات الطفولية تلك، فهي تعرف رقة هذا الجبل العجوز رغم ملامحه الوحشية، فقد اكتسبت عواش رقتها منه، منذ أن قذفت بها أمها إلى أحضان هذه المرتفعات.

فكت رباط الـ«جارك» أو «ميزر» وجعلته كصرة، ووضعت بداخلها ما جمعته من الكرنك، أصرت العجوز أن تقف كَولى على قدميها، يبدو أن البكاء الطفولي هذا قد عاد بها ثانية إلى الماضي، عندما كانت طفلة تلعب وتمرح في عالمها الذي تعيشه، فتصول وتجول فيه كالنحلة، ولكن سرعان ما عرفت أن هناك أشياء أخرى تحصل، وتظل محفورة في الذاكرة، هذا العالم اللعين الذي قدمت إليه.

تتشبث الصغيرة بالزهور، والدموع تنسل على وجنتيها الورديتين، أصبح شعرها الذهبي مبعثراً كأنه لم ير المشط منذ اللحظة التي شهقت فيها هواء

هذا العالم اللعين، الصرخة الأولى كانت البداية لصرخات وصرخات، وكأنها توبخ الذين كانوا السبب لرميها بين تلك الصرخات، وتبدأ بمناداة:

- ماما.. ماما.. أين ماما؟ أريد ماما.

ماذا ستتحمل الأم لتتحمل؟ كلما صرخ أحد، تكون نداء الصرخة «أماه.. أماه..»، فهي من تتحمل بسبب من قذفت بهم إلى الوجود.

عواش، قد صقلت السنوات عواطفها، مثل ملامحها التي اكتسبتها من التأقلم مع هذه الصخور، شكلاً تبدو وكأن السنوات جردتها من عواطفها، صيحاتها من الصراخ والبكاء وهي تهدهد الطفلة لتكف عن الصراخ، هذا الصراخ الأبدي الذي أصبح كأنه قدر كُتِب على جبين أبناء هذه الجبال، الجبل سلمهم الألم والتأوه صراخاً، منذ اليوم الذي أنهى فيه صرخاته.. من انفجاراته البركانية، بعد أن فرغ من أغواره، أصبح ساكناً دون حراك كتماثيل قلعة نمرود، سلم تلك الصرخات للذين يسكنون في ثناياه. توقفت الصرخات ولكن الألم لا يزال، وإلا ما معنى الدموع التي تفجرها الينابيع، دون أن تتوقف.. ها هي الينابيع والأنهار تجري وتسيل بغزارة من وجنتيها.

استسلمت صرخات كَولي الصغيرة أيضاً، وقفت جدّتها وانفجارات بركانية تغلي داخلها، دون أن تدري لماذا وكيف، وكأن الجبل غار منها، كما تغار امرأة عجوز من ابنتها المتوردة الخدين، فجعلها تتعثر متقصداً ذلك، عندما كانت تلعب وتمرح، غار منها وبنفس اللحظة عطف عليها، ولا يستطيع إيذاءها، ويجد نفسه في تلك الطفلة، عجوزان يجدان نفسيهما في هذه الطفلة.. هركَول الجبل الصنديد وعواش المرأة المتعاركة مع السنين.

- كفى كَولي.. كفى.. ستعود ماما قريباً.. لقد ذهبت إلى بيت عمكِ خليل.. أيام وتعود.

بدأت تدندن لها أغنيات.. ترددها الأمهات لأطفالهن، وسرعان ما عاد الهدهد بفراخه يحوم من حولهما ثانية، واجتذبت عودتها نظر كَولي فعادت إلى اللحظة الطفولية، وهنا بدأت عواش تحدثها:

- انظري يا كَولي.. انظري كم هي جميلة هذه العصافير!

جلست كَولي في حضن جدتها، تلقي نظرة تُجاه الهدهد، ونظرة أخرى إلى وجه جدتها، نسيت بكاءها، وبدأت تقلد الطيور، وعادت الابتسامة تكسو ثغرها.

- كوكووو.. كوكووو.. كوكو.. جدتي ما هذا الذي على رأسها؟ كم هو عصفورٌ جميل!

- نعم يا صغيرتي اسمه هدهد.. انظري إلى ريشه المزركش كم هو جميل!

- صحيح.. صحيح.. سأمسك بفرخ يا جدتي.. ساعديني جدتي.

- اهدئي يا ابنتي.. لا تستطيعين.. إنها تطير.. توقفي.

- لا جدتي.. أريد واحدة.. لماذا لم تأت معنا ماما؟ لو كانت هنا لكانت أمسكت بواحدة لي.. أريد ماما.. ماما.

سلاح الأطفال والمرأة المشترك.. هو البكاء.

- ماما ستعود.. يا ابنتي اهدئي.

الجدة عواش خائفة أن يحصل لها مكروه، ولتنسيها فقدانها لأمها.. وكيف لا وهي الأم.. تدرك ما لا يدركه الرجال! معنى فقدان الطفل لأمه.. رسمت

ابتسامة على محياها لعلها تدخل الطمأنينة إلى نفس الصغيرة.. ثم بدأت تقص عليها:

- أتعرفين يا كَولي الجميلة؟ تعالي سأقص لك حكاية الهدهد..

- قصي يا جدتي.. أريد سماع حكاية..

- يقال إنه كانت هنالك طفلة جميلة مثلكِ.. نعم، طفلة جميلة مثلك.. هل تعرفين كيف تحولت من طفلة إلى هدهد؟

- كيف يا جدتي.. كيف؟ هل هذا معقول؟

أكملت الجدة:

- طبعاً، يقال كانت هناك عائلة عندهم طفل وطفلة صغيران، أمهما ماتت لأنها كانت مريضة.

توقفت عواش هنا وابتلعت حسرة وهي تنظر إلى عيني كَولي، ثم أكملت:

- كانت الطفلة ذات شعر غزير مثل شعركِ، وأنفها حلو صغير، وعيناها سر جمالها... بقيا هما وأبوهما لفترة.. ثم تزوج الأب من امرأة أخرى، ولكن تلك المرأة كانت لئيمة وقاسية.. مع مرور الأيام بدأت زوجة أبيهما تقسو عليهما وتضربهما.. جعلت الطفلة الصغيرة وأخاها خادمين لها، وفي يوم من الأيام بينما كان الأب الذي لم يكن يعلم بما يجري، غائباً عن البيت بسبب عمله، أعطتهما زوجة الأب حقيبة منسوجة من الصوف، وكانت قد شقت ثقباً في أسفل الحقيبة قصداً، دون أن تخبرهما بذلك، وأعطتهما قطعة حديدية حادة الرأس مثل هذه التي أجمع بها الكعوب، وأرسلتهما إلى جمع الكَرنك (الكعوب) مثلنا...

توقفت وسألت بخبرة الجدة التي تجيد كيفية خلق الحدث والتشويق على متابعة الاستماع إلى القصة، شبه استراحة تبدد الملل بها، كون الطفل سرعان ما يشعر بالملل في حالة الاستماع الطويل.. حركت رغبتها وسألتها:

- وهل تعرفين ماذا حصل بعد ذلك؟

بلهفة وهي تمسك وتلف وتحتضن عنق جدتها:

- ماذا يا جدتي.. ماذا؟ ماذا حصل؟

- خرجت الطفلة مع أخيها لجمع (الكرنگ)، خرجا في الصباح وإلى المساء، دون أن يستطيعا جمع كفايتهما، لأن الطفلة كلما كانت تضع واحدة في الكيس الذي على ظهرها كانت تقع على الأرض من خلال الثقب دون أن ينتبها لوقوعها، حلّ المساء والظلام ولكن دون جدوى، ظنت الأخت أن أخاها هو الذي يأكل الكرنگ الذي تجمعه، فأخذت توبخه وتقوم بشتمه خائفة مرعوبة من عقاب زوجة والدها.. لعدم قيامهما بما كلفتهما به.. كانت تقول يا إلهي بدون سبب توبخنا، ها هو المساء ولم نستطع جمع الكفاية.. هذه المرة سيعاقبهما الأب أيضاً، سيقوم بتوبيخهما لأن الزوجة تقوم دائماً بتحريضه عليهما، التعب والإنهاك قد أدركهما، ودون أن تشعر، ضربت أخاها بقطعة الحديد على رأسه، ولأن الطفل كان صغيراً لم يتحمل الضربة وقع مغمًى عليه، بل دون حراك، وارتحل إلى الحياة الأخرى، بعد أن أدركت الصغيرة ما حصل لأخيها، خاصة بعد أن رأت ثقب الكيس خافت أكثر، فقد فقدت الأخ والكعوب معاً.

وهكذا يا كَولي خافت اليتيمة من العودة إلى البيت، وبقيت وحيدة بجوار

أخيها وسط الظلام، وهي خائفة مرتعشة لا تعرف ماذا تفعل.. فهي تخاف من الوعول ووحوش الليل، إلى أن قامت بالدعاء لله، ليحيي أخاها ويحولهما إلى طيرين، وقبل الله دعاءها وحولهما إلى هدهدين، وبقيت الأخت تصرخ للفاجعة وإلى اليوم قائلة «ببوك.. ببوك.. **Pepuk**.. أي أخي البريء.. أخي البريء.. إلى أن أصبحت مع أخيها الصغير طيرين، وما زالا يجوبان البراري وهي تنادي «ببوك.. ببوك».

السحب الأخيرة من الربيع تجر ذيولها، وتزحف فوق الصخور، بدا أحدهم يمتطي حصاناً، يقترب من بعيد، ثم سار بمحاذاة نهاية الغابة، أغصان الأشجار تضرب رأسه، فينحني خشية منها، يمتطي وراءه طفل، كانت أشعة الشمس عمودية تلسعهما، كلما دخلا في طريقٍ مشقوق أو فسحة مكشوفة، بين الحين والآخر يكبو الحصان على صخرة، أو يتعثر بالعشب فيحث الخطى، ربما يبحث الرجل عن شاة ضالة وسط الغابة، أو عجل صغير ولا يتجرأ على التعمق، ها هو قادم ربما ليسأل عن شاته، اقترب، وإذا هو حمو ويمتطي وراءه ابنه كَرناس، ما إن وصلا حتى انزلقت كَولي من حضن جدتها، وبدأت تركض نحو والدها وهي تنادي:

- بابا.. بابا.. كَرناس.

بقفزة أصبح حمو واقفاً على قدميه فوق الأرض، حمل كَولي وقبلها ثم رفعها عالياً بحركاته الرجولية، بدأ يشير لها إلى قبة السماء، ويجول بنظراته وسط الغابة، ثم يضمها إلى صدره ثانية، بينما أرتال من السحب تتدفق، شعر بالجبال الراسية في الأرض تخضع له مستكينة، ويتملكه الزهو في روحه

وجسده، ولكن سرعان ما تلاشى ذلك الزهو، عندما وضع كَولي لتلامس قدماها الأرض، مد إليها قطعتي حلوى، أخرجهما من جيبه، تناولتهما وبدأت تجري، بينما كَرناس أبعد الحصان الذي راح يمعن النظر في الخضرة القاتمة التي تحيط به من كل جانب، يرعى المرج على هواه ولاحقته كَولي، ثم ابتعدا وبدأ يلعبان، بينما توجه حمو إلى حماته، أسند بندقيته إلى جذع شجرة وهو يسلم على عمته ويقول:

- عمتي الله يقويك.. لقد ذهبت إلى بيتكم، لكن عمي لم يكن موجوداً.. عرفت أنكِ جئتِ إلى هذه الجهة، أخرجت حصانه من الإسطبل وجئت، عليكِ أن تكوني حذرة عمتي، من يدري.. يجب ألا تبتعدي وحدكِ إلى داخل الغابة.. الوقت أصبح متأخراً.. يجب أن نكون في القرية قبل غروب الشمس.

بينما نظفت له حماته عواش قطعة «كرنگ» من حوافها الشوكية، كما تجرد الخس من الحواف الخضراء ويبقى القسم الأصفر الأوسط منه، وقدمته لصهرها.

أضاف حمو يقول فجأةً.. وهو ينظر تجاه الأطفال:

- لقد وصل الملا علي.

- هل تحدثت إليه؟

- أردت أن يحدثه عمي شمدين.

- أليس لك علم؟

- بماذا؟

- عمك ذهب إلى إركند، يقال إن «مامد» ذهب البارحة إلى قرية خرخور، واعتقلته الثكنة، وقاموا بإطلاق النار عليه أسفل القرية.

- ذهب لتعزيتهم أليس كذلك؟ رحمه الله.. له أخ اسمه رمضان بين الذين في الجبل.

- كذلك.. سمعت أن أخاك خليل أيضاً هناك مع زوجته.

- لي علم بذلك، لا يريد أن يقابلني أيضاً.

تأوه بحسرة وهو يتابع:

- لم يعد لي أحد يا عمة، لا أحد..

- لا عليك يا ولدي توكل على الله.. ما دام الملا علي قد وصل ستعود المياه إلى مجاريها.

- أي مجارٍ يا عمة؟ ذهبت إلى الملا وأنا قادم من عنده الآن، إنه يستعد للرحيل.. كل يوم مصيبة.

- ماذا؟ الملا علي سيرحل؟!

- صحيح، ألم تري أنه تأخر كثيراً في العودة؟

- ما الذي حصل؟ هل حصل له مكروه أو لأقاربه.. لا سمح الله؟

- عندما ذهب من هنا، كما قال.. ما إن وصل إلى ذويه في ديار بكر حتى اعتقلوه، ومنذ ذلك اليوم وهو يمكث في السجن تحت التعذيب.

- و ماذا فعل الملا المسكين؟

- نحن نقول هكذا يا عمتي.

رفع نظره إلى البعيد فكانت الثكنة في أعالي القرية، والعلم التركي يرفرف

فوقها وتابع:

- الذي يقول الحق يتهم بأنه إرهابي، وهو واحد مثل الذين في الجبل، يتهمونه بتحريض القرويين.. وله ضلع في التحاق الشباب بهم.

- لينتقم الله منهم بجاه الكيلاني.. متى سيرحل؟

- أعطوه مهلة ثلاثة أيام لينهي كل شيء، كذلك ممنوع أن يبقى في المدن الكردية.. عليه الذهاب إلى المدن التركية، مع فرض الإقامة الجبرية، وبدون إذن البوليس لن يستطيع الذهاب إلى أي مكان آخر.

- و ماذا قال عن وضعكم؟

صهل الحصان عدة مرات وهو يهز رأسه، حصانٌ ممتاز، هو كُميْت، عريضٌ طويل، ملتمع الوبر، كثيف شعر الذيل، ناعم العرف رقيق، كل شيء فيه من حوافره إلى عينيه إلى أسنانه، أنيقٌ رشيق، إنه من أكرم الخيول الكردستانية نسباً وأصفاها عرقاً، بينما كَرناس وكَولي يتلاحقان يستغلان أصغر فسحة منبسطة من الأرض للعب، يجمعان الحجارة ويرصفانها على شكل دوائر ثم يملآنها بالأزهار ويطلقان صيحات حادة، مرة يتفقان وأخرى يختلفان على شكل بناء عالمهما الذي يبنيانه، واصل حمو:

- سيذهب ليحدثهم من أجل إتمام الطلاق، ولكن ليس اليوم لأن الثكنة طلبته.

- أطال الله بعمره ووفقه أينما ذهب بجاه الكيلاني.

ما إن اقترب حمو من الحصان حتى تنحى عنه مجفلاً غاضباً، نفس اللحظة أطلق كَرناس صرخة مؤلمة، وبدأ يثب على إحدى رجليه منتفضاً، ممسكاً

ساقه الأخرى التي تعرضت للرفس، ثم اندفع فجأة وقد التوى وجهه من شدة الألم، ابتعدت كَولى عن الحصان وهي تضرب الأرض بقدميها، واتجهت نحو جدتها تهدد الحصان لما فعله بأخيها، وارتسم على وجهها اشمئزاز واحتقار وكره عميق، فاندفع حمو نحو الحصان وانهال بالضرب على وجهه بقبضته، بكل ما له من قوة.

حملت عواش ما جمعته من الأعشاب، لكن وجهها عاد يعبر عن شيء من القلق، وغشى عينيها الواهنتين نوعٌ من الضباب، بينما كان حمو يحس أنه أصبح لا يطيق البقاء في حالة القلق وعدم الاستقرار وفقدان اليقين هذه، قفز من فوق سياج من الحجر المهدّم نصفه، فعلقت سترته بالأشواك، أمسك جيداً بلجام الحصان، وقفز الحصان من فوق السياج بخفة أرنب، ولاحقه كَرناس الذي كان لا يزال يمسك بساقه متألماً، وحاولت كَولي اللحاق بهما، لكن الجدة أمسكتها من يدها وحملتها، زعقت بحركة خفيفة، انزلقت كَولي، فحملتها الجدة على ظهرها.

وثب حمو على ظهر الحصان وعند صخرة حل كَرناس وراء والده، جلد حمو جنبي الحصان بسوطه مرة، فثانية، فثالثة.. فكشر الحصان عن أسنانه، وتشنج ذيله وحمحم وانطلق.

- 18 -

رمى ديكو آخر حمل من العوارض من على كاهله فوق الأخريات، بعد أن زحزحها قليلاً، كانت الشمس في أوج السماء تسبح كالسفينة بين أمواج الغيوم المتحركة، أخذ ديكو وضعيته الملائمة ثم شرع ينفض عن جسمه وملابسه ما تراكم عليها من غبار، وقد انتهى من تصليح عوارض سقف المنزل، وبدل تلك التي قد اعوجت أو تسوست تحت حملها مع السنين بأخرى جديدة، وأنهى رصفها رصفاً لثبات الطين في الأعلى، القديمة معظمها كانت قد أصبحت منخورة، بعضها قد امتلأت بالثقوب من الوسط بفعل مداهمة السوس لها، استغربت بهار قائلة:

– كيف بقي هذا السقف طوال هذه السنين، دون أن ينهار فوقك يا ديندار؟

بعد إزالة السقف والعوارض وتجديدها، بالإضافة إلى ترميم الأماكن المهترئة من الجدران، والأرضية التي كانت خميرة من مجموعة من الأحلام

والكوابيس المزعجة، أثناء رقود الليل والتي كانت قد أصبحت ملعباً للفئران، بهار خلطت السم مع القمح وأفرغته في الجحور وأغلقتها وهي تقول:

- الفخاخ لا تنفع مع هذا العدد الكبير، سأحضر قطة أو اثنتين..

تمت تسوية الأرضية من جديد، أما الجدران فقد كانت مغطاة بالكلس منذ عدة سنوات مضت، واسود لونها في الزوايا المرتفعة، وتفسخت وتشققت ثناياها مع الزمن، لتصبح ملجأً للعناكب والحشرات، صفت بهار الوسائد بجانب الحائط، وعلى الحائط المقابل علقت لوحة (شاه ماران) التي انتهت من تطريزها هنا.

كأن ديكو ولد من جديد، خاصة أمام نظرات الحنان تلك، وأصبح كطفلٍ صغير تتلبك يداه ويتلجلج عندما تطلب منه بهار شيئاً وهي تصلح الجدران، أصبحت الغرف مطلية بالكلس، زيَنت بهار جوانب الأبواب من الخارج بنقوش رسمت في وسطها أشكالا للورود، أعواد الياسمين لم تمتد الأيادي إليها منذ أن زرعتها والدة ديكو..كانت قد تصاعدت على جوانب البيت، تكاثرت وانتشرت والتفت على جدران البيت وسقفه حتى أوشكت أن تغطي كل جزء من الجدران الخلفية، ومن جهة الغرب كانت الأزهار البيضاء العطرة تنبثق بين الأوراق والأعواد بكثرة مذهلة، اهتزت أوراق أشجار الحور الفضية اهتزازاً خفيفاً، تبدو وكأنها تنوح على رفيقاتها التي قام ديندار بقطعها، وحولها إلى عوارض لبيته.

إنهما يتضرعان جوعاً ومستعدان للغداء.. لقد أزيلت الوحدة التي كانت تطوق رقبته كالقلادة، أصبح ديندار رجلاً آخر، ها هو خارج إلى الباحة الصغيرة المسيجة بأغصان مجدولة، وبنظرة كئيبة بدأ يجوب الباحة في خطواتٍ هادئة، وبدا كأنه لا يثق بالذي همست له بهار به، خمدت الفرحة في صدره، استولى عليه فزعٌ وفرحٌ اعتباطي، أصبح لا يعرف هو بالذات، كم مرة تكررت تلك الكلمات التي همست همساً في أذنه، وهما في الفراش.. أيصدق أم لا؟ لم لا يا ديندار؟ لو لم يكن ذلك ما قررته بهار، لماذا إذن أصرت وأتعبت نفسها للقيام بكل هذا التجديد، لأيام لم نتوقف لا ليلاً ولا نهاراً، في حياتي كلها لم أتعب كما تعبت خلال هذه الأيام، لقد أصبح بيتي غير مألوف بالنسبة لي، لقد أصبح بيتاً أجمل حتى من بيت المختار.

ما تزال تلك الهمسات تتكرر كتكرار لقطات المشاهد التلفزيونية، هل صحيح؟ ولكن إذا رفضت فعلاً.. ماذا ستكون عاقبتها؟ البلاء سيقع على رأسي.. البلاء.. أنا ما علاقتي بالأمر؟ هل تريد العودة فعلاً.. أم أنها لن ترضى بالطلاق فعلاً.. أليست هي التي همست بأذني وقالت: «لن أتركك وحدك يا ديندار..»! نعم هي قالت ذلك، عندما سألتها ماذا تقصدين؟ أليست هي من قالت: حتى لو عاد الملا لن أقبل الطلاق.. لن أعود إلى حمو.. سأبقى معك.

لقد كانت نظراتها نظرات رجاء، توسلت إلي وقالت ألا أفعل شيئاً، ولأترك الأمر لها، هي ستتدبره، فقط طلبت مني أن أجيب بجملة

واحدة، وهي أن أقول: «إذا طلبت بهار الطلاق لا مانع لدي، أما إذا رفضت فلا أستطيع إجبارها»، لقد وعدتها وسأوفي بوعدي.

كان مشرق المزاج ويشعر بسعادة عظيمة؛ لأنه أحس أنها صادقة، وأنها وافقت على أن تبقى معه.

مد نظره نحو مرتفعات هركَول وهو يقول: أصبح بيني وبين هذه المرأة صلة لا يمكن أن تنهدم وإن لم يكن معترفاً بها، صلة كان يستحيل عليّ أن أصارحها بها، إن الطبيعة كلها هي التي تفرض حبها على نفسي، فأنا لم أعد أحبها بعقلي ولا بخيالي فقط، بل بكل كياني، كيف لا أوفي بوعدي وأنا أصبحت تلميذهم؟! إذا طلبت مني أن أفدي بنفسي من أجلها لن أتردد لحظة، كي أخلصها من بين أيديهم، لن أتأخر بعد اليوم، لن أسمح لأحد أن يقول لها شيئاً هي بغنى عنه، هكذا هم الرفاق في تعاملهم مع الرفيقات.

نعم تذكرت هذه الليلة، من الجيد أنني تذكرت.. آخ من الأشغال الأخرى، الوحدة التي ستعبر المنطقة إلى (غارزان – بدليس)، ستكون الليلة قد وصلت، وعليَّ إمدادها بالتموين الذي طلبه مني الرفيق خبات، ولكن كيف سأتصرف، يجب أن أترك بغلين من القطيع.. كلا بغلان لا يكفيان.. ثلاثة بالكاد تستطيع حمله.

لا يتوقف عن التحرك ذهاباً وإياباً وهو يجوب الباحة، بينما بهار كانت قدماها حافيتين وكان منديل أزرق قديم يغطي رأسها، كان واضحاً من ملابسها ومن شخصها كله أنها كمعظم نساء الكرد، اعتادت على

القيام بأعمالٍ شاقة، وقد ألقت حمل الحطب الذي جاءت به في الصباح قرب الموقد، لا تزال تصلح الزاوية اليمنى من أرض المطبخ، وقامت بتصليح الموقد بعد أن جلبت الفخار الذي هو على شكل دائرة مفتوحة، من جدارٍ رقيق من عجينة الفخار، كان وجهها رصيناً يعبر عن قلة اكتراث، ولكنها ما إن سمعت صوته حتى تهللت أساريرها.

- اليوم يكفي يا بهار.. العمر ينتهي والشغل لا ينتهي.. ألم تتعبي؟
- ما بك اليوم.. لا تتوقف.. هل هناك شيء؟
- لا.. لا شيء.
- هل صحيح أن الملا عاد؟
- رأيته اليوم يذهب إلى الثكنة ولكن لا أعرف لماذا!
- هل تحدث إليك؟
- لا.. من بعيد فقط شاهدته حين كان يذهب إلى الثكنة.

هكذا ومهما كان، فالقروي يخشى على أفكاره السرية وإفشائها حتى لزوجته، وأمور أخرى لا يقوى على قولها لأي شخص كان، ينظر إلى بهار وهو يبدو كرجل تغلب على شيء بمنتهى الصعوبة، خرج باتجاه الغابة إلى المكان الذي ترك فيه القطيع.

كانت الظلمة تلج ثنايا بيوت القرية رويداً رويداً، عاد ديندار وهو يقود ثلاثة بغال، والربيع ليس كالشتاء فالحيوانات تبقى طليقة وسط المروج خارج القرية، يذهب أصحابها ويأتون بحيواناتهم إذا ما احتاجوا إليها، عدا الأبقار، فهي تعود كل ليلة، لذلك لن يشعر أحد باختفاء

البغال، فالأمر لن يستغرق إلا عدة ساعات، ومن حسن الحظ، القانون الجديد المتعلق بهذه الحيوانات لم يطبق بعد في القرى[1]، طبق إلى الآن فقط في مدينة آروه وأطرافها، ماذا ستفعل؟ سألته بهار.

– التموين.

– ماذا ستفعل به؟

– تعالي وساعديني.

– هل ستأخذه إليهم؟ إني خائفة.

– لا عليكِ.. تعالي.

لم تمر دقائق حتى كانت البغال محملة، وقام ديندار بتغطية الأكياس البيضاء بأغصان الأشجار الطرية للتمويه.

– أمسكي لجام هذا البغل.. الآخران سيمكثان في المكان.. لحظة وسأعود.

فهمت بهار عندما توجه نحو كومة أغصان الأشجار اليابسة، بأنه ذهب ليأتي بالبندقية، بينما هي على الفور ربطت لجام البغل بعامودٍ من سياج الدار، واتجهت للداخل، وقبل أن يعود ديندار كانت قد تجهزت.. ما إن عاد كان بعتاده العسكري الكامل، بعد أن ربط لجام كل

---

(1) قانون ينص على « كل دابة تصلح للحمل، من البغال والأحصنة والحمير، يجب أن يكون لها رقم كحلق تعلق في أذنها مع هوية المالك، وخصص لها ساحة مسورة بجانب الثكنة على طرف المدينة الشرقي، وكل مالك لدابة مجبر مع حلول المساء أن يأتي بها لتبييتها في هذه الساحة، ومع حلول الفجر يستطيعون المجيء وأخذها إلى أعمالهم ثانية.. وكل من لا يتقيد بهذا القانون، فهو متهم بأنه يقوم بتسخيرها في خدمة الإرهابيين بنقل التموين ليلاً إليهم..».

بغل بالآخر، فك اللجام من العامود ليبدأ التحرك، وما إن تحرك حتى كان لجام أحدهما قد حلّ وبهار ممسكة به، وهي تنظر إلى ديندار وعيناها تكادان تختفيان في الظلام.

- لماذا حللتِ اللجام؟ اربطيه بنهاية سرج البغل الآخر.
- لا، لن أربطه.. سأمسكه بنفسي.
- ستمسكينه بنفسكِ؟ سأذهب قبل أن يتأخر الليل.
- نعم وأنا كذلك.. سأرافقك.
- ماذا أصابك يا امرأة.. هل جُننتِ؟
- و هل الذين يذهبون إليهم في أنصاف الليالي مجانين؟
- لا داعي لكل ذلك.. الطريق بعيدة ويجب أن أعود قبل شروق الشمس.
- إلى أي مكان كان.. سأرافقك.

بعد الإصرار الذي بدا من بهار، وافق ديندار وانصاع لطلبها، طالما هي في شوق لرؤيتهم، فلا يحق له أن يكون عائقاً أمام تحقيق أمنيتها تلك، الليلة لم تكن قاتمة والقمر كان مطلاً على كل شيء في سكونٍ تام، عدا صوت حوافر البغال أثناء اصطدامها بالحجارة وتهشم الحصى.

يتسللان في الغابة.. المرتفعات.. نحو المناطق الوعرة.. بعد مسير لا يقل عن ساعتين، شقّ عواءُ الذئاب الظلمة، ومن ثم أصوات طيورٍ ليلية.

أسرعت بهار من خطواتها وتركت لجام البغل، انتبه ديكو، فتوقف في

مكانه والتفت يسألها همساً:

– ماذا هنالك؟

– ألم تسمع عواء الذئاب؟ إنني خائفة..

برز لـبهار وسط الظلام ستة أشكال سوداء تسير في رتلٍ واحد، كأنما ينظمها خيط غير مرئي في خطواتٍ مقلقة.. اقتربت من زوجها وكادت تلتصق به ممسكة بكتفه وهي خائفة.

– انظر.. جنود.. جنود. بعد أن أوقفته ونظر ديكو إلى الرتل.

– إنهم الرفاق.

– ماذا.. رفاق؟!

– أجل إنهم هم من أصدر صوتاً مثل عواء الذئاب، ثم صفيراً كالطيور الليلية.

توقف الرتل ثم صدر صوتٌ بالمثل من ناحيتهم، بينما بهار تلتصق بديندار، وتكاد أحشاؤها تتقطع خوفاً وفزعاً مما تراه، عادت إليها هواجسها.. أمور الجن والعفاريت. إن ما يقال عن الذين في الجبل صحيح.. إنهم لا يعرفون التحدث مثلنا.. لا يفقهون الكلام.. إذن لماذا هذه الأصوات.. هل يتكلمون بهذا الشكل.. سألت:

– ديندار من أين تعلمت لغتهم؟ يا إلهي.. اثنان منهم يتقدمان.

شعرت بهار بقلبها يكاد ينفجر.. أي أناس هم! ماذا فعلت.. ما الذي جاء بي؟ اللعنة عليَّ! انتابتها رغبة في الصراخ رعباً، ديندار عرف أنها خائفة، بسبب التصاقها به بقوة، وهي ترتعد وضربات قلبها التي

تسارعت دون إرادتها.. بدأ بتشجيعها:

- ماذا جرى لكِ، ألستِ أنتِ من طلب المجيء لرؤيتهم؟ لا تخافي إنهم رفاق.

وما إن اقترب الشكلان الآدميان حاملين بندقيتيهما على كتفيهما.. حتى ابتعدت قليلاً عن زوجها، بينما نادى أحدهما قائلا:

- مَنْ أنت؟

- جودي. كانت كلمة السر.

- خابور. رد الجانب الآخر وسط الظلمة.

تقدما وتصافحا، مدت بهار رأسها من خلف زوجها لترى وجههما وسط الظلمة ولكن دون جدوى، هل هم مثلهم بشر أم لا.. مدت يدها خائفة مرتبكة دون أن تستطيع البوح بكلمة.. لسانها لم يكن قادراً على النطق.. قال أحد المقاتلين:

- الرفاق أمامنا لنذهب إليهم، لم نكن نتوقع مجيئك بهذه السرعة.

ألقت بهار بنفسها في جوٍ كان يثقل عليها كالكابوس، خلق لها شعوراً عنيفاً بالغربة في بادئ الأمر.. فكأنها في عالم آخر.. مخلوقات من عالمٍ آخر.

استيقظت بهار.. يبدو عليها النعاس ويمنعها من النهوض.. انتابتها موجة كسل تجري في عروقها، ولكن يجب أن تستيقظ كالعادة قبل أن يبرد التنور.

ما إن نهضت، حتى شعرت بأن شهيقها يخنقها، شعرت بتعبٍ

وإرهاقٍ شديدين، فمنذ سنوات بعد قرار الدولة التركية بمنع صعود الأهالي بقطعان الماشية إلى الزوزان، لم تصعد وتمشي في الجبل كما مشت ليلة البارحة، استطاعت أخيراً أن تتغلب على نعاسها، تركت ديندار ينعم بالراحة.. حسدته على غفوته الجميلة الهادئة، وكأنه طفل غفا في حضن أمه، وسلم أمره بارتياح وأمان إليها لتتكفل هي بالمطلوب.

كأنها عروس في ليلة عرسها.. الضحكة تملأ وجهها.

- ماذا يا بهار؟ أرى إنكِ بدأت بأعمال الحياكة.

- ما رأيك؟

توقفت ومالت برأسها مثل طفلة على وجهها ابتسامة عريضة، ثم تابعت:

- سأقوم بحياكة عدة أزواج من الجوارب الصوفية، لترتدي واحدة، وفي المرة القادمة تأخذها معك لهم.. أليست جميلة؟

هز ديندار برأسه موافقا، وسأل:

- يبدو أن الرفيقة مزكَين تحدثت إليكِ مطولاً.. أليس كذلك؟

- آه يا ديندار.. ليتنا كنا في عمرهم.

- و ماذا لو كنا في عمرهم؟

- قسماً لكنت التحقت بهم، آه يا ديندار إنهم ملائكة.. كم هم محترمون.. لا يملّ المرء من مصاحبتهم، إنهم يتحدثون عن أمور لم أسمع بها قط.

- مثل ماذا؟

هزت بكتفيها نحو الأعلى والأسفل وقالت:

– حدثتني عنا وعن الأتراك وعن المرأة.. كيف نحن بمثابة العبيد.. صحيح ما يقولونه.. لماذا لا يزوروننا؟

– الثكنة في القرية.. لا يريدون أن يسببوا لنا الأذى.

– و لكن بيتنا خارج القرية.

– مهما كان، لا يريدون أن يكونوا السبب في إلحاق الضرر بأحد من القرويين.

خرج ديندار إلى فناء الدار وكان كلبه «جاف رش» (أي صاحب العيون السوداء) ينتظره وبحركاته الخفيفة الحذرة التي تشبه إلى حدٍ كبير حركات القط، كان ديندار يبدو رائعاً وهو مرفوع الرأس عالياً، وملامحه تعبر عن ثقة كبيرة بالنفس، توجه إلى مكان القطيع، وبعد جولة تفقدية تامة عاد دون تأخير، وإذ يسمع في بيته أصواتاً يبدو أن لديه ضيوفًا، ما إن دخل فناء الدار حتى قالت بهار:

– ها هو قد عاد.

دخل ديندار أرض الدار، وإذ بالحاج شمدين وأم بهار والملا من كانوا ضيوفه، رحب بهم وجلس وسطهم، بينما الملا كانت علامات التعب بادية عليه، الآلام وخيبات الأمل وعذاب الضمير، فقد أنهكه اليأس والإجهاد مع تقدم العمر، أصبح منهك القوى غارت عيناه وأصبحت خصلات شعره دون لون، جلس ساهياً شارداً كمن لم يعد يأبه لما يدور من حوله، بعد السؤال عن الأحوال.. استفتح الملا الموضوع قائلاً:

- ديندار يا ولدي، سأرحل بعد يومين كما تعلمون.

- ليته لم يكن كذلك أيها الملا، لكن الأمر بأيديهم اليوم، ماذا سوف تفعل؟ ليست باليد حيلة.

- الأمر بيد الله يا ولدي، لم يبق لـ«نمرود» ولا لـ«ضحاك».. هل سيبقى لهم؟ أخذ نفساً عميقاً وتأوه، ثم أكمل:

- المهم يا ولدي.. وقبل أن أذهب برقبتي وعد، يجب أن أريح ضميري قبل أن أرحل.

- كما تريدون.. مولانا، إذا ارتاح ضميركم ضميرنا أيضاً سيرتاح.

استغرب الحاج شمدين وعواش، وهما يستمعان إلى حديث ديندار المنمق، حديث كامل لرجلٍ كامل، لكنهما استمرا في ارتشاف الشاي دون حديث، بينما بهار تجلس بجانب أمها وهي ترمق ديندار بنظراتٍ جذلى كفتاةٍ شابة صغيرة، بدا ديندار وكأنه من جاء بالملا ليطلب يدها من والديها، وهما عاشقان كانا متواعدين مسبقاً لهذه اللحظة.

- يا ولدي.. كما تعلم لم أكن أتأخر كل هذه المدة، ولكنكم تعلمون ما حصل بإرادة الله.. كان يجب أن يتم الطلاق بينكما بعد يومين، بهار أطفالها ينتظرونها.. فالصغير بحاجة إلى رعاية أمه والبيت تشتت، هذا حرام يا ولدي يجب لم شملهم مرة أخرى، ونعدك يا ولدي بأن نقوم بتزويجك وسيتكفل الحاج شمدين بكل شيء.

تنحنح الحاج شمدين الذي كان وجهه ووضعه كله يعبران عن هدوءٍ يفيض وقاراً، وقار الشرقي شاعراً شعوراً قوياً بخطورة مسئوليته وعلو

مقامه، أكد:

– نعم، نعم يا حضرة الملا،ديندار بمثابة ولدي.. سأتكفل بتزويجه، وهذا وعد مني.. هذا حقه فهو أيضاً بحاجة إلى مَنْ يرعى بيته وخدمته.

ثم أضافت عواش:

– إلى متى سيبقى وحيداً هكذا؟ وهل خلت الدنيا من النساء؟

ديندار يستمع دون أن تفوته كلمة إلى أن انتهوا، كأنهم يحاولون إقناعه ليقبل بالزواج من فتاة اختاروها له، لا أن يوافق على الطلاق، وهم ينتظرون جوابه بينما هو ينظر باتجاه بهار، كانت ملامحها جادة صارمة، إنها حقيقة المرأة إذا قررت شيئاً فعلته، قال ديندار:

– أنا لا مانع لدي.. كما تريدون، من ناحيتي أنا لا مانع عندي، الأمر يتعلق بـبهار.

– هذا يعني أنك موافق أليس كذلك؟ سأل الملا.

– نعم، إذا وافقت هي.

قالت الأم عواش:

– توافق! كيف لا توافق.. يجب أن تعود إلى أطفالها، كَرناس مع والده وگولى والصغير عندنا.. آه يا بهار كنت سأجلب الصغير وكَولي معي، لكن والدكِ منعني من ذلك.

ردت بهار بنزق:

– لماذا تأتين بهما؟ لماذا لم ترسليهما إلى والدهما الذي تخلى عن أمهما، ولم يتخلَّ عن سلاح العدو؟

استغربوا من هذا الجواب المفاجئ.

- ماذا تقولين يا بهار؟ الأم تبقى أمًّا.. هل جننتِ؟ هم أولادكما، أنتما الاثنان، وبإذنه تعالى ستعود الأمور كما كانت.. وسيتخلى عن سلاح الأتراك.. ليدخل الله الرحمة والهدى إلى قلبه.

ظل وجه بهار ساكناً وصوتها هادئاً، التفتت إليهم بحركة سريعة وقد تلألأت عيناها بدموعٍ لا تكاد تُرى، وارتسم على قسماتها ألمٌ زادهما جمالاً، نظرت إلى وجه والدها صامتة رصينة، وأردفت أخيراً:

- هذا إذا تدخّل الله.. أنا أعرف حمو يا أبي.. لم أتحدث أمامك ولا مع أحد هكذا قبل اليوم، لقد زوجتموني من حمو دون إرادتي.. طلقتموني دون أن أتفوه بأي كلمة.. زوجتموني من ديندار ولم أقل شيئاً أيضاً.. أما الآن لا يا أبي، هذا كاف.. سأقول شيئاً واحداً فقط، وليفهمه الجميع.. أنا لا أريد الطلاق والعودة.. ديندار هو زوجي ولو قتلتموني لن أتخلى عنه.

جاءت كلماتها صادمة، وكأن السقف المهترئ الذي انهار قبل أيام، بضربات معاول ديندار سقط على رءوسهم ثانيةً، لا سيما الوالدان اللذان لم يريا ابنتهما طوال عمرها تتحدث بهذه اللهجة، ماذا جرى لها.. هل أصابها مكروه؟ جنون، والعياذ بالله؟

قطع الملا الصمت بكلمات وسط العوارض المهترئة، التي مازالت مكومة متهادية في زاوية من باحة الدار:

- يا بهار يا ابنتي اعقلي.. حمو والد أطفالكِ يجب أن تعودي من أجلهم،

لا من أجل حمو فقط.

لم يتبدل وجه بهار، غير أن الدموع انبجست من عينيها، أضحت أكثر جرأة.

- كان زوجي، لقد قلت ما لدي.. وأطفالي بإمكانكم أن ترسلوا الصغير لي وإذا أردتم أرسلوهم جميعاً، وديندار لن يمانع أن يعيشوا معنا.. أو..!!

قاطعها والدتها عواش:

- أو ماذا يا بهار.. هل فكرتِ بمصيرهم؟ لا تفكري بنفسكِ بل بأطفالكِ.

- الأطفال في كنف مثل ذلك الأب (..) وتعلمون كيف يربيهم.. أليس بالمال الحرام.. الراتب الحرام ذاك؟ من أجل ماذا؟ ومن أين؟ إنهم يخونون قومهم وكل يوم أكون مهددة بأن أصبح أرملة وأن يصبح أطفالي يتامى، ماذا لديهم سوى ذاك الراتب من وراء ذلك السلاح اللعين؟

- أعوذ بالله مما ينطق به لسانك، ليبعد الله الشر عنكم وعن الأطفال، بجاه الكيلاني. قالت عواش.

شعر الملا والعم شمدين بارتعاش يجتاح أطرافهما، والدها يسمعها ولا يريد أن يصدق ما يسمعه، وهو فزع منها ويردد مذعوراً:

- بهار إنكِ تقولين أشياء حرامًا على المرأة البوح بها، من أين لكِ كل ذلك؟ من علمكِ هذه الأمور.. إنها لا تليق بالمرأة يا ابنتي.

كان ديكو قد تركهم منذ لحظات بحجة لفَقها، وخرج إلى خارج

فناء الدار إلى الباحة المسيجة بأغصان أشجار البلوط المجدولة، تحت شجرة الجوز العريقة، بدأ يلهي نفسه ويجدل الأماكن المهترئة من السياج بالأغصان الطرية متظاهراً بإصلاحها، بينما احتد النقاش داخل أرض الدار وهم يحاولون إقناع بهار بالعدول عن قرارها، لحق الملا بـديندار إلى هناك واقترب منه قائلاً:

– أنا أتفهم الوضع يا ولدي وأعطيكم الحق لما أنتم فيه، ولكن هناك ثلاثة أطفال يا ديندار.. وأنا الذي قمت بإعداد أمور الزواج هذا.. من أجل خاطري.

– خاطرك على الرأس يا مولانا.. وكما قلت سابقاً، أنا لا مانع لدي أبداً، إن وافقت هي.. لا أستطيع قول المزيد؟ لا أجبرها ولا علاقة لي بقرارها، ثم أنت قمت بالواجب يا حضرة الملا، إن لم ترغب هي، هل يجوز علي إجبارها يا مولانا، هل يجوز ذلك شرعاً؟

– أفهم وضعكم يا ولدي، لا يجوز ذلك بالإكراه.. لا، تزويجها لم يكن بإرادتها، فزوجها كان قد أقسم بطلاقها، وهذا مكروه.. لا يحبه سبحانه وتعالى.

اثنتان من النسوة كانت أيديهما تتحرك، وتهمسان في أذني بعضهما، وما إن وصل حمو إليهما في صبيحة اليوم، الذي قرر الملا الرحيل فيه بعد أن أرسل أثاث بيته ولم يبقَ سواه وزوجته.

حمو يتابع باتجاه بيت عمه، بينما سرب الإوز في الجهة الأخرى ضج بالصياح وبسطت إحداها جناحيه في الهواء لينتعش، ثم شرع بالدوران

حول إوزة أخرى تصيح معربدةً، صفقت جميعها بأجنحتها، وكأنها تتحدى حمو وتهزأ من رجولته، وتعرض له كيف يكون الزواج الحقيقي.

تابع.. ثم مر بشيخ ينوء بثقل السنين يمتطي بغلاً، ترجل من البغل متثاقلاً وشد زمام تأملاته عندما صدر صوت:

- أعانك الله.

القطعان تتزاحم وتجأر قرب أبواب الأفنية في غمامٍ من الغبار الذهبي، والنساء والبنات في الأزقة والأحواش منهمكات حول البهائم، امرأة دفعت أمامها بعض الأغنام، أما الأخرى فكانت تقود بغلين باتجاه ساقية النبع، تلك امرأة طاعنة في السن تجر أرومة شجرة، وتسمع ضربات فأسها تسقط على الأرومة، دخانٌ يتصاعد من المداخن ناشراً رائحته الخاصة، لا شيء يظهر نفوذ الأتراك عليهم إلا وجود القطعات العسكرية النظامية.. أثناء السير أشعل سيجارة وأخذ منها نفساً عميقاً، وحين وصل، كان الملا علي وعمه في فسحة الدار يجلسان على بساطٍ ممدود فوق الأرض العشبية.

لم يتمالك حمو نفسه وكاد أن ينهار بعد أن سمع قرار بهار، ضاقت به الدنيا واسودت أمام عينيه، وانطفأ ضياء الأمنيات العذبة، مسته قرقرة في بطنه قلصت تأملاته، ها هو الانتظار أصبح صرة مرمية في زوايا النسيان، لكي تغدو فداءً لعينيها السوداوين، بدأ يومض نورٌ غريبٌ من عينيه، فقام وخرج وهو لا يعرف أين هو أو إلى أين يذهب وماذا سيفعل؟

قرر أن يقتل ديكو مهما كلفه الأمر.. لا حل آخر.. سأقول لحماتي أن تحاول مرة أخرى وإذا أصرت سأقتله.. سأقتل الاثنين.. أنا حمو.. أنا حمو..

ضاع.. ضاع كل شيء يا حمو.. وحتى بهار.. نعم حتى بهار أم أطفالي، هل أذهب الآن وأرتكب جريمة؟ جريمة! جلس بجانب صخرة حيث انتصبت أيكة من أشجار الصنوبر الفتية حول الشجرة الأم، ودفن وجهه بين كفيه، بدأ شريط حياته يمر في مخيلته من البداية وحتى النهاية، فالنهاية كانت مأساة جديدة؛ نعم مأساة.. حياتك مأساة يا حمو، ماذا أفعل؟ هل أرتكب جريمة لأضيف مأساة أخرى؟ هذه الأرض لا تنمو فوقها غير المآسي.. إنها أرض المآسي.

لم يتمالك نفسه، فانفجر بالبكاء والنحيب، حمو أُصيب بعدوى البكاء، في حياته تحمل الكثير، وها هو أخيراً قد انفجر، وصل الجمود الذي في أغواره إلى درجة الغليان، ها هو بدأ سيلانه وتفريغه عن طريق البكاء، من صميم فؤاده.. سرعان ما تحول النحيب إلى حشرجات طفولية، خجل من نفسه، فلم يستطع أن يرفع وجهه من قبر كفيه، يبكي بكاءَ الرجال.. الرجال الذين أجبروهم على شرب العسل المسموم؛ ماذا عليَ أن أفعل؟ يجب ألا أرتكب حماقة أخرى.. لو فعلتها.. ماذا سيكون قدر هؤلاء الصغار.. نعم أطفالي.. سأذهب وأتحدث إلى ديكو.. لكن ما ذنب ديكو؟ كما قالوا: هو موافق لكن هي.. هي لا تقبل، هل أذهب وأجبرها؟ أو.. لا.. لا.. أقليل ما فعلت بها يا حمو، يا أحمق؟ الحق معها

يجب أن تعترف بذلك يا حمو، لماذا هجرك إخوتك الذين كانوا يفدونك بأرواحهم؟ ألم أكن السبب برحيل والدي عن هذه الحياة لارتكابي ما ارتكبت؟ ماذا بعد؟ ماذا؟ ها هي بهار ترفض العيش معي.. من السبب يا حمو؟ أيها الأحمق! وضرب رأسه بجذع الشجرة، فتورم مكان الإصابة.. ترامى إلى سمعه نقيق الضفادع رتيباً في الأقاصي الرطبة.. رفع نظره متضرعاً نحو السماء، هناك ما زال صقرٌ آخر يحلِّق في أوج اليوم موازناً نفسه في الفضاء، يراقب، ويناجي مأساة حمو.. جناحاه يرفرفان في وهنٍ، ودون أن يدرك حمو كيف نطق بتلك الجملة قال: كل شيء في زوال إلا الحقيقة، وحدها التي لا تزول.

دام بالتحديق إلى الفضاء والجبال والوديان، الشعر الذي يغطي جسد التلال من غابة عريقة كستها طبقة رقيقة شبه ضبابية، من بعيد ينظر باتجاه الثكنة، واستلقى قائلاً وعيناه مركزتين نحو العلم التركي:

- إنهم يأكلوننا كما يأكل الدب اللحم في الصيف.. ليدفئه في الشتاء.

شعر بموجة من البرد تسري في كيانه، اجتاحت جسمه رعشة ورجفة، فعاد إلى بيت عمه، عندما شاهدته عواش في موجة الهذيان تلك، أسرعت به إلى الفراش، دثرته وبدأت بتبريد جبهته بقطعة قماش، تبللها من صحن فيه ماء بارد.

سقط مريضاً إلى مساء اليوم التالي.. لم تتركه عواش لوحده لحظة، بين الفينة والأخرى كانت تكرر تبريد جبينه الذي ينضح عرقاً، يهذي وهي تهدئ من روعه وتهوّن عليه.

- 19 -

كان المقاتل زنار يجلس في ظل شجرةٍ بعيداً بعض الشيء عن مكان مجموعته، زنار مقاتل وسيم الوجه، ممتلئ الشفتين لامع الشعر، أنيق الملبس، واثق بنفسه، وعيناه غائرتان وجسمه قوي ولديه مواهب خفية في النحت، كانت بين يديه قطعة طرية لغصن شجرة «كَفوت».. يقوم بكشطها بعد أن ثقبها طولاً بسلك غليظ بعض الشيء، ينحت عليها زخارف.. عندما مر القائد خبات انتبه إلى جلوسه وحيداً فبادره بالتحية:

– الرفيق زنار له عالم خاص.. كيف حالك يا رفيق؟

وقف زنار:

– أهلا يا رفيق.. أية خصوصية وعالم.. في بعض الأحيان المرء بحاجة إلى التفكير وصفاء الذهن..

– ماذا بين يديك اليوم؟

مد زنار ما بين يديه، كانت حقاً تحفة فنية، عبارة عن غليون، ينحته بدقة على شكل جسم تمساح له فم وأسنان.. أبهر قائده فسأله:

– رفيق زنار.. هل درست فن النحت أم هذه مجرد هواية؟!

– لقد درست الرسم والنحت.. ليست لدينا ظروف مستقرة لنحت

أعمال كبيرة.. كل عدة أيام أقوم بنحت غليون وأهديه لأحد الرفاق، وقد نحتُّ هذا الغليون لأهديك إياه كمفاجأة.

– لي أنا «ضاحكاً» إذن قم بنحته على أجمل شكل، سأحتفظ به كذكرى منك، أنت فنان رفيق زنار ! اهتم بفنك.. هل تعلم أن الزعيم مصطفى البارزاني في أوقات فراغه كانت هذه هوايته.. يقولون: دائماً كان بين يديه غليون جديد يقوم بنحته.. أينما كان يجلس، يكون بين يديه السكين وقطعة من غصن شجرة، يقوم بالكشط والحفر والنحت عليها.

جاء الرفيق دوغان يشاركهم رؤية التحفة الفنية وما أبدعته يدا زنار، ثم التفت إلى القائد خبات، قال:

– رفيق! لقد تحدثت إلى المقاتل الذي وصل قبل أيام.

– مَنْ منهم.. تقصد خورشيد؟

– نعم يا رفيق.

– كيف وضعه؟

– منذ البارحة.. يرفض تناول الطعام.

– لماذا؟ هل ضايقه أحد؟

– لا.. لا أعتقد ذلك.

– ليأت إلى هنا.

كانت الشمس تميل نحو الغروب تصدر شعاعاً وردياً، وتلقي بأشعتها الوردية على صخور هركول، وهي في مرحلة تأهبها لإلقاء تحية الوداع، بينما الرفيق خبات واقف وإبهاما يديه مدسوستان في حزامه، يمتع خياله

باللوحة التي رسمتها الطبيعة، في نقاشٍ ضمني مع الشمس، فالنقاش يجوز مع كل شيء، شرط أن تفهم ماهية الأشياء، لقد قيل إن الشاعر «فقي تيران» كان يحدث الطيور ويجيد لغتها، ها هو فقي تيران آخر، يحدث الشمس ويجيد لغتها.. وهما متفاهمان كما يبدو من وقفتهما، الارتفاع البادي في سماء ملامحهما، هناك تبادل بين الأشعة التي يرسلها كل طرف مغطية هذه الجبال بما فيها، ليشكلا حياة خاصة بهما، هناك انسجام مهيب.. انضم إليهما ثالث وهو الرفيق دوغان.. كما تنضم النجوم للبروز حول قائدها القمر، ليتحدث معها بلغته الخاصة.

لحظات وتقدم شابٌ في حوالي الخامسة والعشرين من العمر.. مكتمل.. قاسي الملامح، وكأن رأسه قد لصق في وسط كتفيه مباشرةً، أخذ شكله ككبشٍ جبلي.. ذو شارب غليظ نوعًا ما.. نظراته ذكية.. وجهه وجسمه يوحيان باندفاع الشباب وتشع فيهما قوة النفس، رغم أنه لم ينخرط في صفوف الگريلا إلا منذ مدة وجيزة، فإن وجهه والثقة الهادئة المطمئنة في وضعه تعبر صراحة عن أنه قد تبنى وقفة الاعتزاز العسكرية التي تعرفها هذه الجبال، ويعهدها على وجه العموم أولئك الذين ألفوا السلاح.

إن المرء ليحس أن الفتى يشعر بكرامته وبقيمته، وقد كان شرواله الفضفاض ممزقاً في بعض المواضع، وكانت كوفيته مرتدة على كتفيه إلى الخلف على طريقة الرعاة الجبليين، ما إن اقترب، حتى بدا عليه الارتباك والهيجان، أثناء إلقاء التحية على القائد الفدائي، أمعن الرفيق خبات النظر فيه، وهو ذو تجربة في شئون التعرف على الرجال من النظرة الأولى،

شاب ذو سماتٍ تعبر عن الشجاعة الكردية التي يُعرفون بها.. له طلة طيبة وحركات متحفظة وعينان لطيفتان، دعاه إلى التحدث، لا يزال التوتر مسيطراً عليه، حدثه بأسلوبٍ لا يوحي بأنه قائد، وله المعرفة في كيفية اختيار الكلمات المناسبة التي ستكون مفاتيح أبواب القلاع الداخلية لذلك الإنسان، وهو يبدأ بابتسامة رافقتها ضحكة من طبعه المعتاد، ومعنوياته العالية التي تعطي شحنة ثقة للآخرين.

- ماذا.. رفيق خورشيد.. لم أكن أعلم أن هناك في «كَارسا»[1] وحدة گريلا أخرى منافسة لنا.. أنت بمفردك أصبحت وحدة وتنفذ العمليات.. ماذا فعلت.. كيف قتلت مراسل الضابط؟

خورشيد الذي كان يخشى أن يحرك لسانه في حضور القائد، لا يعرف الآن كيف وجد نفسه يقول:

- نعم رفيق.. أنا الذي قمت بذلك. أجاب بشيء من الثقة، ثم توقف ولم يعد يقول شيئا آخر، لسانه تجمد.. غيَّر الرفيق أسلوبه ليجعله بسيطًا أكثر.

- يقول الرفاق إنك ترفض تناول الطعام، ولا تحلق لحيتك بعد أن أصبحت هكذا شعثة، تبدو هكذا كمقاتل إسلامي سلفي أفغاني! أتخجل أم ترفض أن تأكل شيئاً؟ هنا كل شيء ليس ملكاً لأحد.. لماذا لا تأكل؟ هل ضايقك أحد ما؟

(1) كَارسا - Garısa: اسم منطقة جاءت تسميته من اسم العشيرة تقع على الجهة الغربية من جبل هرگول وأطرافها..

- لا يا رفيق.. هموم هذه الدنيا.. أنا متضايق لأنني..

- تعال.. اجلس.. هموم الدنيا؟ إن مسألتك كالقروي صاحب الهموم.. هل تعرف تلك القصة؟

- لا يا رفيق.

- إذن سأقص عليك حكاية القروي تلك.

وبأسلوب شعبي، وهو الخبير بثقافة القرويين، بدأ يقص حكايته:

- يقولون: كان هناك قروي.. يذهب منذ الصباح إلى عمله، وما إن يفرغ من عمله، حتى يعود مساءً إلى بيته، تكون زوجته قد حضرت له الطعام، وما إن يبدأ بتناول طعامه، حتى كانت زوجته تبدأ بقص حوادث القرية له في ذلك اليوم.. كل يوم على هذه الحال.. وقبل أن تنتهي من سرد حادثة، يقاطعها الرجل المسكين وقد تضايق ويلعن القرية، وينسحب دون أن يكمل طعامه، قائلا: هموم هذه القرية.. هموم هذه القرية.. اللعنة، لا تنتهي.. لا تدعنا نأكل لقمة طعام بهناء! وفي يوم من الأيام، وما إن عاد إلى البيت، وعلى المنوال نفسه.. بعد أن مدت المرأة مائدة الطعام، بقيت صامتة.. بينما هو يشكر ربه في صمت، حيث لم يكن اليوم أي هموم في القرية، فقال: الحمد لله سآكل اليوم طعامي بارتياح، اليوم لا هموم ولا مشاكل.. وبينما كان يستعد لتناول الطعام، وإذا بزوجته تتذكر شيئاً، وتقول له:

- نسيت أن أقول لك..

- أيضاً.. ماذا هناك..؟

- اليوم ولدت أتان جارنا، ولكن يا حرام كان المولود بدون ذيل.

ما إن قالت بدون ذيل حتى تضايق الزوج مرة أخرى، انسحب وهو يقول ويكرر: اللعنة على هذه القرية.. همومها لا تنتهي..اللعنة !..

قالت الزوجة:

- أي هم في ذلك يا رجل.. استغفر ربك وأكمل طعامك.. ما علاقة ذيل الكُرِّ بالهموم؟

فأجابها مغتاظاً:

- أيتها الحمقاء.. أنتم هكذا معشر النساء.. عقولكم ناقصة.. ألم تقولي.. إن الكُرَّ وُلِد بدون ذيل.

- صحيح.. إنه مجرد ذيل.. أين المصيبة في ذلك؟

- إنكِ لا تفهمين.. لو كبر الكر وأصبح جحشاً، وحُمّل شيئاً ما، ثم انغرزت قوائمه في الوحل.. عندها من أين سنمسكه لإخراجه من الوحل.. كيف سنخرجه إن لم يكن له ذيل؟!.

عم الضحك الوجوه.. تابع الرفيق:

- هيا.. قل يا رفيق خورشيد.. أي هَم في مسألتك؟ كيف أمسكت بمراسل الضابط ولا ذيل له.. كيف؟ ولماذا نفذت العملية بمفردك؟

شرع خورشيد بالحديث:

- حضرة الرفيق! بيننا عداوات قديمة.. عبدي آغا ابن حرام، الكونترا تجاوزوا شرف ابنته، ومع ذلك لم يتوقف عن خيانته.. كما تعلمون أخي «كوت محمد» كان من أوائل من كان له علاقة بالرفاق في المنطقة.. في

خريف عام 1989 ذهب بعض الچتى من رجال عبدي آغا، ومعهم وحدة من الوحدات الخاصة للجيش التركي، وقتلوه هناك بصورة وحشية، قاموا بتعذيبه بصورة وحشية، قطعوا يديه بالمناجل، وفصلوا رأسه عن جسده، وقطعوا عضوه الذكري، ووضعوه في فمه، كانوا يتهمونه بأن له يدًا في قتل رشيد آغا.

– وأنت انتقمت.. أليس كذلك؟

– صحيح، كيف لي أن أعيش دون أن أنتقم لأخي؟! هجّرونا من قريتنا كَوزن إلى إركند، كان هدفي أن أقتل ابن عبدي آغا والضابط معاً.. كانت لدي معلومات بأنه يذهب إلى الضابط في كل ليلة، فتسللت بين خراب البيوت المهجورة، وأمام بيتنا الذي جعلوه الآن مقراً للضابط، نصبت الكمين، كان الليل مظلماً عندما رأيت شخصين يخرجان، وفتحت النار عليهما، ولكن مع الأسف الأول مات وهو مراسل الضابط، أما الثاني فهو أحد أخوة عبدي آغا، أصيب بجروح.

– لا بأس يا خورشيد، ولكن يجب أن تعلم أن الانتقام بهذا الشكل لا ينفع، المسألة ليست مسألة ثأر لأجل الدم، كما فعل آباؤنا وأجدادنا.. انتقامنا يجب أن يكون من أجل الشعب.. الوطن.. الانتقام الفردي يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، لن تُحلّ أو تزول المشاكل بهذه الطريقة، يجب البحث عن الحلول العامة، مشكلتنا ليست مشكلة فرد وعائلة، طبعاً يجب الانتقام لـ«كوت محمد» وكافة الشهداء.. لكنه ليس الوحيد.. انظر ماذا فعلوا بــ«الحاج أوصمان» ولـ«شقيق رمضان».. وحرق وتهجير القرى..

أليس كذلك؟

- صحيح يا رفيق.

- إذن يجب أن يكون انتقامك أكبر.. ومن أجل الآلاف أمثال «كوت محمد» و«حج أوصمان»، انضم إلى الحياة واهتم بالتدريب، ما دمت قد اتخذت قرارك بالانتقام، ليكن انتقامك أكبر.

التفت إلى دوغان، وأكمل:

- ألن يكون ذلك أفضل؟

- سوف نهتم بتدريبه رفيق، الرفيق خورشيد سيتطور أكثر.. إنه صاحب قرار قوي، ولو لم يكن مقتنعاً، لما اتخذ قرار الانضمام إلى صفوف الگريلا.

- نعم.. اهتموا بتدريبه.. ولا تنسَ أن تؤكد على مسئول التموين الرفيق هوكَر، حين تصل الملابس التي طلبناها، أن يعطي الرفيق خورشيد بدلة عسكرية جديدة.

ثم سأل:

- هل الرفيقة مزكَين مستعدة؟

ذهب الرفيق دوغان برفقة خورشيد، وجاءت الرفيقة مزكَين وقائد المجموعة التي سيرافقها.

- رفيق، نحن مستعدون، وننتظر غروب الشمس.

- كم هو عدد الرفاق الذين سيرافقونكم؟

- ثمانية رفاق وثلاث رفيقات.. إضافة إلى ذلك، لدينا مشكلة مع مقاتل

جديد مصر على المشاركة في العملية.

- مَنْ منهم؟

- الرفيق أردال..

ضحك الرفيق خبات وقال:

- قولي له: أنت لا زلت العسكري مصطفى.. أنت لا زلت غراً.. إنه بحاجة إلى الكثير ليصبح المقاتل أردال.

- قلت له عليكَ بالصبر، ولكنه مصر، ويقول: تدريبي العسكري كاف سأذهب معكم.

- إذا كان مصراً، لا مانع، ولكن بشرط أن تبقيه معكِ ضمن مجموعة الحماية وليس الهجومية، صحيح تلقى تدريبه في الجيش التركي، ولكنه يبقى قليل الحيلة والتجربة كمقاتل گريلا.

- صدقت رفيق، سأنتبه إليه.

- هل تفقدتم أسلحتكم؟

- أسلحتنا دائماً جاهزة، ومع ذلك قمنا بتنظيفها مرة أخرى وهي رشاش «BKC» وقاذف «RBG» عدا الأسلحة والقنابل الفردية.

- تكفي.. أليس كذلك؟ يجب أن تكونوا حذرين، فالمعلومات كما تبدو صحيحة.. الرعاة شاهدوا وحدة الجنود وبرفقتهم الچتى قادمة، وقد تكرر مجيئهم لعدة ليال، ينصبون الكمين عند الجسر.. يجب ألا تنسوا أن الكمين مشترك ما بين الحماة والجنود، قبل أن تصلوا إلى الجسر.. هناك مكان يعرفه الرفيق دجوار، سينتظركم فيه ديندار مع مجموعة من

الميليشيا، وديندار يعرف تحديداً مكان نصب الكمين.

- جهاز اللاسلكي في الوادي لا يلتقط الارتباط معكم. قالت الرفيقة مزگين

- لا يهم فقط كونوا حذرين، ولا تستخدموا اللاسلكي قبل البدء بالعملية.. حسب المعلومات هنالك أجهزة حديثة وزعت على الثكنات، يستطيعون من خلال الترددات تحديد مكان اللاسلكي المتحدث.

أضاف دجوار قائد المجموعة:

- المكان أعرفه جيداً.. هو مناسب للعملية رفيق، إنه يبعد عن القرية حوالي نصف ساعة سيراً على الأقدام، إنهم يأتون بالسيارات إلى نقطة معينة، ثم يتابعون سيراً على الأقدام إلى مكان الكمين.

- كونوا حذرين.. اتخذوا التدابير جيداً.. انتظروا حتى الثانية عشرة ليلاً، إن لم يأتوا فانسحبوا إلى القمم الأكثر إستراتيجية، يجب أن تعودوا إلينا قبل بزوغ الفجر، أكرر، المكان هناك قريب من الثكنة.. قبل إطلاق النار لا تتحدثوا باللاسلكي إلا للضرورة.

تحركت المجموعة بقيادة قائدة الفصيلة الرفيقة مزكَين، يرافقها الرفيق دجوار.. بينما مجموعات السرية حملوا أشياءهم، في ذلك القعر الذي يشبه إلى حد بعيد قدراً عملاقاً، والنار لا يظهر ضياؤها من أي جهة، لذلك يقول القرويون إن نار الگريلا في النهار لا دخان لها.. وفي الليل لا ضوء لها.

مع حلول ظلام الليل، يأخذ الگريلا حريتهم في التحرك والكلام،

ترافقهم النجوم التي تشكل أنهاراً من الذهب، ضمن سقفٍ أسود، أحياناً تظهر بومة جبلية، يشق صوتها هذا السكون، أو ثعلبٌ مريض يشبه نعيقه الطفل الذي يتألم.. حشرات صوتها كصفير، لا تظهر في النهار، وفي الليل تثبت وتعلن وجودها بإصدار إشارات فوسفورية.. حفيف أوراق الأشجار الرقيقة، تتمايل على نسمات هواء الجبل كوبر أرنبٍ بري يلامس الوجوه.

الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة، عندما ارتفع صوت دوي انفجارات من جهة الجسر، صعد الرفيق خبات إلى ذروة عدة صخور.. كان وميض الانفجارات ينير السماء، مثل وميض البرق والرعد، ثم تلتها الطلقات الخطاطة التي بدأت تتداخل متعاكسة الرشقات ترسم خطوطاً كالشرر، الجهاز بيد الرفيق ويدور أوتوماتيكياً على الأقنية المتحدثة، أجهزة العدو في هيجان بالتحدث.

إنهم فوق الرابية يمطروننا بالرصاص، لا نستطيع الانسحاب، أرسلوا الإمدادات فوراً.

يأتي الجواب من الثكنة:..حاولوا.. سنرسل الإمدادات.. قاوموا قليلاً.. اصمدوا..

لحظات ثم انقطع صوت القائد الذي وقع في الكمين، مقر قيادة الثكنة تطلبه: «67،10.. 67،10 جاوب»، ولكن لم يكن هناك أي جواب.

كانت الرشقات قد توقفت من طرف، والطرف الآخر يستمر بصورة جنونية.. لقد غزت الرشقات السماء، ثم بدأت الثكنات من قرية تريان

وثكنة آسكي آروه بقصف تلك المرتفعات بمدافع الهاون، وفجأة توقفت أصوات الرشقات وعاد كل شيء إلى سكونه.

- يبدو أن الرفاق قد انسحبوا يا رفيق. قالت نفل.

كان معظم الرفاق فوق الصخور كجمهور يراقب العملية من بعيد، ولكن لا يوجد ارتباط معهم بعد، الرفيق تيهاف بيده جهاز لاسلكي آخر، يحاول التواصل معهم وهو ينادي باسم الرفيقة مزكَين..

حسب الشيفرة اللاسلكية.. (خلات.. آكَر.. خلات.. آكَر..).

مرت أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، عندما بدأ تردد اللاسلكي المتفق عليه يصدر نقرات، أسرع الرفيق خبات في تناول اللاسلكي وغير وجهته.. كان الجواب عندما نادى: «خلات..آكر..».

- أسمعكم جيداً رفيق «آكر». ردت الرفيقة مزكَين.

- خلات.. كيف الأوضاع؟ هل أنتم بمأمن؟

- الأوضاع على أحسن ما يرام؟ لا تقلقوا يا رفيق.

- كيف وضع الرفاق؟

- الجميع بسلام.. والآخرون أيضاً. تقصد: «الآخرون» المليشيا الذين شاركوا في العملية.

- وعريسنا..كيف كانت معنوياته؟

- على أكمل وجه.. داهية.. نمر.. قسماً نمر..

- بلغوه تحياتنا، وكنا نود أن نلتقي به.. منذ فترة طويلة لم أقابله.

- نعم.. يسمعكم، ولديه الرغبة أيضاً بمقابلتك، عندما تهدأ الأوضاع

كما يقول.

- حسناً فليحافظوا على أنفسهم، هل هناك شيء آخر تريدون قوله؟ نحن نستمع.

- لا.. لا رفيق..لا شيء الآن، هل هناك من تعليمات..؟

- لا، لا داعي للتحدث كثيراً على اللاسلكي.. فقط كونوا حذرين، وانتبهوا إلى سلامتكم.. تحياتي الثورية.

- مع التحيات الثورية رفيق.

الصباح مشرق.. حرارة حزيران تزداد، الرفاق متجمعون بصورة عفوية، منهم من اتكأ على الصخور، ومنهم جالسون بين الأشجار على شكل حلقات، بصورة غير رسمية كعادة المقاتلين بعد تنفيذ عملية.. يقف رفيق أو أكثر.. يقصون لمن لم يشارك مجريات العملية.. ماذا كان دوره.. وماذا فعل.. أو يتحدث عن زملائه بصورة شبه استعراضية؛ في البداية لم نرهم.. القذيفة وقعت وسطهم، وهم كانوا مكومين.. ثلاثة قنابل قذفها.. آه لو لم.. لتصرف الرفيق.......

كانت نتيجة العملية الحصول على ثلاثة أسلحة أتوماتيكية، ورشاش «MG3» مع شريط للطلقات فقط، أما عدد القتلى من الجنود والحماة، هنالك هويات أربعة جنود وصف ضابط، من بين القتلى واحد فقط من الچتى.. جاءوا ببندقيته.. ولكنه غير معروف الهوية.

كانت حوامة للنقل مستمرة في هديرها من الصباح الباكر، تحلق فوق مرتفعات هركَول.. في الساعات الأولى من الصباح كانت جولاتها أكثر

كثافة، هي عمليات كشف واستطلاع قبل أن تنطفئ نيران مجموعات الگريلا، ربما هناك بعض بقايا ألسنة الدخان تتصاعد، محاولين تحديد مكان تعسكرهم.

دارت الحوامة أكثر من مرة فوق نقطة التعسكر بالذات، ولكنها عالية جداً، ومن غير الممكن رؤية الإنسان، إذا لم يتحرك، من ذلك الارتفاع، التدابير مسألة فطرية غريزية لدى المقاتلين، فعندما تحلق الهيلوكوبترات، كل مقاتل أينما كان يبقى في مكانه دون حراك، فيبدون من ذلك الارتفاع وكأنهم صخرة أو جذع شجرة، هذا إن لم يكن هناك بالقرب منهم شجرة ليتموهوا تحتها.

هبطت مروحية من نوع سيكورسكي مرتين في مكان الكمين تنقل الجنود، وعلى المرتفعات المجاورة، الجنود والچتى منتشرون كأسراب الغربان، يبحثون بصورة غير منتظمة، متناثرين فوق الصخور والبقع الجرداء من القمم، ثم بدأت الحوامة التنقل المباشر بين سيرت وثكنة تريان، ثم إلى ثكنة خرخور.

في الاجتماع المسائي.. وبعد إلقاء الشعار المعهود «العهد للقائد»، كانت التعليمات على الشكل التالي:

«على كافة المجموعات أن تستعد، هذه الليلة سيتم تغيير نقطة تمركز السرية، وسنبدأ التحرك مع حلول الظلام».

كلمة السر: «عفرين»، والجواب «كوباني».

- 20 -

الضباب يغطي الجبال مثل ظلامٍ قاتم، ونسمات الهواء نظفت بقايا برودة الشتاء، يبدو أن النسمات التيً تبشر بقدوم الصيف قد قامت أخيراً بتصفية تلك البرودة، بعد انتظارٍ طويلٍ، كانطلاقة مولدات تسخين الهواء تحتاج وقتاً كي تدفع الهواء الحار، هكذا اندفعت النسمات الحارة إلى أن يتفجر التجديد، تتفجر الحياة، روح جديدة من أعماق كابوس الشتاء، ووحشيته القاتلة.

ها هو الربيع يسلم أوراق اعتماده، وراية النصر إلى الصيف، ليكمل المسيرة الأبدية، التي تنهي دوره، فتبدأ من جديد، تتكرر بشكلٍ أزلي ليقوم الصيف بدوره كقابلة لتوليد ما حملته الطبيعة من خصوبة شحنة الربيع، الربيع الذي هو كالفتاة العذراء في اكتمال أنوثتها، الشمس هي الذكر الذي أعطاها الدفء، وصعد واعتلى صهيل الأرض بجبروته الرجولي وبقوته المبدعة الجبارة، كما يعلو الفارس ظهر الفرس، فالحياة تصنع تلك اللحظة، الشمس تعلو وتعلو، فتصنع الحياة وتملأ فيها الرغبة، لتستقر في جسد الربيع شهوة الحياة، ويصبح كل شيء من حوله يموج بالخصوبة، الأرض.. الحيوان، البشر، رغم كل شيء تظل تلك

العين الكاسرة أبدية، يشع منها بريق الأمل والحياة، وتزرع إيمانه الجديد وعقيدته الراسخة.

فوق قرية إركند على القمة المطلة، أعطى الرفيق تيماف مجموعته استراحةً، وجلس مستنداً إلى جذع شجرة، يستمع إلى ما يدور في القرية وأطرافها، فكانت الأنوار ككتل ضوئية تتمرد، متعاركة مع ظلمة الليل، هو من أبناء المنطقة، ويُعرف بين الرفاق باسم تيرامار، أي الأفعى الطائرة، نزقٌ، ذئبي الحواس، ذو معنويات فياضة، لا وجود للتشاؤم والأزمات في شخصيته، إلى جانب كل هذا توجد فيه كل صفات الشجاعة الفطرية، التي يتمتع بها أبناء الجبال، رغم حداثته التي لم تتجاوز العام منذ انضمامه إلى الثوار، سرعان ما اكتسب محبة مقاتلي السرية، وتخطى الترفيع، إلى مستوى قائد الفصيل الثاني.

أسند المقاتلون حقائبهم المحشوة بالذخيرة واحتياطاتهم الفردية إلى الصخور، أشياء خاصة كقطعة صابون، فرشاة أسنان ومعجونها، شفرات حلاقة جاهزة، قليلٌ من ملح، قطع من أحذية مطاطية يبقيها معظم المقاتلين في حقائبهم، لاستعمالها في إيقاد النار في الأيام الماطرة وخاصة في الشتاء، قداحة.. ربما هنالك كتاب، دفتر وقلم أيضاً..

بدت حالته وسط ظلمة الليل، كذئبٍ يراقب من الأعلى ليحدد هدفه، ويهيّيء الأجواء لأجل ذلك، طالٍ مكوث المجموعة، يبدو أن الأصوات والضجيج والصرخات التي كانت تسمع بشكل واضح، تنتشر في أجواء القرية والمرتفعات المطلة عليها، فالأصوات تنداح ملء

حناجرها، بأغانٍ اعتاد على سماعها، فكيف لا يطيل استراحته؟!

فتحت في كيانه لواعج لم يكن يشعر بها منذ فترة طويلة، انتابته موجة من الشوق والحنين، شعر أنه يذوب في بوتقة هذه الصخور، كانت الأغنية رجولية، وتيماف يحفظها عن ظهر قلب منذ طفولته، أغنية تمجد أحد قادة انتفاضة «آروه» في نهايات القرن الماضي.. إنه «بير زدين».. والنهاية التراجيدية للانتفاضة، بارتكاب الجيش العثماني مجازر بحق أبناء المنطقة.. عادت بتيماف الذكريات إلى جده، الذي كان يحدثهم، كيف أن سكان إركند تركوا القرية وهاجروا إلى هذه المرتفعات، سكنوا الكهوف، وكيف اقتاد الجنود العثمانيون المئات منهم، ربطوهم ببعضهم كالحيوانات، وساروا بهم إلى سهل برواري، وهناك حفروا خنادق بمثابة مقابر جماعية لهم، وكان يحدثهم كيف أنه بعد أكثر من عشرة أيام، عندما مر بجوار خندق، سمع أنات الذين لم يسلموا أرواحهم بعد، جرحى مكثوا بين المئات من الجثث الهامدة، كيف انتشلوهم من بين الجثث، والبعض من أولئك بقوا على قيد الحياة إلى ما قبل بضع سنوات، وكيف اقتادوا «بير زدين» وقطعوا رأسه أمام أنظار الجميع، ها هم القرويون وأبناء عائلة جنكيز آغا أولاد «بير زيدين» في قرية إركند، حولوها إلى ملحمة يرددونها الآن على مسامعهم:

Serê Pîr Zêdîn rakin govendê

إلى الدبكة رأس بير زيدين خذوا

Birîna wî xwîna reş jê tê

من جرحه ينزفُ دمٌ قانٍ أسود

Nu çêkirin.. Nu çêkirin

حديثاً شيدوا.. حديثاً شيدوا

Qesra Pîr zêdîn nu çêkirin

قصر بير زيدين حديثاً شيدوا

Kulek û pencere tê vekirin

فيه النوافذ والأبواب فتحوا

Rim li zendê zer ve kirin

بالرماح الزنود السمر زنروا

Sed serî ji Axa jê vekirin

رأس مائة آغا قطعوا

Ava Şêxa Hesp bezandin

ها قد الشيوخ الخيول امتطوا

Rim li ser zendê zer alandin

بالرماح الزنود السمر زينوا

Sed serî ji me firandin

بتروا مائة رأس منا

Dora deştê dengê Şeşxana

حول السهل صوت «شه شخانا» يعلو

Li min xweş tê

يسعدني هذا الصوت

Pîr Zêdîn kuştin şûr dan piştê

قتلوا بير زيدين ومن الخلف طعنوا

Ya li geliya ya li geliya

يا مَن في الوديان.. يا مَن في الوديان

Pîr zêdîn ya li geliya

بير زيدين في الوديان

شجية صوت بنادق «آن آليا»

Xweş tê dengê An Eliya

بير زيدين.. قتلوه غدراً قتلوه

Pîr zêdîn kuştin bê bextiya

- يبدو أنه عرس. قال الرفيق المجاور لتيماف.

- علينا النزول، المدرسة في الجهة الغربية، يجب ألا نذهب من وسط القرية.

ما تزال الحناجر التي تنداح تتداخل، وتتخللها الزغاريد، بدأوا بأغنية:

Ez Xelef im Xelef im

أنا خلف أنا خلف

Ez Xelefê Şûfî me

أنا خلف الشوفي

صاحب السيف الصدفي

Xwedıye Şurê Sedefî me

- أغنية رجولية تثير مشاعر الرجولة في النفس أليس كذلك.. رفيق تيماف؟

- رفيق دمهات.. مكانة «بير زيدين» كأحد أجدادنا وكبارنا.. أصله من هذه القرية، ولكن خلف الشوفي، وهو من عشيرة شوفي، كان مشهوراً بشهامته ورجولته وشجاعته أيام انتفاضة البدرخانيين ضد العثمانيين.

- يعني هذا أنه أيضاً من أبناء المنطقة.

- نعم، كما قلت اسمه خلف الشوفي، أي من عشيرة شوفي.. من قصر جلو.. إلى الطرف الشرقي من مدينة سيرت..

سألت رفيقة مقاتلة:

- لقد سمعت عنه.. ولكنني أفكر دائماً أي رجل كان، ومن أين كانت له تلك الشجاعة الأسطورية؟

- يقولون: مرة سألوا خلف الشوفي.. من أين لك كل هذه الشجاعة.. فأجابهم: عندما كنت شاباً أرعى قطيعنا على أطراف قرية تيرم أسفل جبل قلندرا، كان لدينا كلب وحيد يحمي القطيع، وإذ يهاجم عدة كلاب معاً كلبنا، وما زاد استغرابي هو كلبنا الوحيد شد ذيله كالرمح، ووقف بوجه الكلاب يصارعها، وأجبرها على الفرار.. فكان ذلك درساً لي.. إن المرء إذا امتلك الثقة بنفسه، يستطيع أن يهزم أعداداً كبيرة.

قال نعمان:

- سمعت عنه قصصاً كثيرة مثل ذلك، منها تلك التي كان يذكرها الكبار لنا؛ أنه سُئِل مرة السؤال نفسه، فأجاب: في إحدى الليالي كنت أسير وحيداً في الجبل، فجأةً دعست بقدمي على حيوان، فصرخ صرخة مفاجئة تدخل الرعب في قلب الأسد.. ملكت أعصابي، وقلت في نفسي: لن أرفع قدمي طالما دعسته.. وما إن مددت يدي إليه حتى كانت المفاجأة.. إذ بالحيوان أرنب مسكين.

- إنه تحول إلى بطل شعبي وذاع صيته في أرجاء كردستان.. خاصة بطولاته كقائد في انتفاضة البدرخانيين.. يقولون أيضاً: بينما كان يمكث في كهف، حاصره الجنود العثمانيون هناك، كانوا يريدون قتله، ولكنهم لم يجرؤوا على دخول الكهف، فبدأوا بقطع رءوس الجنود الأسرى، أخذوا يرمونها إلى داخل الكهف، لإدخال الرعب في نفسه ليستسلم، ولكنهم فشلوا وتركوه في حال سبيله.. دون أن يجرؤ أحد منهم على المخاطرة، واقتحام المغارة.. وفي آخر حياته، في شيخوخته، حدث وأن قُتل واحد من أقربائه، فكان يقول وهو أعمى: لو كنت فقط في الستين من عمري، لا شاباً، لو كنت فقط أستطيع رؤية سدادة البندقية.. لما تجرأ أحد من هؤلاء على فعل ما فعلوه..

- القصص كثيرة رفاق.. أمامنا مهمة، رغم الحرب.. ها هم يدبكون.. يغنون.. يتزوجون..

أكمل المقاتل دمهات قائلاً:

- إنها قوانين الحياة.. الحياة لا تتوقف رغم كل شيء.

دون أن يمروا بأي بيت.. أخذهم تيماف من طريقٍ يلتف من أسفل جنوب القرية؛ فهو يعرف كل زاوية من زواياها، فتوجهوا مباشرة إلى بيت يعلو القرية من الشمال الغربي.

وقفوا محتمين بجدران المدرسة، تقدم رفيقان من الباب، صوت امرأة تحاول إيقاف بكاء طفل، وفي الداخل صرخات الأطفال تتداخل، ومع طرق الباب جاء صوت رجل من الداخل:

– تفضلوا.

لم يدخل أحد.. طُرق ثانيةً.. هنا توقفت الأصوات في الداخل، فذلك يعني أن هناك غرباء، لو كان أحد من أهل القرية أو من الأقرباء، لدخل مباشرة بعد الاستئذان، خرج رجلٌ حاسر الرأس.. ما إن شاهد الرفاق، التفت يميناً ويساراً يتفقد بحذر وارتباك جانبي الباب والبيت، أيصدق أنهم رفاق؟ ربما يكونون كونترا(1)، تقدم الرفيق تيماف، فعرفه على الفور، دعاهم إلى الداخل وهو يرحب بهم.

بقي رفيقان في الزوايا المظلمة، على أطراف المنزل للحراسة، أسلحتهم بأيديهم، بينما النجوم كانت ترصع السماء كأنها طلقات نارية فتحت ثقوباً في الجدار الفاصل مع العالم.

(1) كونترا: الاستخبارات العسكرية التركية كانت تشكل مجموعات، من الوحدات الخاصة وحماة القرى والبعض من المجربين، إضافة إلى بعض العناصر الفارين من صفوف الگريلا تم تجنيدهم، كانوا يلبسون لباس الگريلا ويتظاهرون على أنهم گريلا، يخدعون القرويين، للتعرف على المتعاونين معهم، وكذلك ارتكاب أعمال قذرة.. كالاعتداء على الأعراض، إعدام شخصيات وطنية أو من لها تأثير على الوسط العشائري والاجتماعي.. كذلك اختطاف شباب أو فتيات وبعد الاعتداء عليهم كان يتم التمثيل بجثثهم، كل ذلك لتشويه صورة الثوار والإساءة إليهم.

ارتمى الأطفال وراء الوالدين، يختلسون نظرات مليئة بالذعر، محدقين إلى المقاتلين المدججين بالبنادق الرشاشة، التصقوا بالوالدين كما تلتصق الحملان الصغيرة بأمّاتها عندما يداهمها الخطر، والوالد يهدئهم:

- لا تخافوا ماذا جرى لكم؟ إنهم رفاق، انظروا إنه عمكم (لاوند)، هل نسيتموه؟ اذهبوا هيا، اذهبوا سلموا عليهم.

تشجع الأطفال عندما تعرفوا على تيماف ونعمان أبناء قريتهم، مدوا إليهم أيديهم مرحبين بهم.

الأم تراقب بنظرات يتخللها المكر، وتدفع بأطفالها ليرحبوا بالمقاتلين وتقول:

- إنهم ليسوا جنود الأتراك، إنهم رفاق هيا.. هيا لا تخافوا.

لم تمر لحظات حتى عادوا إلى حالة الهدوء، تقدمت فتاة صغيرة توقفت بجانب الرفيق تيماف، فأجلسها على ركبته وبدأ يسألها بلسانٍ طفولي:

- قولي لي يا جميلة.. ما اسمك؟

تجيب الطفلة بتلعثم. خجلة، وبالكاد يُسمع صوتها:

- بيرڤان.

- منْ سماكِ بهذا الاسم يا بيرڤان؟

- عمي.

- هل تعرفين من هي بيرڤان؟

- لا.

- بيرڤان كانت رفيقة مثلنا.. وقد استشهدت في جزرة.

أجابت الأم بنفس المكر:

- سمعنا ذلك، عمهم حدثنا عنها.

أخذ الرفيق النقطة كمفتاح للدخول في الموضوع، أبعد الأطفال وأشار إلى رفيقة لترسلهم إلى غرفة داخلية، ثم التفت إليها وقال:

- إذا حدثكم عنها وتعرفون ذلك.. فعليكم الإخلاص لها يا خالة «زلخو».. أليس كذلك؟ إذا قمنا بخيانتها فماذا يعني ذلك؟

شعر الزوج بأن هنالك أمراً وراء هذه الزيارة المفاجئة، ومعنًى لما قاله الرفيق.. قال بينه وبين نفسه: ليجعل الله وراء هذا الأمر خيراً.. ماذا وراء هذه الكلمات، تدخل:

- هل بدر منا سوء.. لا سمح الله.. رفيق؟ صارحونا.

- لا نريد أن نطيل كثيراً، لأنه أمامنا مهام أخرى كثيرة يا عم، إذا لم تتخذوا تدابيركم سنتصرف نحن.

- بالله عليكم.. ماذا بدر منا؟

- لا بأس..

قاطعه الرفيق تيماف.. وأكمل:

- ليس منك، من زوجتك يا حج كندال..

انتابتها حالة رعب وهلع، حوّلت عنهم نظرها، ولم تعد تستطيع رفع رأسها.

- زوجتي!! ماذا.. ماذا بدر منها؟

- زوجتك وبكل صراحة يا عم.. كانت تتعامل مع الجنود الترك،

عندما كانوا هنا في المدرسة، ولا زال لها علاقة مع بعض الضباط.. أعتقد أنك تعلم أنها بين الحين والآخر تذهب إلى خرخور، ولكن هل لك علم بأنها تذهب إلى الثكنة لا إلى القرية؟

– أعوذ بالله، زلخو؟ والله أنتم أعلم.. أنتم تعلمون كل شيء.

التفت ينظر إلى زوجته بنظرات تقدح شرراً.

– مجيئنا من أجل تنبيهكم.. نعرف ماذا تفعل.. متى تذهب إلى الثكنة، ستقولين أبيعهم البيض واللبن..و.. أليس كذلك؟ إذا كان البيع هو الهدف، فدكان القرية موجود لكل القرويين، أرسليه إلى المدينة، وإلا سنتخذ الإجراءات اللازمة.

نهضوا وعلى الفور خرجوا وتوجهوا إلى الأسفل، حيث غرفة المؤن المجاورة، رافقهم الحاج كندال.

– انظر يا عم، بعد هذا العمر لا نريد أن يحدث لك ولنا أي مشاكل أخرى، لذلك يجب أن تعدنا أولاً بألا تمسها بسوء، وسنتحدث إليها هنا.

– بمَ أعدكم؟ حياتي فداء لكم.. ولكن زوجتي تخونكم.. لا بل تخونني أيضاً.

– لا عليك يا عم.. هون على نفسك، الأمر ليس بهذا السوء.

– أعدكم.. أعدكم، مادام هذا الذي تريدونه.. أنا خادمكم.

– أستغفر الله يا عم.. اذهب أنت ولتأت زوجتك إلى هنا.. سنتحدث إليها.

لحظة كانت بين أيديهم ترتجف، وبصوتٍ حاد سألها تيهاف:

– منذ متى وأنتِ تتعاملين معهم؟ كيف تم ذلك؟ اسمعي أعرفك وأعرف مكرك، أعرفك تخدعين العم كندال.. والمعلومات تصلنا ومن المصدر نفسه الذي تتعاملين معه، هيا اعترفي بنفسكِ.. وإلا أخذناكِ إلى الجبل.. وهناك نعرف كيف نتصرف معكِ.

بدأت تعترف.. انهارت بسرعة غير متوقعة، وهي تقول بصوتٍ مكبوت تخاف أن يسمعها زوجها ونظراتها متوجهة نحو الباب:

– عندما كانوا في القرية وفي المدرسة بالتحديد، كان الضابط آتيلا كل يوم يعطي الأطفال بعضاً من المعلبات، ولعدة مرات تكرر الأمر..

ثم بدأت تنتحب وتبكي وتابعت:

– لم تكن لي أي نية سيئة.. مقابلها أرسلت له بيضاً وأحياناً اللبن باعتبارهم جيرانًا إلى أن تم في ذلك اليوم.

توقفت محمرة العينين وهما تدمعان.

– ماذا في ذلك اليوم؟

– لم يكن أحد من الأطفال موجودا لأرسل له القليل من الزبدة في الصباح، ذهبت لأناوله لأحد الجنود، أقسم لم تكن لي أي نية سيئة، فلم يستلمها من يدي إلى أن أخبر الضابط، فأرسل في طلبي، كانت أول مرة لي ولم يحدث أي شيء، فيما بعد اعتقلوا رجال القرية، عندما سلموا أسلحتهم وتخلوا عن صفة «الحماة»، وكان زوجي أيضاً من بينهم.. فأخذوهم إلى السجن.

ثم توقفت عن الحديث وبدأت تمعن بنظرات المقاتلين والمقاتلات، وعرفت أنهم يصرون على متابعة اعترافها، فتابعت:

- ليلتها جاء هو بنفسه إلى هنا، والأطفال كانوا نائمين وطلب الطعام فقدمته له.

- لماذا؟

- قلت إنهم الحكومة.. لا أستطيع الرفض، ثم دخل إلى الداخل لم أكن أعرف، قال: سأحدثك في أمرٍ هام حول وضع زوجكِ، أغلق الباب لم أكن أتوقع نيته، أقسم لكم.. لقد أجبرني وهددني: إذا رفضت لن نطلق سراح زوجكِ أبداً.. بل سأقتله مثلما فعلنا بالراعي إبراهيم وكوت محمد..

- ولماذا لم تقطعي علاقتك به فيما بعد؟

- وهل أجرؤ.. إنهم يهددوني، يقولون: إذا انقطعتِ عن المجيء، فإنهم سيبوحون بالحقيقة لزوجي.

- هل هو نفس الضابط؟

- لا

- ماذا يسألونك؟

- يسألونني مثل: هل يأتون إلى القرية؟ متى؟ مع مَنْ يتعاونون؟ إلى بيت من يذهبون عادة؟

أخذ الرفيق تيهاف نفساً عميقاً، في الخارج نبح الكلب، ولكنه كان مطمئناً، هناك الحرس، وإن الكلب سيصمت بعد قليل، ماذا يفعل بها،

إنها امرأة قد تجاوزت عقدها الرابع بسنوات؟ أما زوجها فقد تجاوز العقد الخامس ولديهم أطفال.

قال والغضب يتطاير من عينيه

- ماذا تريدين أن نفعل بكِ.. ماذا؟

- اقتلوني.. اقتلوني.. لتغسلوا عاري.

بدأت تنتحب وانهارت تماماً، أصبحت مثل كيس فارغ.. جسد مطاطي لا أكثر، وتحدث الرفاق فيما بينهم يتشاورون، يبدوا أنهم أخذوا قراراً بحقها، فبدأ الرفيق تيماف:

- ماذا تنوين أن تفعلي.. لقد خدعوكِ؟ لنفرض أننا صدقناكِ.

- من أجل الأطفال لا أكثر.. أقسم لكم لن أعود إلى تكرار ذلك.. ولو أحرقوا البيت وهدموه فوقنا.. أقسم لكم.

- اخرسي، لا نصدق قسمكِ.. ما دمت تطلبين أن نعفو عنكِ، هذه المرة فقط من أجل الأطفال لا بأس، ولكن يجب أن يكون بعلمكِ لو تكرر ذهابك ثانية، أو تعاملتِ معهم بأي شكل من الأشكال، سنعلقكِ من رقبتك بأحد عواميد الكهرباء وسط القرية.. هل فهمتِ؟

- أقسم لكم لن يتكرر.. لن يتكرر.

ثم تحدثت إليها المقاتلة شرفين، لترفع من معنوياتها قليلاً.. ولتمنحها بعض الشجاعة، لتقف على قدميها، وكي لا يشاهدها زوجها والأطفال بهذه الحالة المزرية، ذكرتها بعائلتها وشهامتهم وكم هم شرفاء.. العشرات منهم قتلوا على أيدي الجنود الأتراك أيام انتفاضة الملا

عبدالرحمن الخرخوري.

- إنهم هكذا يخدعونكم.. يتلاعبون بشرفكم..

لحظات تشجعت، وعادت تتحدث وتتوسل إليهم ألا يخبروا زوجها عن ذلك الأمر.

طلب الرفاق زوجها وتحدثوا معه ثانيةً.

- زوجتك لم تعد بحاجة أن تذهب وتبيع أشياءها إلى هؤلاء يا عم.. ذلك أفضل.

يراقب ملامح الوجوه، دون أن يستطيع قراءة نظرات الذين تحدثوا إلى زوجته، أو أن يفهم شيئاً مما حدث أو قيل، بدت النظرات له شبه طبيعية، فارتاح قليلاً.. فمن أصعب الأمور.. بل لمن المستحيلات أن يقبل الرجل الكردي أن يأتي أحدهم، حتى ولو كان أخاه، لينفرد بزوجته ويتحدث إليها.. نعم زوجته.. ولكن فقط وفقط.. هنا الأمر يختلف.. إنهم الكريلا، الذين كسبوا ثقة أبناء الجبال نساءً ورجالاً، قال:

- أقسم لكم.. لو ذهبت مرة أخرى سأحطم ساقيها.

- إذن قوموا بتربية أطفالكم تربية صحيحة وسليمة يا عم.

بعد أن أحضرت زلخو الشاي، وبعضاً من الطعام الذي كان خبزا وجبناً بالإضافة إلى عدة أزواج من الجوارب الصوفية، وساعدت أحد المقاتلين لحشر هذه الأشياء في الحقائب، خرجوا وعند توديعهم سأل تيهاف:

- هل المدرسون هنا؟

عاد إليه الارتباك مرة أخرى.. السؤال المفاجئ.. ومن طبع القرويون أنهم يفهمون غريزياً أن السؤال عن أصحاب السوابق يوحي ويعني أن هناك أمراً ما، فدلهم على البيت الذي يسكنونه، وهو يعطي المعلومات:

- أمرهم غريب رفيق، لا نعرف لماذا هم في القرية، حيث لا يوجد دوام مدرسي، ولا تلاميذ يذهبون إليهم.. أصلان متزوج أما الآخر فغير متزوج بعد.

توجهت المجموعة متخفية إلى أطراف ذلك المنزل، وطرق أحد المقاتلين الباب، كانوا يستعدون للنوم على ما يبدو، صاح أحدهم، ثم أطل إلى الخارج، فتملكه الرعب مما شاهد، أشباح رجال مسلحين على أطراف المنزل، وهو بلباسه الداخلي، ودون استئذان دخل المقاتلون إلى الصالون، ارتفعت أصواتهم لحق بهم مساعد تيماف الرفيق شيار.

- البسوا ثيابكم.. سنتحدث إليكم قليلاً.

لحظات وكانوا خارج الدار، فاقتادوهم إلى الرفيق تيماف وهم غير مصدقين، ودون أن يقول لهم كلمة زائدة:

- أنتم ضيوفنا.. سترافقوننا إلى الجبل.

- رفيق غداً هناك دوام في المدرسة.. ماذا سنفعل؟ نرجوكم.. لو كان هناك شيء أخبرونا به هنا.

تدخل الرفيق شيار، وأضاف:

- مدرسة.. ههههه.. ماذا تعتقدون؟ هل نعيش في المريخ ولا نعلم إن كان هناك دوام أم لا؟ يا لكم من أغبياء وحمقى.. اكذبوا على الأقل كذبة

تصدق.. معقول.. يا حضرة المدرس.. قال دوام قال.. كما قال الرفيق.. ادخلوا الرتل بدون أي همسة أو ضجة.

كانت الزغاريد لا تزال تشق سكون الليل، حناجر الرجال من جهة، وتهليلات النساء من جهة، وأصوات الطبل يرافقها المزمار تهز جحيم وحشة الظلام، صدق المثل الكردي القائل حقاً: صوت الطبل من بعيد جميل جدا.

ولكن.. آ ه ه ه ه.. وألف آآ ه ه..

- 21 -

أوراق الأشجار في المرتفعات العالية أيضاً انتهت من مرحلة البزوغ، وبدأت تنمو، وأصبحت عريضة واسعة، وتنساب مستوية التموج مع الهواء المندفع، أطل طيران زوجان من الطيور في مهب الريح، كقطع من القماش الأزرق، واستقرا على شجرة، حيث راحا يتأرجحان ضمن ضجيج من الارتفاع والانخفاض، ويزعقان في الريح، ثم بدأ أحدهما يطير والثاني يحط، ثم يعلو ثانيةً إلى أن استقرا في جوف الأغصان، بالقرب من جذع تلك الشجرة كان أحد المقاتلين، جمع ملء حضنه من الأغصان اليابسة التي حصدتها مناجل الرعاة أيام الخريف، لإطعام الماشية، فقضمت الماشية أوراقها، وبقيت أعواد الأغصان مبعثرة بين الصخور.

وسط بعض أشجار الزعرور، التي تحتضن عدداً من المقاتلين والمقاتلات، بينهم القائد خبات يستمع إلى حديث ديندار، وهو يوضح مجريات ما حدث من الأحداث، بين الحين والآخر ترتفع ضحكاتهم معاً، بينما ديندار توقف فجأةً، وبدأ يلتفت من حوله ثم قال:

- بهار.. رفضت العودة إلى حمو.

قالت الرفيقة نَفَل، ودون أن تستغرب الخبر:

- معها حق، يجب أن تكون كل النساء هكذا، يجب ألا يقبلن الزواج من رجال يخونون شعبهم، ومن ينضم منهم إلى هؤلاء الخونة من الچتى بعد الزواج، يجب أن ترفض الزوجات العيش معهم.. لو تصرفت كل النساء مثل بهار لما بقي هناك لا عملاء ولا حماة قرى الخونة.

- ما وَضْعُ مصطفى.. أأثبت شجاعته يوم العملية؟ سأل ديندار.

أجابت مزكَين:

- في مهمته مع الرفاق لإعداد مخبأ للتموين الذي جلبتموه.. لم أكن أصدق أنه بهذه الحيوية والنشاط.. ففي الحياة العادية يبدو على هيئته بعض الخمول.

- يوم هروبه في تلك الليلة، كم تعبتُ معه.. إلى أن أوصلته إلى الرفيق فرهاد، وفي العودة الله ستر، وقعت في كمين الجنود والچتى، وأعتقد أن حمو بات يعرف علاقتي معكم، وكان يشك أنني من رافقته إليكم تلك الليلة، ولكنه تظاهر ويتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً.

- يجب أن تكون أكثر حذراً، ربما من أجل بهار فعل ذلك.. لا يريد لك الأذية حتى يتم الطلاق بدون مشاكل..

- لا أعرف، ربما، ولكن ما ألاحظه فعلاً لم يعد كما كان، إنه الآن حمو آخر، كان يسير من قبل وسط القرية كالنمرود.

بدأت الرفيقة مزكَين تراجع قائمة التموين التي تسلمتها من ديندار:

«سكر ناعم.. ثلاثة أكياس.

سكر قطع.. كيس واحد.

طحين.. سبعة أكياس.

عدس.. ثلاثة أكياس.

أرز.. خمسة أكياس.

سمن نباتي.. أربعة تنكات.

شاي.. خمسة وأربعون كيلو غرامًا.

ملح.. خمسة وثلاثون كيلو غرامًا.

ألبسة داخلية.. ثلاث وسبعون بدلة.

قداحات.. ست علب كل واحدة بسعة اثنتي عشرة قداحة.

كاسات الشاي.. صندوقان.

توقف ديندار ثانية ولبرهة، ثم قال:

- رفيق خبات تذكرت.. كنت سأخبركم، أن الذي هرب من صفوفكم قبل أيام، جاءوا به إلى القرية.

- القذر عباس.. هل أساء إلى أحد.. أو أعطى أسماء أو ما شابه؟

- لا يعرف أحداً من قريتنا.. لا يهم..

- ما الجديد بخصوص العملية الهجومية على موقع كمينهم. سأل الرفيق دوغان.

- هناك حادثة أخرى حصلت نتيجة للكمين الذي تم على الجسر.

- ماذا حدث؟

- يومها صباحاً انتحرت زوجة أحد المقتولين.

- زوجة الچتى أم الجنود؟

- زوجة چتى، كذلك مات حسو على أثر الجروح التي أصيب بها.. اثنان من الحماة؛ حسو ومندو.

- حسو، أليس هو والد سرتاج؟ سأل الرفيق خبات.

- نعم، أرجو أن تعلموه بهذا الأمر، أما المرأة التي انتحرت فهي زوجة مندو.

- كيف انتحرت؟

- في الصباح.. عندما ذهب القرويون إلى الجسر، رأت زوجها مقتولاً، لم تتمالك نفسها، هاجمت الضابط آروول وفجت رأسه بحجر وسط الجنود وهي تصرخ وتولول، وتقول بدون خوف: إنكم تقتلون أزواجنا، ترسلونهم إلى الموت، وتبقون أنتم في ثكناتكم.. أيها الكلاب ماذا تريدون منا؟ لقد أصبح أطفالي يتامى.. كيف سأعيلهم الآن؟ لماذا لا تبعدون بلاءكم عنا.. يا أبناء العاهرات؟ لم تتمالك نفسها عندها أمسك بها عدة جنود، وانهالوا عليها ضربًا أمام أنظار الجميع، الچتى والجنود وبعض القرويين.. فتخلصت من بين أيديهم، وتوجهت إلى كَرو، وبصقت في وجهه وهي تقول: أيها الأفعى عديم الشرف.. أنت السبب في كل هذا.. أيها الكلب هل ارتحت الآن؟ مندو وقتلتموه، وها هم أولاد العاهرات يضربونني أمامكم يا عديمي الشرف وتبقون متفرجين، آه من الرجال أمثالكم يا عديمي الشرف، لو كان لديك ذرة نخوة وشرف في اليوم الذي اعتدوا على شرفك زينب.. لكنتَ انتقمت منهم.. على الأقل لتركت سلاحهم يا واطي.. انظروا كيف ينقلون جرحاهم وقتلاهم بالحوامات،

أما قتلانا، فها هم على الأرض كفطائس.. كالكلاب.. ثم توجهت إلى حافة الجسر وألقت بنفسها وسط الصخور.

قال الرفيق خبات:

- يا لها من امرأة شجاعة تستحق الكتابة عنها، لماذا لا تكتب عنها شيئاً يا رفيق دوغان.

توقف قليلاً ثم أكمل:

- فعلاً.. إنها تستحق ذلك، لو كان لدي إمكانات لكنت كتبت عنها بنفسي.

قال بصوتٍ هادئ، وقد بدت من نبراته أن الحادثة أثرت فيه تأثيراً بليغاً.

- وما هي حادثة الرعاة؟ يقال إنهم قتلوا أحد الرعاة.. من فعل ذلك؟

- المسألة هي مسألة الكوجر رفيق، قرار منع خروج العشائر الرّحل إلى المرتفعات «الزوزان»، ماذا يفعل الناس بقطعانهم؟ لا مراعي في الوديان.. إضافة إلى الحرّ في السهل.. عشيرتا «دديران - **Didêran** وسوران - **Soran**» جاءتا مع قطعان ماشيتهما إلى سفوح مرتفعات هركَول.. رغم قرار المنع، أرادتا الصعود إلى الجبل.. الجتى برواري والوحدات الخاصة، قتلا أحد الرعاة، وأعادا العشيرتين إلى السهل.

- ولماذا يتم ذلك؟

- المسألة واضحة، يقولون: بيوت العشائر تتحول إلى مأوى لدعم الكريلا، ويكونون خارج سيطرة الدولة في تلك المرتفعات.

سأل الرفيق دوغان:

- ماذا عن الرفيق سرتاج؟ ماذا سنقول له عن مقتل والده.
- دعه.. أنا سأتحدث إليه.

قال الرفيق خبات ذلك، وتوقف مفكّراً، ثم تابع:

- ليأتِ الآن ونخبره.. أفضل من أن يسمع الخبر من أحد آخر.

اختفى الرفيق فرهاد وراء الصخور، وعاد برفقة عكَيد وقلندر، فاحتضنا ديندار وهما يقولان:

- أهلاً ديكو.. أهلاً بالرفيق ديكو.
- ماذا؟ ديكو!.. اسمه ديندار وليس ديكو. قالت مزكَين.
- نعم عندما كان صغيرا أراد أن يسرق أحد ديكة جدي، فأصبح يلقب بـديكو.. اسمه في القرية ديكو.

أعاد ديكو قصة الديك للرفاق.. وهو ينظر إلى أبناء قريته كمن لا يصدق.

- لقد أصبحتم رجالاً.. كبرتم بهذه السرعة.
- من يأكل رغيفاً من خبز الگريلا يكبر بسرعة يا رفيق ديندار.

بعد التطرق إلى الأحوال، تحدث الرفيق خبات موجهاً الحديث لهم:

- للثورة أحكامها يا رفاق.. هكذا هي الثورة.. خاصة في أوقات الحرب يا رفيق قلندر.

عندما ذكر اسمه من بين الجميع.. اندهش من توجيه الكلام إليه.. ومجيء ديندار، شعر بوجود أمرٍ ما، تابع الرفيق خبات:

- في الحرب لا حلول وسطية، إما أن تكون صديقاً أو أن تكون عدواً،

كل طرف معرض للتصفية من قبل الآخر، كذلك هناك واقعنا الكردي المتداخل.. تداخل الشرفاء مع عديمي الشرف، الوطنيون الذين يفدون وطنهم بدمهم مع البعض من الذين يبيعون الوطن بعدة ليرات، بالمقابل هنالك الكثيرون من البسطاء الوطنيين يصبحون ضحية الواقع.

شك قلندر بأن الأمر لا بد وأن يكون متعلقاً بالچتى، ولكنه لم يستطع تحديد المعاني، بل لم يجد فرصة للتخمين، لأن الرفيق استمر يتحدث متابعاً وهو يستمع، كلمة بكلمة.

- في تاريخ شعبنا ترى ذلك ضمن عائلة واحدة، أخ خائن وآخر وطني ثوري.. ابن وطني وأب خائن.. الخال مناضل.. العم خائن.. كل طرف يتمسك بحقيقته إلى درجة كما نعرف، تصل الأمور ليقتل الأخ أخاه أو الابن أباه أو الأب ابنه.. فالثوري الوطني هو الذي يتمسك بقضية شعبه على قاعدة: لو أن عيني ستلحق الضرر بالوطن والشعب فسأقتلعها، يجب أن نكون أصحاب هذه الإرادة، أليس كذلك رفيق قلندر؟

هزّ سرتاج رأسه، وهو لا يعرف ما المقصود بالضبط، أكمل قائده:

- الهجوم على تمركز كمين جنود الترك، الذي تم يا رفيق قلندر عند الجسر، كان من بين القتلى اثنان من الچتى.. هما من قريتكم.. هل لك علم بذلك؟

- لا يا رفيق، منْ هما؟

وهو ينظر إلى الرفاق الآخرين ويراقب نظرات ديندار.

- أحدهما مندو.. ألا تعرفه؟

- مندو! صحيح وكيف لا أعرفه؟

- و الآخر يا رفيق قلندر أصيب..

توقف بعض الشيء ثم تابع:

- مع الأسف أنه كان والدك يا قلندر، ولكنه فارق الحياة على أثر إصابته.

مهما كان، فالدم يبقى دماً، احمرَّ وجه قلندر واصفرَّ، وكاد أن يغمى عليه، بدأ قلندر يبتلع ريقه وصعب عليه الأمر، بل بدأت السماء والأرض تدوران أمامه، احمرت عيناه ولكنهما لم تدمعا، بدا على وجهه المزيد من التعبير عن الرقة والأسى والتعب، قال بتعقلٍ عجيب:

- أنا لست حزيناً على موته، أنا حزينٌ على هذه الميتة التي ماتها بهذا الشكل، كنت أنبهه دائماً، وأقول له: ستقتل في يومٍ ما يا أبي، وسيكون موتك عاراً..

صرخ بصورة غريبة:

- يعني أنا الآن ابن خائن قتل على أيدي رفاقي.

ثم انفجر باكياً والدموع غزت وجهه.. كذلك قال مطبقاً جفنيه:

- لقد واجه مصيره.. واجه مصيره.

- لا عليك يا رفيق قلندر، يكفي أنك اتخذت مكانك بين أبناء وطنك، سنتواصل مع والدتك وإخوتك، وإذا احتاجوا أيّ شيءٍ سنتكفل نحن بمساعدتهم، لأنك أنت صاحب هذه العائلة لا والدك.

- عندما قبضتم عليه في الطريق في بداية فصل الربيع، وجردتموهم من بنادقهم، وأقسموا لكم، لم يتوبوا بعد تلك الحادثة، بل استمروا، ومن

يفعل ذلك مصيره سيكون ما حدث.. لا أستطيع أن أقول شيئاً، الأمر الآخر هو ألمي وتحسري على إخوتي وأمي.

- ألا يوجد أحد مع العائلة؟

أجاب ديندار:

- خاله فقط.. هو أيضاً بيننا في المجموعة يا رفيق.

- إذن تدبروا الأمر واعتبروها عائلتنا، أمنوا لهم كل ما يحتاجونه، أعطوهم مما تجلبونه لنا.

عاد كل واحد إلى مجموعته، بينما ديندار انفرد بالرفيق خبات ودوغان، وقال:

- اليوم أعطانا الچتى الذين يتعاملون معنا بعضاً من المعلومات لنخبركم إياها، هنالك على ما يبدو استعدادات لحملة تمشيط واسعة في الجبل.

- من قال لكم ذلك؟

- نفس الذين سرقوا شيفرة قيادة الجيش وسلموها إياها.. المصدر موثوق.. هنالك أيضاً ثلاثة منهم قد سلموا أسلحتهم وهجروا القرية إلى سيرت بعد هذا الكمين.. الجميع يفضلون هجرة القرية على أن يستمروا في حمل السلاح ومواجهة أخوتهم الگريلا.

- في أي جهة ستكون حملة التمشيط؟ ماذا قالوا؟

- قالوا فقط هنالك تحضيرات، ولكن في أي جهة بالتحديد ليس لديهم معلوماتٌ كافية بعد، ولكنهم وعدونا بإخبارنا فور حصول أي جديد،

هناك حشد كبير في الثكنة، كذلك جاءوا بعدد كبير من حماة القرى الخونة وعلى رأسهم حميدو وأمين زكو.

- ألم يذكروا متى سيتحركون؟

- كل ما فهمته قريباً، ربما الأسبوع القادم..

- لا، ليس أمامنا متسع من الوقت.. تحركهم يبدأ مع اكتمال البدر.. بعد غد سيكون البدر مكتملاً.. يتحركون تحت ضوء القمر.. ولكنك لم تقل لي.. أمين زكو لدينا معلومات عنه، أما حميدو هذا فمن يكون؟ قبل فترة فوق قرية دريشكى خرجوا إلى حملة تمشيط، سمعت أنه كالكلب كان في مقدمة الجنود أيضاً.

- هم وعائلة فارو من قرية بلوريس وأصلهم من غارزان.. في السبعينيات كان حميدو يعمل كدليل وكمراسل مع الحزب الديمقراطي الكردستاني - عراق.. ثم انضم إلى الأشقياء، وكانت قصص الأشقياء تنشر في زوايا بعض الجرائد التركية، تنسب إليه جميعها، سواء ما حدث معه فعلاً أو مع أشقياء آخرين، أو كان من خيال الكتاب.

- تقصد أن شخصية حميدو كانت قد أصبحت بطل زاوية قصص الأشقياء تلك؟

- صحيح، في أحد الأيام التقى الصحفيون بحميدو، يومها حدثت حادثة، يبدو أن الصحفيين لعبوا ببندقيته، وكانت ملقمة، بالضغط على الزناد أطلقت الطلقة، وقتل أحد أبنائه، يومها خاف الصحفيون وتوقعوا أن ينتقم، فكسروا إبرة بندقيته، وفعلاً حاول حميدو عدة مرات أن يقتلهم،

ولكنه لم يعلم ما فعله الصحفيون.. أيضاً كانت شبهة تعامله مع الأتراك تحوم حوله منذ اليوم الذي اعتقلوه مع مجموعته من قبل كلٍ من عبدو الشاوري، وعمر بزك، في أعالي قرية (قوط نيس - qut nîs).. حميدو وجعفر بك «الأصل من مكس»، وقريبه جميل آغا (حالياً) من حماة القرى في مكس - فقه طاهر (قريب حميدو)، فجردوهم من بنادقهم وأخذوهم إلى جسر بلوريس على الطريق بين آروه ومدينة سيرت، فربطوهم بعواميد الجسر وأرسلوا الخبر إلى ثكنة (بانى كم آفى - Gem Avê)..

- لماذا انضم إلى حماة القرى؟

- كما تعلمون، بعد أن أصدرت الدولة التركية مرسوم الإعفاء عن كافة الأشقياء وقطاعي الطرق في المنطقة، مقابل مشاركة الجنود في حملات التمشيط ضد الگريلا وبراتب شهري، للاستفادة من خبرتهم في معرفة تفاصيل تضاريس جبال المنطقة.. بالأساس تشكيلات حماة القرى تمت فيما بعد بشكل منظم، بعد أن وجدوا مدى فاعلية هؤلاء في المواجهات مع الگريلا والتحرك في الجبل.. أول تشكيلة لحماة القرى في كردستان كما تعلمون، كانت هنا في آروه، وذلك بعد تنفيذ الرفيق عكَيد عملية آروه في آب 1984، أول مجموعة حماة قرى كانت من هؤلاء الأشقياء وقطاعي الطرق والآغوات الخونة في آروه..

- صحيح، باعتبار عملية آروه كانت انطلاقة الثورة، أرادوا وأدها.. مع انتشار وتمدد الگريلا في جبال كردستان وفشل جيشهم.. بدأوا بتطبيق الفكرة وتشكيل هذا الكم الهائل من تشكيلات الحماة، إلى أن صاروا اليوم

يجبرون الجميع، ويخيرونهم: إما الرحيل وحرق قراهم أو الانضمام إلى هذه التشكيلات القذرة.

– هل سمعت يا رفيق قصة ابن حميدو الوغد.. إن الله لا ينسى، رفيق، تصور اللغم الذي زرعه الرفاق (شيار – حازم – عارف كوي)، في طريق «بنڤى – Binêve»، انفجر في سيارة أجرة، كان عدد ركابها خمسة، أربعة كانوا من حماة القرى، واحد فقط لم يكن من الچتى، وشاءت الصدف أن يقتل حماة القرى الأربعة.. إلا الذي لم يكن من الحماة فقد نجا بأعجوبة، وبين القتلى كان أحد أبناء حميدو.

– ومن يكون عبدو الشاوري؟

– أيضاً كان واحداً من الأشقياء المشهورين في المنطقة، هو و(عمر بزك)، الذي كان في أطراف جبل كَابار، عمر بزك رفض أن ينضم إلى حماة القرى، هرب إلى زاخو في جنوب كردستان وانضم إلى البيشمركَة، ومؤخراً سمعت أن إحدى بناته التحقت بالرفاق في جبل كَابار، أما عبدو الشاوري فقصته طويلة، رفيق.

– مهما كانت طويلة أمر المنطقة مهم لنا.. كيف كان الناس يعيشون؟ هل هو أيضاً من حماة القرى؟

– لقد قتل منذ زمن يا رفيق.. قصة عبدو الشاوري مأساوية رفيق.. أبوه مات وهو بالأصل كان يتيم الأم، كما يقولون: زوجة أبيه لم تهتم به، كانت تقوم بتعذيبه وظلمه، وصل الأمر به لدرجة لم يكن يجرؤ على العودة والنوم في البيت، وهو في سن طفولته، كان ينام في القرية في الزرائب،

وعلى أسطح التنانير شتاءً، وبين الحقول صيفاً، عندما أصبح شاباً طُلِبَ من أجل الالتحاق بالجندية، لكنه رفض وهرب إلى الجنوب الكردستاني، وانضم إلى البيشمركَة، بعد اتفاقية 6 آذار المشئومة[1]، هرب كالكثيرين باعتبار أنه لم يعد هناك ثورة، عاد إلى المنطقة ثانيةً، ولم يكن قد بقي في هذه الجبال إلا العدد القليل من الأشقياء، أمثال » گفري» – من قرية «سبنا – Sipêna»، وذهب إلى قرية (بلجونا – Biljuna)، خطف فتاة وأتى بها إلى قريته، وقام بأعمال التجارة والتهريب، مثل تجارة الماشية والأسلحة.. ما بين الجنوب وشمال كردستان، وفي أحد الأيام حدث شجار بينهم وبين عائلة من قريتهم من أجل مغارة بالقرب من شاورا، المغارة معروفة باسم مغارة «برا ره ش – Bera reş»، قامت عائلة عبدو الشاوري وعائلة بلال بترميمها من أجل استخدامها كزريبة للماشية، المغارة بالأصل كانت لأهل قرية أرس، وكذلك أمام المغارة هنالك نبع، العائلة الثانية يُقال لها عائلة Mala şêrê، كانوا قد حفروا مجرًى للنبع، ونظفوه ورصفوه بالإسمنت لسقاية ماشيتهم.. تمسكت العائلة بالنبع والأخرى بالمغارة مادام القطيع هناك، شاءوا أم أبوا ستشرب الحيوانات من ذاك النبع، في

(1) وقعت هذه الاتفاقية بين العراق وإيران في 6 آذار/مارس عام 1975 بين نائب الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين وشاه إيران محمد رضا بهلوي، وبإشراف رئيس الجزائر آنذاك هواري بومدين، شكلت حدود العراق مع إيران، ولغرض إخماد الصراع المسلح للكرد بقيادة مصطفى البارزاني الذي كان مدعوما من شاه إيران، قام العراق بتوقيع اتفاقية الجزائر مع إيران وتم الاتفاق على نقطة خط القعر كحدود بين الدولتين، ولكن صدام حسين ألغى هذه الاتفاقية عام 1980، بعد سقوط حكم الشاه ووصول الخميني إلى الحكم، الأمر الذي أشعل حرب الخليج الأولى..

أحد الأيام أرادت عائلة بلال سقاية القطيع، فقام أحد أبناء عائلة شيرى بتحطيم الطشوت وملزمة السقاية.

- يعني القصة أيضاً.. قصة ماشية.. دجاج.. حدود البساتين..؟

- نعم رفيق، هذه حياتنا.. المهم قام الآخرون عبدو الشاوري وإخوته بردم النبع انتقاماً، بالمقابل قامت عائلة شيرى بحرق المغارة.. بعدها في أحد الأيام كانت عائلة شيرى، تسقي القطيع فوق قرية «شكال» ورش الملح للقطيع فوق الصخور، حاول كلٌّ من عبدو وأخوه حقي قتل أحمد، كبير عائلة شيرى، فأطلقوا النار عليهم، أصابت الطلقة أذن أحمد واخترقته إلى صدر أخيه خالد بجانبه، فوقع خالد صريعاً، السلاح كان على كتف خالد، عبدو وحقي استمرا في إطلاق النار، وقف عبدو أسفل مرتفع، بينما أحمد كان غير مسلح، وحاول الوصول إلى البندقية فوق جثة خالد، من وراء صخرة سحب خالد من قدمه، وأخذ السلاح وأطلق على عبدو وحقي النار بدون تسديد، المهم كي يعرفوا أنهم مسلحون ويتركوهم بحالهم.. ثم وجد أحمد الفرصة، فهرب إلى بيت قاسو (مختار قرية شكال).. لاحقه عبدو حتى باب الدار، خرج قاسو لمنعه، وهو يقول له: ماذا تفعل؟ إنه في بيتي.. بينما رد عليه عبدو: قتلت الكلب الصغير، أريد قتل الكبير أيضاً، منعه قاسو، وعاد عبدو الشاوري..

كانت عائلة عبدو من الأغنياء، وكبيرهم كان يدعى موسى بلال، كان معروفاً كعميل للأتراك، كانت العائلة تسلمه قطعانها، فيما بعد طلب موسى منهم أن يسلموا أنفسهم إلى السلطات التركية، على أن يقوم

بمساعدتهم وإطلاق سراحهم.. عبدو الشاوري لم يسلم نفسه، تدخل شيخ محي الدين البصري من أجل الصلح، وفعلاً تم الصلح، وأطلق سراح الجميع، عائلة «شيرى» بقيت في القرية، أما العائلة الأخرى، فقد رحلت إلى آروه حسب شروط الصلح، وفي أحد الأيام صادف أن ذهب محمود بن أحمد إلى آروه، وصادف حينها أن كان حقي جالساً في المقهى كديكٍ رومي متباهياً ويقول: أطلقت النار، قطعت أذن أحمد وقتلت خالد، سمع الشاب هذا الكلام، رغم العداء القديم بينهم، ولكن بعد الصلح كانت المياه قد عادت إلى مجاريها، وكان الشاب محمود ضيفهم ذلك اليوم، تظاهر وكأنه لم يسمع ما قاله حقي، فقال محمود لحقي: أخ حقي لقد أصبحنا أخوة، هل تستطيع أن تؤمن لي مسدساً وطلقاتٍ؟ وفعلاً أتاه بها طلب، وفي الصباح قال حقي لمحمود بن أحمد: سنذهب إلى الحقل لتنظيفه من الشوك هل ترافقنا؟ وافق محمود وأثناء وجودهم في الحقل، لاحق حقي سرباً من الحجل ببندقية الصيد، والآخرون كانوا ينظفون الحقل من الشوكيات، ابتعد محمود بحجة قضاء حاجة، واتجه نحو الجهة التي ذهب إليها حقي، فالتقاه في مكانٍ قريب وسأله: هل اصطدت الحجل؟ أجابه حقي بالنفي، هنا فاجأه محمود بالسؤال: البارحة في المقهى ماذا كنت تقول؟ حاول حقي تشهير بندقيته، ولكن المسدس كان جاهزاً وبطلقة قتله محمود انتقاماً لعمه خالد.. محمود هكذا أصبح من الفارين، التقى بالرفاق الكريلا عدة مرات، ثم التحق به أبناء عمومته ابن خالد عكيد، محسن، صالح، محمد درويش، أخوه عبدالله..

بقي عبدو شاوري وحيداً، فهرب قاصداً عشيرة «باتيا – **Batiya**» عند «يونس حمى».. الذي كان له صهر اسمه صادق «محو باكيتى»، أقامت عائلة شيرى علاقة مع هؤلاء «يونس وصهره»، وفي أحد الأيام حيث كان عبدو الشاوري ما زال نائماً في بيته، قتلوه بالبلطة، ودفنوه في أرض الدار، وزرعوا شجرة كرمة فوق قبره تمويهاً.

– الغدر أيضاً؟

– نعم رفيق.. الغدر.

تجاوز النهار منتصفه، بعد غفوة تحت ظل شجرة سنديان دامت أكثر من ساعة، استيقظ لشعوره بوخزة من البرد، وانتقل لمكانٍ آخر، ليعرض جسمه لأشعة الشمس، لم تستغرق دقائق حتى شعر بحرارة شديدة.. نهض ثانية، وهو يقول: أجواء الجبل غريبة، تتظلّل، فتشعر بالبرد، وتتشمس، فتشعر بحرارة لا تحتمل، أخيراً تمدد بحيث كان نصفه الأعلى تحت ظل صخرة، والنصف الآخر عرضه لأشعة الشمس إلى أن غلبه النعاس.

ها هو ذا استيقظ، وتناول سلاحه واتجه إلى مكان، حيث تجمَّعت مجموعة شيار، ما إن وصل، حتى هبّ المستيقظون من المتواجدين وقوفاً باحترام.

– تفضل بالجلوس رفيق.

وجه كلامه للرفيق شيار قائلاً:

– أين ضيوفنا؟

بينما كان الرفيق تيماف لا يزال مستغرقاً في النوم، إلا أنه استيقظ على أثر

الصوت.

- ماذا جرى لكم!! كم الساعة الآن؟

- انظروا تجاوزت الواحدة.. ما زلت نائماً.. أنت فقط تنام وتنام، لا تعرف شيئاً آخر. كان نوعاً من التوبيخ، حيث نقطة ضعف الرفيق تيماف وتكرارها.

بخجلٍ وابتسامة عريضة على وجهه استقبل ذلك التنبيه ببساطة..

- أين ضيوفك؟

- لتأكل الذئاب هؤلاء الضيوف.

- لماذا؟ هل أتعباكما أثناء المجيء.

- تعب فقط؟ كدنا أن نحملهما على أكتافنا.

- طبعا.. هما مدرسان لم يعتادا على السير في الأماكن الوعرة.

- مدرسان؟ فليذهب أمثالهما إلى الجحيم.. لو تتركوهما لي، لأفعل بهما ما فعله عمر بزك بأحد المدرسين. قال تيماف.

- عمر بزك كان من الأشقياء.. أما أنت فمقاتل گريلا.. أليس كذلك؟

ضاحكاً ثم سأل:

- ماذا فعل عمر بزك؟

- أرسلوا مدرساً إلى قرية بَصرا أسفل كَابار بالقرب من قرية «كَور دلا – Gur dila»، قرية المطربة مريم خان المشهورة.. كان المدرس أحد أعضاء حزب MHP حزب توركيش الفاشي، كان يعلم الأطفال أموراً فاشيةً ولا أخلاقية، مثل كيفية تشكيل شعارهم الذئب، من خلال يد

واحدة.. وذلك بضم أصابع اليد الواحدة الإبهام والوسطى والبنصر.. وإبقاء السبابة والخنصر مفتوحتين لتعطي شكلاً كأذني الذئب.. في أحد الأيام سمع عمر بزك ذلك، فذهب واعتقل ذاك الوغد، وأخذه إلى الجبل يحقق معه، ثم علقه من قدميه بغصن شجرة، وتركه هكذا، كما يقولون، إلى أن بدأ ينسل ويخرج البراز من فمه.. بينما كان يسأله: لم تقل لي أيها التوركيشي.. كيف يكون شكل الذئب؟ أيها أعجبك؟ لديكم أصابع اليد تشكلون شعاركم به، أما نحن فعندما نقبض على ذئب، هكذا يكون شكله.. ثم نسلخ جلده.

- تريد أن تعلقهما أليس كذلك؟ إذا كان عمر بزك من الأشقياء كما تقول بنفسك، حقق معه ومن ثم علقه.. أما عمر بزكُنا المناضل فيريد أن يعلقهما، ولم يحقق معهما بعد.. كيف ذلك؟!

تيماف معروف بتصرفه الريفي المعتاد.

كانت حال المدرسين فعلاً يرثى لها.. من كافة النواحي النفسية منها والبدنية، من الانتظار والخوف والمسير الليلي الذي ربما لم يواجها مثله في حياتهما.. ما إن وصل الرفيق ومعه المرافقون، عرفا أن بين الذين أتوا شخصًا ذا شأن، سرعان ما وقفا باستعدادٍ فيه خنوع على طريقة الجنود في الجيش التركي أمام ضابطٍ كبير.

- تفضلا بالجلوس.

الهيجان يسري في عروقهما، بدأ الرفيق الحديث دون النظر إلى أعينهما، وهما يوجهان نظرهما إلى وجهه:

- ماذا تفعلان هنا.. المدارس تحولت إلى ثكنات، وفور بناء ثكنة خرخور انسحبوا من مدرسة القرية، وفجأة أرسلوكما على أساس مدرسين، وكلنا يعلم ما من مدارس ولا تلاميذ.. إذن من أرسلكما؟ وماذا تفعلان في القرية؟ عليكما أن تفهما أن مجيئكما إلى هنا كان ضرورياً.. أليس كذلك؟

- صحيح.. صحيح. أجابا معاً.

- من منكم أصلان؟

أجاب صاحب البطن المندفع، الرأس الأصلع الخالي تماماً من الشعر، حليق الشارب والذقن، قصير القامة شكله يوحي بضابط أكثر من أن يكون مدرساً، ذو قامة عجفاء مدورة.

- وأنت نصر الدين؟

هو عكس الأول تماماً في مواصفاته، رفيع منحنٍ، كأن رأسه أُلصق بين كتفيه إلصاقاً، ولكنه وسيم الهيئة.

- هناك شكاوى تصدر بحقكما، يبدو أن ماضيكما غير نظيف.. وبالأخص أنت يا أصلان، ماذا درست وأين؟

- درست في ديرسم في المدارس الداخلية يا رفيق.

- تعرف أن تقول كلمة رفيق أيضاً! ولكنك تتصرف عكس هذه الكلمة وهذا الواقع، أنت كنت من أطفال مدارس الكمالية المغلقة أليس كذلك؟

- صحيح.. صحيح.

- على أثر انتفاضة سيد رضا.. ارتكب الأتراك المجازر بحق أهلكم.. الأطفال الذين بقوا بدون عائلات، والبعض ممنْ جردوهم من عائلاتهم

بالقوة، أدخلوهم إلى تلك المدارس المغلقة، التي كانت ولا تزال تشبه الثكنات العسكرية.. نعم قاموا بتتريككم وبتربيتكم تربية كمالية.. يبدو أنك أحد أولئك الأطفال، أليس كذلك؟

تململ أصلان في مكانه وكأن في أعماق نفسه صراعًا مريرًا، وأجاب:

- نفس تلك المدارس.

- لذلك تنكرون أصلكم وشعبكم ووطنكم وتخدمون الكمالية.

- نحن علويون.

- وماذا كان القائد سيد رضا؟ ألم يكن علوياً؟ وأكثر الذين تعرضوا للمجازر ألم يكونوا علويين؟ وأعتقد أنك تعلم هذه الأمور جيداً.. لا يهم يا أصلان..

التفت إلى الآخر وأكمل:

- أنت يا نصر الدين.. يجب أن نعرف جميعنا أن الدين الحقيقي للتاريخ هو المحبة.. أن تحب شعبك ووطنك.. هذه هي طبيعة الإنسان عبر التاريخ.. إن لم نحب بعضنا.. فهل كان من الممكن أن يتواجد مكان للتاريخ والإنسانية؟ أنتم تُعتبران متعلمين في هذا المجتمع، وبدلاً من تنوير أبناء شعبكما، تقومان بفعل العكس.. تتلاعبان بعقولهم.. أليس من المعيب لأمثالكما فعل ذلك؟ أي متعلمين أنتم؟ شريحة من المتعلمين أشبِعوا بروح الكمالية، ثقافة الذين يخونون أصلهم.. هذا بالطبع عيب وإثم كبير.

أراد التحدث مع الرفيق ليختلق الحجج، ولكن الرفيق استمر بنبرة

حادة دون انقطاع:

- لا داعي للّف والدوران.. نعرف جيدًا جوهر المتعلمين أمثالكم، الثكنة تقوم بدورها، وأنتم أيضاً تكملة للثكنة، ولكن بوسائل أخرى.. مدرستكما هذه أسست لتعليم الأطفال فيها، كانت ثكنة عسكرية، واليوم تريدانها ثكنة من نوع آخر، أن تقوما بنفس الدور.. لكن بشكل آخر، لن نطلق سراحكما حتى نتفهم الأمر، إذا ما كانت هناك دراسة في مثل هذه المدارس، فيجب أن تكون بلغتنا الأم، وليست بالتركية والسموم التي تحقنان بها أدمغة الأطفال.. أتعرفان ما معنى الثورة؟ الثورة هي وضع نهاية لنشر السموم في أدمغة شعبنا، عن طريق متعلمين كرد مزيفين من أمثالكما، وإذا تطلب الأمر فلن نكتفي فقط بإغلاق هكذا مدارس، بل سنحرقها عن بكرة أبيها، نبني مكانها مدارس يُدرّس فيها العلم والتاريخ الحقيقي وليس المزيف، وبلغتنا الكردية الأم.. أمثالكما يخجلون من كونهم كرداً، ألا تخجلان من نفسيكما؟ انظرا إلى الحيوانات والطيور.. كل طير يطير مع سربه، ولا يطير مع سرب مختلف عن جنسه.

رفع قائد الوحدة تقريره إلى القيادة حول الوضع بعد أسبوع وجاء فيه:

« إلى قيادة جيش التحرير الشعبي الكردستاني (ARGK)

تحية ثورية وبعد.

نرفع إليكم للعلم والتصديق..

بعد التحقيق والتقصي في قضية المدرس أصلان جوروك، تبين، وبعد أسبوعٍ من التحقيق والمداولة على الأمر، أن المدرس أصلان متورط في

مقتل أحد القرويين، وهو أخ لأحد ميليشياتنا واسمه «مامد»، وتبين حسب اعترافه الخطي أنه أحد كوادر الاستخبارات التركية (الميت) فرع مكافحة الإرهاب.. له يد في حوادث كثيرة، تشبه حادثة مقتل القروي، اعتقال كثيرين من زملائه، بمن فيهم تصفية مدرّسة في ديار بكر، بعد الاعتداء عليها مع مجموعة من منظمة [1] (JTIM) كونها كانت متعاطفة مع الثورة، حصلنا منه على معلوماتٍ كثيرة حول أساليب وطرق خطف الوطنيين الكرد من قبلهم، في مختلف المدن التركية والكردستانية، وكيفية تصفيتهم جسدياً ورميهم في آبار ووديان بعيداً عن الأنظار.. والتي تسجلها الدولة التركية، تحت اسم «فاعل مجهول».

بعد الانتهاء من التحقيق معه وعن ماضيه.. باسم محكمة الثورة، تم الحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص.

أما بالنسبة للمدرس نصر الدين مراد أوغلو.. وإثبات براءته، فقد اتخذ قراره طوعًا وانضم إلى صفوف الثورة.

مع التحيات الثورية

قيادة قطاع كَارسا».

كان نصر الدين كمن استعاد روحه من جديد، له عينان لطيفتان وطلعة بهية وحركاته متحفظة، يسير بجانب الرفيق خبات، وهو يقول:

---

(1) JITM: الاستخبارات العسكرية التركية، منظمة عسكرية خاصة كانت مهمتها تصفية الوطنيين الكرد من شخصيات وطنية، ومثقفين، وحقوقيين، وكتاب.. الإحصاءات الأخيرة باعتراف رسمي من قبل السلطات التركية راح ضحية جرائمهم حوالي 16 ألف شخص، وجميعها دونت تحت اسم (فاعل مجهول).

- لا أعرف استخدام البندقية، فأنا لم أخدم في الجيش ولكنني سأتعلم.

- كلنا كنا هكذا رفيق نصرالدين.. لم نكن نعرف استخدام السلاح، ولكننا أجبرنا على حمله..تعلم استخدامه.

ثم وقف القائد الفدائي فوق صخرة كأنه تمثالٌ من المرمر لأحد عظماء ميزوبوتاميا، ونظره ثابت متوجه نحو قمم هركَول وتابع:

- قمم هركَول بحاجة إلى العلم أكثر من السلاح.. نعم إنها قمم عطشى للعلم.. العلم.. العلم.

- 22 -

اندحرت فلول مملكة الشمس، يبدو أنها لم تعد تستطيع الصمود أمام زحف وحدات جيش القمر، التي هاجمت بأعدادٍ لا تعد ولا تحصى من جنودها التي غطت السماء القاتمة، كتناثر البذور وسط الحقل، ما إن تقوم يدا الفلاح برشها مخرجاً إياها من جعبة كيس البذور الذي بين يديه، ولم يُفهم جيداً إن كان في الأمر اندحار للشمس، أم أن الشمس هي التي كانت الفلاح الذي رش تلك البذور في أوج حقله، وما إن انتهى من مهمته، غادر الحقل وعاد أدراجه للرقود لتجديد طاقته، بينما بدأت تلك البذور تلمع وتتلألأ.

في سكون الليل تنشط الذكريات، وتعود الحيوية إلى المخيلة، حمو يراقب موجهاً نظره نحو الغرب من خلال البوابة، عندما ملّ من النظر، قال في نفسه: ما الفائدة من النظر خلال البوابة؟ لقد رحلت بهار وابتعدت كثيراً، تزوجت وغادرتك، ما الذي تأمله من التشبث بالبوابة؟ حتى بكاؤك وعويلك لن تستطيع سماعهما.

أسقط رماد السيجارة بحكها ببطء على زاوية البوابة، فعل ذلك وعلى مهل كأنه يبري قلماً، بينما ضوء المصباح كان يدغدغ جناحي الفراشة

الصفراء القابعة فوق الجدار، وهي تتعلق بخيطٍ من خيوط الضوء في الزاوية المقابلة للبوابة، كان كَرناس يراقب والده بحيرة من أمره، ينظر إلى عيني والده والحزن بادٍ في عينيه، يقرأ الهموم في نظراته، بين الحين والآخر، ترتعش شفتاه من التأثر والحزن.

يُشّق الصمت المطبق على القرية، بفعل رشقات من الرشاشات ودوي انفجار طلقات منفردة، كأنها تنذر لإبعاد الجن والعفاريت، أي إنذار تعلنه هذه الصرخات النارية؟ صرخات نابعة من الرعب الموجود في أحشاء أصحاب تلك الأيادي التي تأمر، أتعبر عن القوة؟ ولكن أية قوة؟ الليل موحش.. الليل مخيف.. ليته لم يكن هناك ليل وظلام يا حمو.

قاطع كَرناس الصمت، وهو لا يزال فاغراً فاهه ويردد مسعوراً:

– بابا.

– ماذا هناك؟

– لماذا جاءت كل هذه السيارات العسكرية إلى القرية؟

التفت حمو كمن عرف لتوه أنه ليس وحيداً، ما يزال ولده البكر بجانبه لم يتركه، بدأ ينظر ويتمعن في نظراته الحائرة، والحزن بادٍ في عينيه، تساءل ثانية:

– بابا.. أطراف القرية امتلأت بالجنود.. من أين جاءوا بهؤلاء؟

بقي حمو يراقب ارتعاش تلك الشفاه الرقيقة دون أي كلمة، كأنه أصم أبكم، كَرناس يصر على تساؤله:

– بابا.. ماذا سيفعلون؟ عددهم كبير جداً.

يبدو أن حمو قرر أخيراً أن يجيبه، متنازلاً لإصرار ولده، فأجاب باختصار:

- سيخرجون إلى الجبل يا ولدي.

- إلى الذين في الجبل؟

- نعم يا ولدي.

- و هل ستذهب معهم؟

- هكذا أخبرونا اليوم.

لم يستطع كَرناس أن يتمالك نفسه أكثر، فانهمرت الدموع من مقلتيه، كما تنفجر ينابيع هركَول مع إطلالة الربيع، تورد خداه، اللذان بدآ يلمعان ويعكسان خيوط الضوء المرسلة من المصباح، وباختناق بدأ يشهق بكاءً طفولياً، وعندما اقترب منه والده وقرفص ليروّح عنه، حيث مرر راحة يده اليمنى بلمساتٍ خفيفة فوق شعره الذهبي المرسل، قفز كَرناس يحتضن والده، وأخذ يبكي ويصرخ بكل ما يمتلك من قوة دوافعه الطفولية تجاه أبيه، وهو يقول:

- لماذا يا أبي؟ لا تذهب.. أرجوك ألا تذهب معهم.

بحيرة ودون إرادة حمو تدحرجت الدموع من مقلتيه أيضاً، ولم يلاحظها إلا عندما سقطت وتدحرجت فوق ذلك الشعر الذهبي، بينما كَرناس بدا أكثر توسلاً في نبراته:

- أرجوك يا بابا ابق هنا.. لا تذهب هذه المرة.

حمله والده إلى الفراش، وتمدد بجانبه، وهي ربما المرة الأولى في حياته

يشعر بمدى ضعفه أمام أطفاله، وهو يقوم بتغطيته ممرراً يديه على جبينه إلى أن غفا في نومٍ عميق.

السماء الزرقاء تسفر عن وجهها المشرق الوضاء منذ الصباح الباكر، في ذلك الصباح بدا حمو كمن قرر شيئاً، تغمر أعماقه فرحة مكتومة داخل روحه، بعد الإفطار خرج ويرافقه كَرناس، باتجاه بيت عمه شمدين، يراقب أطراف القرية بتلهف، الطبيعة في أوج زهوها وعنفوانها كأميرة تربعت على عرش بهائها.. تغطي المرتفعات حلة سندسية زاهية، ومرتفعات هركَول تشكل منظراً بهيجاً ولوحة من لوحات الطبيعة الخلابة.

كانت عواش قد انتهت من تنظيف أرض الدار من روث الماشية بعد أن غادرتها، وهي جالسة على صخرة الوضوء أمام الباب في فناء الدار أمامها طفل بعمر كَرناس، والدته تمسكه من يديه، بينما عواش كانت تمسك برأسه وتقرب عينه اليسرى إلى أمام فمها، وكأنها تريد أن تقبله من هناك، كانت تبعد جفنيه بإبهامها وتمرر لسانها بينهما، ثم تقول: نعم إنها حصاة صغيرة.. تتعلق برأس لساني ولكنها تعود وتفلت.. مرات ومرات، إلى أن أخرجت لسانها وأبعدت الطفل، بصقت ملتفتة إلى يمينها، ثم قالت: قد خرجت.. إنها قشة وليست حصاة.

أم بهار معروفة في القرية كطبيبة أعين، تجهز العديد من خلطات الأعشاب، تعلمت من والدتها كوراثة.. أما مثل هذه الحالات عندما تدخل حصاة أو أي شيء مشابه عين أحدهم؛ كبيراً كان أم صغيراً، ولا

يستطيعون إخراجها يذهبون إلى الخالة عواش، فتخرجها لهم من خلال تمرير لسانها بين الجفنين، وحول الحدقة وتخرج ما علق بالعين بمهارة تدل على طول خبرةٍ في هذا الميدان.

ما إن وصل حمو وحفيدها، حتى دعتهم العجوز إلى الداخل وقامت مودعة الأم وطفلها، وهي تقول لحمو:

- مائدة الإفطار ما تزال في مكانها يا حمو.

بينما قبلت كَرناس من جبينه بلهفة وشوق، وهي تقول له:

- هل تناولتم الفطور؟ هيا اذهب وشارك جدك.

- نعم يا جدتي..

لم يطل حمو المكوث، عندما همّ بالخروج وحيداً، قالت أم بهار:

- عد عند الغداء لتشاركنا الطعام يا حمو.

- لا أستطيع يا عمتي، بعد الساعة الثانية لن يسمحوا لأحد منا بالخروج من الثكنة.

- متى طلبوكم؟سأله عمه.

- منذ الصباح، والتعليمات هي: أننا اعتباراً من الثانية ظهراً لن نخرج، ومهما كانت الأسباب.. أي بعد قليل يجب أن أكون في الثكنة.

- هل سيشارك كافة حماة القرية في هذا التمشيط؟

- لا يخبروننا عن التفاصيل إلا بعد أن نجتمع جميعاً.. بعدها يمنعون الخروج من الثكنة لكي لا تتسرب المعلومات، ولكن أعتقد أنه سيكون هناك تمشيط واسع في هركَول.

قاطعتهما أم بهار، وهي تقول:

– حذار يا ولدي! لا تكن طائشاً، احمِ نفسك.. لا تفعل مثل حسو، وإياك أن تؤذي أحداً منهم.

بينما تحذره عواش.. قاطعها العم شمدين:

– حمو ليس كما كان يا امرأة.

ثم وجه كلامه إلى حمو قائلاً:

– ليكن كذلك يا حمو، لا تنس أنهم إخوتنا وأبناؤنا، قد صعدوا هركَول لأجلنا يا ولدي.. لا توجه فوهة بندقيتك نحوهم، لتكن مرافقتك لهم شكلية فقط.

بينما كان كَرناس لا يزال يتمسك به مصراً، وهو يقول:

– لا تذهب يا أبي.

أحتضنه جده قائلاً له:

– الأمر ليس بيده يا ولدي، إنه مجبر على ذلك.. اترك والدك.. يوم، يومان وسيعود.

– كلا يا جدي لا أريد أن..!

– ماذا يا ولدي.

– جدي! يوسف هناك.. هل نسيتم؟ إنه معهم في الجبل.. الجنود سيذهبون ليقتلوه.. أنا أحب يوسف.. يوسف يا أبي.

وانهار يبكي بكاءً لم يبكِ مثله قط، حتى حين غادرت والدته المنزل.

هاجت عواطف حمو، زمّ شفتيه، ثم التفت على عجل، وشرع يمسح

ما تصبب على جبينه من عرق.. قرفص وأمسك بذراع ولده، بينما كانت «كَلى» برزت من الباب، وهي تتمايل وتمسح زوايا عينيها مستيقظة من النوم، يبدو أنها استيقظت على صوت والدها وأخيها، أسرعت وقفزت إلى حضن والدها بعفوية، وهي تنادي:

- أبي.. أبي.. أين أمي؟ ألم تعد بعد؟

بدأ الأب بالحديث.. يعدهم، وهو يقول:

- ولدي أعرف أن يوسف هناك، وكل الذين هناك..

تلعثم ولكنه أكمل، وكانت هي المرة الأولى التي يقول فيها مثل هذه الكلمات:

- كلهم بمثابة يوسف، أعدكم بعدما أعود من هذا التمشيط سينتهي كل شيء، وسنفعل ما تريدون، لن أعود إليهم بعدها، سأرد إليهم سلاحهم، وسآخذكم مع أمكم وسنذهب ونزور عمكم خليل، وأنت يا كَرناس سنذهب معاً إلى بيت عمك خليل، لقد كبرت وبلغت سن التعليم.. ما رأيك؟

تلعثمت » كَلى» متسائلة:

- وأنا يا أبي.. أنا أيضاً أريد أن أذهب إلى المدرسة.

- أنتِ أيضاً يا صغيرتي، ولكن لتذهبي مع جدتك لزيارة أمك.. أنتِ والصغير.

- أنا ويوسف الصغير يا أبي؟ ألن يأتي كَرناس أيضاً؟

- نعم أنتِ ويوسف الصغير ابقيا عند أمكما يا جميلتي يا «كَلى» الحلوة.

- أبي متى ستعود ماما ونذهب إلى بيتنا؟

عاد حمو إلى الداخل، كان يوسف الصغير يقظاً في المهد، يلعب بالخرز المتدلي من فوق رأسه من مقبض المهد، ينظر إلى الواقف المطل عليه من فوق، يناغي ويحدث والده بلغة الأطفال، بدا لحمو أنه يعاتبه على أفعاله، وفعلته الأخيرة لتسببه في حرمانه من دفء حضن أمه، ويقول له: أنت السبب.. أي أبٍ أنت! أنت السبب في بقائي محروماً من حضن أمي.. أنت..

لا أحد يفهم لغته، فقد كان يلعب بفرح بحبات الخرز التي تتمرد بين أصابعه، ومن بين شفاهه تختفي تارة بعض الحبات في فمه، وتتمرد وتخرج تارة أخرى، وكأنها بديلٌ لحلمات ثديي أمه التي افتقدها، بدا أكثر فرحاً عندما انحنى حمو وقبله قبلة دافئة، وخرج وهو يودعه بنظراتٍ مليئة بالحسرة والحيرة.. فجر الرضيع دفعةً واحدة كل المكنونات من مشاعره.. كل شيء فيه قد عاد للانبعاث.. ولأول مرة كان انبعاثاً في عمق الأغوار.

عندما خرج، قالت عمته ثانية:

- سآخذ «كَلى» والصغير إلى أمهما، سأتركهما معها ليبقيا هناك، أرجو ألا تسيء الظن يا ولدي.. أنا لست متضايقة منهما، ولكن يجب أن يقضيا وقتاً مع أمهما، حرام.. ما زالا طفلين يا بني.. بعد أن تعود سنجد حلاً يا ولدي، ليكن إيمانك بالله..

توقفت لبرهة بينما حمو شارد الذهن.

- ماذا قلت يا ولدي؟ هل أنت موافق؟ سألت لتتأكد.

- كما تشائين يا عمتي، ليكن ما تريدين.. طالما لا مانع لدى ديندار.

عاد حمو إلى بيته، ولبس صدرية المخازن، وبندقيته تتدلى من فوق كتفه، خرج يسير كمن يعود من معركة خاسرة لا نحوها، يتابع بخطواتٍ متثاقلة باتجاه الهنغارات التي تتلاعب فوقها قطعة القماش الحمراء، التي يتوسطها الهلال الأبيض والنجمة البيضاء، قطعة القماش المتشققة تلك، وكل ما حولها من أبنية على اختلاف مع الطبيعة المحيطة من قمم هركَول، الوديان السحيقة وبيوت القرية، تلك الأبنية على شكل علبٍ كرتونية، كانت أجساماً دخيلة وغريبة عن هذه الطبيعة الفطرية، التي تحافظ على ملامح بساطتها العفوية، على الرغم من الوحشية البدائية، بيوت القرية، ورغم لمسات الإنسان، هي أيضاً تبدو وكأنها صخور تدحرجت واستقرت كيفما شاءت الطبيعة، وبهذه الصورة دون أن تلامسها الأيدي، أو تكون سبباً في وضعها الحالي، أما هذه الأبنية العملاقة ودقة بنائها، وأشكالها الهندسية، فلا تتلاءم والواقع، لا علاقة لها بهذه الطبيعة.

الثكنة تعج بالجنود من على تلك الرابية المطلة على القرية، والتي تشكلت على شكل هضبة في جسد هركَول العملاق، كانت تلك الأبنية تئن تحت أقدام الأحذية الثقيلة، جنود وحماة يتنقلون سريعي الحركة وبعصبية، تبدو في نظراتهم علامات فيها نوع من الضياع والارتباك المعنوي، جنود الثكنة الأساسيون وحماة هذه القرية بالذات، أصبحوا ضائعين تماماً وسط زحمة أرتال الجنود والحماة القادمين، الجنود ذوو الألبسة المبرقعة وعلى صدورهم شارات الوحدات الخاصة (كوماندو الجبال)، ألبستهم

المبرقعة تلك تبدو وكأنها مضرجة بالدماء وليست بالألوان، ليست إلا علامة تدل على أيديهم الملطخة بدماء الإنسان، دماء أبناء هذه الجبال، الوديان والانهيارات الصخرية على أطراف هركَول تعبر عن غضبه وزمجرته، وهي تراقب أحداث بدء تلطيخ ألبستهم تلك بدماء هؤلاء البؤساء.

ها هو الربيع على مشارف تسليم مهمته إلى الصيف في هذه الوديان، عادة يمر الربيع بسرعة في السهول والوديان السحيقة، بينما يكون في بدايته على سفوح الجبال، أما أوج تلك القمم، فما يزال يحافظ على حلته البيضاء، تغطيه الثلوج، هركَول الجبل الذي يضم الفصول الأربعة من العام، السهول والوديان في صيف حار والشمس حارقة، أشعتها تلسع الأرض وتلهبها، بينما على أطراف الجبل وفي المنحدرات ما يزال الربيع في أوجه، والطقس على أطراف القمم ما يزال خريفياً.. أما ذروة القمم، فهي في أربعينية الشتاء، تلتحف بالثلوج كعمامة رجل عجوز.

في فترة الصباح كان قد تم توزيع المواد الغذائية والذخيرة على الجنود والحماة، بعد الظهر كان الجنود والحماة وسط الساحة كجذوع في غابة محروقة، انتصبوا بنظام في الأرتال، عندما حطت مروحية من نوع سيكورسكي، ترجل منها جنرال يرافقه عدد من الضباط، تلمع الزخارف على البزات العسكرية التي يرتدونها.. ضخم الجثة، مفلطح وأصلع الرأس، كان جبينه يتصبب عرقاً، وحاجباه الكثيفان يرتفعان تارة وينخفضان أخرى، وساقاه الواهنتان كانتا ترتجفان ببطء واسترخاء.

فور أن حطت على الأرض، سبق الجنرال كَلبهُ الألماني، الذي ما إن وطئت قدماه الأرض حتى بدأ النباح.. وصل إلى كلبه يسير معه متجاوراً، حتى ذلك الحد الذي يبهج الجنرال، حين يراه بهذا الوضع مع حارسه الخاص، داعب فروة رأسه، فزاد انتشاء، وكأنه يوعز بالاستعداد والانتظام في الأرتال.

تقدم آروول ليقدم الأرتال العسكرية، ارتفع صوتٌ صلد، أجش، يثقب طبلتي الآذان المرهقة بكلمات:

- آلاي.. كوماندو الجبال على أتم الاستعداد وتحت إمرتكم سيدي القائد.

تبادلا التحية العسكرية، وتقدم الجنرال نحو الأرتال، تلك الجذوع المحروقة، وصرخ بصوت جهوري:

- مرحبا أيها الجنود.

أجاب الجميع بصوت واحد تردد صداه في الوديان:

- (بالتركية «Sag öl»)

- كيف أحوالكم؟

كرر الجميع الجواب الروتيني نفسه:

- (بالتركية «Sag öl»)

ثم بدأ يذرع البقعة الصغيرة أمام أرتال الجنود والحماة ذهاباً وإياباً، واضعاً إبهاميه تحت الحزام العسكري متباهياً، وسط الساحة متمنطقاً مسدساً محشواً في جلدٍ لماع، انتصب الجنرال وتحركت يداه.. يخطب فيهم،

فبدا على تلك الرابية، وهو مستمر في خطابه للجنود، كأنه قُرّاد يمتص دماءهم:

أمامنا مهمة، والجندي وُجِدَ لتنفيذ المهام.. مهام الجنود مقدسة.. مهمة الجندي هي تنفيذ تعليمات قائده واتباعها دون أي تردد، واجبه في هذه المهمة هو أن ينفذ الأوامر، وينصاع لها بكل انضباط، وكل من يخالفها يعرف العواقب.. وتعرفون المثل القائل: الأمر يقطع الحديد، هكذا هي الأوامر العسكرية، الكل ضمن صفوف هذا الجيش يعرف ماهيته، وأينما كنا لنكن.. أمامنا مهمة.. مهمة خدمة الوطن ولا شيء غيرها يشغلنا، هناك من اعتصموا في الجبال، ويريدون أن يجزئوا هذا الوطن.. بدعم ودوافع وأهداف خارجية، حفنة من الحفاة يجب أن نعرف كيف نقوم بتأدية واجبنا، «T. C» وطن كبير وعظيم.. عظمته تكمن في جيشه، ونحن الأتراك نفتخر بتركيتنا.. تركي واحد يعادل العالم كله.. فكيف إذا كان هذا التركي مواطناً من أمثالكم؟ جندياً وحامياً لهذا الوطن.

توقفت ذلك القُراد لبرهة، كأنه ارتوى، مكور الجثة كالقُراد الذي تورّم وانتفخ نتيجة امتصاصه الدماء، مرر مقدمة لسانه الوردي على شفتيه، يلعق بقايا الدم عليهما، تابع:

- سنقوم بتنظيف هركَول من أولئك الإرهابيين، إنهم عصاة وخونة للوطن، هذه ليست المرة الأولى التي يواجه فيها هذا الجيش البار أمثالهم.. تعرفون كيف كانت نهايتهم في كل مرة تمردوا فيها على دولتهم العظيمة أو حاولوا التمرد.. وهذه المرة ستكون نهايتهم كنهاية أجدادهم، يبدو

أنهم نسوا ما جرى لمن سبقهم في هذا.. هذه الأرض تركيا وكل من يعيش عليها تركي.. «وطن واحد، شعب واحد، علم واحد».. وكل من يدعي غير ذلك، هو خائن مثل أولئك الإرهابيين، مشيرا بيده نحو قمم هركَول، أولئك الذين سنقوم بتلقينهم الدرس المطلوب في الساعات الأولى من صباح الغد، يجب أن نحرق بذورهم.. فلتكونوا على أتم الاستعداد.

يتابع وهو يحاول بشتى الوسائل المحافظة على رباطة الجأش التامة في حديثه، والأعين ذات النظرات الغريبة متجهة نحو تلك الكتلة التي تتدحرج يميناً وشمالاً، وتنزلق من مكان إلى آخر، وهم متسمرون في أمكنتهم، يستمعون إلى الكلمات التي بدأت تؤلم طبلة الأذن، لتكرارها منذ الساعة التي حشروا فيها أجسادهم بهذه الألبسة الملطخة بالدماء.. بقوا يستمعون متحجرين في أماكنهم منذ اللحظة التي حطت فيها الحوامة، وانهال سيل الكلمات عليهم إلى أن عاد ذلك القُراد من حيث خرج، وحلقت إلى أن اختفت.

الجميع على استعداد، أصبحت الحقائب محشوة حشواً، لتصبح أحمالاً ثقيلة للجنود، وبدأت مرحلة القلق والانتظار، انتظار مرور الساعات، أسند جندي ظهره إلى حقيبته، وبدأ يتصفح ألبوم صور، فتوقف عند إحدى صفحات الألبوم يراقب صورة له وهو وسط عائلته، يبدو كمن يلقي النظرة الأخيرة.. يودعهم.. يريد أن ينسخ ملامحهم في ثنايا ذاكرته.. إنه يتعجب من نفسه؛ كيف كان قبل أن يدفن جسده في هذه الألبسة؟! ذكريات.. ذكرياته تعود به ليتذكر اللحظات الأجمل والأكثر ألماً من أيامه

معهم، طفولته.. أيام الشباب، لم يستطع التحمل أكثر، فقلب الصفحة، وها هو مع إخوته، أخواته، أصدقائه.. لقطات من حياته، وأخيرا استقرت عيناه على صورة، أمعن النظر فيها مطولاً، ولم تكفه النظرات، فضمها إلى صدره، ولم يكتفِ بذلك، بل سحب الصورة من الألبوم، وألصقها على شفتيه، يقبل قطعة الورق المقوى تلك بجنون، ولم يبدِ أي حراك، عندما ناداه جندي بجواره وهو يكتب ويقول:

– أصلان.. ماذا حدث؟ صورتها مرة أخرى؟ ألا تشبع من النظر إليها وتقبيلها؟

أعاد الصورة باعتناء إلى مكانها والتفت إليه قائلاً:

– لا يا سليم.. لا.. لا أشبع، أنت لا تعرف كم اشتقت إليها.

– هل تحبك بهذا القدر يا أصلان؟

– آه لو تعرف يا سليم، كم أتمنى أن أتخلص من هذا اللباس، قبل أوان الساعة.. فهي تتمنى عودتي أكثر مني، وهي بانتظاري في شوق.

يتابع سليم:

– هكذا هي حياة الخدمة العسكرية، الثواني تصبح ساعات، والساعات أيامًا، والأيام أشهراً، والأشهر أعواماً.

– هل سبق وكتبت شعراً يا سليم؟

– لا، أكتب رسائل فقط.

– لمن؟

– إلى أمي، أمي التي ترملت عندما كنت صغيراً، قُتِلَ والدي في حرب

قبرص، وها أنا الآن في هذه الجبال وسط هذه الحرب «هركَول أو فيتنام المصغرة».. ومن يدري ماذا ينتظرني؟ ربما نفس مصير والدي.

- من يدري يا سليم.. من يدري؟ ومن يهتم؟ اللعنة على هذه الحرب.. كل يوم يُقتَل أمامنا العشرات.. ألا يوجد من حل آخر؟

وضع سليم يده بخوف وارتباك على فم أصلان، وقال بهلع:

- اخفض صوتك.. ربما يسمعنا أحد.

انقطع حديثهم عندما انبرى أربعة كلاب ضخمة، والأطواق في رقابها، ترافقها مجموعة الكلاب الخاصة.

- 23 -

شقائق النعمان والسوسن النابتة وسط الصخور اصطبغت بزهور ذات ألوانٍ براقة وجذابة، وسط الوحدة المؤلفة من أبناء هذه الجبال، الذين تشربوا عشق الحرية والانعتاق، وهاموا بها حباً، فتحولت إلى علامات الجرأة والبسالة، علامات من الحيوية والنشاط، تومض من عيونهم ومضات البرق، يزدادون إيماناً وقوة وشموخاً، يتآلفون مع الطبيعة ويتبادلون معها الروح.

في تلك اللحظات لم تكن ملامح الوجوه في هدوئها المعتاد، فالنظرات تقدح شرراً، والأيدي متشبثة بالأسلحة، مجتمعون وسط الأشجار المنتصبة في المكان الذي حدده الضابط المناوب، تقرأ من ملامحهم أن هناك شيئاً ما، يدل على أن الأوضاع غير طبيعية، خاصة بعد مجيء ديندار العاجل، يرافقه شخص لم يسبق لهم أن رأوه، ثم إن الحقائق لا تخفى على المقاتلين، لأنهم يفهمون الأمور من خلال النظرات، ومهما كانت الأمور فلتكن، فهم لها، وها قد حان موعد الاجتماع المرتقب في الصباح.

لم تمر دقائق على الانتظار وهم جالسون، حتى برز الرفيق خبات بعد أن حياهم التحية المألوفة في حياة التنظيم، والتي تكون ثقيلة عادة لفرضها

جواً من الصمت المطبق، ودون أن يطيل، اتجهت نظراته إلى الأرض التي كانت تغطيها عشرات من ألوان الزهور، بعد الوقوف دقيقة صمت على أرواح الشهداء، ودون أي مقدمة بدأ حديثه:

- تأملوا الآن فوائد هذا الاستقلال، أو هذه السيادة الفكرية إذا شئتم، تجدون أن الذين أولِعوا بالاستقلال، وشغلتهم الحرية عن باقي الأمور الاجتماعية هم المتفوقون، وهم الذين يرفعون رءوسهم عالياً، ويحطمون أكبر الرءوس وأصلبها.. يسيطرون على كل مسيطر، ولو كان متفوقاً عليهم في القوة العسكرية والمادية.

ذلك لأن الحر في رأيه عفويٌ لا يبالي بالكسالى والمتهاونين مع الأعداء وسخطهم، كلامه وحركاته وسكونه وأوقاته إلى جانب قراراته بعيدة عن إرادة الآخرين، ولا تتعلق باستحسانهم، ولا تتأثر باستخفافهم.. فهو لا يقضي أيامه في استهواء غيره، واستجداء الثناء وطلب الإطراء.. إنما يعمل بكامل قواه على تحقيق ما رسمه لنفسه، خطة استوحاها من حقيقة واقعه الاجتماعي والطبقي المتعايش والتي تحولت إلى فكرٍ، بكل تأنٍ وروية، في جوٍ من الحرية.

كانت الزهور تهتز جذلى، وكأن الخطاب موجه إليها لا لغيرها، أو لعلها أصابها الغرور والاعتزاز، لأنها هي التي تزين أرض هؤلاء المقاتلين الأحرار، بينما نظرات الرفيق خبات تتجه إليها، ولكن هل كان يشعر بما تشعر به تلك الزهور؟ أو أنه يستمد الإلهام منها في إعداد كلماته وجمله، لإيضاح الواقع والمهام المنتظرة، بصورة حركية خفيفة جذابة، انتقلت

نظراته إلى الجالسين على شكل نصف دائرة، مثل سرب من النسور، وكأنهم في استراحة اعتيادية، وتابع:

- نعم.. ذلك صحيح.. نحن الكرد لا أصدقاء لنا سوى هذه الجبال، في خطواتنا الأولى نزرع بذور استقلال سيادتنا الفكرية، لا مكان لزرعها إلا في هذه الجبال، في هذه الجبال وحدها يمكن تحقيق الشخصية المستقلة، باستقلالية اتخذتم قرار المواجهة، دفعونا إلى هذه الحرب.. لكل واحد منكم دوافع مسيرته الفردية، ولا غاية وراءها، فهي معادلة تكاملية مع الجبال، هم أصدقاء الكرد وسندهم.. فليس لنا هَمٌّ إلا تحقيق أغراضنا السامية.. الگريلا لا تهتم أبداً بتقديرات وإطراءات الآخرين، إن الاستقلال الفكري يحوي ضمنياً شيئاً من الانطوائية، شيئاً من الانعزال، لا يعني الصعود إلى الجبال، والابتعاد عن المجتمع الذي يرزح تحت نير الاستعمار، كما كان بعض الخونة يقولون، ويتهمون مسيرة العودة إلى المنبع، وقرار الصعود إلى الجبال للبدء بخوض هذا النضال، فكانوا يصفون الرفاق من الرعيل الأول الذين اختاروا العودة إلى أرض الوطن، وصعود الجبال والمواجهة بدلا من الهرب والتوجه نحو ساحات أوروبا.. كانوا يصفونهم بالوحوش، يهربون من المدنية.

هذه الجبال قلاعنا المتينة الطبيعية التي كانت ولا تزال السند لوجودنا القومي.. كما تتفتح هذه الزهور، وأشار بيده إلى الأرض التي تزينها، كيف تفتحت؟ إنه إبداع هذه الجبال، لقد خلقت من تفتت الأزهار، التي اهترأت وماتت في مواسم ماضية، ولم تبقَ منها إلا البذور، ونحن نمثل

تلك البذور.. إنه التاريخ الذي خبأه الزمان في أغوار هذه الجبال، ليتبرعم منها مجتمع كردستان المستقبل.

توقف لبرهة، كانت الأزهار تبدو باهرة تحت الشمس، التي تمر أشعتها من خلال الثقوب المتواجدة على أوراق الأشجار، كالغربال بخيوطها، وتابع:

- لا يعني ذلك أي احتقار لفكرٍ آخر، أو استعلاء على ما يقدمه غيره من تجارب وآراء، وإنما هو في هذا المنحى حرب من الاستعداد للمعرفة واستخلاص العبر، والنتيجة التي نصل إليها هي أن الاستقلال الفكري أداة فهم ووسيلة عمل وطريقة للخير، الطرق الخيالية.. الوهمية.. يجب أن نكون واقعيين.. فالأفكار الخيالية تضل وتضلل صاحبها، يجب ألا تدفعنا الأمور إلى الاستنتاجات غير المنطقية، والاستبداد بالرأي، لأنه كما يقال: من استبد برأيه فقد هلك.

بدأ يتمشى صامتاً وبتر سنبلة عشب بري، وبدأ يبرمها حول سبابته وإبهام يده اليمنى، حركاته أصبحت شبه عصبية، ساد الصمت، والآذان مرهفة تلتقط الكلمات، هنا تطرق إلى الموضوع بأسلوبٍ عسكري جوهري في المخاطبة، مختصر.. واضح.. وكأن الذي كان يتحدث قبل لحظات كان شخصاً آخر، بينهما كل الاختلاف في الأسلوب والخطاب، تابع حديثه قائلاً:

- كما تعلمون كان لدينا في الصباح الباكر بعض الزوار، وحسب المعلومات هناك تحضيرات لحملة تمشيط واسعة، غداً أو بعد غد سيبدأون

التحرك بعملية التمشيط، حسب تحضيراتهم تبدو أنها ستكون شاملة، أي لن تكون كسابقاتها جزئية، يسمون هكذا عمليات بـ«التنظيف»، الهدف منها حسب ما يخططون هو إخلاء الجغرافية التي يستهدفونها كاملة من الگريلا، في الفترة الأخيرة وبعد قفزتنا الربيعية الناجحة، الأمور تعدت الگريلا، فقد بدأوا باتباع سياسة الأرض المحروقة على أطراف «شرناخ»، بدأوا بتهجير القرى وإحراقها، والهدف منها هي السياسة المتبعة بما يسمى «تجفيف الماء لاصطياد السمك».

التطورات السياسية الأخيرة أوقعتهم في مضايقات دولية، خاصة الوعود التي يطلقها الجنرالات والساسة الأتراك بين الحين والآخر لحلفائهم، بقولهم دائماً: (في الربيع القادم سنقضي عليهم.. هذا الربيع هو الأخير..).. وعودهم أصبحت وعوداً فارغة لا معنى لها.. خاصة مع تغييرنا التكتيكي وآلية أماكن تمركزنا في الجبال.. مرحلة الثورة أصبحت متقدمة، لذلك قيامهم بحملات التمشيط هذه متوقعة.

تابع خطابه على نطاق فعاليات المنطقة، وبالأخص منطقة «هركَول»، قائلاً:

- إلى الآن نشاطاتنا في المنطقة جرت بتكتيكات متنوعة، لقد أوقعنا بالعدو وجعلناه يأخذ حالة الدفاع، ولم تعد قواتهم تستطيع التحرك بوحدات صغيرة، لدينا الليل بطوله ونصف النهار، إذا لم تكن لهم تحركات مع الفجر، لن يجرؤوا على التحرك بسهولة بعدها.

تكتيكاتنا العسكرية السابقة مقابل حملات التمشيط.. اعتمدت على

المناورة وتفادي الاشتباك في النهار، ولكن في هذه الحملة سنتبع تكتيكاً آخر، مختلفا عن سابقيه، ليخرج العدو ومع كل خطوة يتقدمونها سيدفعون ثمنها غالياً، جغرافية هركَول مناسبة لخوض مناوشات قصيرة جداً ومن ثم الانسحاب السريع، على شكل كمائن مع كل خطوة يتقدمونها، نحو كل قمة وكل مرتفع، ستكون هناك فاتورة يدفعونها.

من ناحية قواتنا.. فالسرية التي ستتوجه نحو ولاية (كَرزان) قريبة منا، وستنضم إلينا الليلة، كذلك مقر القيادة في منطقة (بستا)، أرسلت «الوحدة الأم»[1]، وهي في طريقها إلى هركَول معاً.

سنقوم بنصب الكمائن في الممرات والطرق، وبالأخص في المنافذ.. والتمركز في القمم الإستراتيجية، لمنع عمليات الإنزال الجوي خلف خطوطنا.

ودون أن يتريث.. أجاب عن تساؤلات بعض الرفاق والرفيقات، عن الجوانب التي لم تكن واضحة بالنسبة لهم، ثم أنهى الاجتماع.

لم يكن قد مرّ على إنهاء الاجتماع إلا ساعة واحدة، حتى كانت الإدارة في اجتماعها الطارئ، بدأوا بتنظيم الوحدة وفرزها إلى فصائل خفيفة، مهامها حسب التكتيك الذي سيتبع، أما النقطة الإستراتيجية في أعلى

---

(1) وحدة الأم - بالتركية Ana Birlek: عبارة عن سرية تتشكل على الأغلب من ثلاث فصائل من المقاتلين، عدد مقاتلي كل فصيل ما بين العشرين إلى الثلاثين مقاتلاً ومقاتلة، مقاتلون أشداء وقادة ذوو خبرة، أثبتوا كفاءاتهم في معارك حرب العصابات، وهي بمثابة وحدة خاصة.. مرتبطة مباشرة مع قائد مقر الولاية، هذه الوحدة غير مرتبطة بمنطقة معينة، تتحرك حسب أوامر قيادة الولاية، في حالات المساندة والدعم إلى المنطقة التي بحاجة إلى قوة.. لتنفيذ عمليات خاصة وكبيرة أو غيرها.

القمة «نقطة كَزنكَى»، كانت قد اتخذت كنقطة ارتكاز، ومقر إدارة وتوجيه القوات، وتكون سرية (كَرزان) متواجدة في تلك المرتفعات كسرية راصدة وحماية عامة، باعتبار أن عناصرها ليسوا على علم جيد بتضاريس جغرافية الجبل.

الرفيق فرهاد الذي أصبح مكانه في التوزيع كقائد جناح المنافذ الصاعدة من الجهة الغربية، والتي تعرف باسم نقطة الشهيد «ممو» أمام أجنحة الجنود الذين سيتقدمون من ثكنة خرخور سأل:

- إذا حدث اشتباك في جبهتنا، فإلى أي نقطة سيكون الانسحاب بعد الاشتباك مناسباً؟

أجاب قائد المنطقة بهدوئه المعهود:

- الخطة باختصار، في أي كمينٍ كان، وعندما تصل مقدمة أرتال الجنود، يجب أن نتقيد ببعض القواعد، أهمها: عدم فتح النيران إلا أثناء وصول مقدمة أي رتل للجنود إلى أقرب نقطة، كلما كان فتح النيران من نقطة أقرب، كلما كانت النتيجة أفضل، أولاً: من جهة سيدخل الرعب والهلع إلى قلوبهم، ويفقدهم السيطرة على النفس، وبدوره سيفقدهم القابلية القتالية، ومن جهة أخرى، عتاد القتلى سيكون في متناول أيدينا، وسيكون هناك فترة زمنية مناسبة لعملية الانسحاب من مكان الكمين.

بالنسبة للنقطة الثانية: مهما كانت الظروف، يجب ألا نطيل الاشتباك، لأن الاشتباكات الطويلة في النهار ليست من مزايانا التكتيكية، وهي ليست لصالح الكَريلا.. بل تخدم جيش العدو.. لعدم وجود مشكلة

لديهم في تأمين الذخيرة والعتاد، فالگريلا مثل الذئب يعرف كيف يختار نقاط الضعف لدى الخصم، وضربته كضربة الصقر، يختار الزمن والمدة بدقة مدهشة، وفور تحقيق الهدف المطلوب، ينطلق منسحباً بالسرعة التي ضرب فيها ضربته، الانسحاب سيكون إلى الأماكن الوعرة الآمنة.. خطوة.. خطوة.

نحن نعيش حياة الجبل.. يجب أن نتعلم من حياة حيواناتها وكائناتها.. كيف نحمي أنفسنا.

كان الوقت عصراً عندما أعطى الرفيق تيماف تعليمات إلى كافة المقاتلين والمقاتلات ليقوموا بتنظيف أسلحتهم، والتأكد من جاهزيتها.. رغم جاهزيتها الدائمة.

تمت عملية الفرز، وعرف كل مقاتل أين يتخذ مكانه وتحت إمرة مَنْ، في مواجهات الغد.

- 24 -

اتكأ بمرفقه على المنضدة، ثم دس صدغيه وعارضه في باطن كفه، يرفع قدميه بين الحين والآخر ليضعهما على المنضدة، عندها وبعد التفكير أجاب المستأذن:

– تعال يا عباس.. جيد.. قف عندك.

عباس الذي هرب من صفوف الگريلا، أثناء عملية «شوذ»، يسير كالأبله، كأنه كيسٌ محشو بالقش دون روح، الفارق أنه هنا يتحرك منتصب القامة، أمام الضابط آروول.. داخل غرفة قيادة الثكنة كان ما يزال تحت الرقابة المشددة، وقد مُنِعَ من التحدث إلى أحد، كذلك التحدث معه ممنوع، إلا لمن كلف بالتحدث معه، ما إن انتصب، حتى تحجر في مكانه، فسأله آروول:

– ما هي الأماكن التي تعتقد أنهم يعسكرون فيها الآن؟

أجاب وهو يتذلل، ويحاول بشتى الوسائل أن يقنع آروول بصدقه:

– سيدي، حسب مراقبتنا السرية يوم البارحة، من مرصد على القمة المقابلة لمرتفعات كَزنكَى، شاهدنا بعض تحركاتهم، كذلك يقولون كانت مجموعة منهم، قد جاءت إلى قرية قوطنيس لإخراج التموين، وهذا يعني

أنهم الآن وحسب معرفتي، في «باني هرجا»، وتلك الأطراف.

قاطعه آroول وبنظرة ماكرة وحادة، مركزاً نظره نحوه، وكأنه يريد أن يدخل عُمق تفكيره ليعرف ما في داخله.. فحول عباس نظره إلى الأرض، كي يتفادى تلك النظرات الثاقبة، فبادره آroول قائلاً:

- هل تعرف قواعدهم؟ نقاط تعسكرهم؟ أي شيء يمكن أن يفيدنا في العثور عليهم؟ أنت تعرف أنهم كالجن، ولا يمكن العثور عليهم بسهولة.

- سيدي أنا أعرف المنطقة صخرةً بصخرة.

و هو ينظر هذه المرة نظرة خبث ودهاء.

كان آroول قد اكتسب خبرة من خلال سنوات خدمته في هكاري، بأن الگريلا بارعون إلى حدٍ كبير في إخفاء آثار تحركاتهم، حتى على الأعين الخبيرة لمتابعي الأثر.. استطرد بمزاجه الحاد وطبعه السيئ، قائلاً:

- إذا أخذتنا في طريق خاطئ، وحدث مكروه ما.. ولو لجندي واحد سأقضي عليك.. هل تفهم هذا؟

- أنا.. أنا.. أنا سيدي.. إني أقول الصدق.

بعد أن كان قد أمسك آroول برقبته وهدده، دفعه بعيداً عنه، قائلاً:

- هيا اغرب عن وجهي الآن، ولتكن مستعداً، سنتحرك بعد منتصف الليل، وستكون قريباً مني في الجناح الذي تحت إمرتي.

التفت إلى الجنود الذين أتوا به ليأخذوه ثانية، خرجوا آخذين الخائن معهم تاركين الباب نصف مفتوح، بينما ارتمى آroول ثانيةً على كرسيه، والأفكار تتخبط في رأسه، وجالت نظراته في الفجوة الواقعة ما بين قدميه،

وقد ثبّت إبهامه على صدغه، وضغط عليه قليلاً، بسبب ألم ودوار اجتاحه من شدة التفكير بما سيحدث وكيف سيتصرف، مرّر خنصره وبنصره على جبينه ملاعباً خصلات شعره، في حين دخان لفافته يتصاعد هو الآخر من بين أصابعه، وقد أحس بالحاجة إلى التقيؤ، خاصة عندما تذكر وقفة عباس الذليلة، وتساءل في نفسه: كيف يمكن أن يصبح الإنسان بهذه الصورة؟

أسند رأسه إلى راحة يده بعد أن رمى عقب لفافته، الساعة لم تعد ساعةً.. كل الليالي كانت تمر أسرع، لكنه لا يعرف كيف ستمضي هذه الليلة، وقد بدت له رتيبة وبطيئة، غداً أو في منتصف الليل سيكون هذا الفصيل هناك في مهمته، فماذا سيسجل القدر في صفحته البائسة؟ إنه يومه المنتظر.

أراد التخلص من هذه الأفكار والتخيلات المرعبة، حاول أن يبتعد عن هذه الدوامة ولو قليلاً، فقال في نفسه: دع ما في الغد للغد، الآن عليه أن يستريح، توجه إلى سريره العسكري القابع في زاوية مكتبه، وقبل أن يصل إليه أحس بحاجة لأن يتمشى في أرض الغرفة، فالأفكار تدور وتجول في رأسه كأن ثعباناً موجوداً في سريره، فهو لا يستطيع النوم ولا السكون.

أصبح جبل هركَول كطوق عزرائيل في عنقه عندما يفكر به، طوق قيود بوليسية تحيط برقبته، كلما حاول العبث بها ضاقت عليه أكثر، مسنناً تلو الآخر.

هركَول (طوق عزرائيل)، كلما حاولنا التخلص منه، ضاق علينا الخناق.

شعر أنه يكاد يختنق من شدة التفكير، بدأ يتمشى في أرض الغرفة، الأفكار تجول في دماغه، كأن في داخله خلية نحل، كيف ستكون مواجهتهم؟ خلف أي صخرة؟ خلف أي شجرة يتربصون؟ المكوث في الثكنة أمر آمن نوعاً ما، أما الخروج، فهو بمثابة خروج الأفعى من جحرها، من منا سيكون الفريسة ومن الصياد؟

بدا آروول كالحارس الذي يحرق الزمن.. الأصح أنه يحرق أعصابه، تداعى فوق كرسيه ثانية، وأنشب حنكه في ظاهر صدره، ركز نظره ثانية في الفجوة التي ما بين قدميه، مثبتاً إبهامه على صدغه، يمرر ثانية خنصر يده الأخرى وبنصرها على جبينه، ودخان سيجارته يتصاعد مع أفكاره من بين أصابعه نحو سقف الغرفة، ودون أن يشعر، نهض وفتح الشباك، ثم أخذ نفسا آخر من سيجارته ورمى بالعقب إلى الخارج، وعاد إلى كرسيه، وهو يقول في نفسه: أتحول عشرات المرات يومياً إلى رماد، مثل هذه السجائر، مدّ يده إلى جريدة وسط كومة من الجرائد، كانت مكومة فوق الطاولة ليشغل نفسه بها، لعله ينسى ما هو فيه.

أخذ ينظر ويتمعن في الصور، فلا رغبة له بالقراءة، عناوين بأحرف ذات ألوان فاقعة، صور نسائية نصف خلاعية، جرائم سرقات وسطو، صور حوادث سير مفجعة، مغنيات ونواد ليلية.. ودون أن يدري لماذا؟ استقرت نظراته على صورة ملونة، في الصفحة الأولى من جريدة (ملليبت)، موجودة في زاوية منها، دون أن يكون الموضوع الرئيسي، عنوان بارز: «بعد سبع سنين، يعود إلى أحضان والديه»، أخذ يتلو

الأسطر التي كانت تروي قصة شاب ضاع، عندما كان طفلاً صغيراً، واستطاع الالتقاء بوالديه، والتعرف عليهم بعد مرور كل هذه السنوات، أنهى قراءة الموضوع كله بصورة لا شعورية، يشعر بوخزٍ في صدره كوخز الإبر الحادة عند منطقة القلب.. جفّ حلقه كنبعٍ جف ماؤه، فالموضوع أدمى جرحه وأيقظه بعد أن كان نائماً، ترك الجريدة على الفور ونهض يسيطر عليه إحساس بأنه يمكث في جسد ليس بجسده، وإنما جسد الشخص الذي يعرفه ما يزال على المقعد حيث كان جالساً، اضطر للقيام بجهدٍ شاق كي لا يفقد توازنه، فور تذكره والديه وتربيتهما له، العادات التي اكتسبها وسط صفوف الجيش، أين هي طفولته وشبابه؟ من يدري؟ هل سيكون قدره أن يعود غداً سالماً.. ليتمكن يوماً ما من العودة إلى والديه كهذا الشاب؟ للمرة الأولى يتألم، لأنه ليس بجوار أبيه وأمه في عزلته هذه.

لم يتمالك نفسه، فعاد إلى كرسيه مرة أخرى، العنوان البارز للجريدة (إرهابيو PKK نسوا تجربة أجدادهم).. وصورتان واحدة لـ«عبد الله أوجلان»، والأخرى بجانبها لـ«سيد رضا»(1)، أخذ يقرأ بعض الفقرات المتقطعة، حيث شعر خلالها بكابوس مرعبٍ قاتل يقيم في غرفته، وراح يمتص رغباته قطرة قطرة، أوشك قلبه أن يقفز من بين أضلاعه وتحول صوت دقاته إلى صافرات إنذار.

---

(1) سيد رضا: وهو شيخ من شيوخ الطريقة النقشبندية، كان أبرز القادة الروحيين لثورة ديرسم شمال كردستان - تركيا بين عامي 1937 - 1939.

كان ذائباً فوق الكرسي، وجسده خائر متكسر، غارزاً مرفقيه في ركبتيه، ورأسه متثاقل لدرجة تكاد رقبته تنوء عن حمله، وهو يتدلى من بين قصبات أصابعه الطويلة المعقوفة.

رن جرس الهاتف، فانتشله وهو تحت تأثير ثقل الكابوس، أعاد السماعة ثانية دون جواب، أشعل سيجارة أخرى بعقب السيجارة السابقة، وأخذ منها نفسين عميقين ثم نهض مندفعاً من مكانه:

لماذا كل هذه الكوابيس؟ لم تعد هذه الأمور جديدة علي، قرأت الكثير عنهم، وما زلت أسمع ما هو أوسع، وأعايش ما هو أفظع، لم أكن أعرف لماذا كانت تراودني تلك الأفكار، ولو كانت بحجم بذرة، لم أسمح لها بالنمو ولم أنبذها، بل كنت أبقيها، خاصة عندما كنت أواجه الفظائع التي كانت ترتكب أمامي، أو حتى التي كنت أقوم بها أنا.

هنا توقف آروول، يصعب عليه التخلص مما كان يدور، ويعود تكراره في مخيلته، ما ارتكب أمامه من وحشية، فكان يشعر بنوع من التأنيب أو عذاب الضمير، كسائر الضباط الذين يتم ترفيعهم رتباً عالية، ويرتقون إلى عهدهم الجديد، ولكن مع مرور الزمن يصبح ما يقومون به أمراً روتينياً، ويتخلصون من عذاب الضمير هذا، أما أنا.. ها قد مرت سنوات وسنوات.. لكن تلك البذرة لم تمت، ورغم محاولتي التظاهر بأن هذه الأمور أصبحت روتينية لدي أيضاً.

أدخلته الحقائق والوقائع، ربما هيبة هركَول الغد، في حوار ما بين العقل الواقعي الروتيني والعقل الباطن، الحقائق من نظرة واقعية وخداع

للذات، كيف كانت تجبره الوقائع على الاستسلام لسحر وشعوذة اللامبالاة، وبرودة الأعصاب لدى الضباط من أمثاله، ولم يتأخر كثيراً في وضع تبريرات بسيطة لزلاته، وأحياناً أخرى أخذته الوقائع، التي أجبرته على تثبيت منهجه المعتمد على العاطفة، أكثر من اعتماده على الفكر.

قرأ فقرة أخرى: هذه الانتفاضة هي التاسعة والعشرون لشعب الجبال، وستكون نظيرة لسابقاتها، عاد إلى ذاكرته، وكيف كان يقرأ مثل هذه الأمور من قبل، بدأ يقول في نفسه: كردستان الخيالية دفنّاها في «أكَري»، مَنْ كانوا في الخيال، ها هم الآن حولوا كل جبل إلى «أكَري»، ألسنا ندّعي ونقول مع بداية كل عام، إنه عام نهايتهم؟

أوقف سلسلة أفكاره كمن يوقف شريط آلة التسجيل التي أدخلته في تفكير خطير، كيف يفكر ضابط تركي بهذه الصورة، وهو يعرف جيداً أن عقوبة ما يذهب إليه تفكيره، ليست إلا الإعدام.

أوقف محرك آلة دماغه تماماً، وهو محشور في كرسيه، توقف عن مراقبة عقارب الساعة بين اللحظة والأخرى، غفا قليلاً.

استيقظ على نباح الكلب المربوط أمام باب مكتبه.. مرتعداً، مصدراً حشرجة وحشية، لحظات وللحظات التفت يميناً ويساراً مثل المصلي الخاشع، وهو يؤدي التحية على الملائكة الجاثمة على كتفيه، ولكن يداه لم تكن مثله، كان يضعهما حول عنقه، كمن يحمي نفسه من شيء غير مرئي، لحظات وعاد إلى وعيه، مد يده إلى علبة السجائر وأشعل واحدة.. اثنتين.. ثلاثًا.. بينما علامات الرعب لا تزال طاغية على ملامحه، ويعيد

شريط الحلم ثانية.

لقد حلم بأنه وسط الظلمة، وهوجم من قبل مخلوق لا يعرف إن كان إنساناً أم وحشاً، غرز مخالبه في عنقه.. يريد أن يفصل رأسه عن جسده، بخنجرٍ يحمله في اليد الأخرى، ومن ثم بدأ يلتهمه.

لماذا حلمت هكذا؟ كيف غفوت؟ يجب ألا أنام.. فها هي الساعة تجاوزت منتصف الليل، ماذا أفعل؟ لم تعد الفكرة التي تراودني تنفع الآن.. حانت ساعة الخروج إليهم، كنت أستطيع أن أرسل الخبر لهم، لكي يحتاطوا فلا تحصل بيننا مواجهة، لولا إعدام صديقي الضابط «أتيلا» في هكاري، أيامها كنت سأفعل مثله، ماذا كان ذنبه؟ كل ما هنالك أنه كان قد اتفق معهم، فلا هم يهاجمونه ولا هو يقوم بأعمال تلحق الضرر بهم، وما يلزمهم من التموين والمستلزمات، كان يتغاضى عن إرسالها من قبل القرويين لهم، مقابل ذلك كانوا يتقيدون بشروطهم تلك، كما لو كان بينهم اتفاق ضمني، ولكن حماة القرى أصبحوا بلاء رأسه، هم الذين وشوا بذلك الاتفاق للجنرالات، وأنا أيضاً كنت سأثق بهؤلاء الحماة.. من يدري؟ لو كنت فعلت ذلك، فربما كان مصيري الآن كمصير أتيلا، طبعاً حسب قوانين الجيش يعتبر خائناً، ولكن أين الخيانة إذا حافظت على أرواح الجنود وروحي من الموت؟

كل شيء غامض وكل ما في هذا المستقبل من سحرٍ، إنما يقوم على فتنة المجد وخطر الموت.. فتراه يرى نفسه وهو يقتل جموعاً من الجبليين، أو يخضعهم بشجاعة خارقة وقوة مذهلة، وتارة بوتر التعاطف.

عاد إلى وعيه: من أين لي مثل هذه الأفكار بين الحين والآخر؟ وبالأخص في العامين الأخيرين.

دفن وجهه في باطن يديه، وغطى عينيه حتى أصبحت كالمصباح الذي يجف زيته، تنهد في نفسه قائلاً: ما ذنبهم.. لتجبرهم الحياة على ولادة أنفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة؟

وتعود إلى ذاكرته الصور المريرة من ماضيه كسحابة سوداء قذرة.

- 25 -

- حمو.. حمو.

التم شمل العائلة، عاد البيت ببساطة نظيفاً مرتباً، وأضحت أرض الدار حديقة صغيرة يانعة مشرقة بالزهور والرياحين، كانت بهار تقف في أرض الدار، وهي منتصبة بقامتها الهيفاء، تحتضن يوسف الصغير، بجانبها كَرناس فَرِحٌ وبيده زوج من الحمام الناصع البياض، «كَلى» تتمسك بثوب أمها المورّد، كأنها تمسك بباقة من الورود، وتلوح بيدها الأخرى لوالدها، ابتسامة مشرقة على وجوههم، نظرات بهار تبدو عليها علامات الذعر، يوسف الصغير في حضنها لا يزال يناغي، كما كان يناغي في المهد، عندما انحنى لتقبيله، حاول تقليد «كَلى» بتلويح يده، ويعلن عن تحقيق ما كان يعاتب والده عليه، وها هو يستدفئ في حضن أمه.

فتح حمو عينيه، كان الشاويش يلكزه للاستيقاظ، ساعة التحرك كانت قد حانت، بدأ يجيل نظره في أركان المهجع الذي يعج بالجنود والحماة، كل الأشياء كما كان في مكانه، حتى صورة أتاتورك الضخمة المعلقة على الحائط، أحس في نفسه بذلك الإحساس غير المريح الذي يتملك الإنسان عند الحمى، بدأ يتذكر ويعيد اللقطات الباقية في ذهنه عن كل ما حلم به،

كان الحلم قد مُثِّل في خياله على نحو مرهق، لم يكن حقيقة يا.. لا أحد يا حمو.. لا بهار ولا من يحزنون.

بدأ ينظر حوله متأملاً الذين استيقظوا مثله، لا تزال الكثير من الجماجم التعبة تتمايل، وأجفان كثيرة قد أطبقت ثانية، تصب ماءً بارداً، في حين شعر بأن الجدران كانت تحدق فيه، وهو يحلم بنظراتٍ متوجسة.

استيقظ واقفاً، كما يستيقظ المحكوم بالإعدام صباح يوم تنفيذ الحكم، أخذ الرخام يتراقص على أرضية الغرفة أمام عينيه، رغم ذلك خرج مجبراً كالآخرين، فكانت الظلمة لا تزال تنشب في تلك الأرجاء، ها هي أرتال الجنود والحماة انتظمت متحولين إلى وقود للحرب، في كل الأرجاء تعلو قرقعة الأسلحة، وهي تصطدم بالأرض.. ببعضها.. الأحذية الثقيلة تصدر أصواتاً، كأنها دقات الطبول لإحدى قبائل الهنود الحمر عند الاستعداد للصيد.

أطفئت أنوار الثكنة كاملة، لتتأقلم أعينهم وتعتاد على الظلمة قبل التحرك، وكتدبير أمني إذا كانت الثكنة مراقبة، كي لا يرى أحد كل تلك الكتل البشرية في تلك البقعة الصغيرة، أصواتهم تشير إلى الرعب والهلع، كما كانت حدقات أعينهم، قبل أن تطفأ الأنوار، تلمع وكأنها تخون كلماتهم.

حسب الفرز الذي تم.. بدأت الأرتال تشق الظلمة، كل كتيبة من الجنود يتقدمها فصيل من حماة القرى، ويتقدم الجميع مجموعات الكلاب المدربة.

كان نور القمر لا يزال منبسطاً على سطوح البيوت وجدرانها، السحب تبدو كأنها تتمشى في السماء، كان كل شيء هادئاً، بدأت أقدام المشاة تلقي بثقلها على الأرض، فيما وراء البيوت ترتفع نحو السماء قمم وعرة من الجبال، عليها طريق يشبه حدوة الفرس، بدأوا يتسلقون الجرف الجبلي، كأنهم صفٌ من قطيع الماشية، يوم صعود الكوجر إلى الزوزان، وتلاحقهم بغالٌ محملة بأحمال ثقيلة، ثم بدأ الرتل يختفي شيئاً فشيئاً وسط غابة كثيفة من الأشجار المتشابكة، شهقات هائجة، خفقان القلوب يزداد، الضيق في الصدور لا يطاق، بينما الصمت يخيّم على الكلاب المدربة، لا تنبح كما تم تدريبها، إلا من المخاطر الموجودة وسط ساحة الحرب.. تشق طريقها.

راح حمو يشق أيضاً هذه الغابة حذراً متمهلاً ومرغماً، وهو يتقدم مجموعته من الحماة، كان الخائن عباس يتخذ مكانه وسط مجموعة الكلاب مباشرة، ساقاه الواهنتان كانتا تزحفان ببطء واسترخاء على الأرض، بينما آroول كان يسير ضمن وحدة خاصة خلف مجموعة الحماة، يجر قدميه جراً، يتبعهم مثل شبح ثقيل، وأصبح يسرع خطاه في محاولة للحاق بهم، حنجرته كانت تضيق من شدة اللهاث، وجف الريق في حَلْقه، ثمة رعب سيطر عليه كلياً، فالشك والتردد ينهشان جمجمته، رعب ذو لونٍ أسود قاتم كان يترصده رغم هذا العدد الهائل من الجنود والحماة من حوله، كان يشعر بأن الوحدة كابوس يضيّق الخناق عليه، وهو فوق ذلك يخاف من الظلمة خوفاً شديداً، ومن الظهور الفجائي للكريلا.

عاد يسير في المقدمة وبالقرب منه الخائن عباس مع مرافقة مشددة كما

طلب، الأرض مليئة بالسيول وأعشاب ونباتات جبلية متنوعة، أصوات الضفادع كان صداها على صفحة الجبل العاري خفيفاً واهياً، وإذ بقرقعة تتبعها بقبقة في الماء المتدفق من النبع بجانب الطريق الجبلي الضيق، فيرتعد يجهّز بندقيته، وإذ به يبصر تحت ضوء القمر خنزيراً برياً، يبدو بارزاً أمام صفحة الماء المتلألئة، لقد ظهر الخنزير على حافة الطريق وغار بين أعواد القصب زافراً محمحماً، وهذه بومة تطير خافقة جناحيها خفقاناً موزوناً، ثم حطت على شجرة مسنة من أشجار البلوط.

ليس هناك مكانٌ محدد نستطيع أن نسميه منطقة الخطر بالنسبة لتواجد الگريلا.. آروول ومنذ تحرك الرتل، يشعر بأنهم بدأوا دخول جغرافية الخطر، بعد أن تجاوزا دائرة جغرافية الثكنة، وذلك الانحدار.

عند الوصول إلى المرتفعات تشعر بتغير كبير، كان الليل هادئاً رطباً، وكانت النجوم تتلألأ في جهة من السماء، أما الجهة الأخرى فقد اجتاحتها الغيوم التي كانت تختلط بكتلة الجبال القاتمة وتتقدم ببطءٍ، البدر مكتمل الضياء الضارب إلى الحمرة، يصبغ الصخور بلون الذهب، الهواء باردٌ، خفيفة نسماته، اتصل آروول لاسلكياً بقادة سراياه، ومجموعات الدليل وأمر:

– ليقف الرتل الأمامي من الجنود حتى يلحق بهم الجنود المتأخرون.

مع أن الأجهزة اللاسلكية يمنع استخدامها، إلا بعد أن تتخذ كافة المحاور، على الأقل النقطة الأولى من التمشيط، والتي يعتبرونها نقطة التماس مع جغرافية العدو.

الجنود رغم أنهم يعرفون بـ«كوماندو الجبال»، إلا أن بعضهم بدأ يتقيأ والبعض أصبحت أقدامهم شبه مشلولة، وهم تحت ثقل أحمالهم، كأنهم صفٌ من السلاحف الهرمة، تزحف زحفاً، الحقائب المحشوة على الظهور وفوهات الأسلحة المتدلية على الأكتاف بين الحين والآخر تصطدم بالصخور، أثناء التسلل خلال الشقوق الانهدامية.

الساعة تجاوزت الثالثة فجراً، وبدأ العرق يجف على الوجوه بسرعة، البعض نام من شدة التعب وهو جالس القرفصاء مثل فراخ الحجل.. ملتصقين ببعضهم بعضاً على جوانب الصخور، سُمح لهم بالتدخين، ولكن التعليمات كانت أن يتم الأمر خلسة، كما يدخن رجال الگريلا في الليل، مغطين جمرة السيجارة بكف اليد.

ولدت في السماء علامات الفجر المقترب، أخرج آروول مطرة الماء المطاطية، التي يملك كل جندي واحدة منها معلقة على طرف من حقيبته، بلل ريقه، بينما الاتصالات اللاسلكية لا تهدأ، نبرات صوتية مختلفة، تبدأ بالصعود والانخفاض، نبرات خشنة وغليظة.. ناعمة.. قوية ورنانة.. نزقة، واضح أن أعصاب المتحدثين متوترة ويكمن التوتر في نبرات بعضهم، وبعضهم الآخر يتظاهر بالشجاعة كالقروي الذي يقطع الدروب ليلاً بمفرده، يغني ليتخلص من خوفه، ويبدد وحشة الليل، أو يخدع نفسه كعادة الإنسان كما يفعل هؤلاء القادة، يريدون أن يظهروا الشجاعة أمام جنودهم.

ذو الخبرة في حياة الحرب، يستطيع من خلال الاستماع إلى مكالماتهم

اللاسلكية، أن يحدد ويفهم حالتهم النفسية.. مدى إصرارهم.. ثقتهم بأنفسهم.. أين هم.. بعيدون أم قريبون.. داخل الثكنة أم في الطريق أم أنهم دخلوا إلى الجغرافية.. متمركزين أم في حالة حركة.

الرفيق خبات جهازه على الحالة الآلية يبحث عن الترددات الموجودة.. يستمع إلى معظم المكالمات، ويوقف اللاسلكي عند المهمة منها، وبجانبه الرفيق دورم بيده نسخة الشيفرة التي حصلوا عليها بواسطة الحماة، يساعده في قراءة اتصالاتهم المشفرة مباشرة، اتصل على الفور بكافة النقاط التي أصبحت كالألغام، تنتظر لحظة الانفجار، إنهم مثل أشجار البلوط وصخور هركَول التي تقف بإباء وصمود، متحدين هول العواصف والثلوج.

« 43..76 » « 27..11 ».

فور سماع آروول ترديد تلك الأرقام، أعطى على الفور أوامره بالتحرك، بعد برهة من توقف الأجهزة كافة، كما طلب التوقف عن كافة المكالمات، عندما قيل إن «4..4» سيتحدث، صمتت كافة الأجهزة، وها هي التعليمات بأن كافة الأجنحة أخذت أماكنها في النقطة الأولى، الساعة الرابعة كانت ساعة البدء بالتحرك نحو النقطة الثانية، وأن يكون تواجد واتخاذ المواقع عند النقطة الثانية مع شروق الشمس تماماً.

مجموعة الدليل ومجموعة الكلاب نزعوا حمالات الأكتاف لبنادقهم، لف حمو حمالة بندقيته بعد أن نزعها وحشرها في الجيب الخلفي، على الظهر تماماً من صدرية الجعب، لتكون أسلحتهم دائماً في اليد ومستعدة..

غير معلقة على الأكتاف، الطلقة جاهزة في حجرة النار، ومفتاح الأمان في وضع الإطلاق، بين لحظة وأخرى يقفون.. عينٌ نحو الأمام والأطراف، والعين الأخرى على الكلاب، والآذان صاغية بشدة، ما إن يشاهدوا أو يشعروا بأن حركة الكلاب ووضعيتهم قد تغيرت وأصبحت غير طبيعية، حتى على الفور يتمركزون وبخفة خلف أقرب صخرة منهم، أو الاحتماء خلف جذع شجرة، أو ينبطحون أرضاً إن لم يجدوا شيئاً يحتمون به إلى أن يتأكدوا، ها هو يرى أرنباً لا شيء آخر، بعد مئات الأمتار تتكرر العملية.. يرتعد خنزيرٌ أو قطيعٌ منها، وما إن يظهر لهم أن ذلك لم يكن سوى أرنبٍ.. خنزيرٍ.. ثعلب..أو خشخشة من بين الأحراش على أثر حيوانات كالسلاحف وغيرها، حتى يلعنوا ذلك الحيوان لما أدخله من رعب في قلوبهم، يأخذون نفساً عميقاً للتخلص من الشهقات التي نتجت عن ذلك الخوف، وإعادتها لحالتها الطبيعية.

في كل مرة يسأل آroول مرتعداً:

- ماذا هناك؟

جبال عالية، وديان تغوص نحو الأعماق، سيول وأخطار رهيبة.. وكأنه هو في مقدمة الجميع، قدماه واهنتان ورغم ذلك يتظاهر بالشجاعة، عندما يتكلم تبدو نبرات صوته غير طبيعية، في كل مرة يطلب الخائن عباس ليستفسر، كمن أصبح بحاجة إلى من يستمد منه الشجاعة:

- عباس.. تعال.. أين يتمركزون؟ هل تعتقد أنهم نصبوا كمائن في هذه الجهة؟ أين تعتقد أن ينصبوا الكمائن؟

وعباس كأنه أصبح القائد الفعلي بعد أن حلوا وثاقه، وأعطوه بندقية ومن ثم أرسلوه ثانية إلى المقدمة.. مقدمة مجموعة الكلاب، وكأن عدد الكلاب الفردية الثلاث لم تعجبه، فأرسل عباس إليهم ليصبح العدد زوجياً.. ثلاثة منهم بفائدة، أما هو لا فائدة مرجوة منه، فقط هو يتحدث بلغة البشر.

في عمق الغابة.. التلال المكتظة بالصخور، المغطاة بالأحراش، لا تزال غارقة في الظلمة، بينما تقدم جناحه كغيره من الأجنحة على أطراف هركَول، مستمر في محاولة الصعود والتعمق.. أين يضعون أقدامهم؟! كلما اقتربوا من منفذ يضاعفون حذرهم، ما إن يصلوه بأمان حتى يشعروا بأنهم قطعوا شوطاً كاملاً، كأن مهمتهم انتهت بسلام، لكن ذلك الشعور لا يدوم، فعلى الفور يدركون أن التحرك مستمر، وأن المهمة لم تنته بعد، يصابون بحالة ندم على ترك هذا المكان، والتوجه نحو منفذ آخر في نقطة جديدة.

وسط تلال «باني حرجى – Banê Hirçê» كانت مقدمة الرتل تتسلل من وسط الأحراش والصخور المترامية، تفاجأوا بفوهات البنادق مصوبة نحوهم، تحولت الصخور إلى تنانين تقذف ناراً.. أحسوا فجأةً بأن لهيباً من نار حامية قد داهمهم، أرادوا أن يلتفتوا، صدرت عنهم أصواتٌ كالخوار، أخذ الرتل يتراجع متكسراً محاولاً الانسحاب من ميدان المعركة، وهو يجر أذيال الخيبة والخسارة، شعروا وكأن الأشجار والأحجار في ذلك السفح تُطبِقُ عليهم باللهب، وصارت رشقات الأسلحة تشق الظلام على شكل

شهبٍ.

صيحات الجنود أعادت آروول إلى وعيه.. عندما نظر إلى أطرافه، أرخى الزمام لتلافيف مخه، كان يستعيد بعضاً من قواه وهو يعصر دماغه، فكر ملياً، كي يعثر على منفذ للخلاص: فأي شيطان سيخلصنا من هذا الجحيم؟!

مختبئ في شقٍ صخري، صارت الوحدات كسرب من فراخ الطيور عندما يضربها الصقر بضربته الصاعقة، انزلق بغلٌ هائج مع حمله يجر معه مجموعة البغال إلى الوادي، تناثرت قطع الأسلحة الثقيلة المحملة في المنحدرات.

بدأت الأجهزة اللاسلكية دوامتها الببغاوية، والجميع ينادي آروول، ليستفسروا عن الوضع، حقيقة هذه الاستفسارات، ومن يستفسر عنه كمن يبكي على ميت، ولكن البكاء هنا ليس على الميت، بل البكاء على الذات التي ترى موتها في موته، يرى الجميع أنفسهم في حالة آروول وجناحه، صدرت تعليمات أخرى بعد أن خرست الأجهزة لحظات، وتوقفت كافة الأجنحة عن الزحف دون حراك، كانت تلك الأوامر وعلى وجه السرعة، اتخاذ الاحتياطات والتدابير اللازمة.

رائحة البارود المحترق تعبق في الجو والأرجاء، وتتخلل أغصان الأشجار وثنايا الصخور، فرّت الطيور مذعورة، ثم أخذت تسمع بين حين وآخر أصوات كالقرقعة، الوقت هو وقت انبلاج أول خيوط ضياء الفجر، أصوات تبادل الإطلاق تملأ الأجواء وتنتشر في كل جهة، بدأت

المحاور القريبة باستخدام مدافع الهاون، بقصف مرتفعات تمركز كمين الگريلا، وسط دوي الانفجارات التي كانت تهز أركان الصخور وتنثر أوراق الأشجار.

سأل الرفيق تيماف:

- أين الرفيق شيار؟

أجاب الرفيق سربست:

- الرفيق شيار أصيب.

- أين هو.. وما مدى إصابته؟

- أُصيب في رأسه..

- ولكن كيف؟

دون أن ينتظر الجواب عادا معاً إلى مكان وقوع شيار، وكانت الرفيقة روناهي تحاول مساعدته من خلف الصخرة وسط تلك الأحراش.

الاشتباك مستمر، ودوي الانفجارات يهز الأرض، وتغطيها برائحة الدخان والبارود، بدأ الرفيق خبات بالتدخل للانسحاب الفوري لتلك المجموعة.. كما هو متفق عليه نحو مرتفعات «كَازنكَي - Gezinge»، ولكن إصابة شيار غير المتوقعة، بدأت تلهيهم وتثقل من حركتهم، عاد الجنود والحماة في مؤخرة الجناح بعض الشيء إلى رشدهم، واستعادوا نوعاً من التركيز، خاصة من جهة التحديد والتسديد وإصابة الهدف، بدأوا بالمساندة وإمطار المكان بمختلف أنواع الأسلحة الرشاشة، بما فيها المدافع وقاذفات الصواريخ.

شيئاً فشيئاً بدأت السماء الزرقاء تسفر عن وجهها، وهو ما لا يخدم مجموعة الگريلا التي اشتبكت، ولم تنسحب إلى القمم الإستراتيجية بعد، وهو ما يطلبه الجنود والحماة، لقد تم تجاوز الوقت المحدد وتدخل الرفيق تيماف.

انسحبوا خطوة خطوة إلى أن ابتعدوا قليلاً، وخرجوا من دائرة التماس، لفظ شيار أنفاسه الأخيرة وقال آخر كلماته:

«عاش الكرد وكردستان».

سلم روحه ولكي يتم تفادي حدوث خسائر أخرى أمر الرفيق خبات، إذا اقتضى الأمر يمكن التخلي عن بعض الأسلحة والذخيرة التي اغتنموها لإخراج الشهيد من أرض المعركة.

أخبرهم الرفيق سربست باستشهاد الرفيق شيار، قائلاً:

- أثناء الانسحاب والمجموعات تتسلل، صادفت قذيفة صخرة قريبة منهم، فأصابت شظية منها رأس الرفيق شيار.

ما إن بدأ الفجر ينبلج حتى اختفوا، شمس الصباح تخرج باقات الحياة الأولى من تلك الأرض السوداء، كانت محتجبة لا تزال وراء الجبل، ولم تنفذ إلى عمق الوادي بعد.

بدأت حوامتا الأباتشي بالمداخلة، وهدير محركيها يدوي.. تبدوان في السماء من بعيد، على شكل ذبابتين يزداد هديرهما وحجمهما كلما اقتربتا، فور تحليقهما فوق مكان الاشتباك، دارتا على شكل حلقاتٍ دائرية، حسب الإحداثيات التي يعطيها آروول للطيارين، بدأت كل واحدة تلي

سابقتها، وتنفث لهباً نحو جسد هركَول بما تحتويه، كأنهما تنينان.

لم يستطع تيماف الانتظار أكثر، لأن سرايا الجنود والحماة في المؤخرة، والذين كان يراقبهم، بدأت عملية الالتفاف، والرفيق شيار قد استشهد بتلك الصورة غير المتوقعة، استطاعوا إبعاده عن دائرة أرض المعركة، بعد أن أخذوه وأرادوا أن يصلوا به إلى الجغرافية التي تحت سيطرة قوات الگريلا، لكن الوضع بدأ يشتد سوءاً، فتم إخفاؤه في منحدر صخري وسط الأحراش.

بقي حمو في مكانه، والدماء تسيل من قدمه اليسرى، منتظرا دوره لتضميد جرحه، حيث إصابته لم تكن بالغة، كان سلاحه على بعد عدة أمتار مرمياً بجانب جذع شجرة، بعض الذين أصيبوا وقعوا قتلى وآخرون جرحى، والبعض تهشمت أعضاؤه، ها هو أحد الكلاب مع مدربه الذي ما زال الحبل بيده يتخبطان في دمائهما، بينما الكلب الآخر يجرجر قدميه الخلفيتين المهشمتين، ولكنه عاجز عن فك الطوق عن عنقه، أحد الجنود وقع على بطنه وقدماه على صخرة، وأرضية حذائه موجهة نحو السماء، وآخر تمدد تماماً نتيجة إصابته من مكانٍ قريب، وكما هو معروف أنه كلما كانت المسافة قريبة يقع القتيل نحو جهة الهدف، تظهر أمام آروول ثلاث جثث، منها ما تكورت على نفسها بين الصخور، وأخرى وقعت على ظهرها عندما حاول الهرب، لا شيء سوى الصخور التي تم صبغها بالدماء، ورائحة اللحم البشري المحترق تفوح وتندمج مع رائحة البارود، بينما دوي الطلقات والقذائف يغزو كافة الأطراف، تحولت الهمسات

والهمهمات الصادرة من الجرحى إلى أنينٍ متهيج يوقف شعر الرأس، أصبحت الجهات الأربعة بحراً من الظلمات، بدأت نبرات أصحاب تلك الأصوات اللامرئيين من بين الصخور وأحشاء الأحراش بالتجمع قرب بعضهم بعضاً في فسحة مستوية وسط الصخور، أما آروول فيوشك أن يصاب بالمس أو الجنون، وهو يمتص مؤخرة سيجارته، ها هو ذا الذي يحرجه بنظرة كحدّ خنجر، وسط هذه الحشود الهائلة من الجنود والحماة، كان الهواء يتجشأ ألماً هو الآخر، وبدا له أن الجنود يسيرون على رءوسهم.

كان الشاويش كمال بالقرب منه، يساعد أحد الحماة في حمل قورتاي إلى مكان جمع الجرحى، أصبحت الحالة لا تطاق، كم من أفرادهم وقع قتلى، رصفت الجثث على أرض المعركة، لم تهدأ الأوضاع بعد، والحوامات تتبدل في كل مرة بعد أن تفرغ حمولتها من النار والفولاذ والبارود.. تعود إلى مدينتي شرناخ وسيرت.. حاولت الأجنحة الأخرى التمركز في النقطة الثانية، فحدث تماس مع موقع الرفيقة مزكَين، وجغرافية ذلك الجناح لا تساعد الجنود على المقاومة أو الصمود.. ورغم محاولاتهم في التقدم، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فكانت التعليمات «من 4 إلى 4» على الشكل التالي: «على كافة القوات الانسحاب إلى النقطة 1».

هكذا هي حالة الجيوش النظامية في مواجهة قوات الگريلا غير النظامية، أي طارئ أو تغيير يطرأ على الخطة، سرعان ما يختلط الحابل بالنابل، يجب الانتظار إلى حين إعداد خطة أخرى تتوافق والظروف الجديدة التي لم تكن في الحسبان.

حلقت في سماء هركَول حوامة من نوع سيكورسكي، يبدو أنها تستطلع الأوضاع، لا بد أن ذلك القُرّاد الذي يقود العملية برمتها بداخلها، لأن الحوامة كانت تحلق عالياً جداً خوفاً من مضادات الطيران.

لا تزال الطلقات تفتح الجروح في جسد هركَول، وحوامة سيكورسكي إضافية بدأت تحط في مكان الاشتباك الأول، بدأت بنقل القتلى والجرحى إلى مدينة سيرت، ذهبت لأول مرة لتعود ثانية، بينما آроول في أرض المعركة يجوب وسط حشد الجنود والحماة الذين يبحثون مثل أسراب الغراب في الأطراف عن جثة غير مرئية، بعد أن وجدوا آثار الدم في موقع الگريلا، وبعد محاولة تفتيش الأطراف وتأكدهم بأن الگريلا تركوا مواقعهم، بدأ التفتيش في تلك المنطقة، كان كمال يتابع آثار الدماء كأنه كلب بوليسي، يرافقه كَرو ومجموعة من الحماة، إلى أن وصلوا إلى مكان شيار، ونتيجة إجراء عملية الإخفاء في الظلمة، لم يقوموا بتمويه أو وإزالة آثار الدماء جيداً.

- لقد وجدنا أحد الإرهابيين مقتولاً يا سيدي. قال كمال لاسلكياً.

على الفور أجاب آروول:

- أحضروه إلى هنا مباشرة.

لا تزال الحقائب على الظهور، والأسلحة الرشاشة والثقيلة تم نصبها في الأطراف، بدأ الجنود يلتمون حول جسد شيار، ليتعرفوا على هويته، يسألون الحماة إن كان هناك من يعرفه، بينما حمو لا يزال في مكانه، جالساً تحت شجرة البلوط التي تحطم أحد أغصانها وتناثرت أوراقها التي

اسودت نتيجة الانفجار الذي حدث أسفلها، متناثرة في كل مكان، كأنها عاشت خريفها في هذا اليوم، والفارق هو أنها لا تزال تحتفظ بنضارتها، كالذي يموت وهو في ريعان شبابه.

يضع آroول يديه تحت حزامه العسكري، ويراقب الجنود وهم كسرب من الغربان يتحركون على الصخور، يصعدون ويقفزون ويهبطون ليلتموا حول شيار، ليروا شكل هؤلاء الذين يهزون أركان جيشهم ودولتهم، حتى لو كانوا موتى.. أي أشكال يتمتعون بها؟ هل هم بشر مثلهم؟ أي مواصفات يتمتعون بها؟ ألبستهم، بشرتهم، كل شيء، حتى الأحذية التي ينتعلونها.

بدأت زرقة السماء تسفر عن وجهها، وساد بعض من الهدوء، توقفت الأسلحة عن الزعيق، ولم يبقَ في أرض المعركة إلا العدد القليل من القتلى والجرحى، تتطلب حالتهم الإسعاف السريع، تفرقت سرايا الجنود، وحمو ما يزال في مكانه يتألم، كأنه لا يعرف ماذا يجري من حوله، أهو.. في حلمٍ أم واقع؟ ما يزال تحت تأثير الضربة، وصدمة الانفجارات الأولى، كيف صعقت السكون، تذكر أنه لو لم يرتم خلف الصخرة التي كان يستعد لصعودها، لكان الآن في عداد الموتى كالآخرين.

ما فائدة الذي يجري يا حمو؟ ما فائدة ذلك؟، وبدأت حياته تمر أمامه مجدداً، ها هو ذا وحيد تماماً، وفي أي حال؟ كل شيء انتهى يا حمو.. نعم انتهى، يبدو أن دوري قد حان، لقد جئت إلى المذبحة كالخروف بأقدامي، ولكن أن يتم ذلك على أيدي مَنْ؟ على أيديهم؟ لا يا حمو، هذا كافٍ..

يكفي.. ضع حداً لكل شيء.. كل شيء يا حمو.. أتخاف الموت؟ إذا كانت الولادة هي فتح الطريق أمام موت جديد، فلماذا لا يكون الموت هو إفساح المجال أمام ولادة حياةٍ جديدة يا حمو؟ - وهو يراقب من بعيد جسد مقاتل الگريلا الممدد - وإذا لم يكن كذلك، فلماذا يضحي هؤلاء الشباب ويموتون؟ أليس من أجل حياة جديدة؟

مجموعة من الوحدات الخاصة كانت قد تجمعت حول جسد المقاتل، وجه أحدهم فوهة سلاحه إلى ذلك الجسد الساكن بدون حراك، أفرغ مخزن بندقيته الرشاشة فيه، ثم جلبوا الخائن عباس وأوثقوه بجانب صخرة على الجانب الغربي من جسد شيار، واستعد كمال، بينما آروول منتصب فوق صخرة واضعاً يديه على خاصرته وقال:

- الذي لا ينفع قومه لن ينفعني أيضاً.

عندها اندفعت الطلقات، وبدأت تفتح ثقوبا في جسد عباس الذي وقع كالدجاجة بدون روح، تعابير وجه كَرو تشع بالمكر، شرع اثنان من الوحدات الخاصة، بفصل رأس شيار عن جسده، عندما شاهد حمو ذلك لم يعد يشعر بالحماس والرغبة بالحياة ليوم آخر في وطنه المنهار، الشفقة الكاذبة كانت تسبب له في أحشائه حرقة كحرقة لسعة العقرب، أحس أنه بائسٌ وقبيح ووضيع، وأنه ليس جديراً بالحياة فوق هذه الأرض، وهو يقول في نفسه: سأموت كالحيوانات، أنتفخ وأتعفن بين أيديهم، أنتم المجبولون من الكذب ستقضون علينا، أصبح الدهر كابوساً مكبلاً بالقيود، يجثم فوق صدره، وصدرت منه سعلة خفيفة مختنقة وثقيلة، وهو

ينظر إلى ذلك المشهد، وقد أتموا عملية فصل الرأس عن ذاك الجسد، شرع آخرون ينزعون عنه ألبسته، بدأوا بتقطيع الحزام الطويل الملفوف على خاصرته، كما يتم تقطيع حبلٍ ملفوف، ثم جردوه تماماً من الألبسة، حمو يراقب كل التفاصيل، بدأ يغلي كبركانٍ في أغوار هركَول، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ها هم فصلوا الرأس عن الجسد يا حمو.. لِمَ كل هذا؟ أي شريعة تقول هذا؟ أي شريعة تقبل فعل هذا بجثة إنسانٍ ميت؟ عندما كنت تجوب شوارع سيرت وجيوبك محشوة بالراتب، قبل أن تحلف بالطلاق أمامهم، ألم تكن تعد نفسك بأن تلاحقهم، وتفعل ما يفعلونه يا حمو؟ أن تفصل رءوسهم عن أجسادهم، وتبيعها كما تباع رءوس الماشية؟ لا.. لا يا حمو، كنت آنذاك غبياً أحمق.. كنت مصاباً مثلهم بداء الكلب.

يا إلهي، أي مجنون كنت؟! ها هم بدأوا يتبادلون حمل الرأس، ويلتقطون الصور، واضعين إحدى أقدامهم فوق القتيل.. قتيل؟ أي قتيل يا حمو؟ إنه شهيد.. نعم إنه شهيد، ما الفارق إن كان هو..

توقف وراح يتذكر حلمه، كيف أن يوسف الصغير بدأ يقفز وينادي «يوسف، يوسف يا أبي»، نعم، نعم ما الفارق لو كان ابن أخي يوسف مكانه؟ اليوم هذا الشاب شهيد، وغداً سيكون يوسف.. يا إلهي، أي وحشية هذه التي وصلت إليها؟ أين موقعي من كل هذا؟ من أنا؟ بين مَنْ يا حمو؟ أين يجب أن أكون؟ يكفي.. كفى لم أعد أحتمل.

يبدو أن آroول هو الآخر أيضاً لم يعد يستطيع النظر إلى ذاك المشهد القذر أكثر، عندما تذكر كيف كان في الحلم يحاول أحدهم فصل رأسه

عن جسده، مضى إلى الطرف الآخر من الصخرة التي ينتصب عليها، ولم يكن قد ابتعد، بينما كمال وكَرو يضعان كل منهما إحدى قدميه فوق جسد المقاتل، ويحملان الرأس وسطهما وينتظران أن تُلتقط الصورة.

تشكل فراغ أمام نظرات حمو كالذي يصطخب الكون كفقاعة كبيرة فارغة، ثمة برودة أثلجت أصابعه، وانتابه نوع من الفتور، حينئذ فقط أدرك إلى أي حدٍّ كان ضحية أقاويل الحنين الخادعة، أخذ يوجه نظره تدريجياً نحو السماء المضيئة بنور الشمس الأحمر الشفاف، الذي ما زال يشغل نصف السماء، كتل ضخمة من بياض ناصع، تبرز حواشيها المتعرجة الدقيقة في السماء الشفافة، أحس بما فيها من جمالٍ لا نهاية له، ومن حول الصخور المترامية في الأطراف، تشع بنورها الدافئ، كانت عيناه مسمّرتين في تلك النقطة الحمراء تماماً، كما لو أنهما مستعدتان لالتهامها، فمن رآه رأى نسراً جريحاً، وهو ينشج باكياً بحزنٍ صادق، لمعت في ذهنه فجأة تلك الإشراقة.. كان الأمر قد حُسِم على شفتيه بالصمت وحملق بعينيه، وتطلع بمنتهى التركيز محاولاً أن يهدئ من اضطرابه الروحي، والدم الذي يغلي في عروقه وينظف جروحه بنبضاتٍ متوترة، فأنعشته الريح الصباحية الباردة، وزالت من عينيه نظرات اليأس، شعر فجأةً بالقوة تعود إلى جسمه المتخاذل نتيجة إصابته، نظر إلى قمم هركول ودهش لما رآه من جمالها في تلك اللحظة، وفيما هو ينظر إليها انتقلت إليه روح التصميم، وصل لحد لم يعد يتمالك فيه نفسه، زحف إلى بندقيته والتمسها، كز أسنانه، شحب لونه واكفهر وجهه، راح يجول ما حوله

بنظرة حانقة.. فتح نيران الرشاش، على إثرها وقع كمال وكَرو وعدد من الجنود والحماة، صدرت منهم صرخات وحشية، دون أن يبارحوا مكانهم، أما أزيز الطلقات التي أصابت الصخرة بين أقدام آروول، فقد أصدرت دوياً مرعباً وغطته بالغبار.. بينما كان يتلاعب بأنامله، ويمررها على زر سترته الرسمية. كانت لعنة العالم تُصّب عليه.. تجسدت في ملامحه تلقائياً، على شكل نوبات من السعار والجنون، اجتاحته بوحشية، كان جنوناً وسعاراً بالغ الفظاعة لدرجة أنه بدأ يطلق عويلاً وزعيقاً، وكلماتٍ غير مفهومة، سعارٌ أبدي قد ساد وجهه، فوثب شبه خامل، فاقد الرشد محملقاً بعينيه، ويتطلع بمنتهى التركيز، وفوهات البنادق ترسل الطلقات نحو حمو كتساقط الأمطار، حينها لم يكن قد فرغ مخزن سلاح حمو، والذين أمامه يتساقطون كالذباب، في تلك اللحظة أحس بشيء يزلزل ويمزق أحشاءه، دلت حركاته الماهرة وعذوبة عينيه على قوة حضوره.

لم يخف من شيء، لأنه أحس بأن روحاً جديدة انبعثت في أغواره، كافية لجعله قادراً على تحريك العالم بأسره، على أثر تلك الهزة المزلزلة، تصاعدت رعشة مريعة من إبهام يده نحو الأعلى، كان الدم ينزف.. انتفاضة عنيفة، وسقط، فتكور على نفسه، وعقد ذراعيه وكتفيه المتداعيتين اللتين كانتا تنفضان عنهما غبار وأوساخ السنين، بدأت الحياة تنطفئ في عينيه المرهقتين الناضحتين بالألم، لم يبق أمامه شيء، إنها النهاية المرتقبة، منذ زمنٍ طويل اختفت الأحلام الحمقاء، وتبدد عذاب الضمير.. مضى ذلك كله.. تهاوى وقد جلله الغبار والدم والمجد.. شيئاً فشيئاً حتى التصقت

أصابعه المتشنجة بتراب هركول، وامتزج به دمه وانتهى معها نشيج أناته.

رمى آروول بسلاحه وعتاده العسكري حتى أصبح مجرداً، وراح يقفز فوق الصخور كقردٍ، كان ينادي بوحشية كثورٍ هائج جريح.. يطلق نباحاً غريباً ممتلئاً بالعنجهية والأسى: هذه هي عاقبة ما اقترفته يداي فلأذوقنّ مرارتها إذن.. هذه..

كان كل شيء يفوح منه رائحة الحرب.. ينتابه رعشة حادة، يرعد ويستفز جسده، فيُدخله ثانية في صراعٍ مرير، حيث رأى نفسه مهزوماً، يدير وجهه كي لا يراه أحد، ويطلق العنان لبكائه الصامت، ثم يقفز قفزاتٍ جنونية ونوبات السعار والجنون الوحشية، الزعيق والعويل، أصبحت كلماته مفهومة ينادي:

«هكذا لا يجوز.. لا حل بهذه الطريقة.. اسمعوا.. اسمعوا تلك هي الحقيقة..»، وركل بندقيته التي كانت مسندة على نهاية الصخرة، فتدحرجت وسقطت لتختفي وسط الصخور، كأنه شيطانٌ يختبئ في تلك الثنايا، وهو لا يزال يزعق ونوبات السعار والجنون تلك، تجتاحه رعباً من تاريخ هذا الانبعاث.

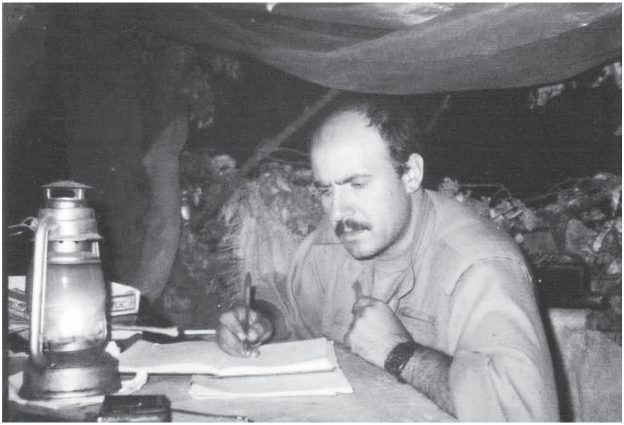

«حين تعيش واقعاً يرسم ملامحك، وتبدأ بتسطير تجاعيده».

أثناء كتابتي لهذه الرواية ١٩٩٩م.